# التيسير في التفسير

الجزء الأول

## الفاتحة - آل عمران

تأليف

العالم الرباني الكبير فقيه القرآن

السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسيني

رضوان الله عليه

تحقيق

عبدالله بن حمود العزي — محمد بدر الدين الحوثي



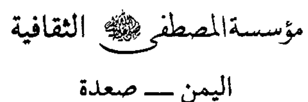
مؤسسة المصطفى صلى الله عليه وآله الثقافية

**التيسير في التفسير**
تأليف العالم الربّاني الكبير فقيه القرآن السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي رضوان الله عليه
تحقيق: السيد/ عبدالله بن حمود العزي ، السيد/ محمد بدر الدين الحوثي
الطبعة: الأولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

قياس القطع: (١٦,٥×٢٤)
عدد المجلدات: (٧)
الصف والإخراج: مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية
إخراج وتنسيق/ علي بن حمود العزي
رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٣٢٥/٢٠١٣م)








اليمن ــ صعدة
جوال: (٠٠٩٦٧-٧١١٣٧٢٧٦٢) - (٠٠٩٦٧-٧٣٧٩٩٢٧٧٧) - (٠٠٩٦٧-٧١١٦٦٤٧٥٩)
بريد: almostafa.ye@gmail.com - hbhbhd@gmail.com



# تقـــديـــم

**بقلم المفتقر إلى الله تعالى**
**السيد/ عبدالله بن حمـود العـزي**

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

الحمد لله الذي هدانا إلى الإسلام، وشرّفنا بالقرآن الكريم، وهـدانا بـه إلى الصراط المستقيم ﴿..قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ❁ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وصلوات ربي وسلامه على سيدنا ونبينا محمد الأمين، المبعوث رحمةً للعـالمين، الـمُنزّل عليه الـذكر الحكـيم ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

وصلى الله على آله الطيبين الطاهرين، الذين قرنهم بالكتاب المبين، وجعلهم من بعده امتداداً لدعوته، ومستودعاً لسـرّه وأمانتـه.. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٤] .. **أما بعـــد:**

فإن العبارات مهما بلغ عظم سبكها، وحسن نظمها، تتقاصر وتتضاءل في وصف القرآن الكريم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] وخصوصاً إذا كانت بقلم عبيدالله الضعيف، الراجي رحمة ربه اللطيف، لذلك كان لزاماً عليّ أن أقتطف من درر ولآلئ المصطفى ﷺ، وابن عمه المرتضى علي عليه السلام مقتطفات أزّين بها مقالي، وأذكر بها حالي وحال أمثالي، لعلها توقظنا من السبات الذي عم، والذل والهوان الذي طم، فنعود إلى القرآن عودة حقيقة، نتدبّر آياته، ونهتدي بهداياته، ونسترشد بإرشاداته:

روى الإمام أبو طالب رضي الله عنه بسنده إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: ((..فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفع، وماحل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خلفه قاده إلى النار، هو الدليل الذي يدلُّ على خير سبيل، وكتاب تفصيل وبيان وتحصيل، والفصل ليس بالهزل، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، ومنارات الحكمة، والدليل على المعرفة لمن عرف الطريقة))[1].

وروى الإمام أبو طالب رضي الله عنه أيضاً، بسنده إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: ذكر رسول الله ﷺ الفتنة فعظمها وشددها، فقال علي بن أبي طالب عليه السلام: فما المخرج منها؟ قال ﷺ: ((كتاب الله، فيه حديث ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم، من يتركه من جبّار يقصمه الله، ومن يبتغ الهُدى من غيره يضلّه الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم،

---

(١) تيسير المطالب في أمالي أبي طالب: ٢٤٣.

وهو الذي لما سمعته الجنُّ قـالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِيَ إِلَى ٱلرُّشْدِ..﴾ وهو الذي لا تختلف به الألسن، ولا يخلقه كثرة الرد»[1].

وأما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي قال فيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: «علي مع القرآن والقرآن مع علي» فله مقامات ومقالات عن القرآن الكريم كثيرة، منها قوله عليه السلام: «ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يُدرك قعره، ومنهاجاً لا يُضِلُّ نَهْجُه، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه، وفرقاناً لا يُخْمَدُ برهانه، وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاء لا تُخْشى أسقامه، وعزّاً لا تُهزم أنصاره، وحقّاً لا تُخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان وبُحْبُوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغُدْرَانُه، وأَثَافِيُّ الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغِيْطَانُه، وبحر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا يَنْضِبُها الماتِحُون، ومناهل لا يَغِيْظُها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله ريّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجّاً لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذِرْوَتُه، وعزّاً لمن تولّاه، وسلماً لمن دخله، وهدى لمن ائتم به، وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً لمن تكلّم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفَلْجاً لمن حاجّ به، وحاملاً لمن حمله، ومطيّة لمن أعمله، وآية لمن توسّم، وجُنَّةً لمن استلأم، وعِلْماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحُكْماً لمن قضى»[2].

---

(١) تيسير المطالب في أمالي أبي طالب: ٢٥٠.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة: ٧٥.

تلك بعض الدرر الرائعة والمقتطفات اليانعة من بستان المصطفى ﷺ، وابن عمه المرتضى عليه السلام، وهي تذكير للأمة بما تمتلكه من ثروة ربّانية عظيمة تحقق لها السعادة الدنيوية والأخروية، وهي ثروة لم يُحسن البعض استغلالها، ولذلك لم ينتفع بها، لأنه لم يؤهل نفسه التأهيل الربّاني اللازم للإستفادة منها، سواء على المستوى الشخصي أو الأسري أو الاجتماعي.

إن الطريقة التي يتعامِل بها البعض مع القرآن الكريم مؤلمة ومحزنة ومؤرقة، ترديد وترتيل للآياتِ، لا يقف فيها على تدبّر، ولا يرتقي معها إلى سلوك سوي، مع أن الله تبارك وتعالى يأمرنا بالتدبّر والتذكّر ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

### نحو الأمية المعاصرة ؟!

فمن المؤكد أن عدم التدبر يتنافى مع ما يريده الله تبارك وتعالى منا، ولذلك لم نلمس أثر الانتفاع بالقرآن الكريم في واقعنا المعاصر، فيا تُرى هل وصل بنا الحال في تعاملنا مع القرآن إلى درجة ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]؟

هل وصلت علاقتنا بهذا الكتاب الكريم العظيم إلى درجة الأمية؟!

بالرغم أننا نقرأ ونكتب، ووصلنا في عصرنا الحاضر إلى مرحلة متقدمة في تكنولوجيا الطباعة والنشر والقراءة.

هل اقتصرت علاقتنا بهذا الكتاب العظيم على الترتيل والترديد ﴿أَمَانِيَّ﴾ دون معرفة لمعناه، وإدراك لمحتواه بالرغم من عشرات التفاسير والمعاجم؟!

هل هبطت درجة ثقتنا بالله من اليقين إلى الظن ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ بالرغم من تكريرنا لألوهيته ووحدانيته المطلقة؟!!

إنها أسئلة يجب أن يطرحها كل واحد منا على نفسه مرة بعد أخرى، ليُدرك الحالة والدرجة التي وصل إليها مع كتاب الله وبرهانه ونوره المبين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤].

فيا ترى أين يكمن الخلل؟!! وأين يقع الزلل؟!!

- هل هو في القراءة ؟!
- هل هو في عدم توفّر نسخ القرآن؟!!
- هل هو في عدم استغلال الوسائل الحديثة لنقل القرآن؟!
- هل هو في قلة عدد مدارس تحفيظ القرآن؟!
- هل هو في قلة عدد المؤتمرات عن القرآن؟!
- هل هو في قلة عدد المسابقات حول القرآن؟!
- هل هو في فقدان المنهج؟!
- هل...؟! هل...؟! هل...؟!!

النتيجة.. أن هنالك أمية معاصرة يسعى البعض نحوها بقصد أو بدون قصد، وقد حذّرنا الرسول ﷺ من الجهل مع وجود العلم، ففي الحديث الشريف يصف الرسول الأعظم ﷺ الحالة التي يصل فيها الناس إلى مرحلة الجهل مع وجود العلم، وذلك عندما تكلّم عن ذهاب العلم، فقال له زياد بن لبيد الأنصاري: يا رسول الله كيف يذهب العلم ونحن قرأنا القرآن ونُقرؤه أبناءنا وأبناؤنا يقرؤون أبناءهم؟

فقال له رسول الله ﷺ: ((ثكلتك أمك يا ابن لُبيد، إن كُنت لأراك من أفقه رجل في المدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشي))[١].

لماذا لم ينتفعوا؟! لأنهم يقرؤونها أماني وينتقون منها ما يهوون، وعلى سبيل المثال ففي التوراة والإنجيل التبشير بنبينا محمد ﷺ، ولكن لما بعثه الله تعالى نبياً لم يعترفوا به ولم يسلموا له، بل كابروا وجحدوا ووصلوا إلى عدم الانتفاع بما في أيديهم، وأصروا على البقاء في الضلال، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [سورة المائدة].

**محو الأمية المعاصرة:**

فإذا أردنا الانتفاع بالقرآن العظيم فلا بد أن نؤهل أنفسنا لذلك الانتفاع، وأن نرتقي إلى مستوى القرآن، ولا نشد القرآن إلى مستوانا، بل نشد أنفسنا إلى مستواه.

وإذا أردنا أن نسعى إلى محو الأمية التي وصل إليها البعض في التعامل مع القرآن الكريم، فلا بد أن نشخّص هذه الأمية، ونحدد مكمنها؛ لكي نصل إلى معالجتها معالجة سليمة، أرى أن الأمية المعاصرة التي حجبت الانتفاع بالقرآن الكريم الانتفاع المطلوب تتمثل في عدم سلوك الوسيلة الصحيحة والطريقة المناسبة الموصلة إلى فهم آياته الفهم السليم، الموصل إلى السبيل القويم

---

(١) رواه أحمد بن حنبل في مسنده، وابن ماجه في سننه.

والصراط المستقيم ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

ويمكننا القول: أن الأمة قد جرّبت كل الوسائل، وسلكت كل الطرق، ولم تصل إلى أمّة القرآن التي يريدها الله تعالى، فعلى صعيد التفسير والتنظير برزت عشرات المجلدات، وعلى صعيد النشر طُبعت المئات، وعلى صعيد التلقين والحفظ أقيمت الجامعات والمدارس وحلقات تدريس القرآن، وعلى صعيد الإعلام خُصصت العديد من الإذاعات للقرآن، وظهرت العديد من القنوات، وأُنشأت العشرات من المواقع، وعلى صعيد البرمجة والتكنولوجيا الخاصة بالحفظ والتلقين تنوّعت وتعددت البرامج.

وهذه الوسائل وإن كانت من الأهمية بمكان، إلا إنها عبارة عن وسائل مساعدة لم توظّف التوظيف المطلوب، ولم تستغل الاستغلال المنشود لعملية التدبّر والتذكّر، وقد أدركت بعض الجماعات المنتمية إلى الإسلام أن هنالك حلقة مفقودة في كيفية التعامل مع القرآن فحاولت أن تتشكل تحت مسميات عديدة لإيجاد حل لتلك المشكلة، إلا أنها وقعت في مطبّات أكبر ومخالفات أعظم وظلمات بعضها فوق بعض، تضليل وتبديع، وتكفير وتهجير، وتفجير وتدمير، وكانت عرضة لتأثير أعداء الدين عليها بطريقة أو بأخرى، لأنها لم تسلك الوسيلة الصحيحة الموصلة إلى فهمه فهماً صحيحاً يتناسب مع مكانة الإسلام وعظمة القرآن، فلم تستضئ بنور القرآن المبين، ولم تهتد بهديه القويم..

وذهب عدد آخر من دعاة التنظير إلى ما عند المستشرقين من المناهج والنظريات، معتقدين أن المشكلة مشكلة منهج، غير مُدركين أن المنهج موجود

﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] ولكن فهمه مفقود ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

والحقيقة أن أسباب عدم الانتفاع بالقرآن الكريم على الوجه الصحيح والسليم يعود في الجمل إلى ثلاثة أسباب رئيسية، وهي:

**السبب الأول:** فصل التلاوة عن التدبر.

**السبب الثاني:** فصل التدبر عن أعلام أهل البيت عليهم السلام.

**السبب الثالث:** فصل التدبر المرتبط بأعلام أهل البيت عن التطبيق العملي الكامل للقرآن.

ويعالج **السبب الأول** بوصل التلاوة بالتدبر، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤] وقد أشار إلى هذه القضية عدد من العلماء والباحثين بطرق وأساليب متنوعة، قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: «حال المسلمين مع القرآن الكريم تستدعي الدراسة المتعمقة، ذلك أن المسلمين بعد القرون الأولى انصرف اهتمامهم بكتابهم إلى ناحية التلاوة، وضبط مخارج الحروف، واتقان الغُنن والـمُدود، وما إلى ذلك مما يتصل بلفظ القرآن والحفاظ على تواتره كما جاءنا، أداءً وأحكاماً - أقصد أحكام التلاوة - لكنهم بالنسبة لتعاملهم مع كتابهم صنعوا شيئاً ربما لم تصنعه الأمم الأخرى..

فإن كلمة «قرأت» عندما يسمعها الإنسان العادي أو يقولها، تعني: أن رسالة جاءته أو كتاباً وقع بين يديه فنظر فيه، وفهم المقصود منه.. فمن حيث الدلالة لا أجد فكاكاً بين الفهم والقراءة، أو بين السماع والوعي.

أما الأمة الإسلامية فلا أدري بأية طريقة فصلت بين التلاوة وبين التدبر، فأصبح المسلم اليوم يقرأ القرآن لمجرد البركة كما يقولون، وكأن ترديد الألفاظ دون حس بمعانيها ووعي لمغازيها يفيد أو هو المقصود.

وعندما أحاول أن أتبيّن الموقف في هذا التصرف أجد أنه موقف مرفوض من الناحية الشرعية، ذلك أن قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩] يعني: الوعي والإدراك والتذكر والتدبر.. فأين التدبر؟ وأين التذكر مع تلك التلاوة السطحية التي ليس فيها أي احساس بالمعنى، أو إدراك للمقصد، أو غوص فيما وراء المعنى القريب لاستنتاج ما هو مطلوب لأمتنا من مقومات نفسية واجتماعية، تستعيد بها الدور المفقود في الشهادة على الإنسانية وقيادتها إلى الخير؟.. بل أجد غياب بعض صفات (عباد الرحمن) التي وردت في القرآن الكريم، ومن أنهم قوم يقبلون على القراءة بحواسهم، فهم: يسمعون، ويبصرون، ومن ثم يتحركون.

نعم.. قد يغيب عن الإنسان معنى كلمة قد تكون غريبة عليه، وربما يعز عليه إدراك جملة من الجمل؛ لأن التعبير القرآني في درجة من البلاغة لم يتذوقها هو.. وما من شك في أن القرآن كتاب العربية الأكبر، ومنهل الأدب الخالد.. ولا يُقبل إطلاقاً أن ينتهي المسلم إلى ذلك النوع الذي ذكره الله تعالى حين وصف عباد الرحمن بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:٧٣].

وأجد اليوم أن الذين يخرون صماً وعمياناً كثيرون، فالأمم الأخرى أدركت حال المسلمين مع كتابهم، لذلك وجدنا إذاعات عالمية تحدد فترات

لإذاعة القرآن الكريم، فإذاعة لندن تقدم تلاوة يومية للقرآن تفتتح بها برامجها، وربما تذيع إسرائيل أيضاً قرآناً في فترات ومناسبات متعددة، وكأنها اطمأنت إلى أن الأمة الإسلامية اليوم تسمع ولا تعي.

هذا موقف لا بد أن نحسمه، وأن نبتعد عنه، ونعالج أسبابه، وما سمعت كلاماً معقولاً أو مقبولاً في تبريره وتسويغه...

لابد من قراءة القرآن الكريم قراءة متدبرة واعية، تفهم الجملة فهماً دقيقاً، ويبذل كل امرئ ما يستطيع لوعي معناها وإدراك مقاصدها، فإن عزَّ عليه سأل أهل الذكر.. والمدارسة للقرآن مطلوبة باستمرار.. ومعنى مدارسة القرآن: القراءة والفهم والتدبر والتبيّن لسنن الله في الأنفس والآفاق، ومقومات الشهود الحضاري، ومعرفة الوصايا والأحكام، وأنواع الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وما إلى ذلك مما يحتاج المسلمون إليه لاستئناف دورهم المفقود»[1].

ويعالج السبب الثاني بوصل التدبر بأعلام أهل البيت (عليهم السلام)، والعمل وفق رؤيتهم المستنبطة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] ويدل عليه أيضاً قول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم): «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» [2].

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن، الشيخ الغزالي: ٢٧-٢٨.

(٢) حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة معنى، ورد بأسانيد صحيحة عن بضعة وعشرين صحابياً، انظر: لوامع الأنوار: ١/ ٥٢، الأحكام: ٤٠، مسلم: ١٥/ ١٧٩، الترمذي: ٥/ ٦٢٢، مشكل الآثار: ٤/ ٣٦٨-٣٦٩، مصنف ابن أبي شيبة: ٧/ ٤١٨، السنن الكبرى: ٧/ ٣٠، وغيرها كثير، للمزيد ينظر كتابنا (علوم الحديث عند الزيدية والمحدثين).

| | |
|---|---|
| هم باب حطـة والسفينـة والهـدى | فيهـم وهـم للظالمـين بمرصـد |
| وهم الأمان لكل من تحت السمـا | وجـزاء أحمـد ودّهـم فتـودّد |
| والقوم والقـرآن فاعـرف قدرهـم | ثقـلان للثقلـين نـصّ محـمـد |

وبالمناسبة فإن (حديث الثقلين) المذكور آنفاً صحيح عند جميع المذاهب بالإجماع، وأعتقد أن الرجوع إليه والعمل بمقتضاه أهم عامل من عوامل وحدة الأمة الإسلامية.

ومع ذلك هو تشريع نبوي لا تخيير فيه، أليس من الواجب اتباع النبي ﷺ في كل ما قاله وحكاه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] دون انتقاء أو التفاف على ما نصّ عليه وعناه، خاصة في حديث كهذا يضمن للأمة الأمان من الضلال المؤكد بالتأبيد: «لن تضلوا من بعدي أبدا» ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥] .

ومن الجدير التوقف عند هذا الأمر الخطير، والبحث عن أسباب إغفال هـذا الحديث وتعمّد رواية «كتاب الله وسنتي» ونشره كحديث صحيح، مع أنه لم يُرو إلا مرسلاً، والمرسل عند المتعمدين لنشره من قسم الضعيف، وأعتقد أن أهم الأسباب في عدم العمل به من قبل البعض وإغفاله عند البعض الآخر تعود جذوره إلى عصر السلطتين الأموية ومن بعدها العباسية، حيث عملت كل سلطة بطريقتها على محاربة أهل البيت عليهم السلام، ومحاصرة فكرهم، وأصبح الولاء لأهل البيت في عصرهما مشروعاً للقتل والإبادة والتشريد، وكانت عقوبة الولاء للخط العلوي الصحيح الذي تجسّد فيه الحق هو الموت، وليس الموت فحسب، بل والتمثيل بطرق بشعة وقاسية جداً كالصلب، والحرق، وفصل الرأس عن الجسد.

وأقامت الدولتان حظراً شاملاً لكل ما له علاقة بفكر أهل البيت (عليهم السلام)، ولكي يقف المطلع الكريم على حقيقة ذلك لا بد أن نذكّره بالجذور التاريخية للثقافة العدائية لكل ما له علاقة بأهل البيت (عليهم السلام) فكراً ومعتقداً وفقهاً وسياسية..

بل حتى أن مجرّد التسمية باسم (علي) تعد جريمة لا تغتفر في نظر الأمويين يعاقب حاملها!! مما دفع البعض أن يتبرأ من اسمه لكي لا تلحقه العقوبة! مثل علي بن رباح اللخمي، فإنه لما بلغه أن بني أمية يؤذون من كان اسمه علياً تبرأ من اسمه، وقال: «لا أجعل في حل من سماني علياً فإن اسمي عُلَي ـ بالضم ـ»[1].

وقال المقري: «كان بنو أمية إذا سمعوا بمولود اسمه علي قتلوه، فبلغ ذلك رباحاً فغير اسم ابنه»[2].

وكان الحسن البصري (رحمه الله) إذا حدّث عن علي (عليه السلام) يقول: «قال أبو زينب، وفي بعض الحالات يقول: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال يونس بن عبيد: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد، إنك تقول: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): وإنك لم تره، فقال: يا ابن أخي إني في زمن كما ترى ـ وكان في زمان بني أمية ـ وكل شيء سمعتني أقوله: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهو عن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، غير إني في زمن لا أستطيع أن أذكر علياً»[3].

ولم يكتف بنو أمية بذلك بل ابتدعوا لعن الإمام علي (عليه السلام) على المنابر، وخصّصوا الخطبة الأخيرة من خطبتي الجمعة لذلك، جاء في (صحيح مسلم): عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن حازم، عن سهل بن سعد،

---

(١) تقريب التهذيب: ٧/ ٢٨٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٥/ ١٠٢.

(٣) قواعد التحديث: ٢٤٨، الفلك الدوار: ٤٤.

قال: استعمل على المدينة رجل من آل مروان، قال أبو حازم: فدعا سهل بن سعد فأمره أن يشتم علياً، قال: فأبى سهل.

فقال له الأمير: أما إذا أبيت فقل: لعن الله أبا التراب!! فقال سهل: ما كان لعلي عليه السلام اسم أحب إليه من أبي التراب، وما سمّاه إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم[(١)].

وفي (سنن الترمذي): عن عامر بن سعد، عن أبي وقاص، عن أبيه، قال عامر: «أمر معاوية سعداً فقال: ما منعك أن تسب أبا تراب..»[(٢)].

وفي (سنن ابن ماجه): عن عامر بن سعد، عن أبيه: قدم معاوية في بعض حجّاته، فدخل عليه سعد، فذكروا علياً عليه السلام، فنال منه ـ أي معاوية ـ فغضب سعد، وقال: تقول هذا لرجل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فيه: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[(٣)].

ولما جاء عمر بن عبد العزيز أمر بإزالة تلك البدعة، وأبدلها بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

وكانت تلك العادة السيئة قد تمكنت، وأصبحت سنة في نظر الأمويين وأتباعهم، ولذلك عندما خطب عمر بن عبد العزيز أول جمعة وانتهى إلى موضع اللعن، وقرأ مكانه الآية السابقة، قام إليه عمرو بن شعيب بن محمد بن عمرو بن العاص، فقال له: السنّة..السنةّ يا أمير المؤمنين، يحرّضه على لعن الإمام علي عليه السلام، فقال له عمر: اسكت قبّحك الله، فتلك البدعة.. البدعة، ومضى في خطبته[(٤)] وقد بيّنت ذلك في كتابي (علوم الحديث عند الزيدية والمحدثين).

---

(١) مسلم: ٧/ ١٢٤.

(٢) الترمذي: ٣/ ٢١٤.

(٣) سنن ابن ماجه: ١/ ٢٦.

(٤) الأمالي الخميسية للإمام المرشد بالله: ١/ ١٥٣.

وقد يرى البعض أن المقام هنا لا يناسبه ذكر مثل ذلك، ولكنني تعمّدت ذكره لكي يعود الباحث عودة حقيقية إلى التراث الإسلامي الأصيل الذي حمله أهل البيت عليهم السلام، وتعمّدت تغييبه السلطتان الأموية والعباسية ومن سار على نهجهما وطريقتهما من السلطات والدول المتعاقبة حتى يومنا هذا.

ومن العجيب وما عشت أراك الدهر عجبا أن بعض من يسمّون أنفسهم مجازاً بـ(المفكرين والمجتهدين والنظار) يحاولون بكل الطرق وشتى الوسائل التفنن في إيراد الشبهات وبلبلة الأفكار حول الارتباط بأهل البيت عليهم السلام، خصوصاً على أرباع المتعلمين وأنصاف المثقفين.

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن أهل البيت عليهم السلام الذين يرتبط بهم تدبّر القرآن هم صفوة الأعلام الأتقياء من ذرية السبطين، وقد أشار إليهم الإمام زيد بن علي عليه السلام المستشهد سنة (١٢٢هـ) في عدد من رسائله منها (الصفوة) و(الوصية) وغيرهما، والإمام الهادي إلى الحق عليه السلام المتوفى سنة (٢٩٨هـ) في رسائله العقدية ومقدمة كتابه (الأحكام) كما أشار إليهم عدد من أئمة وعلماء أهل البيت وشيعتهم الكرام، وهم باقون ما بقي القرآن الكريم، به يتحركون، وعلى نهجه يسيرون، ولا يختلفون في الحق، وبه يعدلون.

قال الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام: «إن آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يختلفون إلا من جهة التفريط، فمن فرّط منهم في علم أهل بيته أباً فأباً حتى ينتهي إلى علي بن أبي طالب عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وشارك العامة أقاويلها، واتبعها في شيء من تأويلها، لزمه الاختلاف، ولا سيما إذا لم يكن ذا نظر وتمييز، ورد ما ورد عليه إلى الكتاب، ورد كل متشابه إلى المحكم، فأما من كان منهم مقتبساً من آبائه أباً فأباً حتى ينتهي إلى الأصل، غير ناظر في قول غيرهم، ولا ملتفت إلى

رأي سواهم، وكان مع ذلك فهماً مميزاً، حاملاً لما يأتيه على الكتاب والسنة المجمع عليها، والعقل الذي ركّبه الله حجة فيه، وكان راجعاً في جميع أمره إلى الكتاب، ورد المتشابه منه إلى المحكم، فذلك لا يضل أبداً، ولا يخالف الحق أصلاً»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» ومن المعروف أنه يأتي على رأس عدول كل خلف صفوة من أهل البيت عليهم السلام.

**ويعالج السبب الثالث** بوصل التدبر المرتبط بأعلام أهل البيت بالتطبيق العملي الكامل، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥].

قد يعتقد البعض أنه متمسك بالقرآن، ولكن ما إن يجلس جلسة نقدية مع ذاته وواقعه يدرك أن في علاقته بالقرآن بعض الفجوات والاختلالات، فقد يجد نفسه يعمل بآيات ولكنه يغفل عن آيات أخرى.

إن الانتفاع الحقيقي بالقرآن يتمثّل في تجسيده في الواقع والعيش في أجوائه في كل الأحوال والتصرفات والسلوكيات، فعند القراءة للآيات التي تتحدث عن الله وعظمته لا بد من استشعار تلك العظمة ظاهراً وباطناً، وعند قراءة الآيات التي تتحدث عن الكون وما فيه من سماء وأرض وجبال وأنهار وأشجار وحيوان وما فيه من العوالم المختلفة لا بد من استشعار صنع الله المحكم في هذه المخلوقات المتعددة والمتنوعة.

---

(١) الأحكام: ٢/ ٥١٩.

ولـمّا هجرت الأمة كتابها أو على الأقل أخذت تقرأه على أنه تراتيل دينية فإنها كما قال الشيخ الغزالي: «فقدت صلتها بالكون، وكانت النتيجة: أن الذين درسوا الكون خدموا به الكفر، واستطاعوا أن يسخّروه لأنفسهم، ومبادئهم، وإلحادهم، وتثليثهم.

أما نحن ـ ومع أن كتابنا كتاب الفكر ـ .. ومع أن كتابنا كتاب تجاوب مع الكون بحيث لم نر كتاباً سماوياً أو مقدّساً ـ كما يقولون ـ نوّه بعظمة الله في كونه، أو بعظمة الكون، كالقرآن الكريم .. ما الذي صرفنا عن هذا كله؟!!

صرفنا عنه أننا ما أحسنا التلقي والتعامل مع القرآن أبداً.. بل كنا نقرأ، وكنا نعتبر الخطأ الكبير فقط ألا يمد القارئ المد اللازم خمس أو ست حركات، أو لا يغن الغنة، أو لا يخفي الإخفاء! وكل ذلك يمكن أن يكون وسائل لحماية الأداء القرآني ليكون محلاً للنظر والتدبر.. أما وعي المعاني، وإدراك الأحكام، والتحقق بالعاطفة المناسبة من خلال تشرب معاني القرآن، فقد اختفى من نفوسنا.. هذا شيء لا بد أن نبدأ به كل كلام عن القرآن الكريم، وإلا فنحن معزولون عن ديننا وعن مصدره.

القرآن كتاب يصنع النفوس، ويصنع الأمم، ويبني الحضارات.. هذه قدرته.. هذه طاقته.. فأما أن يُفتح المصباح فلا يرى أحد النور لأن الأبصار مغلقة فالعيب عيب الأبصار التي أبت أن تنتفع بالنور، والله تعالى يقول: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٥ـ١٦].

نحن ما اتبعنا رضوان الله ولا سبل السلام، ولا استطعنا أن نقدّم سلاماً للعالم، ولا استطعنا أن ننقل هدايات القرآن للقارات الخمس..

هناك في عصرنا خمسة مليارات من البشر محجوبة عـن أضـواء القـرآن، لا تعرف عنه شيئاً!! والسبب أن المسلمون أنفسهم محجوبون عن أضواء القرآن وفاقد الشيء لا يعطيه..»[١].

قال السيد حسين بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه: «القرآن الكـريم كلـه قـوّة، كلـه عزّة، كله شرف، كله رؤى صحيحة وحلول صحيحة، تعطي كل مـن يسـيرون على نهجه أن يكونوا بمستوى أن يضربوا أعداء الله كيفما كانوا، وكيفمـا كانـت قوتهم، فالذي يحمل القـرآن الكريم ولا يتثقّـف بثقافتـه ـ وإن كـان يتلـوه ليلـه ونهاره ـ هو من سيكون في الواقع ممن نبذوا كتاب الله وراء ظهورهـم..

وسترى أن الشخص الذي يحمل القرآن وتراه ضعيفاً في مواقفه من أعداء الله، ضعيفاً في رؤيته للحل الذي يهدي إليه القرآن، فاعرف أنـه بمعـزل عـن القرآن الكريم، وبعيد عن القرآن الكـريم، وأنـه يسـيء إلى القـرآن، وأنـه في نفس الوقت سيعكس وضعيته هذه المتردية وضعفه على الآخـرين، فيصـبح قدوة للآخرين في ضعفه بدلاً مـن أن يكـون قـدوة للآخـرين ـ وهـو يحمـل القرآن الكريم ـ في قوته».

**هــــذا التفســـير:**

وهذا التفسير ـ الذي بين يديك الكريمتين ـ هو من أهم التفاسـير الميسّـرة والمعينة لك على فهم الكتـاب العزيـز، ويعـد مـن أجـود التفاسـير في وقتنـا الحاضر، لاعتبارات عديدة منها ما يتعلّق بالمؤلف كعالم ربّـاني مـن آل محمـد جسّد القرآن الكريم في واقعه العملي، ومنها ما يتعلّق بالتفسـير ذاتـه حيـث نجده اشتمل علـى خصـائص يمكننـا ادراك بعضـها مـن خـلال تتبـع تفسـير

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن، الشيخ الغزالي: ٣١.

الآيات وما اشتملت عليه من الفوائد الشرعية والتصحيحية والبيانية التي يناط بها العمل دون الخوض فيما لا طائل تحته.

ويمكننا إدراك بعض خصائصه من خلال مقدّمة مؤلفه التي أشار فيها إشارة جملية متواضعة دون تبجّح أو تكلّف، وسأحاول أن أتناول بعض ملامحها بصورة مختصرة:

**أ. التسمية:**

لقد سمّى المؤلف رحمه الله تفسيره هذا بـ(التيسير في التفسير) وليس التميّز في الاسم فحسب، بل في المضمون، حيث أننا قد نجد تفاسير بهذا الاسم، ولكن ما أن ندخل في مضامين بعضها نجدها أحياناً تنقلب من التيسير إلى التعسير، أما هذا التفسير فقد التزم مؤلفه بالتيسير بما تعنيه الكلمة من معنى، حتى بعض المباحث المنفصلة التي قد نجدها في مضامينها متعسّرة نجدها فيه ميسرة، وهذا التفسير الرائع من فاتحته إلى خاتمته ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، بل أتى متوسطاً بين الإطناب والإيجاز.

وأما تراكيب عباراته وألفاظه فسهلة ممتنعة، سهلة في فهمها، ولكنها ممتنعة على غير مؤلفها أن يأتي بها على الوجه الذي أتى به المؤلف، فمن حقه أن يسمى (السهل الممتنع).

**ب. المنهجية:**

وأما المنهجية التي سلكها المؤلف في تفسيره، فتعتبر من أروع المناهج المتبعة في طرق التفسير، وبالرغم أنه اختصر طريقته في مقدمة تفسيره، إلا أن الباحث يستنتج من كلّ كلمة صفحات إذا ما أراد التوسع، وعلى سبيل المثال نجده:

أولاً: أشار إلى أهم الشروط التي ينبغي للمفسّر أن يلمّ بها، قال ﷺ: «اعلم أن تفسير القرآن مفتاحه معرفة لغة العرب، لأن القرآن نزل بلسانهم، كما يحتاج إلى استعمال العقل للتمييز بين المحكم والمتشابه، وللتمييز بين المعاني المحتملة في بعض المواضع، وكثيراً يتميز المعنى في آية بمعرفة نظيرها في القرآن، ويحتاج المفسّر إلى التأني والتأمل والتثبت ..».

ثانياً: أوضح ﷺ الطريقة التي سلكها في التعامل مع ما يسميه المفسرون التفسير بالمأثور، فيأخذ منه ما ثبت له صحته، قال ﷺ: «فأما تفسير رسول الله ﷺ متى صح عنه فهو حجة، وكذا تفسير أمير المؤمنين عليه السلام»

ثالثاً: شرح ﷺ طريقة اعتماده فيما لم تصح لديه الرواية، معتمداً في ذلك على القرآن الكريم وهو ما يسمى (تفسير القرآن بالقرآن) قال ﷺ: «وقد اعتمدت في مواضع عديدة على تفسير القرآن بالقرآن».

رابعاً: وضع ﷺ توازناً بين ما لم يعتمده من الروايات المتعلّقة بالنزول وبين ما يسلكه من الطريقة في تفسيرها قال ﷺ: «وقد أعدل عن التفسير بالرواية لعدم صحتها عندي، وكون مدلولها خلاف الظاهر، ولذلك عدلت كثيراً عن تطبيق التفسير على الروايات، وقد أعدل عنه إلى ما لا يخالفها إلا بالتعميم أو الإطلاق، لأن القرآن لا يقتصر على أسباب النزول ولا يوقف تفسيره على معرفتها، بل هو مستقل بإفهام معانيه، مع أن معرفة الأسباب وظروف النزول تعين على فهم المعنى، وينبغي للمفسر مراعاتها والتفسير بما يناسبها ما أمكن بدون عدول عن الظاهر».

خامساً: وضع ﷺ توفيقاً رائعاً بين المجاز والحقيقة في التعامل مع الآيات الكريمة، وهو طرح تأصيلي جدير بالدراسة، قال ﷺ: «وقد اعتمدت على

الظاهر، وحاولت التمسك بالمعنى الحقيقي ما أمكن حتى توجد قرينة لإرادة المجاز بيّنة، وأكثر اعتمادي على النظر والتفكير والبحث في بعض كتب التفسير...».

سادساً: إذا وجد في تفسير بعض الآيات ما اختلفت نسبته إلى الآل أو لم تصح له روايته عنهم، باعتبار أن نظرته إلى القرآن الكريم خلافه اعتمد ما اقتضاه فهمه للقرآن الكريم، طالباً الحمل على السلامة، وداعياً من خفي عليه بيانه استيضاحه من أقرانه الذين توفّرت لديهم وجوه الإبانة، أو سؤاله هو، فهو الخبير العالم بعلّته وبيانه، مُلزماً بذلك الحجة، ومبلّغا المحجة خصوصاً لسالكي مسالك سوء الظنون، قال رضي الله عنه: «كما أنني أحياناً قد أخالف التفسير الشائع المتداول فأرجو حملي على السلامة وحسن النية وأن يجعله الناظر فيه سبباً للتأمل أو سؤال من تبين له وجه الترجيح أو سؤالي إن أمكن.»..

سابعاً: إذا وجد في كتب التفسير أمراً يحتاج إلى الرد، فله طريقة متميزة في إيضاحه، إذ أنه يوضح الصواب لديه ويورد الأدلة عليه دون التعرض للرد، قال رضي الله عنه: «وقد يكون في التفسير خلاف بل هو الغالب فأكتب ما هو عندي الصواب ولا أتعرض للرد على خلافه رغبة في عدم التطويل».

**والخلاصة:** أن فوائد هذا التفسير كثيرة جداً لا يمكننا عرضها في هذا التقديم المتواضع، ويسر ويشرف مؤسسة المصطفى صلى الله عليه وآله الثقافية أن يأتي هذا التفسير القيّم في طليعة إصداراتها العلمية والثقافية، وقد عقدنا العزم إن شاء الله تعالى ـ إذا أمدّ الله تعالى في العمر ـ على إخراج دراسة متكاملة عن التفسير ومؤلفه رضي الله عنه سائلاً الله تعالى أن ييسر ذلك ويعين عليه، والحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

عبدالله بن حمود بن درهم العزي

مدير مؤسسة المصطفى صلى الله عليه وآله الثقافية

اليمن ـ صعدة



# تقـــديـــم

**بقلم/ نجـل المؤلف**
**السيد/ محمد بدر الدين الحوثي**

الحمد لله رب العالمين الذي أنـزل القـرآن هـدى للمـتقين، وحجـة علـى الطغـــاة والمســـتكبرين ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال٤٢ ] والصلاة والسـلام علـى رسـوله الأمـين الداعي إلى الصراط المستقيم، وعلى آله الهـداة الميـامين قرنـاء القـرآن الـذين يهدون بالحق وبه يعدلون.

أما بعـــد.. فإن القرآن الكريم هو الكتاب المحفوظ الـذي لا يأتيـه الباطـل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فيه الهدى والنور، والرحمـة والخير والبركة، رسم الله فيه للأمة طريق عزها ومجـدها ورفعتهـا وسموهـا، وأرشدها فيه إلى ما يوصلها إلى جنات النعيم، وينجيها مـن العـذاب الألـيم، وكفى بهذا رحمة ونعمة وتكريماً.

إنه منهج للحياة بكل مناحيها عقيدة وشريعة، ونظاماً يشمل كل جوانـب الحياة المادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية.

كما تزخر آياته بالحديث عن الأمم السابقة ومواقفها ومصير تلك الأمم كدروس وعبر لمن تدبر وتبصر، إضافة إلى الحديث المستفيض عن المستقبل عن اليوم الآخر ونقل صورة واضحة عن أحداثه وأهواله وما تؤول إليه أحوال العالمين، وأين يكون مصير الجميع من المؤمنين والكفرة المجرمين، مبينا الأسباب التي أدت إلى كلا المصيرين وسبل الاستقامة على الخط المستقيم، مما يعكس مدى رحمة الله ورأفته بالإنسان ليفوز بالجنة وينجوَ من النار.

وفي رحابه الكريم يتجول الإنسان مع الأنبياء والمرسلين ويعتبر ويتدبر في أحوالهم وأعمالهم ومجاهدتهم في اتجاه تعبيد الناس لله سبحانه، وصراعهم مع المشركين والمعاندين عبر العصور، وكيف مضوا في الدعوة إلى الله صابرين محتسبين، وما هي توجيهات الله لهم إزاء عناد المعاندين وإصرار المكذبين وخداع المنافقين، ليجد منهجاً متكاملاً يزخر بالحركة والجهاد والعمل، فيشكل كل ذلك زاداً للدعاة المخلصين، وسلاحاً بأيدي المؤمنين المجاهدين، يستلهمون منه ما يقوي العزائم ويشحذ الهمم للاستعلاء على مخططات الجاهلية الحديثة بصورها ورموزها في هذه المرحلة الحاسمة التي أطبق فيها الكفر والضلال ضد أولياء الله وأنصار دين الله في كل بقاع الدنيا.

إنه كتاب الحياة يحي القلوب الموات، ويحررها من أسر الضلال والجهالات، وينير لها الدروب في الظلمات، لتسلك السبيل إلى الله وإلى رضوانه وجناته.

وفي الحقيقة مهما قلنا ووصفنا فلن نصل ولو إلى جزء يسير مما يمكن أن يقال عن القرآن، مهما كانت قدرة الإنسان على الوصف والبيان، إلا أننا نتبرك بقبسات مما قاله الإمام الأواه الحليم، القاسم بن ابراهيم الرسي عليه صلوات رب العالمين، في (مديح القرآن الكريم) وهو كلام عظيم جدير بالتأمل والتدبر.

قال عليه السلام في وصف القرآن الكريم: «نور أعين القلوب المبصرة، وحياة ألباب النفوس المطهرة، إلف فكر كل حكيم، وسكن نفس كل كريم، وقصص الأنباء الصادقة، ونبأ الأمثال المتحققة، ويقين شكوك حيرة أولي الألباب، وخير ما صُحب من الأصحاب، سر أسرار الحكمة، ومفتاح كل نجاةٍ ورحمة، قول أرحم الراحمين، وتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فأي مُنزِّل سبحانه ونازل وتنزيل.

لقد جل سبحانه وتنزيله عن كل تمثيل، وطهر وتقدس - إذ وَلِيَه بنفسه، ونزل به روح قدسه - عن قذف الشياطين وأكاذيبها، وافتراء مردة الآدميين وألاعيبها، فأُحكم عن خطل الوهن والتداحض، وأُكرِم عن زلل الاختلاف والتناقض، فجُعل بآياته مترافداً، وبضياء بيناته متشاهداً، غير متكاذب الأخبار، ولا متضايق الأنوار.

بل ضحيان النور، فيحان الأمور، سيحان الأنهار بالحياة المنجية، واسع الأعطان والأفنية، ساطع النور والبرهان، جامع الفصل والبيان، فأنواره بضيائه زاهرة، وأسراره لأوليائه ظاهرة، فما إن يوارى عن أهله الذين أُستُودِعُوا علمه من سرائر سريرة، ولا يدع ما وضح من نوره في قلوبهم من مشكله حيرة، بعزائم حكماته المنزلة، ودلائل آياته المفصّلة»[1].

ويضيف عليه السلام: «سماويٌّ أحله الله برحمته أرضه، وأحكم به في العباد فرضه، فلا يُوصَلُ إلى الخيرات أبدا إلا به، ولا تُكشف الظلمات إلا بثواقب شهبه، مَن صحبه صحب سماوياً لا يجهل، وهادياً إلى كل خير لا يضل،

---

(١) مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم الرسي: ١/ ١٣٣.

ومؤنساً لقرنائه لا يُمَلُّ، وسليماً لمن صحبه لا يَغِلُّ، ونصيحاً لمن ناصحه لا يغشّ، وأنيساً لمن آنسه لا يوحش، وحبيباً لمن حآبَّهُ لا يبغض، ومقبلاً على من أقبل عليه لا يعرض، يأمر بالبر والتقوى، وينهى عن المنكر والأسواء، لا يكذب أبداً حديثاً، ولا يخذل من أوليائه مستغيثاً، إن وعد وَعْداً أنجزه، أو تعزَّز به أحدٌ أعزه».

ثم يوصينا ويرشدنا عليه السلام إلى الإهتداء بالقرآن والمحافظة عليه والاستفادة منه بقوله: «فاتخذِوه هادياً ودليلاً، واجعلوا سبيله لكم إلى الله سبيلاً، حافظوا عليه ولا ترفضوه، واتخذوه حبيباً ولاِ تبغضوه، فإنه لا يحب أبداً له مبغضاً، ولا يُقبل على من كان عنه معرضاً، ولا يُهدَى إليه من عاداه، ومن تعامى عنه أعماه، ولا يبصر ضياءه إلا من تأمّلّه، ولا يُعْطِي هداه إلا أهله، من ضل عنه أضله، يُقلَّد جَهْلَه مَنْ جَهِلَه، إن أُدبِر عنه أدبر، أو أُقبِل عليه بصَّر..

إلى قوله: يعطي من قَبِلَ عطاه، ويمنع من أبى قبول هداه، يَقرُب لمن ارتضاه، ويَشْسع عمن سخط قضاه، يَعْلَنُ لأوليائه ويَظْهَر، ويكتتم عن أعدائه ويستر، نور هدىً على نور، وفرقان بين البِرِّ والفجور، أرشدُ زاجرٍ وآمرٍ، وأعدل مقسط ومعذِّر، يوقظ بزجره النُّوَماء، ويعظ بأمره الحكماء، ويُحيي بروحه الموتى، ولا يزيد من مات عنه إلا موتاً، يعدل أبداً ولا يجور، وكل أمره فَقَدَرٌ مقدور، ظاهره ضياء وبهْجَة، وباطنه غور ولجّة، لا يُملك حَسنُ أنواره، ولا يُدرك باطنُ أغواره، فمن ظهر لظاهر مَنَاظِره، رأى أعاجيبه في موارده ومصادره، ومن بَطُنَ لمستَبطَنِه، رأى مكنون محاسنه، من غرائب علمه، وأطايب حِكَمِه، لبابُ كل لباب، وفصل كل خطاب، وحكمه من حكم رب الأرباب.

اكتفى به منه في هداه لأوليائه، واصطفى به من خصّه الله سبحانه باصطفائه، فمصابيح الهدى به تُزْهِر واهجة، وسُبُل التقوى به إلى الله تلوح ناهجة، يُحتاج إليه ولا يَحتاج، سراجه أبداً بنوره وهَّاج، يُعلِّم ولا يُعلَّم، ويُقوِّم ولا يُقوَّم، فهو المهيمن الأمين، والفاصل المبين، والكتاب الكريم، والذكر الحكيم، والرضى المقنع، والمنادي المسمع، والضياء الأضوى، والحبل الأقوى، والطود الأعلى، الذي يعلو فلا يعلى، ولا يؤتى لسورة مِن سوره أبداً بمثل ولا نظير، ولا يوجد فيه اختلاف في خبر ولا حكم ولا تقدير، فصلِ كل خطاب، وأصل كل صواب..»[1].

ومؤلف هذا التفسير المبارك هو السيد العالم المجاهد ربيب الإيمان، ورضيع التقوى والعرفان، وفقيه القرآن، بقية الآل الأكرمين، حامي حمى العقيدة المطهرة، من أضاليل وافتراءات المشبهة المجبرة، المجاهد في سبيل الله، والقائم بشرع الله السيد/ بدر الدين بن أمير الدين بن الحسين بن محمد بن حسين بن أحمد بن زيد بن يحيى بن عبدالله بن أمير الدين بن عبد الله بن نهشل بن المطهر بن أحمد بن عبد الله بن عز الدين بن محمد بن إبراهيم بن الإمام المظلل بالغمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى المرتضى بن المطهر بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر بن علي بن الناصر أحمد بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب سلام الله عليهم أجمعين.

**مولده:** في ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥هـ قضى معظم عمره في نشر هدي الله والإصلاح بين الناس منذ أن غادر بلاده ومسقط رأسه مدينة ضحيان صعدة وهو في الثانية والثلاثين من العمر متوجهاً إلى بلاد خولان عامر،

---

(١) المصدر السابق: ١/ ١٣٤.

وكان هو المرجع الوحيد في الفتوى والإرشاد والتعليم، وفض النزاعات القبلية في تلك البلاد، حيث تنقل في عدد من مناطقها وكان لا يتنقل من منطقة إلى أخرى إلا بعد أن يترك الأثر الطيب على سلوكيات الناس وأخلاقهم ودينهم عموماً، وظل على هذا المنوال مدة خمسين سنة وهو مع ذلك يكابد المرض المزمن الذي ابتلي به منذ الصبا (مرض الربو) حيث لم يثنه ذلك عن القيام بالدور الأكمل والأشمل يبتغي بذلك رضوان الله وخدمة عباده.

إنه العالم الرباني الذي قصد القرآن الكريم في رحلة إليه منذ شبابه، حتى وصل إلى واحاته الخضراء، وغاص في أعماقه، وارتوى من ينابيعه الصافية ما أروى ظمأه، حيث مضى يتدبر القرآن آية آية، ويحول مفاهيمها إلى منهج عملي جهادي يعكس إرشادات وتوجيهات القرآن الكريم في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر العلم والفضيلة، ومحاربة الجهل والرذيلة عبر كل الوسائل الممكنة توجيهاً وتدريساً وتأليفاً حتى نشأ وترعرع تحت رعايته وعنايته مجموعة من المستنيرين الذين مضوا على نهجه القرآني وخطه الإيماني، وتأثر بثقافته القرآنية الكثير الكثير من الجماميع المؤمنة، فكانوا الرافد الأقوى للمسيرة القرآنية المعاصرة، التي بدأت خطواتها في الثمانينات من القرن العشرين.

لقد كانت كتبه وإرشاداته القيمة هي الوقود لمسيرة الدفاع عن منهج أهل البيت الطاهرين، التي كشفت زيف وأباطيل المبطلين وتضليل المضللين، ولمن يريد معرفة حقيقة ما قلنا ينبغي له الإطلاع على ما تم طبعة من تلك المؤلفات المفيدة والتي تربو على (٣٥) مؤلفاً، وخصوصاً كتابه (تحرير الأفكار عن تقليد الأشرار) وكذا كتابه (الغارة السريعة في الرد على الطليعة) فهما من أوسع ما كتبه رضوان الله عليه في الرد على الأفكار المنحرفة عن نهج القرآن والرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

إن هذه النفحات القدسية التي عطرت صفحات هذا المؤلف الجليل، وهذه الدرر التي تتلألأ بأنوار الهداية ليست وليدة لحظة جادت بها قريحته، أو مجرد فكرة آنية خطتها يده كما هو شأن معظم المفسرين، بل إنها مفاهيم راسخة تجذرت في داخله، وعلوم ربانية مكنونة بين جوانحه، وهي العلوم التي يمنحها الله من اختصه لذلك وارتضاه ممن اختارهم لوراثة كتابه، وتجلت لهم أسراره، فسبروا أغواره، وأشرقت في قلوبهم أنواره، فبدت على سلوكهم آثاره، مما يجعل المتصفح لهذا المؤلف الكريم، المتأمل لتلك اللفتات اللطيفة، والرؤى الثاقبة العجيبة يلمس تلك المسحة القدسية ويلحظ تلك المنحة الربانية، والهداية الإلهية التي خص بها ورثة الكتاب من السابقين بالخيرات، المُعدّين لبيان غامض الآيات.

فمرحى مرحى لطلاب علوم القرآن، وبشرى لعشاق المعرفة بقناعة واطمئنان، وهنيئاً لكل المتعطشين لهدي القرآن الكريم، بهذا المنهل الصافي، والبلسم الشافي والبيان الوافي، وسطع بأنواره من بين ركام الآلام والمشاكل والمحن، ولله الحمد والمنة الذي مَنَّ على مؤلفه بالرعاية والألطاف والسلامة والإعانة حتى تحقق الحلم، ورأى النور هذا المنجز العظيم، رغم قسوة الظروف، وتقلب الأيام، واضطراب الوضع، خصوصاً في السنوات الأخيرة، فتمت به النعمة على كل المؤمنين، وقامت به الحجة على جميع المعاندين، فهو كتاب ميسّر واضح البينات، قوي الدلالات غاية في الإنصاف بعيد عن التعصب، خال عن الغلو والتعسف، سهل العبارة دون تعقيد أو تكلف.

يقصد إلى بيان الحقيقة بأقرب طريقة، ويطرح ما وفقه الله لفهمه مهما بدا مجانباً لما قاله غيره، بأسلوب بعيد عن أساليب المتعاظمين الذين يسعون للشهرة بتكلف الخلاف، والإعتساف في الأدلة وعدم الإنصاف..

بل يطرح ما توصل إليه فكره بتواضع كبير، وبثقة العالم المستنير، يهدف إلى قول الحق، وبيان الصدق، لا يخشى في الله لومة لائم.

فلله ما أعظمها من نعمة أنعم الله بها على أمة الإسلام، وله سبحانه الحمد على فواضله وجزيل الإنعام، وجزى الله مؤلفه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ومن عليه بدوام العافية والشفاء، وحفظه من كل الشرور والأسواء.

**محمد بدر الدين الحوثي**

**ضحيان ـ صعدة**

**جمادى الثاني/١٤٢٩هـ**





## مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد الأمين وعلى آله الطاهرين.. وبعـــد:

اعلم أن تفسير القرآن مفتاحه معرفة لغة العرب، لأن القرآن نزل بلسانهم، كما يحتاج إلى استمداد العون والتسديد من الله وإخلاص العمل له سبحانه وتعالى، والتسبب لهدايته وتنويره بالاستقامة على التقوى، ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا...﴾ [الأنفال٢٩] وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد٢٨].

كما يحتاج إلى القدرة على استحضار الآيات المتماثلة لأنه كثيراً ما يتميز المعنى في آية بمعرفة نظيرها في القرآن، ويحتاج المفسر إلى التأني والتأمل والتثبت، ويستعين كذلك بالإطلاع على ما تيسر له من كتب التفسير للأئمة الطاهرين عليهم السلام وغيرهم لينتبه للمعنى المقصود، فأما تفسير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متى صح عنه فهو حجة، وكذا تفسير أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد اعتمدت كثيراً على تفسير القرآن بالقرآن إضافة إلى اعتماد الذوق العربي كوني بحمد الله أصيلاً في العربية نسباً وبلداً.

وقد يكـون في التفسـير خـلاف بـل هـو الغالـب فأكتـب مـا هـو عنـدي الصواب ولا أتعرض للرد على خلافه رغبـة في عـدم التطويـل، كمـا أنـي أحياناً قد أخالف التفسير الشائع المتداول فأرجو حملي على السلامة وحسـن النية وأن يجعله الناظر فيه سبباً للتأمل أو سؤال من تبين له وجه الترجـيح أو سؤالي إن أمكن.

وكثيراً ما أعدل عن التفسير بالروايـة لعـدم صـحتها عنـدي وكـون مـدلولها خـلاف الظـاهر أو لعـدم صـحة كونهـا روايـة عـن الرسـول كمـا في تفسـير (والنازعات) حيث لم يصرح القاسم عليه السلام بنسبتها إلى النبي أو الوصي، فلـذلك عدلت كثيراً عن اعتماد الروايات في التفسير، وقد أعدل عنـه إلى مـا لا يخالفهـا إلا بالتعميم أو الإطلاق، لأن القرآن لا يقصر على أسباب النـزول ولا يوقـف تفسيره على معرفتها بـل هـو مسـتقل بإفهـام معانيـه مـع أن معرفـة الأسـباب وظروف النزول تعين على فهم المعنى، وينبغي للمفسـر مراعاتهـا والتفسـير بمـا يناسبها ما أمكن بدون عدول عن الظاهر، وقد اعتمدت على الظاهر وحاولـت التمسك بالمعنى الحقيقي ما أمكن حتى توجد قرينة بيِّنة لإرادة المجاز.

وحيث تختلف القراءات اعتمدت قراءة أهل المدينة المنورة، وهـي القـراءة المشهورة، ولأنها قراءة أئمة الزيدية التي ورثوها عـن آبـائهم، كمـا اعتمـدت كذلك قراءة حفص المروية عن أمير المؤمنين علـي عليه السلام المشـهورة في العـالم الإسلامي.

هذا ولقد كنت راغبا عن القيام بهذا العمل، رغم تكرر الطلب مـن كـثير من الإخوان، وذلك لصعوبته والحاجة فيه إلى مزيد الحذر مـن التفسـير بغـير الصواب والقول على الله بغير علم والتفسير بالرأي، حتى جاء الولد حسين وبلغني طلب سيدي مجد الـدين رحمه الله أن أفسِّـر القـرآن، وذلـك لمـا يلاحـظ

من حاجة الطلاب من أبناء الزيدية إليه؛ لأن كتب الزيدية الأولين في التفسير يتعسر تحصيلها، ولم يكن قد طبع منها شيء في ذلك الوقت، وبعضها قد فُقد، فرأيت أن أكتب تفسيراً صالحاً للمبتدئ في الغالب أسهّل عباراته بقدر ما أستطيع فاستعنت بالله سبحانه على هذا العمل وقمت بتفسير القرآن الكريم بقدر الوسع.

وكنت ألازم العمل يوم كانت الفرصة سانحة، ثم حدثت شواغل أخرت العمل بعض التأخير، ثم قامت الحرب علينا سنة (١٤٢٤هـ) وبها انقطعت عن مواصلة العمل وفارقت الكتب، ومضى بنا الوقت حتى ضعف البصر ولما يكتمل التفسير، إذ كان قد بقي منه نحو ستة أجزاء من القرآن، حتى سنحت الفرصة فقمت بتفسيرها شفوياً وتسجيلها في أشرطة (كاسيت) وكان ذلك باللهجة الدارجة المستعملة في عصرنا.

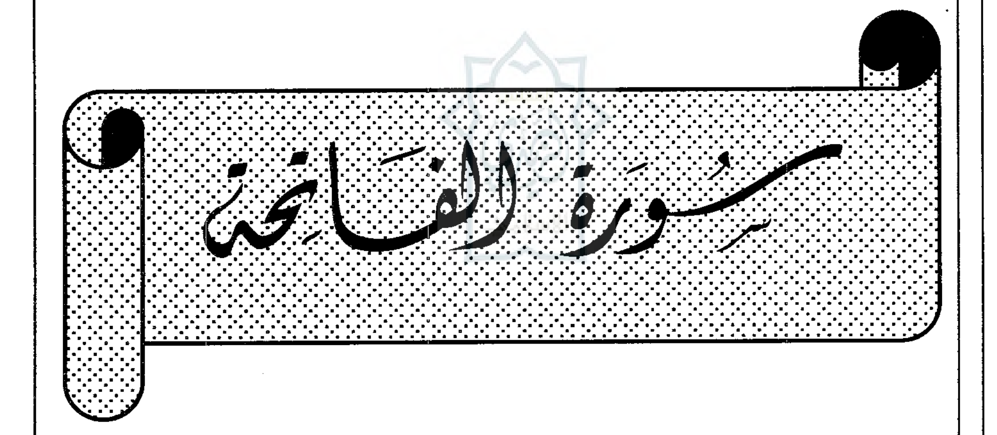
وقد تولى الولد محمد حفظه الله تسجيلها ثم كتابتها باللغة العربية الكاملة، وذلك من (سورة الصافات) إلى آخر (سورة التحريم) وبعد ذلك تمت مراجعته أكثر من مرة، أما (جزء تبارك، وجزء عم) فقد كان تقدّم تفسيرهما من قبل، هذا وقد جرى بعض التعديل على ما قد كنت رجحته في تفسير بعض الآيات وذلك خلال الفترة الأخيرة التي أتيحت لي الفرصة فيها للمراجعة والملاحظة للكتاب مع الولد محمد فلا يشكل هذا عند المقارنة مع المخطوط أو ما كان قد طبع من الكتاب.

وأسال الله قبول العمل وحسن الختام، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله الطاهرين.

**بدر الدين الحوثي ـ وفقه الله**

**بتاريخ ربيع الثاني/سنة ١٤٢٩هـ**




سُورَةُ الفَاتِحَةِ





# سورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا

---

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المعنى: باسم الله أقرأ، أي هذا كلام الله أقرأه باسمه، ليس كلامي أنا، وعلى هذا فهي تلقين للرسول ﷺ ولأمته، مثل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وهذا أرجح من تقدير أبتدئ؛ لأنه لو لم يكن المراد إلا الابتداء باسمه تعالى لكان الابتداء الحقيقي به أولى من الإخبار به، كأن يقال: الله الرحمن الرحيم، ولأن القراءة قد ظهرت في ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١] ومثله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا﴾ [هود:٤١].

وتقول عند الذبح: «بسم الله» أي باسم الله أذبح؛ لأنه أحل لي ذبح هذه وبناءً عليه أذبح لا اعتداءً وظلماً، ويظهر أن وجوب التسمية على الذبيحة لإفادتها هذا المعنى، وتقول: «باسم الله آكل» أي لأنه نعمته وكذا الشرب واللباس وغيرها و«باسم الله أعمل»؛ لأنه بتيسيره وما خلق لي من القدرة.

و﴿ٱللَّهِ﴾ هو الذي يأله إليه المخلوقون، ويفزعون إليه في المهمات، ويلجأون إليه عند المصائب، وإياه يعبدون، فمعناه: الإله الذي لا إله إلا هو.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ اسم لله يفيد رحمته لعباده والدليل على أنه اسم أن الكفار أنكروه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان:٦٠] ولو كان مجرد وصف بالرحمة لما أنكروه كما لم ينكروا الرحيم.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ وصف لله تعالى، يدل أنه يرحم عباده، ومن رحمته سبحانه إرسال الرسول ﷺ، وإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فالدلالة على رحمته وتكرارها بالاسم والوصف في أوائل السور، فيه فائدة عظيمة، كأنه يقول: استمعوا لكلام الرحمن الرحيم لتشملكم الرحمة إذا اتبعتموه، فإنه أنزله لكم رحمة لكم.

(٢) ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ هو المدح على الجميل الاختياري والجميل يعم الإحسان ويعم تحصيل الخير المطلوب والوقاية من الشر وإنصاف المظلوم والحكم بالحق والعدل وحيث أن نعم الله لا يحصيها العباد وما بهم من نعمة فمن الله ومن أعظم نعمه الهداية لما يرضيه ويقرّب منه ويؤدي صاحبه إلى السعادة الدائمة في جنات النعيم وحيث أن منه تعالى نعم الدنيا والدين ونعم الدنيا والآخرة التي لا تنتهي.

فله الحمد كله وهو له، ولو كانت النعمة بواسطة بعض المخلوقين ولا يكون حمد لمخلوق إلا بإذن الله وتيسيره لفعل سببه فحمد المخلوق نعمة من الله عليه، فهو لله من حيث أنه المنعم به لم يكن إلا بنعمته وتيسيره فالله المحمود على النعمة التي بواسطة العبد قبل حمد العبد والله المحمود على حمد العبد لأنه من نعمته ولو كان حمد العبد للعبد فهو نعمة بواسطة العبد ونظير هذا الحصر قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] بمعنى: أن أمرها إليه وحده لا تكون إلا بإذنه ورضاه ولم يناف ذلك وقوعها من العبد.

﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ سيّدهم، وهم كلهم له عبيد، وتعليق الحمد على الربوبية يفيد أنه تعالى محمود في ربوبيّته؛ لأنه منعم على عبيده كريم في مَلَكَتِه، أنعم عليهم وعاملهم بالحلم والرحمة، والتعريض على السعادة نعماً لا يحصونها وأعظمها إكمال العقول والدعوة إلى السعادة الأبدية وتيسير طريقها بإرسال الرسل وإنزال الكتب وغير ذلك. والعالمون جمع عالم يعم الإنس والجن والملائكة الأولين من العوالم والآخرين.

﴿٣-٤﴾ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فمن رحمته دعوة عباده إلى ما فيه نجاتهم من النار والفوز بالجنة ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ المُلك ـ بالضم للميم ـ يفيد: ولاية الأمر والنهي والتصرف فيهم بإثابة المطيع، وعقاب العاصي، وسؤالهم عما قدموا في الدنيا من الأعمال، ومحاسبتهم على الصغير والكبير، وإحضارهم في موقف الحساب لهذا الشأن، والمِلك ـ بكسر الميم ـ يفيد: أنهم عباده يتصرف فيهم كيف شاء.

و﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء، أي يوم القيامة، وإسناد المُلك ـ بالضم ـ إلى اليوم لكونه ظرفاً لما يقضي فيه ملك الملوك من جزاء، وله الملك يومئذٍ لاملك سواه ولا شريك له في ملكه، إذاً فالدين إنما هو منه يدين عباده بما قدموا في الدنيا ليس لأحد سواه.

وهذه الآيات تفيد: أنه المستحق للعبادة، وأنه يرجى من عبادته الفائدة العظمى، كما أن هذه الآيات إذا قرعت السمع، ووقرت في القلب، توجد في النفس رغبة إلى الله ورهبة منه، وتبعث على طلب الهداية منه إلى طريق رحمته ورضوانه، وإلى ما يقرِّب لديه يوم الدين، وتدعونا إلى أن نقول:

﴿٥﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ لأنك ربنا المحمود في ربوبيته المنعم علينا الرحيم بنا الذي له الملك علينا، يوم الجزاء الذي يجزينا بما قدمنا لا شريك لك نتوسل بعبادتك إلى رحمتك وإلى هدايتك.

والعبادة: هي الخضوع المعبّر عن العبودية، أي أن تخضع وتَذَلَّلَ لله معبراً بذلك عن كونك عبداً له تعالى، قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ..﴾ [النساء:١٧٢] فدل على أن العبادة تعبير عن العبودية، وقال تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام:٩٤] يعني الذين عبدوهم في الدنيا، فنقول:

ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

---

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نخصك بالعبادة ونعبدك وحدك لا شريك لك؛ لأنك ربنا لا شريك لك فينا ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نطلبك الإعانة على أمورنا لا نستعين غيرك، لأنك الذي تسمع الدعاء وتجيب دعوة الداعي لأنك ربنا الكريم في ربوبيته الحميد الرحيم بعباده السميع العليم القادر على تحقيق المطلوب وصرف المرهوب، فبالإخلاص في عبادتك ودعائك أن تعيننا نتوسل إلى هدايتك لنا وهي من الإعانة لنا، فتم الاتصال بين نستعين وقوله:

﴿٦﴾ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وهذا الدعاء العظيم الذي قصد أعظم المطلوب وأجمعه للخير على شكل التضرع وإعلان الحاجة والافتقار إلى ربنا والاعتراف بضعفنا بحيث أنا مع وضوح الصراط نحتاج إلى أن يهدينا إليه، وذلك لما يصرفنا من شواغل الدنيا ومن الغفلة ومن ضعف العزم، فبالهدى تنشرح صدورنا، فتقوى إرادتنا وننتبه من غفلتنا ونزهد في الدنيا، فلا نشتغل بشواغلها حتى نمضي في الصراط المستقيم، والهدى أصله الإرشاد إلى الطريق، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢] فهو شرح يرشدنا إلى الصراط كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨] و﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ هو الطريق المعبّد الذي لا يلتبس على من مشى فيه، وهو صراط الله الذي دعا إليه عباده قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا..﴾ [الأنعام:١٦١].

وفي التعبير بـ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ فائدة أخرى، وهي: أنا لم نطلب الهداية إلى الطريق من أجل غموضه وكونه مظنة الالتباس وغلط من مشى فيه؛ لأنه طريق واضح يعبر عنه بالصراط المستقيم، وإنما طلبناه لضعفنا وما يعرض لبصائرنا من الضعف بسبب الذنوب والغفلة والأغراض الدنيوية.

و﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي لا عوج فيه فضلاً عن أن يكون فيه ثنايا أي لفّات، والطريق المستقيم أقرب إلى المطلوب، ووصف هذا الصراط بالاستقامة؛ لأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا﴾ [الكهف:١].

وقال تعالى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ﴾ [الكهف:٢] فصراط الله قيّم لا عوج له معتدل لا يجور بأهله عن قصده، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده وبيّنه لهم بالقرآن والسنة وغيرهما من وسائل المعرفة.

واعلم أن الصراط، والطريق، والسبيل، كل منها يدل على أمر مقصود بالمضي فيه، فصراط إلى ماذا؟ وطريق إلى ماذا؟ وسبيل إلى ماذا؟

*والجواب* قد بيّنه الله تعالى في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧] والهدى إليه أولاً في الدنيا بالإرشاد إلى معرفته الكاملة، وذكره كثيراً بالقلب واللسان، حتى نترك ما يشغلنا عن ذكره وعبادته، وثانياً في الآخرة بإيصالنا بما تقدم من هدايتنا في الدنيا إلى رحمته ورضوانه ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] ثم بيّن تعالى هذا الصراط المؤدي إليه فقال تعالى:

(٧) ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ وهم رسل الله الذين أنعم عليهم بالهدى ومن تبعهم إتباعاً كاملاً ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٨] قال تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام:٨٠] أي لإسلام نفسي له وإسلام وجهي له، ثم قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ..﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿.. وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام:٨٤-٩٠].

وقال تعالى بعد ذكر عدد من الأنبياء عليهم السلام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ [مريم:٥٨] وقال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة:٢٣] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

وهذا لأن نعمة الهدى أعظم النعم باعتبار أنه يؤدي إلى السعادة الأبدية وينجي من الشقاوة الأبدية، فكأنه لا نعمة إلا نعمة الذين هداهم الله إليه؛ لأن نعمة الهدى هي النعمة الكبرى التي تصغر في جنبها سائر النعم الدنيوية، وحيث أن السورة أول سورة نزلت من القرآن أو من أول ما نزل لا نتحقق أنه يدخل من هذه الأمة في قوله تعالى:﴿ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام، ولا يدخل فيه أحد ممن يعبد الأصنام يومئذ؛ لأن أنعمت فعل ماض، فلا بد أن يكون المعني بها من قد هداهم قبل نزولها.

فإن سأل سائل عن فائدة قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ ولماذا لم يكف ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأن وصف الصراط بالإستقامة يفيد: أنه الحق؟

**فالجواب** وبالله التوفيق: أن قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ..﴾ إلى آخرها، يفيد تعيين أهل الصراط فهم رسل الله ومن تبعهم الذين أخلصوا لله العبادة وثبتوا على تقوى الله وطاعته كما أمرهم لم يتعرضوا لغضب الله ولا ضلوا عن سبيل الله وفي تعيينهم **فائدة:** وهي أنا لم نطلب الهداية للصراط بسبب الحيرة والتباس الطريق كما هو شأن من يسأل عن الطريق ويطلب الهداية إليها بل نحن نعلم أن الصراط المستقيم صراط الله الذي جاءت به الرسل منهم خاتمهم محمد ﷺ؛ ولكن نسأل الهداية إليه لإصلاح عزمنا وكشف الغفلة وغيرها من الصوارف كما قدمنا.

**وفائدة أخرى** وهي الإيمان بالرسل وما جاءوا به من عند الله حيث نجعل هداهم نعمة من الله، ولما كان قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ قد يُطمع أهل الكتابين الذين هما نعمة عظمى، مع أنهم خالفوا طريقهما، بيّن: أن الذين أنعم الله عليهم لا هم مغضوب عليهم، ولا هم ضالون، فدل ذلك على أنهم غيرهم.

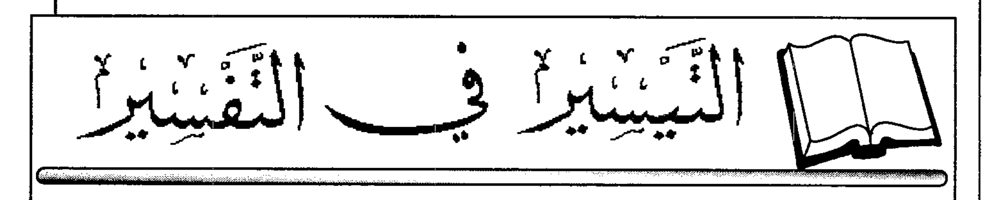
﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي كاليهود والنصارى ومن كان مثلهم، الذين نزل فيهم قوله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾** [المائدة:٦٠] ونزل فيهم قول الله تعالى: **﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾** [المائدة:٧٧] فالذين أنعم الله عليهم غير مغضوب عليهم ولا ضالين، بل مرضي عنهم مهتدون، وفي هذا دلالة على أن النعمة العظمى هي الهدى، ورضوان الله تعالى وهي فائدة لقوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ مع فائدة تعيينهم وإخراج اليهود والنصارى .

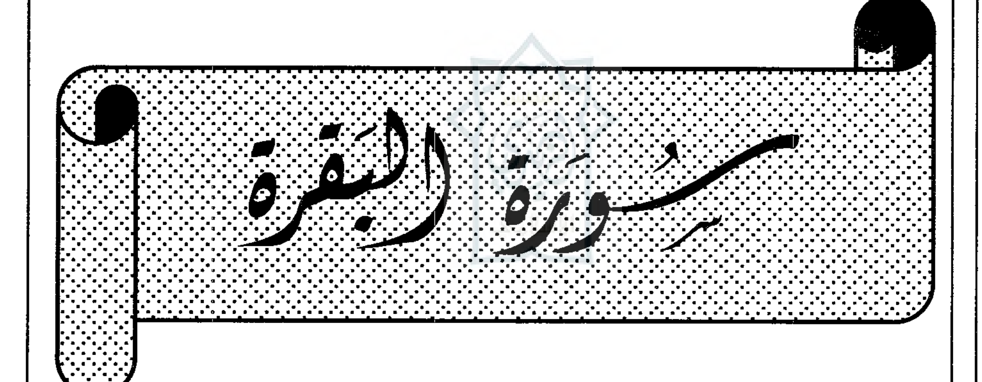
وقال الإمام القاسم عليه السلام: «﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ في هذا الموضع هم اليهود، و(الضالون) في هذا الموضع: هم النصارى» وهو عليه السلام لا يعني: أن اليهود غير ضالين، كيف والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٦٧] ولا يعني عليه السلام: أن النصارى غير مغضوب عليهم، كيف وقد شملتهم الآية الأولى ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة:٦٠] وإنما أراد عليه السلام في هذا الموضع خاصة الذي هو آخر الفاتحة كما قيد بقوله عليه السلام في هذا الموضع.

نعم.. والغضب في المخلوق معروف وهو حالة في النفس تدعو إلى البطش ويريد صاحبه أن يبطش بمن سبّب له، وفي الحديث «أنه جمرة تتوقد في جوف ابن آدم، ألا ترون إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه» والله سبحانه منزّه عن هذا؛ لأنه لا يشبه المخلوقين.

وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له عليه السلام في (التوحيد) وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمعه خطبة غيرها كما قال الرضي ورقمها [٢٢٨] في صفة الله سبحانه: «يريد ولا يضمر، يحب ويرضى من غير رقة، ويبغض ويغضب من غير مشقّة» انتهى.

والضلال: هو غواية السائر عن الطريق وخفاؤها عليه، هذا إذا قيل ضل عن الطريق أو نحو هذا واستعمل في العدول عن طريق الحق، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:١] ويستعمل الضلال في غير هذا ومرجعه إلى الضياع والغواية، والضالون هنا: المراد بهم الغاوون المخالفون للحق.


التيسير في التفسير


سورة البقرة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ

---

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ﴾ هذه الأحرف من حروف المعجم، هي أسماء للحروف التي ينظم منها الكلام، فـ(ألف) اسم للألف في (قال) و(دعا) ونحو ذلك، و(لام) اسم للام في (قال) ونحوها، و(ميم) اسم للميم في (محمد) ونحو ذلك.

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر هذه الثلاثة الأحرف كثيراً، فقد ذكر ألف لام أربع عشرة مرة؛ ست مرات مع الميم، والسابعة مع الميم والصاد، وست مرات مع الراء، والسابعة مع الميم والراء، وذلك في ﴿الم﴾ ﴿المص﴾ ﴿الر﴾ ﴿المر﴾ وذكرت الميم سبع مرات في ﴿الم﴾ و﴿المص﴾ ومرة في ﴿المر﴾ وسبعاً في الحواميم، ولعل سبب ذلك ـ والله أعلم ـ كثرة هذه الأحرف في الكلام، فجاءت كافية عن ذكر الأحرف كلها، وهذا حيث جاءت لقصد التعجيز بآيات الكتاب المركبة من حروف المعجم التي ينطق بها العرب، فكأنه يقول: هذا القرآن هو أحرف من الأحرف التي تتكلمون بها في كلامكم، فما لكم لا تأتون بسورة من مثله إن كنتم في ريب منه؟!

فسرد بعض الأحرف إشارة إلى كلها وأكثر منها لهذا الغرض ما هو أكثر وروداً في الكلام، لكونه أوضح وأقرب لفهم الأميين، وكذا حيث جاءت هذه الأحرف في أول بعض السور للدلالة على أن الله تعالى أوحى هذا القرآن كلاماً حقيقياً مؤلّفاً من الأحرف من شأنه أن يسمع ويكتب، تحقيقاً لكونه من الله أنزله على عبده ورسوله أوحاه كلاماً كما نسمع ونرى.

لا أنه تقوّله، ولا كان مجرد إلهام للمعنى دون القول وحروفه، ولم نعرف من أسرار هذه الأحرف أكثر من هذا ولا ننفي ما جهلناه، ولكن نقول ما ينسب إلى القرآن الكريم من المعاني الباطنة على ثلاثة أقسام:

قسم يتوصل إليه علماء الدين المهتدون بهدي القرآن، يتوصلون إليه بالظاهر من دلالات القرآن.

وقسم يتوصلون إليه بالدلائل العقلية، وهو لاحق بالأول أو بالقرائن الظاهرة من ظروف نزول القرآن أو من مناسبة مقاصد القرآن المعروفة بالممارسة في التفسير.

وقسم يدَّعَى بالإلهام دون أن يتوصل إليه بدليل، فهذا مردود ولا تسمع دعواه ولا سيما إذا خالف الظاهر كما تدعيه الباطنية؛ لأنه لا دليل عليه، ولأن الله أنزل القرآن للناس بلسان العرب ليعقلوه كلهم ولم يخص به شيخاً ولا إماماً كما هو معلوم من دين الرسول ﷺ، ولا يجوز أن يخاطب الله سبحانه عباده بما يفهمونه وهو غير مراد، بل المراد خلافه أو ضده، هذا لا يصدر من حكيم ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨].

أما الدليل على ما فهمناه من إرادة تحقيق أن الله تعالى أوحى الكتاب كلاماً مؤلفاً من الأحرف أو التعجيز، فإنه يظهر من اقتران الأحرف بما يدل على ذلك في بعض المواضع، مثل قوله تعالى: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى:١-٣] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس:١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف:١] ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد:١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر:١] ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء،القصص:١-٢] ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:١] ﴿الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان:١-٢].

واختار الإمام القاسم بن محمد عليه السلام في (الأساس) أن هذه الأحرف جاءت في أوائل بعض السور للقسم بها، واحتج لذلك بأن القسم مفهوم في مثل قوله تعالى: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:١-٣] وقوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١] ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١] فجعل القسم بالأحرف وبالقرآن، وقدّر حرف القسم قبل الأحرف وجعل الواو المذكورة عاطفة، وليس بعيداً أن يقسم الله بالأحرف التي أنطق الإنسان بها؛ لأنها من دلائل قدرة الله وعلمه، ومن نعم الله العظمى على الإنسان.

وما ذكرته من إرادة التعجيز أو تحقيق وحي القرآن كلاماً مؤلفاً من الحروف، إنما يترجح في بعض المواضع ولا يقاس عليه بقيتها، فالمحقق أنها اسم لمعناها المفهوم عند العرب الذي تبنى منه الكلمات، فأما فوائدها وأسرارها فموكول إلى من علّمه الله.

قال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام في كتاب (الرّد على ابن المقفّع) [ص١٤٦] نسخة صورة مخطوطة: «ثم عمد - أي ابن المقفع - إلى سرّ أسرار القرآن، وأعجب عجائب سر القرآن من الرايات والحواميم وما ذكر فيه من قاف والم وطسم، فعدّ علمها جهلاً، وظن مصون عجيبها مبتذلاً، وأراد ويله علم سر أنبائها، وما طواه الله إلاّ عن الأصفياء في إيحائها، وكَلاًّ لم يجعله الله لعلمها أهلاً، ولم يجعل قلبه العميّ لها محلاً، بل أخفاه الله وزمّله ولم يعطه إلاّ أهله» انتهى المراد. وفي الأم: إنبائهما وإيحائهما بالتثنية، ولكن من الواضح أنه غلط.

وقال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام في كتاب (مديح القرآن الكبير) [ص٤٩٢] من مجموعِهِ عليه السلام في مدح القرآن: «كيف بما في حواميمه من غرائب حكمه، وما في طواسينه [من] عجائب مكنونه، وما في ق، وطه، ويس، من علم جمّ للمتعلمين» انتهى المراد.

هذا ولسنا بمكلفين بعلم أسراره، والتكليف به خاص بمن يستطيعه، وأما الخرص والتخمين فليس من التفسير المقبول، وكذلك ما يروى من تفسيرها عن علي عليه السلام بدون سند صحيح ولا وجه يوجب اعتماده، فلا يصح عندنا ولا نراه، وما روي عن الإمام الهادي عليه السلام: من أن الله تعالى لم يطلع أحداً على معانيها، حتى أنه لم يطلع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو قول عندي بعيد صحته عن الهادي عليه السلام، والأقرب عنه عليه السلام نفي التكليف لنا بعلمها فقط.

(٢-٣) ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ قد تقدم في تفسير (الفاتحة) أن الهدى من أهم المطالب وأعظم النعم؛ لما يترتب عليه من النجاة من النار والفوز بالجنة والسعادة الأبدية، وهذه الآية الكريمة تدلنا على ما به نهتدي، وهو القرآن مع التقوى من حيث أنه الحق الذي لا ريب فيه ولا شك في انه صدق وحق وعدل، وأنه من الله ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] فلا يتعلق به الريب من أي جهة.

والريب: هو القلق في النفس، فهو كناية عن نفي الشك فيه، وفي قوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ تعبيراً عن القرآن إشارة إلى أنه نزل ليكتب ويبقى تتوارثه الأجيال ليهتدوا به، والراجح: أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ و﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ خبر أول.

وقوله: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ خبر ثان وقوله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ خبر ثالث، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤] وقد تضمن قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ بيان: أن القرآن هدى لمن يهتدي به، وهو بداية الكلام في اختلاف المكلفين بين من يهتدي به ومن يكفر به ومن لا يؤمن به مع دعواه الإيمان، ثم بيان الحجة على أنه من الله نزله على عبده ورسوله، ثم الوعيد لمن كفر والوعد لمن آمن، فأول فرقة هم المتقون الذين يهتدون به.

وبيّن صفة المتقين التي انفردوا بها عن الكفار والمنافقين، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يصدقون به ويذعنون له، وتقبله قلوبهم موقنة أنه الحق، و (الغيب) هنا هو ما أخبر الله به من المغيبات، ومن ذلك ما ذكره الله في آخر السورة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ..﴾ الآية.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾وإقامتها أن يحيوها، فيؤدوها قيّمة، أي خالصة لله كاملة فروضها وشروطها في أوقاتها، وهذه من خواص المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:٩٢] وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ [التوبة:٧١].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:١-٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ [الأنفال:٢-٣] وغير ذلك.

ولعل من إقامتها حضور الذهن فيها بحيث يعلم ما يقول، قال تعالى: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣].

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ مما رزقناهم مما أعطيناهم من المال، وهذا خاص بالحلال؛ لأن ما أخذه العبد غصباً مثلاً لا يقال فيه رزقه الله إياه، بل هو رزق لأهله، والمراد الإنفاق فيما أمر الله به، مثل ما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ

---

والإنفاق في وجوه الخير من علامات الإيمان والتقوى؛ لأن المؤمن المتقي يرجو الثواب وصرف العقاب فيبعثه ذلك على الإنفاق بخلاف المنافق والمكذب بالدين، وكذلك قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ..﴾ إلى قوله: ﴿..أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤] وقال تعالى في المكذب بالدين: ﴿وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة:٣٤] وقال في المنافقين: ﴿وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤] وغير ذلك.

﴿٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ هذا عطف على ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ فهو من صفة المتقين، وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعم القرآن، وما أوحاه الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم من غيره، وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعم التوراة والإنجيل، وكل ما أنزل الله مما ذكر في القرآن خصوصاً أو عموماً، والإيمان بها الإيمان بأنها من الله سبحانه، وأنها حق وصدق، واليقين بالآخرة يبعث على التقوى؛ لأن اليقين بما فيها من الجزاء لتلازمهما كما دل عليه القرآن.

ومن أيقن بصدق الوعد والوعيد خاف من النار ورغب في الجنة، فبعثه ذلك على التقوى؛ ولأن اليقين بالآخرة من تمام الإيمان بالله وقدرته وعلمه وصدق وعده بالآخرة، ومن كان كذلك أيقن بصدق الوعد والوعيد بما في الآخرة، وذلك مع الإيمان به يؤدي إلى التقوى، فظهر بهذا أن هذه الآيات بيان للمتقين، في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.

(٥) ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي أهل هذه الصفات المذكورة على هدىً من ربهم، وهذا الهدى خاص بهم، وهو إعدادهم للاهتداء بالقرآن، فصدورهم له مشروحة، وقلوبهم له مفتوحة، وبصائرهم منوّرة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ [الأنعام:١٢٥] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال:٢] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨] وهذا الهدى مسبب عن التقوى، وقد يحتج لذلك بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧] وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:٧٦].

وعندي: أن هذا الهدى هو ما يفهمونه من القرآن ويحفظونه، ولكن بسبب الهدى الذي هو إعدادهم لفهم القرآن وحفظه كما يرشد إلى ذلك السياق، راجع (سورة مريم) و(سورة محمد) ﷺ.

نعم الأولى أن نفسر قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بما يعم الأمرين: الهدى الذي هو إعدادهم للاهتداء به، والهدى الذي هو ما يفهمونه ويحفظونه من القرآن، وهذا هو الصواب إن شاء الله؛ لأنه كله فائدة التقوى، وفائدة الصفات المذكورة.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ بما يصيرون إليه في الآخرة من ثواب الله، بل وبما ينالون من الحياة الطيبة في الدنيا، فهم المفلحون بفوائد الاهتداء بالقرآن كلها، والفلاح: الظفر بالخير.

قال في (الكشاف): «والمفلح الفائز بالبغية، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه» اهـ.

عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ

---

﴿٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الكفر يستعمل في الجحود وفي كفر النعمة، وهاتان الآيتان في كفار معينين كافرين، الكفر الذي هو ضد الإيمان، والكفر الذي هو ضد الشكر.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فالإنذار لا يحدث لهم خوفاً يبعث على النظر في صدق الوعد والوعيد؛ لأنهم معرضون عنه كارهون له، فوجوده وعدمه سواء عليهم، ولذلك لا يؤمنون بما أمروا بالإيمان به.

﴿٧﴾ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ هذا تمثيل لها بالمسدودة التي هي غير مفتوحة للإيمان، فلا سبيل للإيمان ليدخلها، والختم: ما يجعل على فم القارورة أو نحوها من شمع أو طين أو نحو ذلك لإحكام سدّ فمها، فشبهت قلوبهم بذلك؛ لأن كفرهم سبّب لهم الخذلان وإرسال الشياطين عليهم كما قال تعالى: ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:٣-٤].

فصاروا بإرسال الشياطين عليهم يزينون لهم الباطل، ويثقلون عليهم الحق، ويكرّهون إليهم الإيمان، كارهين للإيمان كراهة شديدة تحول بينهم وبينه، فكأنها ختم على قلوبهم يمنع دخول الإيمان فيها، أما نسبة ذلك إلى الله سبحانه ففيه فوائد:

*الفائدة الأولى*: تعظيم هذا الختم والدلالة على قوته؛ لأن الله غالب على أمره.

*الفائدة الثانية*: الدلالة على أن الله قد غضب عليهم، وعاقبهم بهذا الختم الذي هم معه لا يصيرون إلى خير.

*الفائدة الثالثة*: الدلالة على أن الله تعالى غني عنهم لا يبالي بهلاكهم ولا بامتناعهم من الإيمان وكفرهم.

*الفائدة الرابعة*: أن يتسلى الرسول ﷺ عنهم ولا يتعب نفسه في محاولة إيمانهم كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦] والتسلية هي من حيث الإشعار بأن الله خذلهم وشاء تركهم على كفرهم.

*الفائدة الخامسة*: تشريف كلام الله العزيز المقتدر عن أن يكون ذكره لتمردهم يشبه الشكوى منهم.

أما وجه صحة النسبة للمانع من الإيمان إلى الله فله وجهان:-

*الأول*: أن الله فطر القلوب على أن تميل إلى ما عُوِّدت وتألف ما أُلِّفت كما فطرها على الشهوة والإلتذاذ بلذات الدنيا، فالقلب من هذه الجهة طوع لصاحبه، إما أن يوجهه إلى خير الآخرة وسعادتها والنجاة من النار فتكون رغبته في ذلك، وفيما يصرف عنه النار، وإما أن يوجهه إلى لذات الدنيا وأغراضها والسلامة من مشاق التكليف والراحة من العناء والانقياد للكبر وكراهية الانقياد لداعي الحق، فيتوجه القلب إلى ذلك ويكره ما صرف عنه في اعتقاده ورأيه وفيما يوسوس له الشيطان، فصحت نسبة المانع إليه سبحانه بهذا المعنى؛ لأنه هيّأ القلب وأعده لذلك بما فطره عليه وحسنت هذه النسبة لما ترتب عليها من الفوائد الخمس وغيرها، كالابتلاء بالمتشابه.

الوجه *الثاني*: أن يعتبر إرسال الشياطين والخذلان كالتسبيب لوجود المانع من دخول الإيمان في القلب، كما يقال: أفسد ولده، لمن أهمله ووفّر له ما يشتهي، فجعل ترك تأديبه وتعليمه مع توفير ما يشتهي إفساداً له منسوباً إلى أبيه.

﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ وهذا معطوف على قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي وختم على سمعهم، فكأن آذانهم مسدودة سداً محكماً يمنع سماع الإنذار والآيات، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ [هود:٢٠] وهو تشبيه في المعنى بمن لا يستطيع أن يسمع كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا..﴾ [الجاثية:٧-٨] ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان:٧] وهذا لأنهم لأجل كراهتهم لآيات الله وإنذار الرسول ﷺ وإصرارهم على رفضه والتكذيب يكون سماعهم لها لا يؤدي إلى ثمرة السماع التي تكون لطالب الحق السليم من الخذلان وإرسال الشياطين، فكأن سماعهم ليس سماعاً ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ فكأن إثبات الختم على سمعهم مجاز بهذا المعنى؛ لأن بينهم وبين الانتفاع بالسمع حائل وسد من كراهيتهم للسماع وإصرارهم على الكفر والتكذيب واستكبارهم.

﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ وهذا مجاز كأنهم لا يبصرون؛ لأنهم لا ينتفعون بما يرونه من آيات الله التي تأتي على يدي رسوله ﷺ، بل كأنهم لا يرون رسول الله ﷺ حين ينذرهم ويتلو عليهم آيات الله، فكأن على أبصارهم غطاء.

ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

---

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وجه العطف أن الختم والغشاوة عقوبة على تمردهم عن قبول الإنذار، والعذاب العظيم عقوبة أخرى، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠].

﴿٨﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ هؤلاء قوم من المنافقين أشبهوا الكفار المذكورين قبلهم في تمردهم عن قبول الحق، بل كانوا أشد منهم كفراً لمحاربتهم الدين من بين المسلمين ومخادعتهم لهم، وغير ذلك مما ذكر في الآيات التي جاءت فيهم لبيان تمردهم وإفسادهم ووقوفهم من الكتاب الذي لا ريب فيه موقف المحاربين، ولم تأت لتفسير النفاق والتعريف بحقيقة المنافق كما لم تأت الآيتان في الكفار لبيان حقيقة الكافر؛ لأن المنافق هو الذي يتولى الكفار من دون المؤمنين سرّاً وهو مظهر للإسلام.

وهذا قد احتج له الإمام القاسم عليه السلام والإمام الناصر في (البساط) بما فيه الكفاية، وأوضح دليل فيه قوله تعالى في بعض المنافقين: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران:١٦٧] وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٤-١٤٥] وقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآيات [الحشر: من آية١١] فتأمل!!

والمنافقون يختلفون في الجرائم ودرجاتها، فهذه الآيات في بعض، وفي (سورة النساء) في بعضهم: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [آية:٨٨] وفي (سورة التوبة) ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ [آية:٦١] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ [آية:٧٥] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾ [آية:٤٩].

وفي (سورة المنافقين) كلام في بعضهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [آية:٨] ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [آية:٧] وسبب النفاق مرض القلب، أي التردد والارتياب في صدق الرسول ﷺ بعد سماع الآيات الدالة عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥] ثم الخوف من غلبة الكفار، ثم يكون تولي الكفار سراً عن المؤمنين، قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة:٥٢] وليس المراد: أنه لا يلزمهم حكم الكفر بتولي الكفار، وإنما المراد: أنه لا يشترط في المنافق أن يضمر في نفسه الكفر الذي هو الجحود بالقرآن والرسول، بل قد يكون المنافق كذلك، وقد يكون شاكاً متردداً في ريبه متولياً للكفار.

وقد يكون مرتداً كالمذكورين في (سورة النساء) في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً..﴾ الآية [٨٨-٨٩] فتأمل!! وقال تعالى في بعضهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة:٧٤].

ولنرجع إلى تفسير الآيات ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ الراجح: أن هذه منهم كلمة إنشاء للإقرار بالله واليوم الآخر توهم مطابقة القلب للسان.

والإنشاء أشد في الخداع من الخبر الذي يقبل التصديق والتكذيب؛ لأن من أنشأ كلمة الإيمان يقبل كما أفاده قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة:٦١] وقوله تعالى:﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء:٩٤] فمن أنشأ كلمة الإيمان قبل عملاً بالظاهر وامتثالاً لأمر الله تعالى، فلهذا يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ ليُقبَلوا.

فأما تعليقهم الإيمان بقولهم ﴿ بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فإن الإيمان من هذه الناحية هو الباعث على طاعة الله وتقواه؛ لأن الإيمان بالله إذا صدق كان باعثاً على الخوف من الله ومراقبته والإيمان باليوم الآخر إذا صدق كان باعثاً على الخوف من النار والرغبة في الجنة، وذلك يبعث على الطاعة والتقوى، فالمؤمن بالله واليوم الآخر لا بد أن يكون كامل الإيمان؛ لأن في نفسه الباعث القوي على ذلك، فقد لزم من دعواهم الإيمان بالله واليوم الآخر دعواهم الإيمان المطلق، ولذلك كان إبطال قولهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٤٧] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ..﴾ الآية [النساء:٦٠-٦٥] وهذا لأن الإيمان بالله والرسول والإيمان بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله كله إذا صدق يستلزم الإيمان الكامل ويكون مدعيه مدعياً للإيمان المطلق.

﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ

---

أما قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الكلمة الجامعة لأسباب الخشية من الله، فهو أبلغ في الخداع بإيهام أن شأنهم الصلاح والإصلاح والانقياد لأمر الله ورسوله، والنصيحة للرسول وللمسلمين، خوفاً من الله واستعداداً للقائه، ولكن الله تعالى كشف زيفهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ وبيّن تعالى أنهم في ذلك القول:

﴿٨﴾ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أما مخادعتهم للذين آمنوا فظاهر، وأما خداعهم لله سبحانه فهو مجاز؛ لأنهم في غفلتهم عن الله وجهلهم بالآخرة وكون همّهم الدنيا فهم يعتبرون السلامة في الدنيا غاية مرامهم، فأظهروا الإسلام لئلا يقاتلهم المسلمون، وليعيشوا معهم وبينهم كأنهم مؤمنون، فقد فرّوا من عذاب الله لهم بأيدي المؤمنين.

فكأنهم يخادعون الله بإظهار الإسلام والإيمان، وإن كانوا غافلين عن الله؛ لأنهم لجئوا إلى إظهار الإيمان لينجوا مما يفعله المسلمون بالكافرين من القتال بأمر الله وبنصر الله فقد فروا من الله بخداعهم للمؤمنين، حيث فروا مما هو في الواقع عذاب من الله بأيدي المؤمنين، فاعتبروا مخادعين لله وإن كانوا غافلين عن الله، لأن عملهم يشبه عمل المخادع لله.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن ضر الخداع عليهم، فهم يفعلون بأنفسهم ما هو كالخداع لها؛ لأنهم يعتبرونه نفعاً ونجاةً، وهو في الواقع ضر وهلاك، فقد خادعوا أنفسهم وخدعوها وإن كانوا غافلين عن ذلك.

مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ

---

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أنهم يخادعون أنفسهم ويخدعونها، قال في (الكشاف): «والخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ـ قلت: يعني تغطيةً على ما يريد من المكروه ـ وقال: «والشعور: علم الشيء علم حِس من الشعار، ومشاعر الإنسان حواسه، والمعنى أن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس، وهم لتمادي غفلتهم كالذي لا حس له» انتهى.

﴿١٠﴾ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ قد قلت فيما مر أن مرض القلب: هو التردد والارتياب، ولكن الراجح أنه ذلك، وأسباب ذلك من الكبر أو الحسد أو نحو ذلك مما يكره الإيمان من أغراض النفس الأمارة بالسوء وكراهية الإيمان لبعض هذه الأسباب أو كلها، وذلك مشبّه بالمرض.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ من جنس مرضهم؛ لتمردهم عن الإيمان، وتكذيبهم بآيات الله، بسبب ذلك المرض الأول، وهذا شبه الختم في الكفار، وقد مر تفسيره.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ وصف العذاب بأنه ﴿أَلِيمُۢ﴾ يدل على شدته، أي أنه عذاب شديد؛ لأن من شأن العذاب أن يؤلم ألماً شديداً، فإذا وصف بأنه أليم دل على زيادة ألمه عن المعنى الذي تفيده كلمة عذاب ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ تعليل لتعذيبهم بذلك العذاب، ويصلح مع ذلك تعليلاً لقوله: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾.

﴿١١-١٢﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بما تكيدون به الإسلام، وإذا ذكر الفساد مع زيادة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو عبارة عما شأنه أنه يعم ضرورة وينتشر إذا لم يدفع، كمحاربة الدين بالدعايات أو الشبه أو غيرها، وكمحاربة اقتصاد المسلمين أو إضعاف جمهورهم بأي وسيلة.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ فنحن أبعد عن الفساد في الأرض بالغوا في تنزيه أنفسهم، وهذا العطف هو عطف لصفتهم هذه على صفتهم في الآية التي قبلها، قوله: ﴿مَنْ يَقُولُ آمَنَّا﴾ أعني على الصلة، والآيتان اللتان بعدها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا..﴾ كذلك يذكر سبحانه قولهم، ويرده رداً شافياً.

ففي الأولى قولهم: ﴿آمَنَّا﴾ وفي الثانية: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ وفي الثالثة: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ وفي الرابعة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ والآيات المتضمنة لذلك متعاطفة بشكل واضح في سياق ذمهم وتقبيح طريقتهم:.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ قال في (الكشاف): «ردّ الله ما ادعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ ردّ وأدلّه على سخط عظيم، والمبالغة فيه من جهة الاستئناف وما في كلتا الكلمتين، (ألا) و(إن) من التأكيد، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل» انتهى.

قلت: أنا أستشعر من ابتداء الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿أَلا﴾ التي هي حرف تنبيه، كأن الآية تعلن بهذا التصريح وتنادي به في المسلمين، وفي ذلك فوائد:

*الأولى*: إبطال قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ وتحقيق أن الواقع ضده على غاية المضادة.

*الثانية*: الدلالة على أن القائل: ﴿لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هو المصيب، وأنهم المخطئون بالرد عليه.

*الثالثة*: تحذير المسلمين منهم لئلا يفسدوهم، أو يفسدوا ما بينهم من الألفة والإخاء.

إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ

---

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ففيه دلالة على أنهم في ضلال بعيد، حيث لا يشعرون أن ما يفعلونه من كيد الإسلام والمسلمين إفساد.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ الذين هم الصادقون في إيمانهم فهم الناس هنا؛ لأنهم الصالحون الكاملون في الإنسانية، ولأنهم أهل القوة بألفتهم والعزة بإيمانهم، فإيمانهم هو الإيمان الذي يبعث على العمل الصالح والنصح لله ولرسوله وللمؤمنين ومباينة الكفار، خلاف ما عليه المنافقون الذين يتولون الكفار ﴿وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤] ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة:٨] ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ استخفافاً بأهل الدين واستضعافاً لعقولهم، وزعماً أن أهل الدين فاقدون لحسن الرأي ورجاحة العقول، وزعماً أن ما يصدر عن المنافقين إنما هو مقتضى الرأي وتوخي المصلحة وإرادة استمالة الكفار إلى الإسلام وترغيبهم فيه باللين والمصانعة والمجالسة، فعدّوا مخالفة طريقة المؤمنين لطريقتهم إنما هي من ضعف الرأي ونقص العقول.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه وتأكيد لما بعدها، وفي هذا الرد عليهم من التأكيد مثل ما في قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ ويبين أنهم هم السفهاء، كما أخبر الله أصدق القائلين أنهم سلكوا في نفاقهم طريقة توجب لهم الدرك الأسفل من النار، فهم في الآخرة أبداً معذبون، وفي الدنيا في فرق وقلق مذبذبون لم يستفيدوا بالنفاق أمناً، ولا عزة، ولا راحة، بل على العكس من ذلك كما تفيده الآيات الكريمة في (سورة البقرة) و(سورة النساء) و(سورة التوبة) و(سورة المنافقين).

يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ

---

والعقل لا يدعو إلى ذلك، بل يدعو إلى طريق الأمن والسلامة والكرامة، فدل تصرفهم الخاطئ على أنهم ضعاف العقول؛ لأنهم أهملوا عقولهم واتبعوا أهواءهم فضعفت عقولهم بالغفلة وترك النظر، وبقوة هوى النفس في خلاف العقل فصح أنهم هم السفهاء، قال في (الكشاف): «والسفه: سخافة العقل، وخفة الحلم» انتهى.

﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ لأن علمهم بذلك يتوقف على الإيمان الصادق الذي يعرف به صواب الرأي وطريق الفلاح وأسباب النجاة وأسباب التوكل على الله، وبينهم وبين ذلك مسافات ومراحل، نسأل الله الثبات.

﴿١٤-١٥﴾ ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ عن المسلمين، أو عن المسلمين وغيرهم ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ الذين يغوونهم من اليهود مثلاً ﴿قَالُوٓاْ﴾ لشياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ مشاركون لكم في قضاياكم ضد الإسلام، وهذه عبارة اتخاذهم أولياء، فالمعيّة والولاء متفقان في المعنى، فسواء قولهم: نحن معكم في الأمور المهمة، أو نحن أولياؤكم.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ إذ قلنا كلمة الإيمان فنحن إنما قلناها استهزاء بالمؤمنين أي سخريّة بالمؤمنين واستخفافاً بهم، ليس جداً، فالهزوء كلام غير جد لغرض الاستخفاف بمن يقال له، ألا ترى إلى قول (بني إسرائيل): ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ كأنهم استبعدوا أن يكون جاداً في أمرهم بذبح بقرة، وجوّزوا أنه في ذلك يستهزئ بهم.

﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ بمعنى: أنه يفعل لهم فعل المستهزئ يملي لهم ولا يعاجلهم بالعقاب، لا لأنه راض عنهم، ولا لأنه غير معاقب لهم، بل هو معدّ لهم العذاب، فعبر سبحانه بالعبارة المشاكلة لكلمتهم، وهو سبحانه لا يستهزئ، ولكن هذه مشاكلة لفظية، كقول الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

أي خيطوا لي جبةً وقميصاً، وأتى بالفعل الدال على التجدد لتكرار أعمالهم التي يستحقون بها العذاب، فكلما أجرموا أمهل.

﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ حيث يخذلهم ويتركهم يعاودون الطغيان، يبسط لهم نعمته فيزدادون طغياناً ويزيدهم رجساً إلى رجسهم بما ينزل من القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢] ونسبة الإمداد إليه سبحانه مجاز كالختم، وقد مر التحقيق فيه.

ومعنى ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يتردّدون في الباطل، لا يهتدون للصواب كالأعمى يتردد في غير طريق لا يهتدي إلى الطريق، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ومقابلته بقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ يظهر منه أن المنافقين إنما يقولون للمؤمنين عند ملاقاتهم في طريق أو نحوها لا يقصدونهم إلى محلهم، وأما شياطينهم فيتوجهون إليهم ويقصدون الخلوة معهم ميلاً إليهم، وقولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يريدون لم نتحول عنكم بما قلناه للمؤمنين، بل ما زلنا معكم.

(١٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى أهل الكلام الذي حكاه سبحانه عنهم في الآيات من قوله: ﴿ومن الناس﴾ وأهل الصفات التي اشتمل عليها الكلام فيهم، وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ تعجيب منهم؛ لأن اشتراء الضار النافع عجيب يُسأل عن فاعله مَن هو، فيقال: هو هذا الذي صنع كذا وكذا.

كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ

---

ومعنى ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ استبدلوا، أخذوا الضلالة بدل الهدى، وأي عاقل يختار الضلالة عن الطريق بدلاً من الهدى لها؛ لكنهم أهملوا عقولهم، ولما كانوا في موقع الهدى في محضر الرسول يتلو آيات الله، وفي موقع بركات النبوة بحيث أن حقهم لو استعملوا عقولهم أن يهتدوا، فاختاروا الضلال والكفر صَحَّ اعتبار ذلك منهم استبدالاً واشتراء؛ لأنهم تركوا ما هو ميسر لهم لو أرادوه.

فكأنه بأيديهم لحضوره لديهم وتيسره أو أنهم قد كانوا آمنوا قبل هذا كله كما يشير إليه ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وعلى هذا فالإشتراء واضح وجعل باطلهم مكانه وبدله، ولما كان المشتري يحاول أن يشتري بالثمن القليل ما يسوى أكثر وعلى الأقل يتجنب الغبن ويشتري المبيع رغبة فيه، بحيث يبذل ماله لتحصيله، وهؤلاء المنافقون كذلك راغبون في الضلالة رغبة قوية شبهوا بالمشتري، فقيل: ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ مجازاً عن استبدالهم الضلالة بالهدى، ولكنهم غبنوا غبناً فاحشاً، فقيل فيهم تهكماً بهم:

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾ لأن الذي ينبغي للمتجر أن يطلب الربح لا أن يطلب الخسران المبين ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ لأنهم قد باعوا الهدى، فرأس المال قد فات ولم يحصل لهم بتفويته فائدة كما يحصل للمشتري في بعض الأحوال مع أن نفي الفائدة تهكم بهم كما قلنا.

﴿١٧-١٩﴾ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ حالهم العجيب، كحال ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ عمل لتحصيل نار، فحصلها ليرى بها في الظلمة

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ باشتعالها، وحصل منها النور المطلوب بتحصيلها ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ بأمر غالب لا يستطاع رده؛ لأن الله غالب على أمره.

﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ لشدة الظلمات المتراكمة عليهم، إما أن يكون معناه: تركهم فلم يفعل لهم شيئاً، فلم يرجع لهم النور، ولم يدلهم على الطريق حال كونهم ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ وإما أن يكون المعنى: صيرهم في ظلمات لا يبصرون.

وأفاد (صاحب الكشاف) أنه يقال: «ذهب به: إذا استصحبه ومضى به معه، وذهب السلطان بماله: أخذه ـ ثم قال ـ: والمعنى: أخذ الله نورهم وأمسكه ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ﴾ [فاطر:٢] فهو أبلغ من أذهبه، وقال: إن معنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهباً» انتهى.

ونظير المعنى الأول قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠] وهو عندي أرجح من الثاني؛ لأن تصييرهم في الظلمات يستفاد من قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾.

أما تركهم بمعنى ترك الإنقاذ لهم من تلك الحالة فهو معنى جديد، وحاصل التفسيرين واحد، وهو إذهاب الله لنورهم وبقاؤهم في ظلمات لا يبصرون بترك الله لهم فيها أو تصييره، إلاَّ أن إفادة البقاء بتركهم أظهر من إفادة البقاء بتصييرهم.

والراجح في معناها: أن هؤلاء الذي نافقوا كانوا قد أسلموا، ولكنهم سارعوا إلى النفاق، فذهب عنهم نور الإسلام، وصاروا كما وصفهم تعالى، وقد قال تعالى في بعض المنافقين: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٦] وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ﴾ [التوبة:٧٤].

وهذا لا يخرجهم عن النفاق إذا كان سراً لا يظهرونه للمؤمنين، فكانوا بالإسلام قد حصّلوا الضوء القوي؛ لأنهم صاروا في صحبة الرسول ﷺ ومحل نزول القرآن، وصاروا بمحل يرون طريق الهدى واضحاً كما يرى الطريق بضوء النار الكبيرة التي تضيء ما حولهم، فلما نافقوا ذهب الله بنورهم؛ لأنه ذهب استعدادهم لقبول الهدى، وصاروا كأن على أبصارهم غشاوة، فكان حضورهم في بلد النبوءة كلا حضور؛ لا ينير لهم نور النبوة، فأشبهوا من انطفأت ناره التي كان بها يبصر، فذهب نورها كله وصار في ظلمات لا يبصر.

فهذا المثل يبين سوء حالهم بعد أن كانوا قد حصلوا في مظنة السعادة، فكانوا يسعدون لولا سوء اختيارهم، وكانوا يهتدون لولا اختيارهم للضلال، أو أنهم كانوا قد أسلموا جادّين في إسلامهم، ثم تحوّلوا، وهذا المثل أيضاً يشير إلى شدة الظلمة عليهم؛ لأن الظلمة التي يفاجئها البصر بعد النور تكون شديدةً عليه، وهؤلاء كذلك يشتد عليهم الخذلان وظلمة القلوب كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ..﴾ الآية [آل عمران:٨٦] وكما قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعۡدٌ وَبَرۡقٌ﴾ الصيب: المطر؛ لأنه يصوب أي ينزل فيه ظلمات لكونه في الليل، وقد غطى سحابه النجوم فلا تنير لهم، فاشتدت الظلمة بالليل، وتراكم السحاب والمطر، فصارت ظلمات متعددة بتعدد أسبابها على هؤلاء المنافقين، فشأنهم حين يكونون في هذه الظلمة ـ والمطر ينزل عليهم ـ أن يكونوا في حيرة وقلق، ومع ذلك ما يزيد القلق، وهو الخوف من الصواعق الذي يكون بسبب الرعد والبرق.

أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا

---

﴿يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ إما لشدة صوتها، وإما لباعث الخوف من الصواعق التي صوتها شديد مع شدة القلق والخوف والاشتغال بالمطر، لا يتذكرون أنّ جعل أصابعهم في آذانهم لا ينجيهم من أن تصيبهم الصواعق.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ لا يفوتونه ولا ينجيهم منه جعل الأصابع في الآذان ولا غيره، وهذا تمثيل لإفادة هذا المعنى؛ لأن من أحيط به لا يتخلص من الهلاك، ويكون تحت قهر المحيط به، فكذلك المنافقون المذكورون ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [يونس:٢٧] ولا ينقذهم منه احتيالهم وأيمانهم الفاجرة واعتذاراتهم الكاذبة.

﴿٢٠﴾ ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ حين يلمع بقوة مفاجئة للبصر ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ لشدة حرصهم على الفرار من المطر، وهي لحظات لا تفيدهم ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ البرق بذهابه عنهم أو أظلم مكانهم لذهاب البرق؛ لأن المكان حيث المطر والظلمة قد فهم من السياق ﴿قَامُوا۟﴾ وقفوا لحيرتهم مع شدة حرصهم على المشي.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ فلا يسمعون ولا يبصرون، وذلك أشد عليهم؛ لأن من بقي له السمع قد ينتفع بصوت يسمعه يعرف به الجهة التي يريد أن يتوجه إليها في الظلمة، والمبصر قد ينتفع بلمع البرق لحظة، أما من ذهب سمعه وبصره فحيرته أشد وقلقه أكثر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يفعل بهم ما شاء، فلو شاء لجعل هؤلاء المنافقين في حيرة وقلق وخوف أشد مما هم فيه، وهذا المثل يبين حالهم في نفاقهم وما صاروا فيه من الحيرة والقلق والخوف وعدم القدرة على التخلص من سوء الحال، فهم في خوف من أن يفتضحوا، ويظهر كفرهم فيقتلوا وخوف أن يغلب الكفار فيقتلوا مع المسلمين، وعناء في التستر بالنفاق والأعذار، وانظر حالهم في (سورة التوبة): ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ [آية:٧٤] ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [آية:٩٥] ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ [آية:٩٤] ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [آية:١٠٧] ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [آية:٩٤] ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [آية:٦٤] ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [آية:٦٥] فخوف من ناحية، وتقريع وتوبيخ من ناحية، واشتغال بتستر لا يجدي وخزي وذلة لا تخلص منها الاعتذارات، وكيف وهي تتنزل فيهم قوارع القرآن والوعيد الشديد، ويكشف القرآن بعض أسرارهم وما في قلوبهم، ويكفي في الدلالة على خوفهم وقلقهم، قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة:٥٦-٥٧].

فهم في حال سيئة مظلمة وقلوبهم مظلمة، ختم الله على قلوبهم، فهذا المثل يبين سوء حالهم في النفاق الذي هو أدل دليل على أنهم هم السفهاء حين اختاروا لأنفسهم تلك الحالة كما أن المثل الأول يدل على سفاهتهم حيث عدلوا عن الهدى بعد أن أضاء لهم الطريق وأشرفوا عليه، وكان ذلك أسهل عليهم ممن لم يكن قد أسلم أصلاً، فهذان المثلان يدلان على أنهم هم السفهاء، كما أن اشتراءهم الضلالة بالهدى كان دليلاً على ذلك، ولو لم يكونوا قد أسلموا لوجود الرسول ﷺ في بلدهم ونزول القرآن عليه وهو يتلوه على الناس، فالحق واضح والهدى سهل المنال.

ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ

---

﴿٢١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ كان الكلام الماضي في ثلاث فرق من الناس باعتبار موقفهم من القرآن؛ الذي أنزله الله هدىً للناس فاختلفوا فيه، وهذه دعوة عامة لأصناف الناس في هذه الآية والتي بعدها تدعوهم إلى الأمر الذي خلقوا له، وتحذرهم من الشرك الذي كان قد انتشر في الأرض مع أنه أكبر الكبائر، وفي قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ إشارة إلى أنه تحق له العبادة؛ لأنه مالككم، والعبادة تعبير عن العبودية.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ فكلكم عباده تحق له منكم العبادة حقاً عليكم وعلى آبائكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ ربكم، أي اعبدوه لعلكم تتقون عذابه، فعبادته بخلاف عبادة الأنداد التي هي مملوكة لله مثلكم ليس لها شرك فيكم ولا تضركم إذا لم تعبدوها فلا معنى لعبادتها، أما ربكم الذي تحق له العبادة فأنتم محتاجون إلى عبادته لتتّقوا عذابه.

﴿٢٢﴾ ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ بأن أعدّها لكم صالحة لتعيشوا فيها إعداداً كاملاً، حتى كأنها فراش لكم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥] فمن شاء مشى عليها ومن شاء حرث ومن شاء بنى وغير ذلك، ألا ترى أنه يتعسر ذلك لو كانت متخلخلة يهوي فيها من أراد المشي عليها أو مملوءة بالصخور التي لم يتصل بعضها ببعض، أو كالمفروشة بالمرو الحداد، أو كانت تلولاً كالجبال، لكنه سبحانه جعلها متحملة للمشي عليها والأعمال مهيأة لذلك، حتى كأنها فراش للناس.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي مبنيّة، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] ويحتمل: أنها سقف للأرض من كل جهة، فهي محيطة بها من مسافة بعيدة، ولذلك فالسماء واسعة جداً، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

*وعلى هذا*: فالسماء بناء محيط بالأرض وما حولها وما بينها وبين الأرض من كل جهة ـ والله أعلم ـ ولا بد أن للسماء منفعة للناس تصحح أن تعتبر السماء بناءً لهم وإن لم يعرفوها.

فأما فوائد الشمس والقمر والنجوم فظاهرٌ بعضُها، وقد جاء في القرآن، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ [الصافات:٦-٧] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١] وقال تعالى حاكياً: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٥-١٦].

فلا يبعد أن تسمى السماء بناء من أجل النيرات ؛ لأنها كالسقف، والنيرات كالمصابيح المعلقة في السقف، وهذا المعنى هو الظاهر؛ لأنه المعلوم عند المخاطبين من قبل نزول القرآن، ولا بد أن للنيرات علاقة بالسماء أوجبت اعتبارهن كائنات فيها وزينة لها، مع أنه يكفي في صحة الظرفية كون السماء محيطة بالفضاء وما فيه من الكواكب والشمس إن كانت فيه والقمر، فالحاصل أن السماء بناءٌ لأهل الأرض بمعنى أنها محيطة فوق كل جهة، ولهم فيها منافع بما فيها من الشمس والقمر والكواكب.

وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ

---

فأما الفوائد التي لا تعرفها العرب فلا يجب أن تكون مقصودة هنا؛ لأن الكلام مسوق لإثارة دفائن العقول ليعلموا بعقولهم بهذه الأدلة أن العبادة تحق له وحده ولا تحق لغيره ويحتج عليهم بما يعلمون، ولعله من أجل ذلك ختم الآية بقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تعلمون هذه الدلالة على أنه هو الذي يستحق العبادة.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من جهة العلو حيث يكون السحاب، قال تعالى: ﴿**فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ**﴾ [الروم:٤٨] وفائدة ذكره: أنه بعيد عن الناس لا تناله أيديهم ولا يقدر على إنزاله إلاَّ الله فإنزاله من السماء آية ونعمة.

﴿مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أما كونه للشرب فظاهر، من أنه ماء نزل من السماء، فبيّن سبحانه أنه الذي خلق الناس ورزقهم فهو الذي تحق له العبادة والشكر؛ لأنه المالك المنعم.

﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ لأنها لم تخلق ولم ترزق، وليس لها ملك في الناس، بل هي مربوبة مثلهم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه الذي خلقكم وآباءكم وخلق ما تحتاجون له من الماء والرزق وهو القادر على كل شيء كما قدر على خلقكم، وإنزال ماء صالح للشرب والسقي، وإخراج الثمرات المنوعة بقدرته، وهو العليم بكل شيء كما أتقن صنعكم وصنع أرزاقكم، فكيف تجعلون له مماثلاً في استحقاق العبادة وهو مخلوق ضعيف لم يخلق ولم يرزق.

﴿٢٣﴾ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ شك وقلق ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ وهو القرآن الكريم بتوهم أنه تقوّله ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ في الحكمة والإتقان وحسن التعبير؛ لأنه إذا قدر أن يتقوّله ؛ قدرتم أن تتقوّلوا

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ﴾

---

مثله في الحكمة والإتقان وحسن التعبير كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:٣٤] وقال تعالى في (سورة يونس): ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [آية:٣٨] فظهر أن ﴿مِّن﴾ ليست للتبعيض، وإنما هي للبيان ولو كانت للتبعيض لكان المعنى فأتوا بسورة من كتاب مثله، وليس المراد كما بينا.

﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ ليشهدوا على إتيانكم بسورة من مثله، وتفسير الدعوة بهذا أظهر؛ لأنها مقرونة بذكر الشهداء، فكانت كقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ وهذا يفيد: أنهم لو قالوا كلاماً وزعموا أنه مثل القرآن وسموه (سورة) لما وجدوا شهداء يشهدون بذلك؛ لوضوح الفرق وافتضاح الدعوى، فالناس يستحيون من الشهادة بذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ [الأنعام:١٥٠].

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لأنه سبحانه يعلم أنكم لن تفعلوا، فكيف يشهد لكم بالفعل فلا معنى لدعوته للشهادة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في تجويز أنه تقوّله لتبينوا أنكم على صواب في الارتياب فيه.

(٢٤-٣٦) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ لم تأتوا بسورة من مثله بعد هذا التعجيز ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ لن تأتوا بسورة من مثله أبداً، فقد بان لكم أنه لا ريب في أنه كلام

الله أنزله على رسوله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا﴾ حطبها الذي توقد به ﴿ٱلنَّاسُ﴾ أي جنس الناس، والمراد الذين استحقوها بمعصية الله ﴿وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ فهذه النار ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلا تكفروا بالقرآن والرسول، وآمنوا لتنجوا منها، وجملة ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ حاليّة.

أي فاتقوا النار حال كونها أعدت للكافرين، ولما أنذر الكافرين اتبعه التبشير للمؤمنين، وهكذا جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الصالح ضد الفاسد.

وفي (حديقة الحكمة) للإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام: «الصلاح في أصل اللغة: هو السلامة من الآفات، وهو نقيض الفساد في كلامهم، انتهى. وقال عليه السلام: وصلاحها ـ أي الأعمال ـ سلامتها من آفات التبعات» انتهى.

وتكرر في القرآن الكريم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دون وعملوا الحسنات، ولعل الحكمة فيه: أن صلاح العمل لا يكفي أنه في الأصل حسن حتى ينضاف إلى ذلك أنه خالص من الرياء سليم من الإحباط، فلا بد من الإخلاص والتقوى ليكون مقبولاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

فالعمل الذي لم يخلص لله لا يعتبر صالحاً، وكل عمل محبط فهو غير صالح، بل هو كالزرع الذي أصابته آفة كما أن عامله لا يعد من الصالحين؛ لأنه معيب كأن به عاهة وفساداً، أما العمل الخالص لله المقرون بالتقوى والإيمان، فهو كالزرع السليم من الآفات والعوائق الذي ينمو ويثمر.

﴿أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ هذه (اللام) تفيد: أنها لهم ملك أو شبه الملك، وتفيد: أنها صارت حقاً لهم، والجنة هي الأشجار أو الزروع الكثيرة التي تجن أي تغطي ما فيها.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تكرر في القرآن الكريم هذا الوصف؛ لأن الجنات تحتاج إلى ماء وإلا اصفرت أوراقها، ثم يبست، أما إذا كان الماء يجري من تحتها، فهي لا تزال في صلاح ونمو وإثمار وخضرة جميلة تسر الناظرين، وفائدة أخرى: أنها لا يلحق أهلها عناء بسقيها كجنات الأرض التي تسقى من الآبار، بل الماء يجري من تحتها، وهذه صفتها، فلا تحتاج إلى إيصال الماء إليها من الآبار، والنهَر مجرى الماء الواسع، وفائدة أخرى وهي أنه يجتمع جمال الخضرة وجمال الماء ويتمم كل منهما جمال الآخر.

﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا﴾ أي من نوع من ثمارها ﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾ أول ما أعطينا في الجنة ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ في حسنه ونفعه ولذته، قال السيد العلامة الكبير عبد الله بن أحمد الشرفي اليماني الزيدي، أحد تلاميذ الإمام القاسم بن محمد عليه السلام في تفسيره (المصابيح): «قال المرتضى - يعني الإمام محمد بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم عليهم السلام -: وقال بعض من يتعاطى العلم: أن معنى هذا الذي رزقنا أي في الدنيا وشبهوه بالثمر الأوّل، وليس ذلك عندي كذلك؛ لأنه إذا كان ثمر الجنة كثمر الدنيا فلا فضل إذاً لنعيم الآخرة على نعيم الدنيا، وهذا مخالف للكتاب محال عند ذوي الألباب.

والمعنى في ذلك عندي: أن معنى قول أهل الجنة: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾ يريدون بذلك: أنه لا يصلهم من الله - عزَّ وجل - رزق إلاَّ أعجبهم ووقع بمرافقهم.

ثم يصل بهم من بعد ذلك أرزاق تكون في الجودة والموافقة كالأول سواء؛ لأن أرزاق الدنيا منها موافق ومنها مخالف ومنها طيب ومنها رديء، وأرزاق الجنة كلها مؤتلفة مصيبة للشهوة، وقد فسر الله ذلك في آخر الآية، فقال سبحانه: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ وقد قال بعض الناس: متشابهاً في الألوان، وذلك خطأ من المقال، وإنما المعنى: وأوتوا به متشابهاً في الإرادة والشهوة والمحبة؛ لأن أرزاق الدنيا لا تشتبه عند صاحبها...» إلخ.

قلت: هذا تفسير حسن جداً، وهو وإن كان فيه حمل الكلام على التشبيه فقرينته ظاهرة، وهي أن الحمل على الحقيقة يؤدي إلى القول باستمرار أهل الجنة في الغلط وتكرار الغلط كلما رزقوا من ثمرة، وهذا بعيد جداً؛ لأن التجربة مرتين أو نحوها تكفيهم لمعرفة الغلط وتدعوهم إلى السكوت عن هذا الكلام؛ لأنهم أهل حكمة كما قال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٤].

فإن قيل: إنهم لا ينكشف لهم الخطأ، بل لا يزالون في الخطأ أبداً؟

قلنا: إنه يستلزم أن لا يعلموا أن قد وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً؛ لأن من جملة الوعد هذه الآية، وقد أفادت أنهم يرزقون ثمرات مختلفة متشابهة، وهم في خطئهم يعتقدونها ثمرة واحدة تَرِدُ عليهم كل مرة، فأين وجدانهم لما وعدهم ربهم حقاً.

فظهر: أن ليس المراد ذلك، وأن المعنى: أنهم أعجبوا بالأول، فكانت لا تزال في أنفسهم لذته وفائدته لكونه الأول، فلم يزالوا يذكرونه عند كل رزق يماثله في اللذة والمنفعة، فيخبروا أنه مثله تعبيراً عن تكرار النعمة الكاملة، وهذا من طيب القول؛ لأنه شكر للمنعم، فظهر أن قولهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾ من التشبيه المؤكد.

فأما قول من قال: إن المراد التشبيه بما رزقوا في الدنيا، فهو بعيد كما قال المرتضى عليه السلام.

ولا معنى لتكرار القول في كل مرة بهذا المعنى، وأكثر أهل الدنيا فقراء لم ينالوا ثمرات الدنيا كلها لاختلاف البلدان في الثمرات وقلتها في بعض البلدان، ولا تكاد تجتمع أنواع ثمرات الدنيا في بلد واحد طيب فضلاً عن الخبيث الذي لا يخرج نباته إلاَّ نكداً، فكيف يقولون: هذا الذي رزقنا في الدنيا، ولم يرزقوا إلاَّ بعضه، فظهر ضعف ذلك التفسير. [انتهى البحث].

﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ﴾ أي في الجنات ﴿أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ نساء مطهرات في خَلْقِهِنَّ، ليس فيهن وسخ ولا حيض، وظاهره أن في كل جنة من الجنات واحدة أو أكثر، فالذي له جنات تتعدد أزواجه كما في (سورة الرحمن).

ويمكن أن الله تعالى فرق صفات الحور، كما فرق صفات الجنة في القرآن لحكمة في ذلك، تشويقاً للقارئ حيث يطلع على وصف في آية فيرغب لأجله وحده، ثم يطلع في موضع آخر على وصف آخر فتجدد رغبته وتقوى، ثم يطلع على وصف زائد على ما قد وجد، فتزداد رغبته وتجدد له عند كل وصف رغبة مع الرغبة الأولى، ولا تزال تجدد له الرغبة بتجدد الأوصاف، وهكذا في الإنذار والتخويف.

وعلى هذا فلا نحتاج إلى قولنا: لعل وصف الحور بالطهارة دليلٌ على أن الطهارة أهم أوصاف الحور، ويكفي أن نقول: إن ذلك ترغيب كامل مستقل يدل على أهمية الطهارة في الترغيب، ولا حاجة إلى أن نقول: يشمل التطهير الخُلُقي؛ لأنه وإن كان من أوصافهن فلا يجب ذكره هنا، وله محل آخر أي للحصانة والعفاف، وهذا هو الراجح لعدم الدليل على إرادة المعنيين هنا.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قال القاسم بن إبراهيم عليه السلام في (تفسير سورة البينة): «وتأويل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فهو بقاؤهم أبداً بعد المصير إليها» انتهى.

ومعناه: أنهم لا يزالون أحياء لا يموتون، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:٣٤-٣٥] وفي (معلَّقة طَرفَه):

ألا أيُّ هذا الزاجرى أَحْضرُ الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وهكذا اقترن الوعيد بالوعد كما سيقترن معناهما في الوقوع يوم القيامة، وفي الجمع بينهما زيادة ترغيب وترهيب، لما يستفاد من المقابلة من الترهيب بالنار، وفوات الجنة، ومن الترغيب بالجنة والسلامة من النار ، وبضدها تتميز الأشياء.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير هذه الآية: «قال المرتضى عليه السلام: الاستحياء من الله ـ عزَّ وجل ـ ليس من طريق الخجل ولا الحصر، ولا يتوهم ذلك من له دين أو معرفة بالله أو يقين، وإنما المعنى في ذلك: أنه لا يرى في التمثيل للحق والصواب والصدق بما صح من الأمثال عيباً ولا خطأً ولا مقالاً لأحد من أهل الكفر والضلال، بل ذلك عند الله ـ تبارك وتعالى ـ صواب وصدق حسن، وذكر مثل هذا سواءً الهادي عليه السلام» انتهى.

قلت: فالمعنى: أنه ليس عيباً عند الله أن يضرب المثل بالبعوضة فما فوقها، ولا هو مما يتعلق به الحياء في نفس الأمر.

قال في (الكشاف) بعد إيراد كلام حسن في تفسير الآية: «ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة، فقالوا: أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت؟؟،فجاءت على سبيل المقابلة، وإطباق الجواب على السؤال، وهو فنّ من كلامهم بديع وطراز عجيب..» إلخ، راجع (الكشاف) إن شئت.

قال الشرفي: «و [ما] هذه إبهامية، وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادته شياعاً وعموماً، كقولك: أعطني كتاباً مًّا، تريد أي كتاب كان أو صلة للتأكيد، كالتي في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [النساء:١٥٥]» انتهى.

قلت: والأول أحسن لأنه مطابق للمقصود؛ لأن المراد أيّ مثل أراده سبحانه ولأي معنى صحيح ضربه، مع أن كونها صلة في هذا الموضع لا يعرف له نظير، ولم يمثل له في (مغنى اللبيب).

قال في (الكشاف): «وضرب المثل اعتماده وصنعه من ضرب اللبن وضرب الخاتم، وقال: وانتصب بعوضةً بأنها عطف بيان لِمثلاً أو مفعولٌ ليضرب، ومثلاً حال عن النكرة مقدمة عليه، أو انتصبا مفعولين فجرى ضرب مجرى جعل» انتهى.

قلت: هذا الآخر أظهر؛ لأن المعنى في هذه الآية وأمثالها جعل الشيء مثلاً، كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً﴾ [النحل:١١٢] وقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾ [النحل:٧٦] ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا﴾ [النحل:٧٥] ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ [الزمر:٢٩] ولا يصح عطف البيان في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ [الزخرف:٥٧] ولا الحال في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [العنكبوت:٤٣] وقد جاء التصريح بجعل في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٦].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ﴾ لأنه صواب في نفسه لا موجب للحياء منه، ولأنه من الله العزيز الحكيم الذي لا يقول ما هو عيب ونقص ـ سبحانه وتعالى ـ فلو لم يعرفوا وجه صحته لآمنوا بأنه الحق من الله؛ لعلمهم أن هذا القرآن كلام الله لا ريب فيه ولا اشتباه وإيمانهم به.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾ استنكاراً لجعله مثلاً، وتجاهلاً بالحكمة فيه، والغرض من ذلك الجدل في القرآن، وإن نسبوه إلى الله، كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧] وجاء الجواب عنهم: إن الله أراد به الفتنة والاختبار.

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا﴾ باختباره لهم المؤدي إلى كشف ما كان مستوراً منهم، والذي ازدادوا عنده رجساً إلى رجسهم ﴿وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ باختبارهم المسبب لزيادة إيمانهم لما فيه من توضيح الحق والحكمة.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ الذين هم بفسقهم مستعدون للضلال به، مستحقون للخذلان، والفسق: الخباثة والفجور، ألا ترى إلى هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ والمقابلة بين المؤمن والفاسق في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ [السجدة:١٨] وقال في أصحاب القرية الذين اعتدوا في السبت: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٥] وقال تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦] وقال تعالى: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ [الحجرات:١١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧].

فظهر: أن الفاسقين: هم الخبثة الفجار بأي سبب، ويناسب ذلك قول العرب للعاهرة: فَسَاق، وإن كان ما يعد خباثة قبل الإسلام أقبح من بعض ما يعد خباثة بعد الإسلام، كسباب المؤمن، ونبزه باللقب السيء، ومضارة الكاتب أو الشهيد.

بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى

---

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ العهد: الوعد المؤكد باليمين، قال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً**﴾ [النحل:٩١] وقال تعالى:﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً**﴾ [الإسراء:٣٤].

فهذا المعنى هو الذي ينسب إليه الوفاء أو النقض، فأما العهد بمعنى التوصية فينسب إليه الطاعة أو المعصية أو نحو ذلك، ونقض العهد إهماله وترك اعتباره بالحنث كأنه كان عقدة محكمة فنقضها بمخالفة العهد كأنه جعلها في اعتباره لها وصيرها منقوضة، والميثاق توثيق الوعد وتقويته ليوثق به، قال: ﴿**حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُونَنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ**﴾ [يوسف:٦٦].

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فسره في (الكشاف): بقطع الأرحام، وقطع موالاة المؤمنين، ولا إشكال أنها عامة في كل ما أمر الله به أن يوصل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو الفساد الذي من شأنه أن ينتشر في الأرض، كمحاربة الدين، ومحاربة اقتصاد أهله ليغلبوا، وإيراد الشبهات ضد الحق، ونشر الدعايات التي يعم فسادها ونحو ذلك، فهذا الفساد هو الفساد في الأرض، ومنه كل ما يعم ضره كتحريق كتب الهداية وإضاعتها عن طلابها، وقتل علماء الدين.. ونحو ذلك، فهو كله إفساد في الأرض، ينسب الإفساد في الأرض إلى من فعل خصلة منه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ قد استحقوا الإضلال بهذه الجرائم كانوا قد اشتروا الضلالة بالهدى، وتلك الصفقة الخاسرة لما تؤدي إليه من سوء العاقبة وعذاب الآخرة وفوات فائدة ثواب أهل الهدى الذي هو جنات النعيم، وهذا لأن هذه الآية مرتبطة بالتي قبلها بقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ..﴾ إلى آخر الثلاث، صفة للفاسقين الذين يضلهم بضرب المثل المذكور، أي يبتليهم به ويفتنهم ويختبرهم به فيضلوا.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: تدل على تحريم نقض عهود الله، وعلى تحريم قطع ما أمر الله به أن يوصل من صلة الأرحام، وإيتاء ذي القربى، وأداء الأمانة إلى أهلها، ومودة ذوي القربى، والاجتماع على الحق، وترك التفرق في الدين إلى غير ذلك، وعلى تحريم الفساد في الأرض» انتهى.

قلت: كل علاقة واجبة، فهي داخلة في ذلك كموالاة المؤمنين، ولما كان الكافرون قد ذكروا ووعدوا بالنار وكان كفرهم بالقرآن والرسول قد احتج لإبطاله بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا..﴾ إلى آخر الآيات، وكفرهم بالتوحيد قد سبق إبطاله بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ وبقي كفرهم باليوم الآخر لمجرد استبعاد إحياء العظام وهي رميم؛ لأنهم كانوا جامعين بين هذه الأنواع من الكفر، وكان كفرهم باليوم الآخر يتضمن نفي قدرة الله وعلمه قدرته على إعادتهم وعلمه سبحانه بأجسادهم وقد ضاعت في التراب ردّ عليهم سبحانه بقوله:

خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي

---

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ أي قبل إحيائكم في بطون أمهاتكم ﴿فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فهو الذي يحيي ويميت، فكيف لا يقدر على إعادتكم، بل لا بد من الإعادة، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ إليه وحده دون شركائكم، فيجازيكم بكفركم، فقد جمعت الآية الاحتجاج عليهم ووعيدهم وتوبيخهم على الكفر، مع أنه سيعيدهم ثم إليه يرجعون فيعاقبهم، ولا يجدون من يشفع لهم أو ينصرهم؛ لأنهم يرجعون إليه وحده يحكم فيهم ما يريد.

﴿٢٩﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وذلك نعمة عليكم، فحق عليكم أن تشكروا ولا تكفروا، وهو دليل على قدرته على إعادتكم، من حيث هو دليل على أنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ و﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن صنع ما في الأرض من حاجات الإنسان المطابقة لحاجته المناسبة لخلقه وإتقان صنعها، وما فيها من اختلاف الصور المحكمة والألوان والطعوم والروائح وأسباب النفع، كل ذلك دليل على أنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ و﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ تمثيل لصنعه للسماوات بصنع من يتجّه إلى المصنوع ويقبل على عمله فيه ويقصد إليه لا يلتفت إلى غيره، وذلك في المخلوقين يكون لقوة الرغبة في ذلك العمل، أو لشدة الاهتمام به لصعوبته، ولا يصح التمثيل بهذا لله سبحانه؛ لأنه لا يصعب عليه شيء، فما بقي إلاَّ التمثيل بالأول.

ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ

---

ولعل المراد: التنبيه على الإرادة بلا إهمامة؛ ليدل على أنه فعال لما يريد، فأما ﴿ثُمَّ﴾ فيظهر: أنها هنا للترتيب بين الآيتين في الاستدلال، لا للترتيب في خلق الأرض وخلق السماء؛ لأنه تعالى قد جمعها في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١] ونظير الترتيب لغير الترتيب في الوقوع قول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

فهو ترتيب المدح لا تعبير عن الترتب في الوقوع.

أما قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:٢٧-٣٠] فيظهر منه: أن دحو الأرض وتهيئتها لمعيشة البشر متأخر عن خلق الأرض والسماء؛ لأن الليل والنهار بالنسبة إلى الأرض إنما هو بعد خلقها، وكما تشير إلى ذلك الآيات في (سورة فصلت) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [آية:٩-١٠] فظهر: أن ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إنما هي للترتيب في ذكر الدليلين.

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تسويتها إحكام صنعها سليمة من النقص والخلل، وهذه دلائل على قدرته وعلمه، فكيف تكفرون به وهو بكل شيء عليم، فلا يخفى عليه كيف يعيدكم إذا ضللتم في الأرض.

﴿٣٠﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر في شأن علمه تعالى بكل شيء، إذ قال ربك ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ والخليفة: هو الإنسان، كأنه خليفة لله سبحانه؛ لأنه يظهر مكنون آياته المخبوءة في الأرض ولأمور غير ذلك.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ﴾ نقول تنزيهاً وتبرئة من العيوب وتبعيداً عن النقائص حامدين لك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نقول تنزيهاً لك وتبعيداً عن العيوب عابدين لك بالتقديس، فالتسبيح: تنزيه عن العيوب وعما هو نقص من العظمة والجلال.

والتقديس: تنزيه عن القبائح، وفائدة الجمع بينهما؛ التصريح بالتنزيه عن القبائح، قد أعلمهم الله سابقاً أن الإنسان سيكون منه من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فسألوه أن يجعلهم هم الخليفة في الأرض ليسبحوا بحمده ويقدسوا له في الأرض؛ لأنهم يحبون الله، ويكرهون أن يستخلف من يعصي.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فأنا أعلم حكمة لا تعلمونها في جعل الإنسان خليفة، وإن كان منه من ذكرتم.

وحكى الشرفي في (المصابيح): عن المرتضى محمد بن الهادي عليهما السلام في تفسير هذه الآية ما لفظه: «وقلت: ما معنى جواب الملائكة حين يقولون: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الخبر جاءهم من عند الله أم [من] عند أنفسهم؟

قال عليه السلام: فهذا الخبر خبر غيب لا يعرفه الملائكة ولا تقع عليه إلاَّ بإخبار الله لهم، ولكن الله ـ عزَّ وجل ـ قد أطلعهم عليه وأخبرهم بما يكون من بني آدم من سفك الدماء والإفساد في الأرض وما يكون منهم من عناد، فكان هذا منهم استفهاماً لا معارضة ولا شكّاً في أمر الله تبارك وتعالى، وأعلمهم سبحانه أنه يعلم ما لا يعلمون، بما سيكون من المؤمنين والأنبياء المبعوثين إليهم، والأمر والنهي الذي بثه فيهم، وما في ذلك من الصلاح.

ﭐلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ

---

فكانت معصية الخلق من أنفسهم اختياراً بلا جبر من الله لهم، ولا إدخال في معصيته، ولا إخراج من طاعته، ولم يكن فعل هؤلاء المختارين للمعصية ـ من بعد أن مكنهم سبحانه من الطاعة وبيّن لهم ما فيه النجاة ـ بموجب ترك خلقهم ورفض إظهار الحكمة فيهم وما أراد سبحانه من الصنعة وإيجاد البرية وإظهار القدرة، وقد علم الله ما يكون من فعل النبيين وطاعتهم واجتهادهم له وما يكون من المؤمنين من الطاعة والعبادة والتسليم لحكمه، والمجاهدة للظالمين حتى يفيئوا إلى أمر الله ويرجعوا إلى طاعته، فكل هذا خير كبير وفضل جليل علمه الله أنه سيكون من ولد آدم، ولم تعلمه الملائكة حتى علّمها الله به وفهّمها ذلك» انتهى.

قلت: هذا كلام جيد، ومن فوائد إيجاد الخليفة: اختبار الملائكة بأمرهم بالسجود لآدم ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧] ولا نحصر فوائد ذلك لقصور علمنا.

﴿٣١﴾ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ عمومه يدل: أن قد علمه اسم كل جنس من أجناس المخلوقات، كالماء، والنار، والحديد، والذهب، والفضة..إلى غير ذلك، ولعله سبحانه علمه ذلك إعداداً للخلافة في الأرض، فعرفه ما فيها من المعادن والشجر والدواب وغيرها ليدري كيف ينتفع هو وذريته بما خلق لهم فيها، من حيث أن تعليم الأسماء من حيث هي أسماء يستلزم تعريف المسميات، ويؤكد ذلك قوله سبحانه:

أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ

---

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فالمعنى: عَرَضَ المسميات على الملائكة بتغليب العقلاء، وهو سبحانه وتعالى قادر على عرض الأجناس التي خلقها كلها، فلا نحتاج إلى أن نقول المراد عرض صورها كما في التلفزيون والسينما، فإن كان المراد عرض ما قد خلق وما سيخلق، فعرض ما سيخلق عرض صورته.

وقوله سبحانه للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ أي قولوا لي بأسماء هذه الأشياء المعروضة عليكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أنكم أهل للخلافة في الأرض، حيث قلتم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ فإذا لم تعلموا أسماءها، كما علم آدم عليه السلام فهو وذريته أحق منكم بالخلافة في الأرض؛ لأنهم بتصرفهم في الأرض بالحرث وغيره، وبتصرفهم فيما خلق لهم فيها يظهرون آيات كثيرة تدل على الله، وينتفعون فيها بنعم كثيرة تدل على كرم الله، كالطائرة، والسيارة، والكهرباء، وما فيه من المنافع، ولولا الإنسان ما ظهرت هذه الأشياء، ولكن ظهرت على يديه؛ لأن الله علمه ما لم يعلم، وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ سبحانك أنت أحكم الحاكمين، وأنت علام الغيوب، وعلمنا قاصر عن علم أسماء هذه الأشياء ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العليم بكل شيء الحكيم في كل قضاء.

﴿٣٣﴾ ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم﴾ أي أخبر الملائكة ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ بأسماء ما عرض على الملائكة ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ وتبيّن لهم امتياز الإنسان بعلم ما جهلوا.

﴿قَالَ﴾ الله ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فكان هذا يغنيكم عن السؤال بقولكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ لأنه حلٌّ لكل إشكال يعرض في أي شيء من أقواله سبحانه أو أفعاله أن يعلم العبد أن الله سبحانه يعلم وجوه الحكمة كلها، وليس جهلنا بالحكمة في بعض الأشياء دليلاً على عدم الحكمة؛ لأنا قد نجهل الحكمة ثم نعلمها بعد الجهل بها.

وقوله تعالى: ﴿غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يفيدهم: أن لها غيباً، والغيب: ضد الشهادة، فهم يشاهدون الأرض ولا يعلمون ما أخفي فيها من منافعها ومصالحها وفوائد ما فيها، وكذلك السماوات، فغيب السماوات والأرض يعلمه الله سبحانه، وقد أفهمهم أن لها غيباً يعلمه سبحانه ولا يعلمونه، والظاهر في الإضافة أنها على معنى في، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:٧٥].

وإذا كانت الإضافة على معنى (اللام) شمل العموم فوائد الأجزاء، وما يترتب عليها مما تقتضيه الحكمة، وما يتعلق بهما من المغيبات التابعة لوجودهما، ولا يجب أن يكون غيب السماوات والأرض خارجاً عنهما وإن كانت الإضافة على معنى (اللام) كما لو قيل: يعلم ما لهما من الفوائد المحجوبة فيهما.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾ لا يلزم منه أنهم قد صاروا بإنبائه لهم عالمين بها كما يعلمها آدم؛ لأن الغرض من إنبائه لهم أن يعلموا امتيازه بعلم الأسماء لا أن يصيروا عالمين بها كما يعلمها؛ لأنه يمكن أن لا يحفظوا كل ما سمعوه لعدم إعدادهم لحفظه، والأقرب: أن المعروض على الملائكة الجمل من المسميات ليسهل إخبار آدم لهم بها؛ لأن إنبائهم بالأسماء كلها على التفصيل يطول ويستغرق زماناً طويلاً.

وعلى ذلك: لا يكون أنبأهم بالأسماء كلها على التفصيل، فمثلاً عرض عليهم الحيوان والشجر والمعادن وأسماؤها الجملية ثلاثة أسماء، وهكذا سائر الجمل، وهي تشتمل على أصناف كثيرة جداً وأسماؤها كثيرة جداً تستدعي قاموساً، فلا يلزم أن يكون الملائكة عليهم السلام قد علموا الأسماء كلها كما علمها آدم عليه السلام.

وكذلك لا يلزم أن تكون مسميات الأسماء كلها هي من غيب السماوات والأرض، وإنما يلزم أن يكون بعضها غيباً أو أن يكون بعض أسمائها غيباً؛ لأنهم قالوا: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ولم ينفوا علمها كله، وعلى هذا فالأسماء هي شاملة لأسماء غيبها وشهادتها وحين أنبأهم آدم بأسماء ما عرض عليهم ظهر لهم بعض ما كان غيباً في حقهم، فصح أن يرتبط بذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فالإبداء والكتمان من بعضهم لبعض ولبعضهم من بعض، وذلك كالجواب على قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فكأنه قال: أنا أعلم بما تسرون وما تعلنون، ولم يقرهم على دعواهم الصلاحية؛ لأن في جملتهم إبليس، فقوله: ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يفيد: أنه يعلم ما فيهما من المناسبة والصلاحية لإسكان أهلهما فيهما وما في أهلهما من الصلاحية لهما.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يفيد: أنهم لا يعلمون ما يكتمون، فدعواهم إنما هي مبنية على الظاهر، والله أعلم بالحقيقة، وهذه كالتقدمة لابتلائهم بالأمر بالسجود لآدم الذي عنده انكشفت حقيقة إبليس، وأنه لم يكن في عبادته على يقين ـ والله أعلم.

وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

---

*وبهذا* يظهر: أن قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ كان جواباً عليهم في كلامهم في الإنسان، وفي كلامهم في أنفسهم، حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

**وفي هذه القصة الكريمة فوائد:**

*الأولى*: بيان أن الله بكل شيء عليم، عالم الغيب والشهادة، عالم ما كان وما سيكون.

*الثانية*: أن نعتقد الحكمة والصواب في كل أفعاله - سبحانه - وأقواله سواء عرفنا وجه الحكمة أم جهلنا؛ لأنه يعلم ما لا نعلم، فجهلنا بها لا يدل على عدمها.

*الثالثة*: أن لا نزكي على الله أحداً إلاَّ من زكاه الله؛ لأنا لا نعلم إلاَّ الظاهر في غير من زكاه الله تعالى، ومن زكيناه، فالمعنى: أنا نعتقد ذلك بناءً على الظاهر، ونبني على هذا الاعتقاد الموالاة والمعاملة وإن لم نقطع بالمغيب عنا من سرّه الذي قد يكون هو غافلاً عنه، وليس المراد بالتزكية له القطع على مغيبه، ولعل هذا هو ما نهى الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم:٣٢].

﴿٣٤﴾ ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ القائل: هو الله، وهذه نون العظمة، فيها مناسبة لأمره تعالى للملائكة كلهم وابتلائه لهم؛ لأنه مالكهم يحكم فيهم ما يريد ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ السجود هنا: تعظيم بغير عبادة لآدم، وهو ـ وإن كان سجوداً لآدم ـ فهو عبادة لله؛ لأنه طاعة له، وتسليم لأمره، وخضوع له؛ لأنه ربهم المالك لهم الذي له الحكم فيهم.

ولم يسألوا لماذا صح السجود لآدم؟ لأنه قد تقرر عندهم أن الله هو العليم الحكيم، وأنه يعلم ما لا يعلمون، فالسجود لآدم عبادة لله من حيث هو طاعة، ومن حيث هو تسليم، فسجودهم لآدم سجود لله بهذا المعنى، وليس هذا السجود لآدم، وكذلك السجود ليوسف ليس عبادة؛ لتجرده عن معنى العبادة الذي هو الاعتراف بالعبودية، كما يفيده قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ...﴾ الآية [النساء:١٧٢] أي عن الإقرار بالعبودية، والاعتراف بأنه عبد لله.

وقوله تعالى في المشركين: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام:٩٤] وفي هذه الآية وأمثالها دلالة على أن صيغة الأمر من الله سبحانه تفيد الوجوب؛ لأنه وجب عليهم السجود بقوله تعالى: ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وسمّى قوله ذلك أمراً في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:١٢] فدل على أن تلك الصيغة أمر.

﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ امتثالاً لأمر الله ربهم ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ أن يسجد، أي امتنع من امتثال هذا الأمر ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ عن السجود لآدم، اعتقد في نفسه أنه أكبر من أن يسجد لآدم ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كان من جملة الكافرين، وكفره إما بجحده للحكمة والصواب في الأمر بالسجود لآدم كما يفيده قوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء:٦٢] وقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف:١٢] وأما إنه كان كافراً من قبل.

فمعنى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي من قبل، وذلك باعتقاد باطل كان يكتمه عن الملائكة، هذا إذا كان معنى الكفر الجحود، فإن كان معناه الرفض والمباينة، كقولهم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] فظاهر، وكذا إن كان معناه ضد الشكر، كما في قوله: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ..﴾ الآية [النمل:٤٠].

والظاهر: أنه قد كفر بالمعاني الثلاثة كلها، فيحمل عليها كلها، على قول من يصحح استعمال المشترك في معانيه جميعاً إذا لم يوجد قرينة تعين المقصود من معانيه، ولكن كفره بجحد الحكمة والصواب أقرب؛ لاقترانه بما ذكر في الآية فيحمل عليه، وإن كانت المعاني قد اجتمعت فيه.

وهل استثناء إبليس متصل كما هو الظاهر لدخوله في أمر الملائكة بالسجود فيشكل جعله من الملائكة مع قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠]؟

والجواب: أن العرب لا تعرف الملائكة جنساً خاصاً كجنس البشر، وإنما تعرف أنهم خلق آخر في السماء مكرمون عند الله مقربون، وليس في مفهوم اسم الملائكة عندهم أنهم خلقوا من أصل واحد.

وعلى هذا: فيجوز أن تختلف أصولهم مع كونهم كلهم ملائكة، ويمكن أن نجعل الآيتين دليلاً على ذلك، فقد دلت آية على أنه كان من الملائكة حين أمروا بالسجود وشمله الأمر كما شمل كل واحد منهم، ودلت الآية على أنه كان من الجن، ولا مانع من ذلك في العقل ولا في المعلوم من السمع، ولعل سبب مصيره ملكاً طول عبادته مع الملائكة في السماء، فقد روي أنه عَبَدَ الله ستة آلاف سنة.

فإن قيل: فيشكل هذا على ما سبق من احتمال أنه كان كافراً من قبل؟

فالجواب: أنه يحتمل أنه كان عابداً مخلصاً، وفي آخر أمره فتن مثلاً عند قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ والله أعلم، وعلى هذا فلا تعارض بين كونه صار ملكاً لطول عبادته مع الملائكة، وكان كافراً بعد ذلك قبل الأمر بالسجود لآدم، وفي هذا الموضع اقتصر من قصة إبليس على ما ذكر كأن المقصود ما أشار إليه بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾

---

فبالنسبة إلى قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ذكر (قصة الأسماء) وبالنسبة إلى قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ذكر قصة إبليس، فبين بالقصتين أنه يعلم ما لا يعلمون في شأن الإنسان وفي شانهم.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ العطف على ﴿قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ﴾ إلى آخر القصة عطف على قصة إبليس في امتناعه من السجود، قصة إغوائه لآدم وحواء، وإخراجه لهما من الجنة.

وقوله: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ معناه: أقيما في الجنة ﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا﴾ رزقاً واسعاً رافهاً ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ من الجنة تجدان المأكول كثيراً في كل ناحية أردتما الأكل فيها.

﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ هذا نهي أفاد التحريم للشجرة المشار إليها، ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالمعصية؛ لأن معصية العبد لمالكه المنعم عليه حيف وجور ضد العدل، فهو ظلم بهذا المعنى، وإن لم يكن ضراً على الله سبحانه وتعالى بل ضره على العبد فيقال: ظلم نفسه من حيث أن ضره عليه، لا لأنه مفهوم الظلم هنا.

ومثله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] معناه: شديد الحيف والجور والتعدي؛ لأن الله هو الخالق المنعم بالنعم التي لا نحصيها، فهو المستحق للعبادة، فصرفها لغيره حيف وجور شديد، وليس المراد أن الإنسان لا يظلم نفسه بالمعاصي، وإنما المراد أن ذلك معنى الظلم في هذا السياق، وأمثاله مما يراد به تحقيق الوقوع في المعصية كما أن ظلم الإنسان نفسه المراد في نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦] أو هو من معناها.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَـٰنُ عَنۡهَا﴾ جعل الشيطان هذه الشجرة سبباً لزلتهما، والزلة الخطيئة، ولعلها سميت زلة تشبيهاً بالزلة في الطين، ونحوه مما يسبب لسقوط الإنسان، فكأنهما إنزلقا إلى الخطيئة انزلاق من لا يشعر أنه يسقط في طين أو نحوه، وهذا يشعر بأنهما إنما أكلا منها بخديعة من الشيطان وحيلة لا جرأة على الله وتعمداً لمعصيته، فهو يناسب ما يروى مما يفيد: أنهما أكلاها بضرب من التأويل وهو أنها كانت زرعاً، والمنهي عنه شجرة البر، فأكلا منها على تجويز أن المنهي عنه شجرة الشعير، وترددهما في المنهي بعد علم آدم أنه البر لنسيانه.

وهذا لا يستقيم على تفسير الإشارة في قوله تعالى: ﴿هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ بأنها إشارة إلى عين الشجرة وشخصها، إنما يستقيم على تفسير الإشارة بأنها إشارة إلى الجنس، كما في الحديث في شجرة الثوم: «من أكل من هذه البقلة فلا يقربن مسجدنا» رواه الإمام زيد بن علي عليه السلام في (المجموع).

ويشكل على هذا قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢٠-٢٢] فظاهره: أنهما أكلا من الشجرة بسبب رغبتهما فيها لتحصل لهما المنفعة الموهومة، فكيف صح أن تقول: لم يكونا متعمدين أكلها؟

*والجواب*: لا إشكال أن الرغبة فيها هي الباعث، ولكن يمكن أنهما وإن رغبا فيها كانا كارهين لتعمد المعصية، فلم تبعثهما الرغبة على تعمد أكلها على أنها هي الشجرة المنهي عنها، ولكن بعثتهما الرغبة على ترك الوقوف عند الشبهة فقد كان يمكنهما العدول عن الشجرة التي فيها شبهة إلى غيرها

من المأكولات الكثيرة، كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فلا ضرورة للأكل من هذه الشجرة المشتبهة، ولكنهما كانا لشدة رغبتهما في فائدة الشجرة الفائدة الموهومة المزعومة يرغبان في أن يأكلاها بدون أن يتعمدا أكلها لتحصل فائدتها من دون تعمد المعصية، وهذا شأن بعض الناس إذا رغبوا في الشيء طلبوا توجيهاً يخلص عن المعصية.

فمن هنا أكلا منها راغبين في أن لا تكون في الواقع الشجرة المنهي عنها مستأنسين بأنهما لا يعلمان أنها هي الشجرة المنهي عنها، ناسيين أن الله قد حذرهما من الشيطان حيث أعلمهما أنه لهما عدو مبين، فكان الباعث على أكلها هو الرغبة فيها، مع أنهما غير متعمدين لها من حيث هي الشجرة المنهي عنها، فظهر: أنه لا تلازم بين كون السبب الرغبة وكونهما متعمدين للمعصية، فمن هنا انزلقا في المعصية وكانت تلك زلة أقيما منها وعثرة أقيلا منها.

والشيطان هو الذي شأنه الإغواء عن طريق الحق بالتغرير، ألا ترى أن إبليس عبر عنه باسمه الأول حين امتنع من السجود لآدم ولما احتال لإغواء آدم وحواء صار اسمه الشيطان وعبر عنه بهذا الاسم.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من رغد العيش بغروره ﴿وَقُلْنَا﴾ لآدم وزوجه ولإبليس: ﴿اهْبِطُوا﴾ أما آدم وزوجه المخلوقة منه، فهبوطهما من جنتهما، وأما إبليس فهبوطه من السماء أو من جنة آدم؛ إذ لا يبعد أنه لما طرد من السماء صار إلى آدم وحواء ليغويهما، وهذا هو الراجح، ولعلها لم تكن في حقه رفاهية ورغداً؛ لأن ما فيها معدّ للإنسان خاصة؛ ولأن إبليس مستغرق بالحسد والحقد، فليس له في جنة آدم راحة.

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ

---

﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ يبيّن أن عداوة الشيطان لهما باقية لم تنته عند إغوائه لهما وإخراجهما من الجنة، وأما عداوتهما له فبالدعاء عليه واللعنة له ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي إلى وقت تستقرون فيها وتتمتعون بما فيها من المنافع القصيرة الأمد من حيث أنكم تنتقلون من الأرض إلى موضع الجزاء في الآخرة النار لإبليس والجنة لآدم وزوجه حيث البقاء الدائم الذي بالنسبة إليه اعتبرت مدة نعم الأرض قصيرة، فسميت متاعاً، والحين وقت الموت.

﴿٣٧﴾ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ هذه الكلمات مبهمة تلقاها آدم، أي قبلها أو تلقنها، فكانت سبباً لأن يتوب عليه، ولعلها دعوته إلى التوبة، والإيحاء أن يقولا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا..﴾ الآية [الأعراف:٢٣] أو إعلامه أن قد عصى بقوله تعالى: **﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾** [الأعراف:٢٢].

قال الشرفي في (المصابيح): «واختلفوا في تلك الكلمات ما هي؟ فقال الهادي عليه السلام: والصحيح عندنا: أن الكلمات هو ما كان الله قد أعلمه بخلق من سيخلقه من ذريّة آدم ونسله، أنه سيكون منهم مطيع ويكون عاص باختيارهم، وأنه سبحانه يقبل التوبة من تائبهم إذا تاب وأخلص التوبة وراجع..» إلى آخره.

قال الشرفي: «وفي تفسير هذه الكلمات يقول القاسم بن إبراهيم عليهما السلام: هن كلمات الاستغفار والتوبة والإنابة، ذكرهن آدم بعد المعصية، فطفى بهنّ

ما وجب عليه من غضب ربّه، فلما أن تلكم بكلمات التوبة وأظهرهنّ صرف الله عنه العقاب وصار حكمه عند الله حكم من أناب وتاب» انتهى.

قلت: لا مانع من هذا التفسير على أن يكون الله تعالى أمره أن يقول كلمات التوبة، فتلقاها من ربه وقالها، فكانت الكلمات من الله حين أمره بها، ومن آدم حين قبلها وتكلم بها، فكان ( تلقّى ) هنا مثل (تلقن).

﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ قبل توبته، ولم تذكر حواء هنا؛ لأنها تابعة له، وقد ذكرت في قوله تعالى: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمۡنَا أَنفُسَنَا..﴾ إلى آخر الآية [الأعراف:٢٣] والأرجح عندي الموافق لما في (سورة الأعراف) أن الكلمات قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا الشَّجَرَةِ..﴾ إلى آخر الآية [آية:٢٢].

وأن تلقيها هو التوبة بقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَا أَنفُسَنَا﴾ [آية:٢٣] فهنا أجمل الكلمات وهناك بينها والقصة واحدة، والسياق واحد، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، ووجه كون قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَا أَنفُسَنَا..﴾ [الأعراف:٢٣] إلى آخره تلقياً للكلمات، أن الكلمات موعظة باعثة على التوبة، فكانت التوبة تلقياً لها وقبولاً يؤكد كونها قبولاً التطابق بين قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا﴾ [الأعراف:٢٢] وقول آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣].

وقد يقال: كيف قدم هنا الأمر بالهبوط على التوبة، وفي (سورة الأعراف) قدم التوبة؟

والجواب: أنه هنا ذكر الأمر بالهبوط قبل التوبة، وذكره بعد ذكر التوبة فلا تعارض، وإنما هنا زيادة ذكر الأمر بالهبوط قبل ذكر التوبة، ولعله تكرر هنا توطئة لما رتب عليه في الآيتين وكان الأمر متكرراً في الواقع، وأجمله في (سورة الأعراف) وبنى عليه ما في الآيتين.

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ

---

ومنشأ الإشكال توهم أن قوله تعالى في (سورة الأعراف): ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ [آية:٢٤] متصل بقوله تعالى: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا..﴾ إلى آخر الآية [آية:٢٣] بحيث يتوهم أن الأمر بالهبوط مبني على التوبة؟

*والجواب*: أن قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ [الأعراف:٢٤] متصل بالقصة كلها جملة، وهي مبني على أكلهما من الشجرة وإخراجهما من الجنة لا على التوبة، فلا يدل ذلك على أنه لم يتكرر، وإنما أجمل الحكاية في (سورة الأعراف) وفصلها في (سورة البقرة) كما فصل في (سورة الأعراف) ما أجمل هنا في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ..﴾ الآية.

﴿٣٨-٣٩﴾ ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ ظاهره الأمر لآدم وزوجه والشيطان، وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ ظاهر الضمير للجنة، وهذا يصحح ما رجحت من أن إبليس لما طرد من السماء صار إلى جنة آدم ليغويه ويوقعه في المعصية.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ إرشاد إلى طريق الحق بكتاب أو وحي إلى نبي ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والمراد في الآخرة يأمنون عذاب الآخرة وأهوالها، كذا قيل.

والأرجح: أن المعنى لا يخاف عليهم، والنفي هذا كقوله تعالى: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي ليس من شأنهم أن يخاف عليهم غيرهم أو لأنه الواقع لأن من عرفهم لا يخاف عليهم العذاب، ولا يحزنون كما يحزن أعداء الله في الآخرة؛ لأنه قابل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم الجاحدون لشيء مما يجب الإيمان به.

والمكذبون بآيات الله: هم الذين يقولون: ليست آيات توجب الإيمان بما تدل عليه، والآية هي العلامة الدالة ومنها آيات القرآن؛ لأنها تدل على الحق، وقد تكرر في القرآن الكريم ذكر الآية، فتأملها في مواردها نحو: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف:٧٣].

فالذين كفروا وكذبوا بآيات الله قد جمعوا بين جريمتين كبيرتين: الكفر بالله أو برسوله أو باليوم الآخر أو بالكتاب أو بالملائكة أو بالنبيين؛ لأن الكفر أساس الباطل وبعضه يدعو إلى بعض، فالكافر باليوم الآخر يتجرأ على الظلم وغيره من القبائح؛ لأنه لا يخاف العقاب ويفقد الرغبة في فعل الخير؛ لأنه لا يرجو الثواب، كما أشار إليه قول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:١-٣] ولا يصلح المجتمع الإنساني إلاَّ بالرهبة من العقاب والرغبة في الثواب.

والجريمة الثانية: التكذيب بآيات الله يلجئون إليه تبريراً لكفرهم ومحاربة للحق وصداً للناس عن الإيمان، والجمع بين الجريمتين شأن الأمم التي كذبت الرسل، وهي جمهور العالم الإنساني، وهو شأن المكذبين بالقرآن وبالرسول محمد ﷺ، فهو أمر توارثته جماهير الأمم من عهد نوح عليه السلام أو من قبله إلى هذا الزمان على أنه أمر عظيم الخطر، فكان التقدم بذكره والتحذير منه من أول تكليف البشر بالشرائع هو الذي ينبغي إكمالاً للحجة على الأمم. وأصحاب النار هم سكانها الملازمون لها، وفي قصة آدم عبرة ولا سيما لأهل العلم، فقد ترادفت عليه النعم حيث عُلّم الأسماء وجُعل خليفة في الأرض وأمِر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلاَّ إبليس.

ومع ذلك تتابع عليه الوعيد: الأول: إذا أكل من الشجرة صار من الظالمين، وذلك يستلزم أنه يكون جزاؤه كجزاء سائر الظالمين إذا لم يتب، الوعيد الثاني: إذا أكل من الشجرة شقي بإخراجه من الجنة وجعله في دار العناء يحرث ويحصد ويغزل وينسج له ثوباً وغير ذلك، ويعرض له في بعض الحالات الجوع أو التعب أو الحر أو البرد.

*فإن قيل*: إن الشقاء والظلم بمعنى واحد؟

*قلنا*: لا موجب لذلك، ولا دليل عليه إلاَّ أن يقال: إخراجه من الجنة وما لحقه بعد ذلك من العناء لا يسمى شقاء؛ لأنه صحيح البدن قوي معدّ للعمل بفطرته، فلا يكون العمل شقاء، وخروجه من الجنة المفوّت للرفاهيّة فيها إلى عيشه في دار العمل لا يبلغ أن يسمى شقاء، وإن كان فيه مشقّة؛ لأنه لم يثبت أنه كان في الجنة التي فيها «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

ألا ترى أنه لم يذكر في جنة آدم أن فيها ما تشتهي نفسه أو ما يشاء، وإنما وصفت بأنه لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى، وهكذا حالة كثير من الناس في أرض العمل، فليس أسف الخروج منها شديداً بحيث يعد شقاء؛ لأنه لا يبلغ أسف الطفل إذا فطم، بل ولا قريباً منه بالنظر إلى أن آدم يعرف من نفسه الكفاءة للعيش في دار العمل بسهولة وهناء، لكن يقال: لا بد أن يحصل له في أول الأمر شدة وعسر حتى تحصل الثمرة والثياب والفراش والمسكن. والشقاء في اللغة: الشدة والعسر.

*فإن قيل*: إذا لم يكونا واحداً، فكيف قال في (سورة البقرة): ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وفي (سورة طه): ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه:١١٧]؟

عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا

---

قلنا: هذه نفسها دليل لنا على أن الشقاء غير الظلم؛ لأن الظلم رتب الحكم به على الأكل من الشجرة والشقاء رتب على الخروج من الجنة، وهو متأخر عن الأكل من الشجرة، فقد كان من الظالمين قبل أن يشقى، وعادة القرآن أن يذكر في موضع شيئاً وفي موضع آخر شيئاً آخر من القصة الواحدة، انظر قصة آدم في (سورة البقرة) و(سورة الأعراف) ففي سورة البقرة ذكر الهبوط مرتين، وفي (سورة الأعراف) ذكر قوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا..﴾ الآية [آية:٢٢] وكذلك غيرها من القصص في القرآن الكريم.

الوعيد الثالث: في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وفي (قصة آدم عليه السلام) عبرة من حيث أن المعصية كانت سبباً لزوال النعمة، وفي ذلك تحذير لذريته من زوال النعم بسبب المعاصي، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] وعبرة قطع الطمع في دخول جنة الخلد مع الإصرار على المعاصي؛ لأن المعصية سببت الخروج من هذه الجنة، وهي دون تلك، فكيف يمكن دخول جنة الخلد التي لهم فيها ما يشاؤون مع العصيان، وفي نهج البلاغة نحو هذا عن أمير المؤمنين عليه السلام، وعبرة أن التوبة لم تنفع لإرجاع النعمة الفائتة بسبب المعصية، وإن سببت للخروج من الظلم والسلامة من العقاب؛ لأن توبة آدم عليه السلام لم تنفع لإرجاعه في الجنة.

﴿٤٠﴾ ﴿يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ إسرائيل: هو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ـ عليهم وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام.

قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ . وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ . ۞

---

وبنو إسرائيل: هم أهل الكتابين: (التوراة) و(الإنجيل) وقد آمن بعضهم بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبعضهم كفروا، فكبرت معصيتهم بكونهم أهل الكتاب يعرفون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما يعرفون أبناءهم، وكونهم يفسدون من يقتدي بهم فجاءت فيهم هذه الآيات موعظة لهم، واحتجاجاً عليهم، وإنذاراً وبياناً لفسادهم وطغيانهم، وتمردهم حسداً وحبّاً للدنيا، لئلا يغتر بهم أحد ولتعظم الحجة عليهم يوم القيامة إن لم يقبلوا، وقد أجمل النعمة هنا وفصل فيما بعد بتعداد نعم كثيرة.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ومن عهد الله الذي يجب عليهم الوفاء به ما ذكره سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧] وأما العهد العام فهو على قبول التوراة وذكر ما فيها من الإنذار والتبشير وغير ذلك، ويأتي ذكر مواثيق أخذت عليهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ..﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ..﴾ الآية، وقد ذكر عهده وعهدهم في (سورة المائدة) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي..﴾ الآية [آية:١٢].

﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ الرهبة: الخوف، قال في (الكشاف): «وهو من قولك: زيداً رهبته، وهو أوكد في إفادة الاختصاص من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾» انتهى. قلت: فالمعنى: أمرهم أن يخافوا الله، ولا يخافوا أحداً إلاَّ الله.

﴿٤١﴾ ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ وهو القرآن الكريم، وفي كونه مصدقاً لما معهم قطع لعلّتهم؛ لأن الإيمان به لا ينافي الإيمان بما معهم.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ لأنهم بسبب الكتاب الذي معهم يقتدي بهم بعض الناس في الكفر، فنُهوا أن يكونوا أول هذا الفريق، أي قدوته ومتبوعه؛ لأن ذلك جريمتان؛ جريمة كفرهم، وجريمة صد الناس عن دين الله، كما قال تعالى في (سورة النحل): ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [آية:٨٨].

وفي قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ تنبيه على وجه وجوب الإيمان به، وهو أن الله أنزله فهو حق وصدق وإنزاله حق، كما قال سبحانه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] وكما قال تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ لا تتبدلوا بها متاع الدنيا فإنه قليل بالنسبة للثمن المدفوع فيه، ولأنه يفنى عن قليل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧] وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ يعم (التوراة) و(القرآن) لأنهم إذا كفروا فقد تركوا التوراة والقرآن، لأنهما يدعوان إلى الإيمان بالله ورسله.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ أمروا أن يتقوا الله وحده؛ لأن بطشه شديد ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥-٢٦] فالتقوى تنجي من عذابه وما لحقهم من ضر مع التقوى، فهو خير لهم حتى لو قتلوا في سبيل الله فهو خير لهم، وإذا فاتتهم التقوى فاتهم كل خير في الآخرة، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يرجونّ أحدكم إلاّ ربه، ولا يخافنّ إلاّ ذنبه».

(٤٢) ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ لا تخلطوا الحق بالباطل ليقبل الباطل بسبب اختلاطه بالحق، حكى الرضي في (نهج البلاغة) عن علي عليه السلام من كلام له عليه السلام: «فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يخفَ على المرتادين،

ولو أنّ الحق خلصَ من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث، فيُمْزَجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى» انتهى.

﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه الحق الذي أخذ عليكم الميثاق ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧].

(٤٣) ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ عطف على ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ لأنه لم يتخلل إلاَّ ما يجري مجرى الحث على الإيمان، فالمراد: آمنوا، وأقيموا الصلاة.. إلخ، والإيمان بالقرآن يستلزم العمل بشرائع الدين كلها، ولكن خصت هذه لعظمتها في الدين وفي ذكرها مع الدعوة إلى الإيمان إشارة أن الغرض الدعوة إلى عبادة الله، كقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ..﴾ الآية [آل عمران:٦٤].

و(إقامة الصلاة) قد مرَّ تفسيرها، وأما إيتاء الزكاة فهو تسليمها من دون مطالبة من الفقير أو تهديد من الإمام، بل إذا حضر المصدق سلموها إليه لمجرد معرفة أنه مصدق، ولعل هذا هو السبب في عبارة ﴿ءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ في أكثر مواضعها في القرآن دون زكوا، ليفيد حسن الأداء لها.

وأما تخصيص (الركوع) بالذكر، مع أنه جزء من الصلاة فقيل فيه ـ على ما حكاه الشرفي في (المصابيح)ـ: «اقتضى ذكر الركوع هاهنا أن اليهود لم يكن في صلاتهم ركوع، فأمروا بالركوع» انتهى.

قلت: إن صح هذا فهو الظاهر، وإلا فقد خص الركوع لحكمة لا نعلمها، ولا يبعد أنه توطئة لقوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ويكون تخصيصه إشارة إلى إدراك الجماعة بإدراك الركوع مع الراكعين، وأن ذلك لا ينافي إقامة الصلاة حيث استلزم ترك القراءة في الركعة الأولى.

أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ

---

قال الشرفي في (المصابيح): «قال عليه السلام - يعني إمام زمانه القاسم بن محمد عليه السلام -: تدل على وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وعلى وجوب صلاة الجماعة، والألف واللام في الصلاة والزكاة للعهد لتقدم معرفة الصلاة كما في الأخبار الواردة في فضائل علي عليه السلام، وأنه صلى مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الناس بسبع سنين، والله أعلم» انتهى.

﴿٤٤﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للإنكار عليهم والتوبيخ، وهو منصبٌّ إلى نسيانهم أنفسهم، والبرّ ضد الفجور، وهو الإحسان وفعل الخير، ونسيان أنفسهم أنهم يغفلون عن أمرها بالبر؛ لأن أذهانهم موجّهة إلى الأغراض الدنيوية وما يدعو إليه الحسد والكبر من الكيد للمسلمين والطعن في الدين والتكذيب بآيات الله، فهم بمعزل عن أن يأمروا أنفسهم بالبر، كأنهم ناسون له أو هم ناسون له حقيقة، والتوبيخ لهم على الجمع بين الأمرين لا على أمر الناس بالبر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:٥١] فليس العيب الدعاء العريض، إنما التبكيت على الجمع بينه وبين الإعراض والنأي بالجانب.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس:٢٢-٢٣] فليس التبكيت على الدعاء لله خالصاً، بل على إضافة البغي إليه.

يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا

---

وتحقيقه: أن الإنسان إذا أقر بالحق في حالة كان حجة عليه في حال عناده، فإذا بُكّتَ على عناده وقد أقر بالحق فالمقصود الاحتجاج عليه بإقراره، ونظيره لو قلت لرجل: كيف تصوم ولا تصلي؟

فأنت لا تعيب عليه الصيام وإنما تعيب عليه ترك الصلاة.

ومن الغلط الفاحش توهم أن الدعاء الخالص في حال الشدة معيب أو أمر الناس بالبر، إنما المعيب الشر وإضافته إلى الخير حجة عليه، وقد وجدت كتاباً لبعض المفسدين يدعو إلى ترك الدين كله إذا كان العبد لا يقوم به كله، نعم يمكن أن يكون أمرهم للناس بالبر لم يكن إلاَّ رياء وسمعة، وتقوية لمركزهم في عنادهم، وعلى هذا يكون منكراً عليهم نفس أمرهم للناس بالبر، وعلى هذا لا تكون هذه الآيات نظير الآيات المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ احتجاج عليهم بما يتلونه في التوراة من الوعد والوعيد والميثاق على الإيمان برسل الله وغير ذلك مما يدعوهم إلى أن يأمروا أنفسهم بالبر أو إلى أن يكونوا أبراراً.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تبكيت واحتجاج عليهم بالعقول؛ لأن من شأن العاقل أن ينصح لنفسه ويتدبر عواقب الأمور فيسعى لنفسه في عاقبة حسنة أي أن العقل يدعو إلى ذلك، وإذا كان العبد يرشد غيره ويغوي نفسه فكأنه لا يعقل.

﴿٤٥-٤٦﴾ ﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾ على القيام بما أمرتم به من الإيمان بالكتاب وما إليه ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ ففيهما عون، ولعل العون في الصبر من حيث أن الصابر يتعود تحمل الشاق على النفس حتى تألفه نفسه، ومن حيث

أن الله معه يعينه ويقوي إرادته، وأما الصلاة فلأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، فبذلك تنهى عن الحسد والكبر ويسهل الإيمان.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ شاقة ثقيلة على أنفسهم، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى:١٣] فالإيمان بالقرآن وما يلزم معه من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وسائر الشرائع الناسخة لدينهم الذي نشئوا عليه وتعصبوا له، ومصيرهم تابعين لمحمد ﷺ، وهو من ولد إسماعيل، وقد كانت النبوءة والكتاب في بني إسرائيل، وأسباب غير ذلك تثقل من أجلها إجابتهم إلى ما دعاهم إليه من الإيمان بما أنزل على رسوله ﷺ وتشغلهم عن ذلك بالكبر والحسد.

﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ الذين ذلّت قلوبهم لله، فلا يريدون إلاَّ ما يرضيه، ولا مجال في قلوبهم للكبر ولا للحسد ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ الظن هنا، قيل: بمعنى العلم، وهذا بعيد؛ لأن السياق يستدعي تحقيق إيمانهم الصحيح الذي يكون عن علم اليقين، فالتعبير بما يفيد ذلك هو المناسب للبلاغة المطابق لمقتضى الحال.

وقيل: المراد أنه يكفي الظن في بعثهم على الطاعة والتقوى لعظم العقاب المحذور، وهذا لا يخلص من المشكلة؛ لأنهم قد وصفوا بالظن، فدل ذلك على أنه واقع منهم لا مجرد أنه مفروض مقدّر، والذي يصح مع إبقاء الكلمة على حقيقتها بدون معارضة للمقصود الذي هو المدح أن معنى قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ وقوله في (قصة أصحاب طالوت): ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ﴾ مصيرهم إليه في القريب العاجل.

وهذا بواسطة استعمال (اسم الفاعل) في هذا المعنى، إما بطريقة أنه (اسم الفاعل) المستعمل للحال، وجعل القريب العاجل كأنه في الحال، فكأنه قال: ملاقو الله في الحال، وإما لقرينة السياق، فكأنه قال: ملاقو الله في القريب العاجل، وذلك أن من كان أمله في الحياة قصيراً استعد للآخرة ولم يبال بأغراض الدنيا، ولم يحرص على ترك الجهاد، بل يحرص على الشهادة.

ونظير الآيتين في استعمال (اسم الفاعل) للقريب العاجل قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣] فلا يبعد أن قد أيقنوا بدخولهم النار عند حضور الموت، وفي البرزخ وعند خروجهم من القبور، أو على الأقل ظنوا، فظنهم عند رؤية النار أنهم مواقعوها ظن الوقوع فيها في القريب العاجل، لا مجرد ظنهم أنهم سيقعون فيها، ولو تأخر وقوعهم فيها.

ومن استعمال (اسم الفاعل) للقريب العاجل، ما رواه الإمام أبو طالب عليه السلام في (الأمالي) في قصة الإمام علي عليه السلام لما ضربه ابن ملجم ـ لعنه الله ـ قال: «وروي عن عمرو بن ذي مرّ، قال: قلت له يا أمير المؤمنين إنه خدش وليس بشيء؟

فقال عليه السلام: (إني مفارقكم إني مفارقكم) ودعا بصحيفة ودواة وكتب وصيته» انتهى، فقوله عليه السلام: (إني مفارقكم) معناه: في القريب العاجل.

ويظهر: أن منه: قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت:٣١] ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:٣٤].

وقول امرئ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقد ظهر: أن (اسم الفاعل) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ من هذا القبيل، يؤكد ذلك قوله تعالى في (أصحاب طالوت): ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ فانظر كيف كان قومه ثلاثة أقسام: قسم شربوا من النهر وهم الأكثر، وقسم بخلافهم، وقد ظنوا أنهم لا يطيقون قتال جالوت لقلة الباقين معه وكثرة قوم جالوت، وقسم ردوا عليهم قولهم: ﴿لاَ طَاقَةَ لَنَا﴾ بقولهم: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ..﴾ إلخ، وهؤلاء هم الصفوة من المؤمنين.

فكيف يصلح أن ينسب إليهم ظن البعث، كما قال الكفار: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢]؟ وكيف يصلح استعمال الظن بمعنى العلم وهم بيقينهم وإيمانهم أقوى من غيرهم؟ والمناسب أن يوصفوا بقوة الإيمان لا بعبارة توهم ضعف يقينهم، وكيف يؤتى بعبارة لا تؤتي سبب إقدامهم وشجاعتهم وتشجيعهم لأصحابهم؟ إن هذا لبعيد!!

أما إذا قلنا: المراد أنهم يظنون قرب لقائهم لله وقصر مدة بقائهم في الحياة الدنيا، فالمهِمّ عندهم الاستعداد للقاء الله، وأحسن الاستعداد الجهاد في سبيل الله والتعرض للشهادة في سبيل الله، ولذلك فهم مشتاقون إلى الإقدام ومشجعون لأصحابهم ليتمّ الغرض المطلوب حتى يفوزوا بالنصر أو الشهادة، فهذا المعنى هو المناسب للسياق ـ وبالله التوفيق.

﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ كما خلقهم في الدنيا ورزقهم وأمرهم ونهاهم يرجعون إليه ليجزيهم بما كانوا يكسبون، وليس مع رجوعهم إليه رجوع إلى غيره من شفيع أو ناصر أو معين، بل يرجعون إليه وحده ليحكم فيهم ما يريد.

فهم يخشونه ويسهل عليهم امتثال أمره بالإيمان بالكتاب، وبكل ما أمروا به؛ لأنهم موقنون به وهو في نظرهم قريب جداً لقصر آمالهم في الحياة واعتبارهم ما بعد الموت أوّل الرجوع إلى الله بأرواحهم، وما يكون من مجازاتها في حياة البرزخ، أو لأنهم يعتبرون توفّيه لأنفسهم أول الرجوع إليه، وفي شعر الناصر الأطروش الحَسن بن علي عليه السلام ـ يعني نفسه ـ:

أنـاف على السبعين ذا العامُ رابع ... ولا بدّ لي أنـي إلى اللـه راجـع

وكذلك لقاء الله. قال في (الكشاف) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة:٧٧]: «والمعنى: فخذلهم الله حتى نافقوا وتمكن في قلوبهم نفاقهم، فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا» انتهى.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام لما كلموه في تقليله للفطور، لا يزيد على ثلاث لقم، فيقول الحسن عليه السلام: يا أبتِ لو زدت؟ فيقول: «أحب أن ألقى الله خميصاً» انتهى، رواه الموفق بالله عليه السلام في كتاب (الاعتبار وسلوة العارفين) [ص١٩٢- مخطوط].

وفي كلام الحسين عليه السلام: «ألا ترون الحق لا يعمل به، والباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله ـ عزَّ وجل ـ» رواه المرشد بالله في (الأمالي) [ج١ص١٦١].

(٤٧) ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ إعادة النداء لهم كإعادة التنبيه للنائم إذا لم ينتبه لأول نداء وإعادة التذكير بالنعمة تنبيهٌ لهم من غفلتهم عن النعمة، وبعثٌ لهم على الشكر وتفضيلهم على العالمين تفضيلهم في النعم؛ لأنه آتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [النحل:٧١] وقوله تعالى في بني آدم: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٧٠].

تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ

---

وهذا واضح من عطف ﴿أَنِّى فَضَّلْتُكُمْ﴾ على ﴿نِعْمَتِىَ﴾ وفتح الهمزة؛ لأن معناه: ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿أَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ومعناه: التذكير بالنعمة، فالتفضيل هو التفضيل في النعمة.

وقوله تعالى: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ معناه: في الماضي، فكانوا أفضل العالمين في النعم، ولا يلزم بقاء الفضل واستمراره؛ لأن فضلتكم فعل ماض يصدق بتفضيلهم على العالمين الأولين؛ لأنهم إذا فضلوا على الناس كلهم الموجودين في الزمان الأول فقد فضلوا على العالمين؛ لأن العالمين اسم لمن قد وجد ولا يشمل المعدوم الذي هو غير موجود في ذلك الزمان.

ومتى قيل: فالتفضيل في النعمة نعمة، فكيف عطف على ﴿نِعْمَتِىَ﴾؟

فالجواب: أن ﴿نِعْمَتِىَ﴾ يحتمل: أن المراد به أنه آتاهم الكتاب، كقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فالكتاب الجامع للآيات الكثيرة نعمة كبرى، فالتذكير بالتوراة من حيث هي نعمة، ومن حيث هي حجة عليهم، وعلى هذا فلا إشكال في العطف، ويحتمل أن: ﴿نِعْمَتِىَ﴾ عام لكل نعمة، فعطف التفضيل عليها من عطف الخاص على العام، كعطف جبريل على الملائكة في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِلَ﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ يعني اتقوا شر يوم هذه صفته، فهو يوم لا ينجي منه إلا اتقاءه في الدنيا ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ لا تؤدي عنها حقاً ولا تقضي عنها ديناً ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ﴾ لتنقذها من شره لو جاءت بشفاعة شافع.

ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ

---

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فدية تعدلها وتقوم مقامها في القدر ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران:٩١] ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي الذين لم يتقوا ذلك اليوم شملهم عموم النكرة في سياق النفي، وهم نفوس كثيرة ولا ينصرهم أحد لدفع شر ذلك اليوم، وفي الآية دلالة على أنها لا تنفع الشفاعة للمجرمين كلهم، ويدخل في ذلك أهل الكبائر المنتسبين إلى الإسلام، وليس ذلك حطاً من مرتبة الشافع؛ لأنه يكون على وجه يحصل فيه التكريم للشافع والإهانة للمشفوع له.

كما روي عنه ﷺ أنه قال: «إني فرطكم على الحوض، وسيُجاء برجال فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» أو كما قال، فقوله: «أصحابي أصحابي» شفاعة ليردوا إليه ويسقيهم من الحوض، ولكنها لم تنفعهم، بل كان الجواب ذمهم وبيان استحقاقهم للعذاب.

﴿٤٩﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ لا يبعد حمل كلمة ﴿ءَالِ﴾ هنا على قرابة فرعون، أو على فرعون وقرابته، على معنى أنهم هم الذين يظلمون بني إسرائيل ويأمرون الأقباط بظلمهم.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يكلفونكم سوء العذاب يكرهونكم عليه من سامه خسفاً إذا حمله على ما هو ذل، قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما المَلْكُ سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الخسف فينا

قال في (الكشاف): «وأصله من سام السلعة إذا طلبها» انتهى.

يعني: إذا طلب بيعها منه، وقيل: من سام الإبل: إذا رعاها وهو بعيد غير مناسب للمعنى، والظاهر: في مضارعه يسيمون، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل:١٠] لأن السائمة: هي الإبل الراعية، والسوم: الرعي، وإن صح نسبته إلى صاحب الإبل تجوزاً، وقوله تعالى:

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ ووجه السوم فيه أنهم جعلوا ذبح الأبناء واستحياء النساء عادة مستمرة، فإذا ولد مولود إسرائيلي فهم يتوقعون ذبحه، فكانت هذه العادة سوماً لهم سوء العذاب من أجل أنهم لا يزالون يتوقعون قتل الأولاد في المستقبل، وهذا يناسب ذكر الإنجاء منهم؛ لأنه تخليص من الشر المستقبل لا مما قد وقع، وهذا المذكور ليس كل سومهم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ولكنه أعظمه وأشده عليهم، فذكر بعينه، وهم يعرفون سومهم سوء العذاب غير ذلك.

وفي (سورة إبراهيم): ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ﴾ [آية:٦] بالعطف، فعُطف عطف الخاص على العام وسوء العذاب أقبحه.

﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ نعمة من الله، كقوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَنًا﴾ [الأنفال:١٧] ولعل (بني إسرائيل) كانوا من العدد بحيث يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، أو بحيث يتجنب الظالم ظلمهم لقوتهم، ولكنهم تواكلوا وتخاذلوا وغلب عليهم اليأس، وعدمت ثقة بعضهم ببعض، فلم يجتمعوا بل تفرقوا، وتركوا محاولة الاجتماع والتوحد الذي تكون القوة معه، إذا كان مع صدق الديانة، والتوكل على الله، فلذلك استحقوا أن يتركوا وشأنهم حتى استضعفهم فرعون وصار يعاملهم المعاملة الجائرة، بسوء ما سبق منهم من التواكل والتخاذل وقلة المبالاة بعواقب ذلك، فمن هنا كان إنجاؤهم بعد ذلك بلاءً من ربهم عظيماً ـ والله أعلم.

تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

---

﴿٥٠﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ إذ فرقنا لكم البحر، حين ضربه موسى بعصاه ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣] ولما كان فرق البحر من أجلهم ليمرُّوا طريقهم بين الفرقين، كانوا كأنهم آلة لفرق البحر انفلق بمرورهم فيه، فهذه نعمة عليهم أن فرق لهم البحر وهي من الخوارق العظام، وجعل لهم فيه طريقاً سلكوه وحولهم من البحر كل فرق كالطود العظيم لا يسيل عليهم حتى خرجوا من البحر سالمين من الغرق وسالمين من إدراك فرعون وقومه.

﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ في مروركم فيه من الغرق ومن فرعون ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وهذه نعمة أخرى إهلاك عدوهم وهم ينظرون؛ لأنها بذلك تحققت لهم نجاتهم من آل فرعون، وحصل لهم شفاء لما في صدورهم من الغيظ، أو خفف عنهم بمشاهدتهم هلاك عدوهم في تلك الحال، وبتلك الصورة التي اقترنت فيها نجاتهم بهلاك عدوهم كلهم في وقت واحد برجوع البحر عليهم.

﴿٥١﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يحضر فيها في جانب الطور الأيمن يسمع فيها كلام ربه ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ ﴿ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً، وكان ذلك منكم من بعد موسى الذي هو رسول الله إليكم، والذي قد علمكم التوحيد، وأنكر عليكم ابتغاء إله غير الله فعظمت الجريمة بسرعة انقلابهم عن دينه واستبدال هداه لهم بالضلالة، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ معناه: أنهم ظالمون بذلك؛ لأن الشرك ظلم عظيم.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ

---

﴿٥٢﴾ ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أما العفو فحين تابوا، وقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يشير إلى أن العفو عن مثل ذلك في العادة بعيد، كما قال تعالى: ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾ [آل عمران:٨٦] فلما أن هداهم الله للتوبة ببركة موسى وعفا عنهم حين تابوا كانت تلك نعمة عظيمة يجب عليهم شكرها، ولما كان هذا تعريضاً لهم على الشكر شبه بالإنعام رجاء الشكر، فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التوراة ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ الفرقان بين الحق والباطل، بما أوحى إليه ربه من ذلك مع التوراة وقبلها، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي بذلك، ومعنى (لعل) مثله في ﴿**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾.

﴿٥٤﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ لأنكم تعرضتم بذلك للعذاب الدائم الشديد وصيرتم أنفسكم مستحقين له ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ الذي خلقكم وجعل صوركم متقنة مختلفة يتميز بعضها من بعض، فأنتم عباده يستحق عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به، ويستحق عليكم أن تتوبوا إليه من الشرك.

﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ وسلموها لبارئها تحقيقاً للتوبة بامتثال أمر الله في أنفسكم التي هي أعز الأشياء عليكم، واعترافاً بأن أنفسكم له يحكم فيها ما يريد.

ولعلهم لما كانوا قد أشربوا في قلوبهم العجل كانت توبتهم لا تتم إلاَّ بهذه التوبة أو بتسليم أنفسهم لله تعالى ليذهب رجس العجل وأثر عبادته عن قلوبهم.

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ لأن الشهادة والجنة خير من البقاء على الذنب حتى تموتوا ثم تصيروا إلى النار وقوله عند بارئكم؛ لأنه هو الذي يثيبهم عليه ويرضى عنهم.

﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بإسقاط هذا التكليف الشاق، روي أنهم حين عزموا على هذا الأمر اجتمعوا وعصبوا على أعينهم وتضاربوا بالسيوف أو نحو هذا فنزلت توبتهم أي قبول توبتهم، وهي بالتسليم لأمر الله، وعفى عنهم ربهم بإسقاط هذا التكليف الشاق، فكانت تلك شهادة للماضين وتوبة للباقين.

وقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل:٢٠] وقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة:١٣] أي رجع لكم بالرحمة والتخفيف عنكم بنسخ ذلك التكليف.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يرجع على عباده بألطافه، ويرحمهم حين يتعرضون لرحمته، وحين لا يستوجبون التشديد في حكمته، هذا وإسقاط الأمر بالقتل بالنسبة للباقين، فأما الماضين فقد مضوا على الحكم الأول شهداء، والتمنن بالعفو على الباقين، ويظهر: أنهم الأكثر إن لم يكونوا هم الكل ممن تاب، وما يروى من تكثير القتلى، فلعله من رواية اليهود ليفتخروا به، وليس في هذه الآية وأمثالها من القرآن ما يدل على وقوع قتل لا كثير ولا قليل، بل الظاهر أنه لم يقع؛ لأنه تمنن عليهم، وله الحمد والشكر، فعم بني إسرائيل.

جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ

---

فظهر منه: أن العفو نزل قبل أن يقع قتل بموجب الحكم الأول، ولولا ذلك لما كان العفو عاماً لبني إسرائيل الذين عبدوا العجل، ولَمَا مَنَّه على خلائفهم المخاطبين بقوله: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ واعتماد القرآن الذي لا ريب فيه أولى من اعتماد الروايات التي يكثر فيها الكذب، وخصوصاً فيما يتعلق بـ(بني إسرائيل).

﴿٥٥﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿جَهْرَةً﴾ عياناً، أرادوا أن يتجلى لهم فيروه بأعينهم، ولعل رغبتهم هذه هي أخت رغبتهم في أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة، أي أنهم يريدون إلهاً يشاهدونه كما للمشركين آلهة يشاهدونها بزعمهم، فطلبوا أن يروا الله سبحانه ليكونوا قد حصلوا على ضالتهم المنشودة، ولشدة حرصهم على ذلك أكّدوا هذا الطلب بقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ وصيروا ما رأوا من الآيات والنعم كأن لم يكن.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ الظاهر: في معنى ﴿ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ هنا أنها المهلكة، وأنها رجفة الطور حين اندك، ففي (سورة الأعراف): ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [آية:١٥٥] وفيها: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [آية:١٤٣] وعلى هذا فمعنى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ تنظرون مكانكم يرتجف بكم، إما الجبل نفسه أو ما حوله عند ارتجافه حين اندك.

﴿٥٦﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لا مانع من حمله على الحقيقة كموت الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، والله يحيي ويميت، ويؤكد ذلك السياق.

ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ

---

﴿٥٧﴾ ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ﴿ظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ﴾ جعلناه عليكم ظللاً تظلكم من الشمس، قيل: ذلك في التيه، فسخّر الله لهم السحاب يسير سيرهم. وأما ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ ففي مصابيح (الشرفي): «قال ـ أي المرتضى عليه السلام ـ : ﴿ٱلۡمَنَّ﴾ فهو شيء كان يقع على الشجر يضرب إلى الخضرة حلو كانوا يأكلونه، والسلوى: فهو طير أصغر من الحمام كانوا ـ أيضاً ـ يأكلونه في أيام تيههم، وذلك أن الله لما أمرهم بدخول القرية فكان من كلامهم ما قد سمعت مما قصّه الله في كتابه، فحرم الله عليهم مصر أربعين سنة، فكانوا يتيهون في مواضع حذاها هو الآن معروف، ولا يهتدون لها، فأنزل الله سبحانه المن والسلوى، وجعله لهم رزقاً يعيشون به إذ الأجساد لا تقوم إلاَّ بالغذاء» انتهى.

قوله: «مما قصه الله في كتابه» يعني في (سورة المائدة) [آيتي: ٢٢، ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي بكفرهم للنعم كما وقع منهم من الفسق المذكور في تلك القصة.

﴿٥٨﴾ ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ المعروفة عندهم، وقوله: ﴿هَٰذِهِ﴾ يظهر منه: أنهم كانوا قد قربوا منها ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾ الذي تدخلون منه ﴿سُجَّدٗا﴾ خاضعين لله متذللين بلا عجب ولا كبر، سليمين من سكرة النصر.

فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا

---

حكى الشرفي في (المصابيح) في تفسير الآية من (سورة الأعراف) عن الحسين بن القاسم عليه السلام ما لفظه: «ومعنى ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي ادخلوا الباب خشّعاً لله ـ عزَّ وجل ـ وسيروا عند ذلك بالسكينة والوقار، والخشية لله الواحد الجبّار، ولم يرد في هذا الموضع سجوداً على الوجوه، وإنما أراد ما ذكرنا، وكذلك روينا عن أئمتنا وسلفنا» انتهى.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ ﴿حِطَّةٌ﴾ بمعنى: حط عنا الذنوب.

قال في (الكشاف): «والأصل النصب بمعنى حط عنا ذنوبنا حطةً، وإنما رفعت لتعطي معنى الثبوت، كقوله: [صبر جميل فكلانا مبتلى] والأصل: صبراً على أصبر صبراً» انتهى.

قلت: لأن أول البيت: [شكى إليّ جملي طول السُّرى].

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ جواب الأمر بقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أو الأمرين من قوله: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ وهو عندي أرجح ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ثواباً مع غفران الخطايا ونعمة دخول القرية.

﴿٥٩﴾ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من المأمورين بهذا القول، وفي (سورة الأعراف): ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [آية:١٦٢] فظهر: أن المبدلين بعضهم.

﴿قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أي خالفوا الأمر، وأتوا بدل القول ذلك بقول خلاف المأمور به، ولم يظهر من الآية أنهم فعلوا ذلك استهزاء بالأمر، وليس يجب علينا معرفة ذلك البدل؛ لأن الله أبهمه ولم يبينه، إلاَّ بأنه غير الذي قيل لهم، وذلك محط الفائدة، ولا يبعد أن القول كان كلاماً استدعاه فرحهم بالدخول، وإعجابهم بقوتهم من أغاريد أو غيرها ـ والله أعلم.

عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ

---

وما قيل: أنهم قالوا: (حنطة) بعيد؛ لأن لغتهم عبرانية، وإنما المذكور من هذه الأوامر ومن قولهم هو ترجمة الواقع، وليس في الحروف موافقاً للكلمات العربية.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي المبدلين، وفائدة إعادة اللفظ أن لا يتوهم لو قيل عليهم عود الضمير إلى الكل من المأمورين بدخول القرية، ومما ذكر بعده ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي عذاباً.

وقوله: ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ يفيد: أنه شيء نزل من السماء، مثل: وبآءٌ ينزل في طل أو حر شديد يأتي به حر الشمس، وقد قيل: إنه طاعون ولا يبعد على معنى أنه وبآء نزل.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يفيد: أنه عقوبة على جرائمهم كلها، هذه المذكورة وغيرها، ويمكن دخول معصيتهم لموسى حين امتنعوا من دخول القرية، فدعا ربه ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:٢٥].

ويناسب هذا ما ذكره الشرفي في (المصابيح) حيث قال: «وفي (البلغة): روي أنّ الآباء هلكوا، وبقي الأبناء وفيهم الفضل والعبادة» انتهى.

*وحاصل هذا*: أن الفاسقين عند دخول القرية هم الفاسقون قبل أربعين سنة والله أعلم.

﴿٦٠﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ قيل هذا في التيه.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: هو حجر كان مع موسى ـ صلى الله عليه ـ يحمل بين يديه على حماره، وذلك أنه لما استسقى الله سبحانه لقومه إذ عطشوا، أمره الله أن يضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، ولم يكن إلاَّ حجراً صغيراً، وكانت الآية في الصغير المحمول المتحرك المنقول عظيمة جليلة أعظم أمراً من الحجر الراسي، لأنه لو كان راسياً لقال فيه القائل: إن الماء ينبع من الأرض في الحجر، فلما أن كان حجراً صغيراً يحمل كانت آية جليلة عظيمة باهرة من آيات الله الجليلة» انتهى المراد.

قلت: انفجار الماء اثنتا عشرة عيناً من الحجر بسبب ضرب موسى إياه بالعصا آية عظيمة، سواء كان راسياً أم منتقلاً، وإنما أراد المرتضى عليه السلام أن الآية عظمت أكبر من ذلك بكون الحجر صغيراً منتقلاً.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ قيل: كل سبط، وكانوا اثني عشر سبطاً، والمراد: ذرية كل سبط، وهذه نعمة؛ لأنه يقل الاختلاف والمزاحمة والمسابقة على الماء، وهذا تشعر به الآية في (سورة الأعراف): ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ..﴾ الآية [١٦٠].

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أمر إباحة وتعبير عن الإنعام عليهم بذلك، ونهي عن الفساد في الأرض؛ لأن الواجب شكر النعمة لا مقابلتها بالفساد في الأرض الذي هو كفر قد يؤدي إلى سلب النعمة وتعجيل النقمة، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، والعثيّ الفساد أو أشد الفساد، ومفسدين حال مؤكدة، وصح ذلك لاختلاف اللفظ.

وإذا قابلت بين هاتين الآيتين وبين آيتي (سورة الأعراف) وجدت في كل منهما فائدة خاصة، فهنا قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فأفاد: أن الذي جرّأهم على التبديل هو ظلمهم من قبل، وهنا ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٦١﴾

---

فأعاد اللفظ ليفيد: أن العذاب عليهم خاص، ولكن ليس في هذه تصريح بأن المبدلين بعضهم، فأفاده في (سورة الأعراف) بقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ [آية:١٦٢] وفي (سورة الأعراف): ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ [آية:١٦١] ولم يقل: ﴿رَغَدًا﴾ وقال في (آية البقرة): ﴿رَغَدًا﴾ فأفاد سعة المأكول في كل موضع شاءوا.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ طعام واحد ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ واعتبروه واحداً من حيث أن غداءهم وعشاءهم كل يوم منه لا يخلفه طعام آخر، فاعتبروا المجموع من المن والسلوى طعاماً واحداً نظراً إلى الثاني الذي يريدون أن يخلفه.

وقولهم: ﴿يُخۡرِجۡ لَنَا﴾ الظاهر منه يخرج لنا من الأرض، أي ينبت لنا، والبقل: الفُجْل وما أشبهه مما لا ساق له، ويستنبت أو ينبُت بالبذر، ولا يبقى أصله في الأرض كما يبقى أصل الحشيش، هذا الذي يظهر من التفاسير المختلفة أنه يجمعها، أما موضع الخلاف فالله أعلم بالحقيقة.

والقثاء: الخيار، أو شيء مثل الخيار، وفومها، قيل: هو البر، وهو الأقرب، وقيل: هو الثوم، قلت: لو قرن بالبصل لكان الظاهر، ولكنه قرن بالعدس، وهو من الحبوب وهو البلسن، والبصل معروف يجعل في الطبائخ وغيرها،

وهو نافع من الوباء ومن ضرر اختلاف الماء على المسافر، وفيه منافع كثيرة مذكورة في الطب، وفي إضافتهم هذه الأشياء إلى ضمير الأرض تنبيه على أنهم يريدون طعاماً من نبات الأرض من حيث هو من الأرض خلاف ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾.

ولعل سبب ذلك: أن طعامهم قبل التيه كان مما تنبت الأرض من هذه الأشياء، فلما طالت مدتهم في التيه ولا طعام لهم مما كانوا ألفوه في نشأتهم وتربيتهم إنما طعامهم خلافه، وهو المن والسلوى، والمن والسلوى وإن كان خيراً من تلك الأشياء، فإن استمرارهم عليه كان سبباً لقلة رغبتهم، واشتياقهم إلى ما كانوا يأكلونه من الأشياء المختلفة من ألوان النبات، كما قالت ميسون شعراً:

لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلي من قصر منيف

إلى آخر الأبيات.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ فإن من الغلط أن يكون طلب الإنسان تبعاً لمجرد الرغبة وإن فوت الذي هو خير له.

﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ إن هبطتم مصراً، ولعل هذا كان قبل معصيتهم وامتناعهم عن دخول الأرض التي كتب الله لهم، وقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة:٢٦] فكأن موسى عليه السلام يقول لهم: إن طعامكم واحد ما دمتم في التيه، لا يدعكم الخوف أن تفتحوا لأنفسكم مصراً من أمصار الجبارين الذين تشردتم في التيه من خوفهم، فإن شئتم المطعومات التي طلبتم، فاهبطوا مصراً من تلك الأمصار ليكون لكم وطن وقرار وتزرعوا ما تحبون.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ

---

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فلم يزالوا في التيه إلى تمام أربعين سنة ﴿وَبَآءُو﴾ بعد ذلك ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهذا حين تمكنوا في الأرض كما قال تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤].

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لأنه سبب الغضب كونه قتلاً ظلماً وعدواناً على النبيين، والنبيون ـ صلوات الله عليهم ـ لا يقتلون إلاَّ وقتلهم بغير الحق، ولكن من حسن البيان التصريح بما هو محط الفائدة، ولعل فيه ـ أيضاً ـ فائدة أخرى، وهي: أنهم عباد من عباد الله، فلو أنهم استحقوا القتل ما غضب الله له.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي وقع منهم الكفر وقتل الأنبياء بسبب عصيانهم أو معاصيهم وعدوانهم المتكرر منهم، فالمعاصي والعدوان جرتهم إلى ما هو أكبر وجرأتهم على ما هو أخطر، فمن أجل ذلك ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والذلة: خلاف العزة.

وذلك يفيد: أنهم صاروا في حال يعجزون عن الدفاع عن أنفسهم، والمسكنة الضعف والخضوع، ولعلها سميت مسكنة من السكون؛ لأن صاحبها لا يتحرك للدفاع، بل يلتزم السكون لضعفه، والاعتداء ظلم الغير، مثل اعتدائهم في السبت بصيد الحوت وهو محرم عليهم.

﴿٦٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ الذين آمنوا هم الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ وما يجب الإيمان به،

والإيمان تصديق وقبول وإذعان يدعوا إلى الطاعة باللسان والجنان والأركان؛ لأنه يسبب الخوف من العقاب والرغبة في الثواب، قال الله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] وغيرها، والذين هادوا هم اليهود، والنصارى هم المتسبون إلى دين عيسى عليه السلام.

وأما الصابين، فحكى الشرفي في (المصابيح): «عن المرتضى عليه السلام أنه قال: والصابين، فهم فرقة أخرى من النصارى يدعون بالصابين، وإنما اشتق اسم الصابين من الصبو، يقال: صبا فلان. وفي ذلك ما يقول الشاعر:

صبوت إلى اللهو بعد المشيب ... وقد كنت للّهو قدماً تروكا

قلت: وقول الله تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف:٣٣] وعبارة (لسان العرب): «الصَّبوة: جَهْلَةُ الفُتُوَّة واللهو من الغزَل، وقال: وصبا يصبو صَبْوَةً وصُبُوّاً: أي مال إلى الجهل والفتوّة» انتهى، فلعل تسمية (الصابين) بهذا الاسم كانت ذماً لهم بميلهم إلى الباطل على التشبيه بمن يصبو، وهذا التفسير على (قراءة نافع) بغير همز.

فأما على قراءة ﴿ٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ بالهمز ـ فقد فسره بعض أهل اللغة: بالخروج من دين إلى دين، وقالوا: الصابئون: قوم يزعمون أنهم على دين نوح، قال في (لسان العرب) وفي (الصحاح): «جنس من أهل الكتاب..» إلخ.

قلت: وهذا أقرب لتتفق القراءتان على معنى واحد، والأولى: أنهم فرقة أصل دينهم النصرانية، ولكنهم غيروا فيه حتى خرجوا عن النصرانية وصار لهم اسم خاص.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ من آمن أي من كل الملل المذكورة، ولا مانع من شمول الذين آمنوا؛ لأنهم مأمورون بالإيمان فيما بقي من أعمارهم، كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ..﴾ الآية [النساء:١٣٦].

ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾

---

وأما بقية أهل الملل، فالمعنى: دخلوا في الإسلام واتقوا الله؛ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح يستلزم ذلك كما قدمناه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾في الآخرة؛ لأن توبتهم تمحو ذنوبهم السابقة، فالآية وعد وتبشير لأهل الملل كلهم إذا آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً، ودعوة لهم إلى الإيمان.

﴿٦٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ على أخذ التوراة وما آتاهم الله على لسان موسى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي الجبل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ..﴾ الآية [الأعراف:١٧١] وذلك ليمتثلوا أمر الله تعالى بقوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ بعزم صادق قوي وصبر ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ من الوعد والوعيد والهدى لمن اهتدى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ربكم وتتقون عذابه الذي لا بد منه إن خالفتم ونكثتم.

﴿٦٤﴾ ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق والآية العظمى والنعمة الكبرى بالتعريض على الهدى ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بهدايته لكم إلى التوبة والرجوع إلى العمل بالميثاق ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أهل النار الذين خسروا أنفسهم وأهليهم وفاتهم كل خير.

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ فاتقوا الله واعتبروا بهم، واحذروا أن ينزل بكم العذاب العاجل كما نزل بهم.

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا

---

والذين اعتدوا في السبت: هم الذين ذكرهم الله في (سورة الأعراف) وفصّل قصتهم من قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [آية:١٦٣] والقرد: حيوان معروف قريب من مشابهة الإنسان في صورته وإدراكه، ومعنى ﴿خَاسِئِينَ﴾ مطرودين من رحمة الله في ذلة وهوان.

﴿٦٦﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي هذه المصيبة النازلة والعقوبة العاجلة ﴿نَكَالًا﴾ أي عذاباً عقوبة وزجراً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من المعاصي المستقبلة ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ المعاصي السابقة أي لأجل ما خلفها من المعاصي؛ لأنها زاجرة عنه لبني إسرائيل كقوله تعالى في السارق والسارقة: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨] فالجزاء لهما والنكال لهما ولغيرهما.

وعلى هذا فـ(اللام) في قوله تعالى: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ لام التعليل، أي من أجل ما بين يديها وما خلفها، أو لام الاختصاص أي جعلناها لما بين يديها زجراً، ولما خلفها جزاءً، وفائدة الزجر لما يكون بعدها زيادة الحجة على من ارتكب مثلها أو خلافها مما يسبب العذاب.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين تنفعهم المواعظ؛ لأنهم يتّعظون فلا يرتكبون مثلها مما يوجب العذاب، فاعتبروا بما قد علمتم.

﴿٦٧﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ لأنهم لم يتوقعوا مثل هذا الأمر، واستبعدوا أن يؤمروا بذبح بقرة واحدة على كثرتهم، واستعدادهم للعمل بالتكليف الثقيل، فجوّزوا أن موسى عليه السلام غير جاد في هذا الكلام، وإنما قاله استخفافاً بهم.

هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ

---

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يقول عليه السلام: إن هذا لو وقع هزؤاً مني لكان جهالة عليكم حين آمركم بما لم يأمركم به الله، وجهالة من حيث أنه قول على الله ما لم يقل، وتعظم بوقوعها من رسول الله إليكم، فكيف تقع مني؟ ولكنه لم يقل: فكيف تقع مني، وأكتفى بالتعوذ بالله؛ لأنه في براءته من ذلك معتمد على لطف الله وعصمته، وفيه تعريض بهم؛ لأن كلامهم هذا جهالة، وكان التعوذ هذا دليلاً على أنه بريء من حيث قد أفاد أنه جهالة لا تليق به، وهو رسول، ومن حيث دل على شدة كراهته للجهالة بالتعوذ بالله منها، ومعنى أعوذ: أستجير بالله وألجأ إليه لينجيني.

﴿٦٨﴾ ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الدعاء هو طلب من يعتبره الداعي أعلى بالقدرة والقهر تذللاً وافتقاراً، وقولهم لنا يفيد دعواهم أنهم يريدون امتثال الأمر، إنما يؤخرهم انتظار البيان.

وقولهم: ﴿رَبَّكَ﴾ وهم يعلمون أنه ربهم، فلم يقولوا ربنا مع أن الطلب من أجلهم؛ لأنهم يعلمون أن لموسى صلة بربه من أجلها يستجيب له، وكذا في قولهم: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾ وقولهم فيما يأتي: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وقد لاحظ هذا المعنى قوم فرعون، حين قالوا: ﴿يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ [الأعراف:١٣٤] واعتبرت هذه الصلة في الآيات الكريمة من سورة (قد أفلح المؤمنون): ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [آية:٥٧] حيث جاء ذكر ربهم في أربع آيات متتابعة، ولم يأت الضمير فيما بعد الأولى.

وقولهم: ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ دعوى أن أمرهم بذبح بقرة مجمل يحتاجون إلى بيانه، وهو في الواقع مطلق يصدق بذبح أيِّ بقرة ذبحوها لو امتثلوا قبل

يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

---

هذه المطالبة، ولكن أنفتهم من أن يكون هذا هو المراد، وهَوَاهُم في أن يكون المراد بقرة مخصوصة لذبحها، معنى زائد على ذبح غيرها، حَمَلهم على جعل المطلق مجملاً، وهكذا الهوى، يصد عن الحق، ويحمل على تفسير كلام الله ورسوله بما يوافق الهوى وإن خالف الحق.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ فقيد ذلك المطلق، وصار التكليف بالمقيد من أجل طلبهم البيان لغير مجمل. قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: والفارض: المسنّة التي قد انفرض فمها، وانفراضه فهو: سقوط أسنانها، والبكر، فهي: لم تلقح قط» انتهى المراد.

وقوله: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي متوسطة في سنها بين الفارض والبكر ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ من ذبح البقرة التي هذه صفتها، فقد وجب عليكم بأمر الله.

﴿٦٩﴾ ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ قوله: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي شديدة الصفرة خالصتها، وقوله: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ يفيد: جمالها بلونها، وحسن صورتها، وهذا تقييد للمطلق مع التقييد الأول، فصار المأمور به بقرة جامعة للوصفين.

﴿٧٠﴾ ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ بوجود عدد من البقرات فتيات صفر جميلات، فنحن مترددون لا ندري أيّتهن المراد ذبحها ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى المراد، إذا بيّن لنا مرة ثالثة بياناً ثالثاً.

قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

---

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي أن الله ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ الذّلول: المذللة للعمل التي ألفت العمل فذلّت لمن يعمل عليها، وإثارة الأرض: حرثها المظهر لبعض ما بطن، والمفتت لبعض ما كان جامداً متلاصقاً.

والمعنى: أنها ليست ذلولاً بحيث أنها تثير الأرض، وفي هذا التقييد إشارة إلى أنها ذلول لسائقها وقائدها، فذلك غير منفي، إنما المنفي كونها ذلولاً لحرث الأرض، وأنها لا تحرث الأرض، فجمع قوله: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ بين نفي كونها ذلولاً للحرث ونفي اعتياد الحرث الذي تكون به ذلولاً، وقوله: ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ يفيد: أنها لا تنزع الماء لسقي الحرث، فأفاد سلامتها من تعب العمل.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ سليمة من العيوب، سلمها الله منها ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ فلونها واحد لم يوشّ بلون آخر من غرة أو تحجيل أو غير ذلك ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ لأنك جئت بالأوصاف التي معها يصعب امتثال الأمر، وذلك هو الذي نهواه، فجعلوا الحق تابعاً لهواهم، و ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ﴾ بجفائهم وجلافتهم، وقد جاء بالحق من قبل.

﴿فَذَبَحُوهَا﴾ جامعة للصفات ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أنفة من تكليفهم بذبح بقرة، فذبحوها وهم كارهون لذبحها، بحيث كادوا أن لا يذبحوها، ولم يكفهم صعوبة هذا التكليف بزيادة أوصاف البقرة؛ لأنه لم يخرجهم عن كونهم كلفوا ذبح بقرة.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً

---

﴿٧٢﴾ ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ تدافعتم كل يدفع عن نفسه تهمة القتل ويلصقها بغيره ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (الواو) للحال، أي تدارأتم فيها في حال أن الله مخرج ما كنتم تكتمون، وهو يعم قتل القتيل وغيره، كالباعث على قتله، والغرض المقصود به.

﴿٧٣﴾ ﴿فَقُلْنَا﴾ لكم: ﴿اضْرِبُوهُ﴾ أي القتيل المفهوم من قوله: ﴿قَتَلْتُمْ﴾ ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي ببعض البقرة بعد ذبحها، حكى الشرفي في (المصابيح) عن المرتضى عليه السلام أنه قال في البقرة المذكورة: وهذه فهي التي أمر الله سبحانه أن يضرب القتيل ببعضها، وذلك أنه قتل قتيل في بني إسرائيل، فادّارأوا فيه واتهم بعضهم بعضاً بقتله، وعظم بينهم الأمر فيه، فأمرهم الله عز وجلّ أن يضربوه ببعضها، ففعلوا ذلك، فعاش القتيل وأخبرهم بقاتله، فكانت هذه آية عظيمة جليلة في إحياء الله سبحانه له، وقد كان قادراً أن يحييه بضربة عود لو أمرهم لقام مقام البقرة، ولكن الله يفعل ما يشاء، لا معقّب لحكمه.

﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ كما أحيى هذا القتيل ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يريكم دلائله الدالة على قدرته وعلمه وسائر ما دلت عليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما تدل عليه، وتعلمون وتفهمون، أي وكذلك يريكم الله آياته، فكم آتاهم من آية بينة، فكان في أمرهم بذبح البقرة سرّ لو علموه لم يتعنتوا ذلك التعنت، ولكنهم كانوا لو علموه لاختلفوا، فالبريء يدعوا إلى امتثال الأمر، والقاتل ومن يتعصب له من قريب أو نحوه يمتنعون ويتعللون،

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

---

فكان لا يحصل ذبحها منهم كلهم، وضرب القتيل ببعضها منهم كلهم، وذلك أنهم شركاء في الذبح بالفعل والرضى، وشركاء في ضرب القتيل ببعضها بالفعل والرضا.

فأدّى ذلك الذي فعلوه واشتركوا فيه إلى إحياء القتيل وانقطاع التدارؤ فيه بإخباره بقاتله منهم، بحيث علموا بتلك الآية العظمى أن الله هو الذي أحياه وأنطقه كلهم، واتضح الحق فيه لهم كلهم، وكان المقصود الأعظم أن يريهم الله كيف يحيي الموتى آية لهم وزيادة في الحجة على من كفر، وآية لنبيئهم الذي كانت هذه الأوامر من طريقه لينقادوا له ويتركوا التعنت عليه.

﴿٧٤﴾ ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ المذكور كله من الإحياء للقتيل وما كان فيه من الموعظة لكم والتذكير بإحيائكم بعد موتكم، والدلالة على قدرة الله عليه بما شاهدتم، وما تقدم تعديده من النعم والآيات من قوله تعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾.

﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ لأن قلوبكم لا تلين لآية ولا لموعظة ولا تتأثر لتخويف ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لأنها تلين له حتى يخرج منها بقوة وكثرة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ تضعف عن التماسك مع ضغط الماء فتشقق له ليخرج منها، أما قلوبكم فلا تلين لتكون مصدراً للخير ولا تتأثر بالمواعظ والآيات لتسمح بأن يخرج منها شيء من الخير خضوعاً للحق ورقّة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ أي من الحجارة ﴿لَمَا يَهْبِطُ﴾ يسقط وينزل ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ لضعفه عن الاستمساك في مكانه الذي أذن الله بهبوطه منه حيث لم يبق له ما يحفظه في مكانه.

وذلك إمّا لأنه قد يكون بسبب استمساكه مكانه وكان ضعيفاً مع ثقله فسقط لغير سبب ظاهر، وإما أن سبب استمساكه وإن كان قوياً فلم تكن قوته تكفيه لحفظه عند عارض غالب من رجفة أو مطر، ولما كان سقوطه ونزوله من مكانه يشعر بعجزه عن الاستمساك في مكانه وضعفه عن مخالفة أمر الله فيه وإذنه بهبوطه بما هيأ له من السبب الأصلي أو العارض قيل فيه: ﴿مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ إما على المجاز كأنه هبط من خشية الله؛ لأنه انقاد لقضائه فيه ذليلاً، وإما على الحقيقة إذا كان له حياة مخالفة للحياة المعهودة من حيث أنا لا نرى لها حركة اختيارية، وإنما احتمل الكلام هذا؛ لأنه كلام الله القادر على كل شيء العليم بكل شيء، فهو يعلم ما لا نعلم، وليس في تجويز ذلك فتح لباب الجهالة، إنما ذلك لو جوزنا لها حياة مثل هذه الحياة المعهودة في الحيوان المتحرك بالحركات الاختيارية، فأما حياة مخصوصة خلافها لتعرف الله وتخضع له فلا مانع منها في العقل.

ويؤكد هذا قوله: ﴿مِنۡهَا﴾ ولم يقل: وإنها لَتَسَّاقط، حتى نقول: المراد أن شأنها ذلك ومن حقها أن تتساقط لو جعل الله لها عقولاً وأراها آياته، وقد يكون هذا إشارة إلى الجبل في قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا**﴾ [الأعراف:١٤٣] والظاهر فيه: أنه جعله دكاً بتجليه له.

وفي كلام القاسم عليه السلام في (الرد على من زعم أن الله يُرى بالأبصار) في (مجموعه) [ص٤٠٥]: «أحدث في الجبل عقلاً يدرك به ما يتجلى له، وإن الله تبارك وتعالى أحدث آية فتجلّى الله للجبل [بها] وجعلها آية سماوية ولم تكن أرضية» انتهى المراد.

قلت: يعني أن الجبل عرف الله معرفة تامة قوية، فعظّم الله وبلغ من تعظيمه أن تقطع وساخ وذهب، فلا مانع من حمل الآية الكريمة على هذا،

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا

---

فهو معنى حقيقي معهود عند السامعين المخاطبين من بني إسرائيل، ومثله ممكن عندهم، فلا حاجة معه إلى صرف الكلام إلى المعنى المجازي.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا بد أن يحاسبكم عليه ويجازيكم.

(٧٥) ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ مع قسوتهم هذه ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه كلام الله، يصنعون ذلك بكلام الله من التوراة التي هي كتابهم، لا يتحرجون منه، ولا يخافون لقسوة قلوبهم، ومن كان كذلك لا يرجى منه إيمان لكم وقبول منكم.

(٧٦-٧٧) ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ خداعاً ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يوم القيامة يحتجون عليكم بما أقررتم به في الدنيا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لأن من شأن العاقل أن لا يعين على نفسه.

﴿أَ﴾ يقولون هذا ﴿وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كما هو اللائق بمن يقول ذلك، فهم حينئذ أحق أن يعاب عليهم وينكر عليهم مخالفة العقول، فإن كانوا يعلمون ذلك، فكيف لا يعلمون أنه سواء في علم الله حدثوهم أم لم يحدثوهم حاجوهم به أم لم يحاجوهم به؟! وأين عقولهم حين ينكرون على أصحابهم التحديث ويعتبرونه مخالفة للعقول؟! أما إذا أنكروا عليهم التحديث وهم لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، فهم أجهل وأجهل ممن يعيبون عليهم التحديث!

أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ

---

﴿٧٨﴾ ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي من قوم موسى ﴿أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يحسنون القراءة ولا الكتابة، فهم جاهلون بما في الكتاب، وقوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ استثناء منقطع؛ لأن الأماني غير معلومة لهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ والأمنية: ما يرغب فيه ويرجى من الخير، وقد يكون الرجاء صادقاً، وقد يكون خطأ، وفي شعر محمد بن عبد الله النفس الزكية عليه السلام الذي رواه في (أمالي أبي طالب):

متى أرى للحق نوراً وقد أسلمني ظلم إلى ظلم
أمنيّة طال عذابي بها كأنني فيها أخو حلم

وقد فسر أمانيهم القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ فهؤلاء الذين لا يعلمون الكتاب وإنما يظنون أماني قد اتكلوا على الأماني فأعرضوا عن الدين وعن التعليم وتفرغوا للدنيا.

﴿٧٩﴾ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ من كتبهم التي يكتبون غير كتاب الله ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ يشير إلى أنهم ابتدعوه بأيديهم جرأة على الله ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ليوهموا أنه من التوراة.

ونظير هذه قوله تعالى في (سورة آل عمران): ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آية:٧٨].

أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إما الرشوة وإما ما هم عليه من الثروة بسبب رئاستهم في أهل دينهم، وإما كل ذلك يشترونه بالكذب على الله ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ وعيد بالعذاب ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الزور ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الرشا وما يشبهها من الهدايا المحرمة وغيرها.

﴿٨٠-٨١﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ منتهية يحصرها العدد.

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ بذلك ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ لأنه أصدق القائلين ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فقد جمعتم بين باطلين، القول على الله بغير علم والتمني الباطل الذي يُجرِّؤكم على الباطل، وهذا هو الواقع؛ لأن الله سبحانه لو كان وعدهم ذلك ما عاب عليهم القول به.

وقد حقق هذا بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ كلمة نفي لما قالوا به في قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ ثم فَصَّل معنى هذا، فقال تعالى: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ لم يكن له من شرها منجى، كقوله تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس:٢٢] وقوله تعالى: ﴿لَتَأْتُونَنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف:٦٦] أي تغلبوا وتُقهروا ولا تجدوا لإنقاذه سبيلاً، فالمعنى لم يكن له ما ينقذه من شر خطيئته من عذر صحيح كالخطأ والنسيان والإكراه أو توبة تمحو السيئة، بل تورط في العذاب بسببها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ باقون فيها لا يموتون سواء كانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم.

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا

---

﴿٨٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ باقون، سواء كانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم، فالجنة جزاء على الأعمال الصالحة، والنار جزاء على الأعمال السيئة، ولا فرق في ذلك بين أهل الكتاب وغيرهم.

﴿٨٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكـــروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي تحسنون بالوالدين إحساناً، والمعنى ـ فيما أعتقد والله أعلم ـ أن الله أخذ منهم ميثاقاً، أي كلاماً موثقاً مثل أن أقسموا بالله لا يعبدون إلاّ الله ويحسنون بالوالدين أو أخذ ميثاقهم، فأقسموا لا يعبدون إلا الله، وأمرهم أن: أحسنوا بالوالدين إحسانا.

﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ القريب في النسب ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ اليتيم: الصغير الفاقد لأبيه ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ المسكين: الفقير الشديد الحاجة، بحيث يحتاج إلى السؤال، سواء سأل أم لم يسأل، وأما الحديث: «ليس المسكين هذا الذي ترده اللقمة واللقمتان..» إلى آخره، فإنه من المجاز كقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنمـا الميت ميت الإحيـاء

لأن المقصود بالحديث التنبيه، والحث على التصدق على المحتاج الذي لا يسأل، وبيان أنه أشد في معنى المسكنة، وليس المقصود تعليم اللغة ولا وضعاً جديداً.

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي حسناً بالفتحتين، وفيه مبالغة في وصف الكلام بالحسن، حتى كأنه حُسْن ـ بضم الحاء وسكون السين ـ أو المقصود الأمر بحسن القول لا القول نفسه، فليس المقصود إلاَّ تبعاً للأمر بالحُسن، وفائدة هذا ترجيح الصمت، حيث لا يكون المقصود حُسن القول، والحُسن ضد القبح، فيعم الإحسان الطبيعي الجائز الذي ليس معه وجه قبح، والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قد مر تفسيره ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن أمر الله ونهيه وما أخذ عليكم الميثاق به، والتولي ضد الإقبال إلى الشيء، وتوليهم: هو توليهم عن الله بترك عبادته وإقبالهم إلى الدنيا، وترك طاعة الله في أمره ونهيه.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: تدل على تحريم الشرك بالله، وعلى وجوب الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، وعلى أن يقولوا للناس حسناً، من أمرٍ بمعروفٍ ونهي عن منكر، وإرشاد ضال، وابتداء بالسلام وردّه، وتشميت العاطس، واجتناب الفاحش من القول، والسب والمراء، وعلى تحريم التولّي والإعراض عما ذكره الله وشرعه في هذه الآية» انتهى.

قلت: والفرق بين الوالدين وسائر الناس في هذه الآية: أن الأمر بالإحسان إلى الوالدين غير خاص بالقول، وكذا ذو القربى واليتامى والمساكين، فيعم الإحسان ببذل المال وبالأفعال للنفع والدفع، ويفهم منه قبح الإساءة إليهم.

مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ

---

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يدل على تحريم الشرك الأكبر، وعلى تحريم الشرك بالعبادة الذي هو الرياء، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ﴾ دليل على أنه لا يدل على ضعف المذهب قلة القائلين به، وأنه قد يكون هو الحق.

﴿٨٤﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ لما كانوا جماعة واحدة في نسبها وملتها نسب إلى جملتهم دماء بعضهم وإخراج بعضهم من ديارهم كما ينسب إلى جملة البدن ما يقع على عضو منه، وفيه إشارة إلى أن ضر البعض ضر للجملة، كما يقال في المثل العرفي: «القَدّ في الثوب والكسر في الصَّبَح» أي في الساق ـ والله أعلم.

﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ﴾ بهذا الميثاق ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ به على الدوام، لم تنسوه ولم ترجعوا عن الإقرار به.

﴿٨٥﴾ ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كلمة احتجاج،

ومثلها واقع في لغتنا، يقول القائل منا لصاحبه ـ محتجاً عليه ـ: أنت ذا فعلت كذا وكذا، والمفروض أن لا يقع منك هذا، أو نحو هذا الكلام، ولعل الأصل في هذه الإشارة أنه يؤتى بها للتسجيل على المخاطب بأنه هو يفعل الجريمة كما تقول: أنت يا هذا فعلت كذا وكذا.

وقوله: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ يفيد تكراره منهم وإصرارهم عليه، فهم باقون عليه في الحال، وهذا أبلغ في التشنيع عليهم، وذكر في (الكشاف) أن قوله: ﴿ثُمَّ﴾ هو استبعاد لما أسند إليهم.

قلت: يعني أنه مثل قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف:٥٧] وقول الشاعر:

ولا يكشف الغماء إلاّ ابن حرةٍ يرى غمرات الموت ثم يزورها

وهو قريب. قال في (المصابيح): «قال في (الكشاف): ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ استبعاد لما أسند إليهم، وتشنيع عليهم بما فعلوا من القتل والإجلاء من الدور بعد أخذ المواثيق عليهم» انتهى المراد.

وقد سقط من المطبوعة التي عندي عبارة: «وتشنيع عليهم بما فعلوا» ومؤلف (المصابيح) متقدم قبل أربعمائة سنة تقريباً، أي قبل الطبع، وحذف الكلمة مخل. والفريق قسم مفارق لغيره.

﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ تتعاونون، والإثم: الباطل ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظلم، وهكذا أهل الباطل يتعاونون من أجل باطلهم على ظلم أهل الحق، وفي هذه الآية دليل على أن المتعاونين يكونون شركاء في القتل والإخراج من الديار كما في ذبح البقرة؛ لأنه تعالى قال: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ فنسب ذلك كله إليهم.

ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ

---

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أي إن يأتكم الفريق أسارى تنقذوهم من الأسر بدفع الفدية عملاً بحكم التوراة الموجبة عليكم ذلك فتحرجتم من تركهم، ولم تتحرجوا من إخراجهم وهو محرم عليكم إخراجهم.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ حين تفادونهم ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ فأنتم لا تعملون بحكمه في تحريم إخراجهم من ديارهم، وهذا توبيخ لهم واحتجاج عليهم بإيمانهم ببعض، على فرض وقوعه لا إنكار للإيمان كما قدمت في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾.

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هوان وافتضاح عقوبة القتل، والإخراج ومفاداة الأسارى ليس له جزاء، أي ثواب، لأنه غير مقبول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ كأنه جعل رداً لأنهم كانوا قبله في عذاب، فردوا إلى العذاب وهو أشد مما كانوا فيه؛ لأنه عذاب النار، وعذابها أشد العذاب، ويحتمل أشد العذاب في جهنم كعذاب آل فرعون لجرائم كبيرة وكثيرة، هذه المذكورة وغيرها كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ على قراءة نافع بالمثناة من تحت؛ لأنه راجع إلى من يفعل ذلك، وعلى قراءة حفص ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالمثناة من فوق؛ لأنه شامل لهم، فسيجازيكم عليه كله.

﴿٨٦﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الجرائم المذكورة في الآية الماضية أو في الآيات الماضية في (بني إسرائيل) كلها ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأن الباعث على تلك الجرائم كلها حب الحياة الدنيا الراجح على حب الآخرة،

أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا

---

فاختاروا الدنيا على الآخرة، وطلبوا الحياة الدنيا بما هو ترك للدين ورفض له ومحاربة له، فكانوا بذلك قد استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة؛ لأنها لا تنال إلاَّ بالدين وهم قد اشتروا الدنيا بالدين.

ويظهر: أنهم حين كانوا يقتلون بعضاً منهم ويخرجون بعضاً من ديارهم كانت هناك لهم سلطة، فمن تولاها أمن على حياته، ومن باين تلك السلطة لجورها وفسادها في الأرض خاف على حياته، فكان أكثرهم يميل مع السلطة حبّاً للحياة وحباً لأغراضها تبعاً لحبّها، فيعين السلطة لذلك على الظلم، فما كان من السلطان من قتل لأخيارهم وتشريد فهم شركاء فيه، وكانوا به قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة.

وهكذا يفعل جماهير هذه الأمة ليطمئنوا على حياتهم فينقادوا للظلمة حتى يصيروا معاونين لهم على الظلم، وحتى يصيروا مشاركين لهم فيما فعلوا من قتل أولياء الله وتشريدهم، والسبب الأول فيه حب الحياة الدنيا وكونه أرجح من حب الآخرة بحيث ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الذي هو أشد العذاب، بل يبقى على شدته أبداً ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ كما يمنون أنفسهم شفاعة أنبيائهم لهم.

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا﴾ أتبعنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ الآيات الواضحة الدالة على أنه رسول الله إليكم.

﴿وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قويناه بجبريل عليه السلام الذي هو روح الطهارة من القبائح لعصمته، والواجب الاهتداء بهم، ولكن ما زادوهم إلاَّ نفوراً، فهم يكفرون ببعضهم ويقتلون بعضهم، فأنكر الله ذلك عليهم بقوله تعالى:

مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن

---

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ أنفتم من الخضوع للحق ﴿فَفَرِيقٗا﴾ من الرسل ﴿كَذَّبۡتُمۡ﴾ تبريراً لخلافهم واتباعكم لأهوائكم ﴿وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ محاربة للحق ونصراً لباطلكم، فأنتم مصرون على هذه الجرائم إلى الآن حيث تكفرون برسول الله محمد ﷺ استكباراً وأنفة أن يكون الرسول من بني إسماعيل وأنفة من اتباعه.

﴿٨٨﴾ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ عليها أخبية تغطيها فلا تفهم القرآن، وهذا كقول قوم شعيب: ﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١] ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم من رحمته بأن سلبهم التوفيق، وخذلهم كما في آية (سورة النساء): ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا﴾ [آية:١٥٥] ﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥].

﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ وقلة إيمانهم إما لقلة ما يؤمنون به، فهم لا يؤمنون إلاَّ ببعض ما في التوراة، وهو ما وافق أهواءهم، وإما لقصر مدته، ففي كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً، ومنه ما يكون عواري بين الصدور والقلوب» أو كما قال.

﴿٨٩﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن ﴿مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ من كتب الله ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كانوا يدعون الله على الذين كفروا، أن يفتح بينهم وبين الذين كفروا، أي يفصل بينهم بحكم من عنده، وهذا الفصل إما بالنصر عليهم، وإما بالحجة القاطعة للخلاف.

يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا

---

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ بالدليل الذي يبين أنه الحق، وبموافقته الصفات الموجودة عندهم، فليس أمراً مستغرباً بحيث تنكره نفوسهم ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ وصاروا كالذين كفروا من قبل؛ الذين كانوا يستفتحون عليهم، وجحدوا الفتح الذي كانوا يطلبونه من قبل؛ لأن القرآن والرسول ﷺ وما جعل الله من النصر على الذين كفروا كل ذلك فتح بالنصر وبالحجة القاطعة للخلاف، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة:١-٣].

﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ المذكورين أو المذكورين وسائر الكافرين، وهذه الجملة الاسمية أعظم مما لو قيل: فلعن الله؛ لأن الجملة الاسمية تدل على ثبات اللعنة واستمرارها، والأقرب: أن المراد بالكافرين المذكورين من أهل الكتاب وأن اللعنة هنا بمعنى اللعنة في قوله تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

﴿٩٠﴾ ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾ (بئس) كلمة ذم، ضد نعم في المدح، واشتراء النفس الممدوح: تقوى الله التي تنقذها من النار، فاشتراء النفس: إنقاذها من النار بالثمن الذي هو تقوى الله كما في الحديث: «الناس غاديان، فمشترٍ نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها» فلما كان هذا الإشتراء هو الذي ينبغي لكل عاقل وهو الإشتراء الممدوح سمي كفرهم بآيات الله الذي جعلوه بدل الإيمان والتقوى سمي اشتراءً على طريق المشاكلة التقديرية، ولكن جعل اشتراء مذموماً؛ لأنه لا ينقذهم من النار، بل يوقعهم في النار ويخلدون فيها بسببه.

﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هـذا الـذي اشـتروا بـه أنفسـهم المـذموم ﴿بَغۡيًا﴾ محاربـة لله ورسـوله؛ كراهـة ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ من بني إسماعيل أو غيرهم، والمنزل من فضل الله هنا الكتـاب والحكمة، كرهوا إنزال الله لها على محمد ﷺ، فقد كرهـوا أن يكـون إنزالـه على من يشاء هو، كما قال الشاعر:

ألا قـل لـمن كان لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب

أسـأت على اللـه في حكمه لأنك لـم ترضَ لـي ما وهب

فالكفر مذموم وحده، فإذا انضاف إلى ذلك أنه بغي من حيث أنهم كفروا ليقتدى بهم ويضعف الإسلام بكفرهم وانضاف إلى ذلك ـ أيضاً ـ أنه حسـد كان هذا الكفر يستحق الذم المضاعف.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ فـاحتملوا ورجعـوا بغضـب مـن الله علـى غضب لتعـدد الأسـباب، وأعتقـد أن هـذه ـ أيضـاً ـ مشـاكلة تقديريـة؛ لأن الإنسان يبوء إلى بيته بما يكسب لنفسه وعيالـه مـن الـرزق، وهـؤلاء رجعـوا حاملين غضباً على غضب، والغضب ما وقع عليهم من اللعنات والخزي في الدنيا.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ في الآخرة، فإذا مات هؤلاء كافرين كـان لهـم ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وفائـدة هـذا التعليـق علـى الكفـر وأمثالـه مـن التعليق: أن لا يتوهم أن الوعيد على الأشخاص الذين كان الكـلام فـيهم، ولو تابوا وآمنوا، ونظيره في (سورة النساء): ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [آية:١٦٠-١٦١].

قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا

---

ومعنى أن العذاب ﴿مُّهِينٌ﴾ أن الله يهينهم به؛ لأنه إهانة من حيث أنه عذاب جزاء بما عملوا، وإهانة بما فيه من ضروب الإهانة كإطعامهم الزقوم وسقيهم الصديد وإرجاعهم إلى أمكنتهم منها كلما حاولوا الخروج، وقوله تعالى: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ**﴾ [المؤمنون:١٠٨] وسحبهم في النار على وجوههم نعوذ بالله.

﴿٩١﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لأن الله أنزله والحكم له لأنه ربكم، فالواجب عليكم الإيمان به؛ لأنه أنزله الله ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهذا منهم تحكّم على الله، إذ ليس لهم حق أن لا يؤمنوا إلاَّ بما أنزل عليهم، فيؤمنوا به؛ لأنه أنزل عليهم، أما غيره مما أنزله الله فيكفرون به وهو الحقّ مصدقاً لما معهم، فيكفرون به؛ لأنه لم ينزل عليهم مع أن دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم دعوى تكذبها أفعالهم، كما حققه قوله تعالى:

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمن لا يقتل مؤمناً متعمداً، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً**﴾ [النساء:٩٢] فكيف إن كان المؤمن نبيئاً من أنبياء الله الذين وجب الإيمان بهم وبما أوتوا.

﴿٩٢﴾ ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ حين غاب عنكم ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ لأن الشرك ظلم عظيم.

فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ

---

﴿٩٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ على اتباع ما أنزل إليكم ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ آية عظيمة قائلين لكم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ التوراة وغيرها ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزيمة وصبر ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ ما في الكتاب وغيره سماع طاعة وانقياد.

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ﴾ حبّ ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ وذكره كما قال الشاعر: أنتم حلول فؤادي وهو بيتكم

﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم خذلوا، فصار في قلوبهم، وقد جعل عرض العجل عليهم أو حبه الذي ترتب عليه قبولهم له شبه السقي لهم إذا سقوا شراباً فشربوه لأنهم تقبلوه بسهولة وسرعة كما يتقبل الشارب ما يشربه فكأنهم أشربوا العجل إذ عرض لهم هو أو حبه فجعلوه في قلوبهم.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان بما أنزل الله يبعث على اتباعه والحذر من مخالفته، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٠-٦٥] وهذا تهكم بهم في دعواهم الإيمان، كأنه يقول: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإيمانكم يأمركم بقتل الأنبياء، وقولكم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وعبادة العجل والإصرار عليها ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ وما هكذا الإيمان؛ لأنه يدعو إلى عبادة الله وحده والسمع والطاعة وترك قتل النفس التي حرم الله إلاَّ بالحق. والمقصود أن دعواكم الإيمان تكذبها أفعالكم الخبيثة.

خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ

---

﴿٩٤﴾ ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ الجنة التي عرضها السموات والأرض ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ معدة لكم عنده ﴿خَالِصَةً﴾ سالمة فهي لكم كلها ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ سبقتم الناس إليها، فأنتم بالنسبة إليها من دون الناس فيما بينها وبين الناس، كقول الشاعر يصف شراباً صافياً:

تريك القذا من دونها وهي دونه

وأحسن من هذا قول الله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٧] وقوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف:٩٠] وقوله تعالى: ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ [الكهف:٩٣].

وقوله: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ لأن من علم أن الجنة له لا يبالي بفراق الدنيا ويكون شوقه إلى الجنة أقوى من حب الدنيا؛ لقلة لذات الدنيا، واقترانها بالمنغصات والمتاعب، وعظم لذات الجنة، وخلوصها من المنغصات والمتاعب والأمن فيها من كل شر، فكيف لا يعجل عليها الإنسان الذي من طبعه العجل، ويتمنى الموت ليخرج من هذه الدنيا ويصير في الجنة.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، حيث تزعمون أن الجنة لكم ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ في قولكم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

﴿٩٥﴾ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لن يتمنوا الموت أبداً، وذلك لعلمهم بجرائمهم التي اكتسبوها، فإذا ماتوا صاروا إلى النار من أجلها،

أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ

---

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو يعلم ما يبدون وما يكتمون، ويعلم ما قد وقع منهم من الظلم الموجب للنار، وهذه الآية معجزة؛ لأنها خبر قاطع أنهم لن يتمنوه أبداً، وكان ذلك صدقاً لم يتمنوه، وهو خبر غيب مع أنهم مظنة أن يحملهم الجدل وحب تكذيب القرآن والرسول أن يتمنوا الموت؛ لأنها كلمة سهلة على اللسان، وليس الموت في العادة تبعاً للتمني، فقد يتمنى الإنسان الموت ولا يموت؛ لأن في أجله بقية، فلا بد أن باعثهم على التمني كان قوياً جداً، فلما لم يتمنوا دل ذلك على أنهم يعلمون أن هذا كلام الله وأنه ينذر بعذاب عاجل كالمسخ أو الخسف مما يكشف زيفهم بالتمني.

ودل ذلك على أن هذا كلام الله علام الغيوب، ولو كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم تقوّله ما تجرأ على أن يتحداهم بتمني الموت؛ لأنه لا يأمن حينئذ أن يتمنوا الموت فيكذبوه، وتكون لهم حجة عليه، فهذه معجزة أخرى، هذا كله لأنهم لم يتمنوا الموت؛ لأنهم لو تمنوه لاشتهر لتوفر دواعي الكفار والمنافقين إلى نقله على كثرتهم لو كان.

﴿٩٦﴾ ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ لفرط حبهم للدنيا واعتقادهم أنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب الذي قد استحقوه بالكفر وغيره، والحرص: شدة الرغبة، وشدة طلب النفس للشيء، فهو من المعاني النفسية، وهو يبعث على شدة طلب الشيء، فلذلك يقال لمن اشتد طلبه للشيء: إنك لحريص على هذا، وذلك لأن شدة الطلب دليل على الحرص.

والحرص قد يكون على ما يمكن طلبه كالمال، وعلى ما لا يمكن طلبه كالحياة في بعض الأحوال، وقد يكون محموداً كالحرص على صلاح الناس والحرص على بقاء الصالحين، قال تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] وقد يكون مذموماً كالحرص على الحياة للتمتع بما تهواه النفس فيها لا لغرض ديني، وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي رواه أبو طالب في (الأمالي) في (ذكر الرزق) [ص٢٩٢]: عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: أوصاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «عليك يا علي باليأس عما في أيدي الناس، فإنه الغنى الحاضر» فقلت: زدني يا رسول الله، فقال: «يا علي إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر» إلى قوله «ولا تذم أحداً على ما لم يؤتك الله فإن الرزق لا يجرّه حرص حريص ولا يصرفه كراهة كاره» انتهى.

فقابل الحرص بالكراهة، وأما قوله: «فإنه الغنى..» فالمراد أن اليأس يؤدي إلى القناعة، وقد قال عليه السلام ـ كما في نهج البلاغة ـ: «القناعة مال لا ينفد» فلذلك جعل اليأس الغنى، أو لأن اليأس عما في أيدي الناس يذهب الطمع فيما في أيديهم ويوجب القناعة عما في أيديهم، وذلك يوجب الغنى عما في أيديهم، وهو المهم من الغنى.

فأما الفقر إلى الله فهو محمود، وليس هذا مقابلة بين اليأس والطمع، بل كل واحد في كلام مستقل بدليل قوله: «زدني» فقد ظهر من هذه الجملة أن الحرص شدة الرغبة، وقد فسروه بشدة الطلب، ولا ينبغي أن يكون المراد به إلاَّ طلب النفس، أي شدة طلب النفس.

ويؤكد هذا أن (صاحب الكشاف) والشرفي في (المصابيح) قالا في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ هو بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف، انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): أي يحب أحدهم أن يعيش ألف سنة، فظهر أن الحرص هو شدة الرغبة.

وأما قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ فالتنكير فيه؛ لأن المقصود على حياة في المستقبل، ولو قليلاً منها يعيشون، فهم يحرصون على أي حياة، ولو ساعة يحيون، ولم يناسب أن يقول: على الحياة؛ لأنهم فيها، وليس المقصود حرصهم على الموجود، بل المقصود حرصهم على المفقود في الحال، وهو الحياة في المستقبل، فإذا عاش اليوم فهو حريص على حياته في غد، وحريص على أن يحيى فيما بعد حتى أنه عند اقتراب موته وظنه أن قد قرب فراقه للحياة يحرص على حياة يبقى فيها ولو قلّت، ولو كان في شدة المرض وحين يرغب الإنسان في التخلص من شدة المرض وطوله ولو بالموت، فهؤلاء على خلاف ذلك لا يزالون راغبين في الحياة والبقاء كارهين للموت.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ فهم أحرص من الذين أشركوا من قريش ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وبيان تلك الجملة بهذه يبين أن المقصود حرصهم على حياة في المستقبل، ولو كان المقصود حرصهم على الحياة الموجودة لكان بيانه بذكر شدة حذرهم من أسباب فراقها، فالحرص على حياة في المستقبل يرجونها بطول آمالهم وحياة في المستقبل لا يرجون بلوغها؛ لأنها أبعد من المأمول.

فقد ظهرت فائدة التنكير لأنهم يحرصون على حياة لا يبلغونها، وهي غير الحياة التي هم فيها وهي المقصودة في هذا الذم أصالة، ويتبعها في الذم حرصهم على ما لا يعلمون أنهم يبلغونه؛ لأنهم يحرصون عليه سواء كانوا يبلغونه أم لا، فهم يحرصون عليه ولو كانوا في الواقع لا يبلغونه.

ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ

والحاصل: أنهم أحرص الناس على حياة زائدة على الحياة التي هم فيها، ولو كانت زائدة على المكتوبة لهم، بل وعلى الحياة الزائدة على الحياة المكتوبة لهم، ولذلك يود أحدهم لو يعمر ألف سنة.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ ﴿هُوَ﴾ ضمير عائد إلى أحدهم، أي وما أحدهم، هذا الذي يود لو يعمر ألف سنة ما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، وقوله: ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ فاعل مزحزح، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢] وفي هذا تأكيد لوعيده بالعذاب، وبيان أنه لا بد له منه سواء عمر أم لم يعمر، وتجهيل له حيث يرغب في طول الحياة فراراً من العذاب، أي عذاب نار جهنم وطول الحياة لا ينجيه من العذاب بل لا بد له منه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ بـ﴿مِنَ﴾ الابتدائية، تشبيه له في الحال بنفسه حين يكون في العذاب كأنه يقول: لا بد له من العذاب حتى كأنه الآن قد صار فيه، وهو لا يزحزحه منه أي لا ينجيه منه ويباعده أن يعمر، والزحزحة فيها معنى التنحية ـ بالحاء المهملة ـ والإبعاد، فلا تنحية ولا إبعاد ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فلا يعيى بجزاءه، وفي قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ دلالة على استمرارهم في أباطيلهم.

﴿٩٧﴾ ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب؛ لأن السياق فيهم أو لأهل الكتاب وغيرهم؛ لأنك رسول إلى الناس جميعاً.

لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

---

قال الشرفي في (المصابيح): «اعلم أنه لا بد من سبب وأمر قد ظهر من اليهود حتى يأمره تعالى بأن يخاطبهم، والمفسّرون ذكروا أموراً، ولنكتفِ هاهنا بما ذكره المرتضى عليه السلام حيث قال: فإن اليهود لما سألت محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من الذي ينزّل عليك بالوحي؟ فقال لهم: «جبريل عليه السلام». فقالوا ـ عليهم لعنة الله ـ : فنحن أعداء جبريل، فهو عدوّنا؛ لأنه ينزل عليك بإبطال أمرنا، وهذا أعدى الخلق لنا، فأنزل الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ..﴾..إلى قوله: ﴿..فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنما هو مهلك لهم ومخزٍ ومعاقب» انتهى المراد.

فقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ يشير إلى الذين عادوه من أهل الكتاب، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ أي فإن جبريل نزل هذا القرآن ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وقد تكرر قوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فوقع هنا، وفي (سورة الشعراء) فكأنه عليه السلام كان يوصله إلى قلبه صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة، ويقوم مقام حاسة السمع التي توصل الكلام إلى القلب ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو الحق الذي ليس لكم أن تردوه بعلة عداوتكم للرسول الذي نزّله؛ لأنه لو كان باطلاً ما أذن الله بإنزاله.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الله التوراة وغيرها، فلا عذر لكم في رده ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾فهو النعمة العظمى التي يجب أن تقبل وتشكر، فكيف تردوا الهدى الذي فيه سعادتكم إن هديتم، والبشرى لكم بالجنة إن آمنتم اعتلالاً بعداوتكم للرسول الذي نزل به، وكيف عاديتموه، وإنما جاء ـ بإذن الله ـ بالهدى والبشرى للمؤمنين.

﴿٩٨﴾ ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) ـ حاكياً عن المرتضى عليه السلام ـ :

يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا

---

«ومعنى: عدو لميكائل، فإنهم سألوه من أين يأتي جبريل بالوحي؟ فقال: «من ميكائل» فقالوا: ميكائل ـ أيضاً ـ عدوّنا» انتهى المراد.

وهذه الآية تبين: أن اليهود الذين اتخذوا جبريل عدواً ليسوا أعداء له وحده بل هم أعداء لله وملائكته كلهم ورسله كلهم وجبريل وميكائل، وليس المراد بهذا السياق الإخبار بهذا، بل المراد الوعيد على هذه العداوة، وأفاد أنهم كذلك إن لم يتوبوا، وفائدة هذا التعليق أن لا يوهم أن الله عدو لهم ولو تابوا، وأكد هذا بتعليق العداوة ـ عداوة الله ـ لهم على الكفر حيث قال: ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: عدو لهم، وفيه فائدة عموم سائر الكافرين.

﴿٩٩﴾ ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ في دلالتها على صدقك، وأن الحق معك، وعلى إبطال المكذبين لك، وتهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ الخبثة الفاجرون، أهل الجرأة على الباطل، والممارسة للقبائح؛ لأن الآيات بينات لا يجحدها منصف وجحدها قبيح جداً من حيث أهميتها من حيث أنها تهدي إلى طريق السعادة للناس كافة، ونجاتهم من عذاب الله، فهي خير عظيم عام للبشر، ومدافعتها شرّ عام عظيم.

﴿١٠٠﴾ ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلذلك يتجرؤون على نقض العهود، وقد كان من عهدهم الإيمان برسل الله، فكفروا برسول الله محمد ﷺ، وبعضهم كفر بعيسى عليه السلام؛ لأن عادتهم وطريقتهم ترك الإيمان، والسياق في الكفار من (بني إسرائيل).

يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ

---

﴿١٠١﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ للتوراة، وما ﴿مَعَهُمْ﴾ منها ومن كتب الله ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ علّموا التوراة وما فيها من صفات الرسول وأخذ الميثاق عليهم بالإيمان برسل الله فنبذوا ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ الذي هو التوراة، وذلك كبير جداً؛ لأن من نبذ كتاب الأمير في بلده يُعَدّ مسيئاً في حقه يستحق العقوبة، فكيف بمن نبذ كتاب ملك الملوك الذي يدعو عباده إلى رحمته وإلى أسباب كرامتهم ونجاتهم من العذاب المهين؟!

﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وهذا أقبح النبذ والتمرد أن يلقوه وراء ظهورهم رفضاً له واستخفافاً به ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم كأنهم لا يعلمون من وعد الله ووعيده ما يردع عن التمرّد، وكأنهم لا يعلمون من عظمة الله ورقابته عليهم ما يخيفهم من عذابه كأنهم لا يعلمون كما لا تعلم الأنعام.

﴿١٠٢﴾ ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ الواو عاطفة لما بعدها على قوله تعالى: ﴿نَبَذَ﴾ فأفادت أنهم جمعوا بين الإثمين، نبذ كتاب الله واتباع ما تتلوا الشياطين، لارتكاب جريمة السحر، وتلاوة الشياطين قراءتهم التي بها يُعلمون السحر.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ أي أنهم يتلون السحر عليه ليوهموا أنه إنما تم الملك لسليمان به، وأن سليمان لما عمل به حصل له ملكه ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ ما عمل السحرَ كما أوهمت الشياطين.

﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ حكى الشرفيّ في (المصابيح): «عن القاسم عليه السلام أنه قال: السحر أمرٌ لا يواتي أهله إلاَّ بعظم من الكفر» انتهى. هكذا في النسخة، ولعل الأصل: بعظيم من الكفر، ولعل القاسم عليه السلام أخذه من هذه الآية، وأراد عليه السلام أن الشياطين في حال تعليمهم الناس يكفرون ليواتيهم السحر ويحصل به ما أرادوا به، فظهر أنهم يحتاجون إلى الكفر لهذا الغرض؛ لأن السحر إنما يتقبله الناس عنهم إذا شاهدوا تجربته.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ نفي لمفسدة من مفاسد السحر عطف على نفي المفسدة الأولى، أي عطف على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ و ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ اسم لرجلين كانا ﴿بِبَابِلَ﴾ سميا به لاعتقاد الناس فيهم الفضل الكبير، وظنهم أنهما في فضلهما بمنزلة الملكين، وذلك لما يجري على أيديهما من الخوارق في اعتقادهم، فجعلوهما ملكين كما قالت النسوة في يوسف عليه السلام: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١].

فبين الله تعالى: أن ذلك ليس منزلاً من عند الله تكون به الخوارق، وإنما هو سحر من الشياطين، أو أن اليهود كانت تدّعي أن الله أنزل السحر على الملكين ليوهموا أن الله يرضاه وأنه ليس كفراً، فرد الله قولهم هذا إذا كانت ما نافية، وهو الأظهر، والموافق لتفسير المرتضى عليه السلام الذي حكاه الشرفي في (المصابيح).

وأما قول (بعض المفسرين): أنها موصولة، فهو بعيد؛ لأن السياق في ذم اليهود باتباع تعليم السحر، وعلى فرض أنها موصولة، يصير المعنى: واتبعوا ما أنزل الله، وهذا التعبير في الذم بعيد.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فهما يعرفان بأن السحر كفر أو لا يتم إلاَّ بالكفر.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ وهذه جريمة عظمى ينضاف فيها إلى كفرهم ظلم الزوجين، وما أكثر ما يصيب الناس هذا العدوان وما أشده على الزوجين ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بإذنه بوقوع الضرر لا بإيقاعه، أي بإرادته التخلية بينهم وبينه وتمكينهم منه؛ ابتلاءً للمظلوم وفتنةً للظالم أو بإذنه أي بتخليته وتمكينه، وهو قادر على منعهم غير غافل عما يعملون.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أي هؤلاء المتعلمون للسحر من أهل الكتاب لظنهم أنهم ينتفعون به بما ينالون به من المال، والواقع أنهم يتعلمون ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ لأنه سبب لعذابهم وفساد عليهم في دينهم ولا يحصل به غرضهم من الثروة ووفور المال، بل يكونون مع استعماله كما لو لم يستعملوه أو أسوأ حالاً، وإذا كان معنى يضرهم بالنسبة إلى غرضهم من السحر الذي هو المال فهو دليل على أن السحر شؤم عليهم ونقص من أرزاقهم؛ لأن بعض المعاصي تنقص الرزق، فهو يضرهم في معاشهم ولا ينفعهم والأظهر يضرهم في آخرتهم أو في دنياهم وآخرتهم، ولا ينفعهم في دنياهم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي نصيب، فقد علموا أنه يفوت عليهم الثواب ولا ينالون في الآخرة أيّ نصيب،

وعلمهم بذلك من التوراة أو غيرها من كتب الله، ومعنى اشتراه: استبدله بدينه، وهذه جرأة على معصية الله عظيمة وسوء نظر لأنفسهم.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ﴾ (بئس) كلمة ذم، و (اللام) تأكيد للذم، و ﴿مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ﴾ ما باعوا به أنفسهم؛ لأن في السحر هلاكهم وعذابهم الدائم الذي فيه يخسرون أنفسهم، فقد باعوها بالسحر.

﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم بئس ما باعوا به أنفسهم فينقذونها من الهلكة بالتوبة من السحر والرجوع إلى الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٦] والمعنى لو كانوا يعلمون لانتفعوا بهذا التحذير والإنذار، وعدم علمهم بما أخبر الله به في هذا القرآن لغفلتهم وإعراضهم عن آيات الله واشتغالهم بالدنيا وكثرة ذنوبهم، فلم يعلموا أن السحر الذي باعوا به أنفسهم ذميماً أيّ ذميم.

وقد يشكل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ مع قوله: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾؟

والجواب: أن قوله: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ معناه: لو كانوا يعلمون أن السحر ذميم ـ أيّ ذميم ـ وهو ما عبر عنه بقوله سبحانه: ﴿وَلَبِئْسَ﴾ ـ وذلك لأنهم لا يعتبرونه ذميماً؛ لأن الشيطان قد زيّنه لهم مع حرصهم على المال الذي يحصل لهم به، وحبُّهم له من أجل المال ينسيهم عيبه، فلا يعتبرونه ذميماً لعظم فائدته في اعتقادهم، فاختلف المثبت والمنفي.

وكذلك يشكل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ مع قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾؟

ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٌۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ

---

*والجواب*: أن المتبعين للسحر بعضهم، فما كل أهل الكتاب يعملونه، والذين يتبعونه يعلمون أن من اشتراه ماله في الآخرة من خلاق، والذين يعتقدون أنها لن تمسهم النار إلاَّ أياماً معدودة هم غير مرتكبي جريمة السحر، مع أن من الجائز عليهم أن يقولوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ وهم ـ أعني مرتكبي السحرـ يعلمون أنهم في قولهم هذا كاذبون.

مع أن القائلين: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا﴾ المذكورين فيما مر، يمكن أنهم الذين يكتبون الكتاب بأيديهم؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ فيمكن أنهم هم القائلون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾.

*وعلى هذا*: فوظيفة بعضهم التزوير وبعضهم السحر، وأهل التزوير يقولون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ وأهل السحر قد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من نصيب أو كلهم يعلمون ذلك، والقائلون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ هم الذين: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّـهِ﴾ وقالوا ـ هم ـ: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ يعنون أنفسهم لا كل أهل الكتاب على اختلافهم في الجرائم، فلا إشكال.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ﴾ الإيمان الذي أمروا به ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ ربهم بأن تابوا من جرائمهم واجتنبوا المعاصي من وقت التوبة ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ثواب من عند الله وهو الجنة ﴿خَيۡرٌ﴾ مما هم فيه من السحر والكسب الحرام ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ والأصل لو كانوا يعلمون لاختاروا ما هو خير لهم الذي هو الإيمان والتقوى، أو لعلموا أنه خير لهم، ولكنهم لكفرهم وغفلتهم وإقبالهم على الدنيا كأنهم لا يعلمون شيئاً ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان:٤٤].

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ

---

﴿١٠٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ ﴿رَٰعِنَا﴾ راقبنا، أي لاحظنا ولا تغفل عنا ﴿ٱنظُرْنَا﴾ إما انتظرنا حتى نفهم ما تقول، أو انظر إلينا نظر الرحمة بحسن الرعاية لنا عند حضورنا لديك، فأمروا بترك كلمة ﴿رَٰعِنَا﴾ إما لأنها تشير إلى الغفلة وتجري مجرى انتبه لنا، وهي قلة أدب، وإما لسد ذريعة اليهود الذين كانوا يقولونها لغرض فاسد، كما يدل عليه قوله تعالى في (سورة النساء): ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [آية:٤٦] وإما للأمرين معاً ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ ما يبلغه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليكم سماع قبول وطاعة.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ اليهود الذين يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾ [النساء:٤٦] وسائر الكافرين ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو عذاب النار، أو هو عذاب النار وعذاب البرزخ وعذاب الدنيا بالمصائب العاجلة، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:٤٧] أي فيما بينهم الآن، وبين عذاب يوم القيامة، والأظهر أنه العذاب الذي سيعذبون به كله.

﴿١٠٥﴾ ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين ليس لهم كتاب، فوصفهم المعرف لهم أنهم المشركون حيث لا ملة لهم يعرفون بها غير الشرك ولا كتاب يختصون به وينتمون إليه، فوصفهم المعرف لهم المشركون، ولا ينافي هذا أن أهل الكتاب الكافرين أو أكثرهم مشركون؛ لأنه تعالى قد بيّن شركهم في (سورة التوبة) وإنما المقصود أن يعم الفريقين بوضوح.

مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن

---

﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بل هم كارهون لذلك؛ لأنهم يحسدونكم ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ولا يصرفها كراهة كاره؛ لأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فهو يؤتي فضله من يشاء، ولذلك أورث القرآن الذين اصطفى من عباده وصيّر فيهم النبوءة والكتاب بعدما كانت في (بني إسرائيل) وجعل محمداً رسولاً وأنزل عليه الكتاب.

﴿١٠٦﴾ ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ بنسخ حكمها ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ بأن يحذف ذكرها من القلب بقوة إلهية ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أصلح منها بالنسبة لوقت نزول الأصلح، فالناسخة خير بالنسبة لوقت حكم النسخ لا بالنسبة لما قبل النسخ؛ لأن الخير فيما تقتضيه الحكمة من الناسخ في وقته والمنسوخ قبل نسخه.

وكذلك قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ على فرض النسيان، يكون البدل خيراً من المنسي، وعلى معنى النسيئة يعجل ما هو خير من المؤجل قبل وقت إنزال المؤجل، والحاصل: أن الخير فيما أنزل الله، وليس لأحد أن يعترض؛ لأنه كلام أحكم الحاكمين ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو ينزل ما يشاء.

﴿١٠٧﴾ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يحكم ما يريد؛ لأن الحكم له في عباده ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولاكم بالنعم والألطاف وحسن الرعاية ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينقذكم من عذابه، إن أراد أن يعذبكم، ولعل الخطاب لبني إسرائيل، بدليل ما قبلها وما بعدها، وهو ردّ على من أنكر النسخ منهم.

يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

---

﴿١٠٨﴾ ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ حين قال له قومه: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ غوي الطريق السوي وهو طريق الحق والسلامة والكرامة، وتبدل الكفر بالإيمان يشمل جعل الكفر بدل الإيمان بالردة عن الإيمان إلى الكفر وجعل الكفر بدل الإيمان باختيار الكفر، وهو يدعى إلى الإيمان فلا يجيب داعي الله ويختار الكفر.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ أي أحبّوا ذلك، و﴿لَوْ﴾ للتمني، كأنه قال: تمنوا أن يردوكم من بعد إيمانكم الإيمان الصادق الذي لا نفاق فيه ﴿كُفَّارًا﴾ ليخرجوكم من النور إلى الظلمات ومن طريق السعادة إلى طريق الشقاء ومن عزة الإيمان إلى ذلّة الكفر.

﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ فالباعث هو الحسد الذي أوجدته أنفسهم الأمارة بالسوء بعداوتها لكم وحرصها على بطلان أمركم، والحسد غيرة تبعث على كراهة حصول النعمة للغير الذي يغار من حصول النعمة له أو كراهة بقاء نعمته، هذا الحسد المذموم، وقد يستعمل الحسد في الغيرة من دون قيد، ولعله أصل الحسد، وحقيقته، وينقسم إلى: محمود: وهو ما لم يبعث على الإثم، ورغّب في العمل الصالح لنيل مثل نعمة المحسود، ومذموم: وهو عكس المحمود، وهو الذي ذكرت أوّلاً، وخطره عظيم ـ نعوذ بالله منه ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥].

فانظر كيف صار المذكورون من أهل الكتاب من أجل الحسد من بعد ما تبيّن لهم الحق، وكان مقتضى العقل لو استعملوا عقولهم وتركوا الحسد أن يتبعوا الحق ليرضوا ربهم وينقذوا أنفسهم من النار ويسعدوا في الآخرة، وحينئذ يكونون إخواناً للمؤمنين سليمين من الحسد والعداوة لأهل الحق.

﴿فَٱعۡفُواْ﴾ عما يصدر منهم من الأذى وتحملوا ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾ أعرضوا عن أذاهم، ولا ترادّوهم ولا تقاتلوهم باعتبار أنهم حين ذاك لا يشكلون خطورة كما يشكلها رموز الكفر من قريش وغيرهم، فالمعنى: تغاضوا عن قتالهم فليس الوقت وقتهم، وانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ بتسليطكم عليهم وأمركم بالجهاد في سبيله، وحينئذ لا عفو ولا إعراض، وليس المراد أن يصيروا إلى السباب، ولكن كما قال الشاعر:

فلا تكثري فيه المقال فإنه محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا

أو (أمره): نصره للدين، وإعلاؤه لكلمته، وحينئذ لا يضركم حسدهم، وهذا مناسب لآخر الآية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو قادر على إعزازكم وإذلالهم، وعلى الأول فهو قادر على تمكينكم من قتالهم بتوفير العدد والعدة، وتهيئتكم للقتال وتسليطكم عليهم.

والعفو، والصفح: ترك السباب والمماراة المؤذية والجدال الكثير، وترك القتال حتى يؤمروا به، والأولى فاعفوا عن أذاهم وأعرضوا عنهم، لا تقاتلوهم حتى يأتي الله بأمره، وأمره تقويتكم بأن يأمركم بجهادهم وينصركم عليهم، والأمر هنا بمعنى الشأن أي نصره وإعلاؤه لكلمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو قادر على ذلك.

وَمَا تُقَدِّمُواْ لأنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ

---

﴿١١٠﴾ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فذلك يكفي عن الجهاد قبل الأمر به، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء:٧٧].

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ حث على الإنفاق في وجوه الخير، وعلى فعل الخير كله، فالعبد إذا أنفق فيما يرضي الله فكأنه قدمه أمامه ليوافي يوم القيامة فيجده أمامه قد قدمه لنفسه، وكذلك فعل الخير كله، وفي كلام أمير المؤمنين في (وصيته لابنه الحسن عليه السلام): «وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه، فاغتنمه، وحمِّله إياه وأكثر من تزويده» انتهى المراد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾ بالنسبة إلى الإنفاق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لعلمه بمراتب الحَسن في الحُسن ومقادير ما يناسبه من الثواب، وكذلك في كونه بصيراً بما يعمل المبطلون لعلمه بمقاديره في القبح ومقادير ما يناسبه من العقاب، فهو ينزل العمل منزلته اللائقة به، ويجعل له حكمه المناسب له كما يفعل البصير بالصناعة العليم كيف يتقنها.

﴿١١١﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ عطف على ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ أو على ما تقدم من أقوالهم مثل: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أو على ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ فجعلوا الجنة خاصة بهم، ومنُّوا أنفسهم أنها لهم.

وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ

---

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي هذه وما شابهها كقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨] وقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ وقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥] كقوله تعالى ـ بعد ذكر نبي الله داود صلى الله عليه ونبينا محمد عليهما السلام ـ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ فالإشارة إلى المذكورَين وسائر الرسل، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ [يوسف:٢٨] أي المخاطبة وسائر النساء، فجمعهن في الخطاب من أجل الواحدة المخاطبة، ومعنى ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ التي يمنونها أنفسهم.

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ والبرهان: الحجة، والمراد: بيان أنه لا حجة لهم، وإنما هي أماني من عند أنفسهم، فالأمر للتعجيز؛ لأنه إذا طالبهم بالبرهان ولم يأتوا به تبين أنهم افتروا على الله كذباً؛ لأنهم أهل جرائم وتمرد على الله، فليسوا أهلاً لما يمنونه أنفسهم، ولأن غيرهم الذين أسلموا لله يدخلون الجنة، ولا شك في أنهم أهل لذلك كما كان المسلمون لله قبل اليهودية والنصرانية، فنفي دخولهم الجنة كذب على الله يكشفه عدم البرهان؛ لأنهم لو كانوا صادقين لكانوا في أمانيهم مستندين إلى برهان، فالفارق بين الصادق فيما يحكي عن الله، والكاذب على الله، هو البرهان للصادق، وعدم البرهان للكاذب.

﴿١١٢﴾ ﴿بَلَىٰ﴾ تصريح بإبطال قصر الجنة عليهم ونفي دخول غيرهم ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إسلام الوجه لله: جعله لله وحده لا يتوجه به لغيره، ومعنى ذلك إخلاص العبادة لله؛ لأن الذي يعبد غيره قد توجه لغير الله وشرّك في وجهه معبوده، فالإسلام للوجه جعله سَلَماً لله، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩].

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لإخراج المسيء، ولو ترك الإشراك في وجهه فلا يدخل في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أقام هذا مقام: فإنه سيدخل الجنة وفيه دلالة على أن سبب الجنة هو العمل الذي يستحق به الأجر عند الله؛ وهو إسلام الوجه لله مع الإحسان.

وفي قوله سبحانه: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ إشارة إلى الرّد على اليهود الذين يدّعون اختصاصهم بالله مع أنهم وغيرهم من البشر كلهم عباد لله، وهو ربهم كلهم لا فرق بينهم في ذلك، وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ مناسبة لقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ من حيث أن معناه: عبد الله مخلصاً له العبادة.

فأجر العبادة من ربه؛ لأن العبادة وإسلام الوجه له تعبير عن كونه رب العابد له وتعبير عن كون الذي أسلم وجهه لله عبداً له، فأجر العبادة من المعبود الذي هو ربه، ففي قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ إشارة إلى أنه معبوده، وفيه إشارة إلى وجه استحقاق الأجر منه، وهو أن عبادته عبادة لربه، فاستحق بها الثواب؛ لأنها حق وصواب أمره بها ربه، فآجره عليه.

وقد قدمت زيادة على هذا في مناسبة قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لعبادتهم لربهم وخوفهم من ربهم ورجائهم له، وذكرت الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ﴾ [المؤمنون:٥٧] وإفادة جملة ذلك لصلتهم بالله من حيث هو ربهم.

فتحصل من فوائد قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾:

إفادة: أن طريق الجنة هو العمل المذكور لا أماني اليهود؛ لأنهم فاقدون لهذا السبب، عادلون عن طريق الجنة الموصل إليها،

وإفادة: أن الجنة أجر على العمل من رب المسلمين له المحسنين، الذي عبدوه فاستحقوا الأجر منه بعبادتهم لربهم الذي أمرهم بعبادته، وهو يرد على اليهود والنصارى دعوى اختصاصهم بالله،

وإفادة: أن الصلة بالله من طريق الإخلاص له والإحسان، هي الصلة بالله لا الأماني.

وقوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أعتقد أن المعنى: أنه ليس من شأنهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ لأنهم في طريق النجاة من النار؛ لأن كل عاقل يعلم أن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فهو في طريق النجاة، وأنه لا يخاف عليه من إخلاص عبادته لله وإحسانه، فدعوى اليهود أنه لن يدخل الجنة مكابرة للعقول، وما أحسن هذه العبارة حيث لم يسند نفي الخوف إليهم؛ لأنهم وإن كانوا على طريق النجاة يكونون خائفين من ذنوبهم في الدنيا، فلم ينف عنهم أن يخافوا بل هم أكثر خوفاً لله من المجرمين، وقد قال تعالى فيهم: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤].

وقد مرّ قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مرتين، وهذه الثالثة، وقد جاءت في مواضع من القرآن، فالمقصود: أنهم لا يُخاف عليهم وإن كانوا خائفين في الدنيا والله أعلم.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إما أن المراد في الآخرة؛ لأنهم في الدنيا يحزنون من ذنوبهم، وإما أن المراد ـ وهو الراجح عندي ـ التعريض بأهل الباطل؛ لأنهم في بعض حالتهم يحزنون من باطلهم كما قال تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢] فالمراد: ولا هم يحزنون من طريقتهم هذه التي هي إسلام وجوههم لله كما يحزن غيرهم من طرائقهم المخالفة.

ونظير هذا: قول إبراهيم الذي حكاه الله عنه في قوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨١-٨٢] أي أنهم هم الذي يأمنون ولا يخافون من إيمانهم وتركهم للمعاصي،وهذه حجة على قومه الذين أشركوا بالله بلا برهان، فهم أحق بالخوف من شركهم، فهكذا ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لا يحزن من أجل إسلامه وإحسانه؛ لأنه يعلم أن ذلك سبب النجاة بخلاف من أشرك وأساء، فإنه ينبغي له أن يخاف ويحزن من طريقته وربما حزن، فالحاصل: أن هذه الجملة احتجاج على اليهود والنصارى.

فإن قيل: إذا لم يقل في المسلمين المحسنين: لا يخافون، لئلا يوهم عدم خوفهم من ذنوبهم، فكيف قال سبحانه: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؟ ولم يقل: ولا حزن عليهم، مع أنهم يحزنون كما قال أمير المؤمنين: «المؤمن بشره في وجهه وحزنه في قلبه» انتهى.

فهم يحزنون لأسباب عدة، مثل غلبة الجور وظهور المنكرات، ويحزن المؤمن من ذنوبه، فكيف لم يقل: ولا حزن عليهم؟ لئلا يوهم هذا المعنى كما في ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

فالجواب: إن عدم الخوف سمة المجرمين الظلمة كما قلنا، وكذلك من سمتهم في الغالب أن لا يحزن الناس عليهم إذا ماتوا، أما المخلص المحسن فإن الناس يحزنون عليه، فلم يناسب حاله أن يقال فيه: لا حزن عليه، فكان الحزن مخالفاً للخوف؛ لأن المجرم الظالم يقال فيه: لا يخاف الله، ويقال فيه: إذا مات لا حزن عليه، والمخلص المحسن يقال فيه: يخاف الله ويُحزَن عليه إذا مات، فالمناسب في المؤمن نفي الخوف عليه لا الحزن عليه.

لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

---

فظهر: إتقان عبارة القرآن: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا يُخاف عليهم ولا هم يحزنون من دينهم وإحسانهم كما يحزن أهل الباطل من باطلهم في بعض الحالات لو لم يكن إلاَّ عند اقتراب الأجل وحضور الموت أو أن من شأنهم أن يحزنوا، وينبغي لهم ذلك، نعم وهذا المعنى يصلح للدنيا والآخرة فلا خوف عليهم في الدنيا ولا في الآخرة ولا هم يحزنون في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿١١٣﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المراد: ليسوا على طريق حق، فبالغوا وجعلوا دين الآخرين لا أصل له ولا أساس له، ومعنى هذا الكفر من كل منهما بكتاب الآخر ورسول الله إليه ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي يوجب عليهم الإيمان برسل الله وكتبه، وهو كتاب الله الذي يجب عليهم اتباعه وهو التوراة؛ لأن الفريقين يتلونها، وتسمى عند النصارى العهد القديم أو جنس الكتاب الصادق على التوراة وعلى الإنجيل.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ الذين لا يعلمون هم أهل الجاهلية الذين ليس لهم كتاب، فتجرءوا على جحد الحق بأن قالوا مثل قول اليهود والنصارى بأن قالوا: ليست النصارى أو اليهود أو كلاهما على شيء فهو مثل قولهم في جحد الحق، ويوافق هذا التفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص:٤٨].

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ

---

فثبت أنهم كفروا بموسى، وذلك يستلزم كفرهم بالتوراة، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فجعل الخلاف بين الفرق الثلاث، فأما الكفر بمحمد ﷺ فقد وقع من الفرق الثلاث، وكان يناسبه ـ لو كان المراد ـ أن يقول: فالله يحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون.

﴿١١٤﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي لا أظلم ممن منع مساجد الله التي بنيت لذكره وشرع لعباده أن يذكروه فيها وذكر الله من العبادة التي خلقوا لها فهذه الجريمة عدوان على مساجد الله، وعلى من يريد أن يذكر الله فيها، بل وعلى ذكر الله بمنع وقوعه في المساجد، فاعتدى على حرمة مساجد الله وعلى حرمة الذكر وجمع بين الجريمتين وضم إحداهما إلى الأخرى.

قال في (الكشاف): «﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ ثاني مفعولي منع؛ لأنك تقول: منعته كذا..» إلخ.

*أقول*: فلهذا قلت: إن المنع هذا عدوان على مساجد الله، أعني لكون مساجد الله مفعول أول، وأن يذكر فيها اسمه مفعول ثانٍ، وهذا عام لا يختص بالفرق الثلاث، وإن كنّ سببه.

وقوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ تعريض بالفرق الثلاث، فيدل على أن ذلك قد وقع منهم أو من بعضهم أن قد سعوا في خراب مساجد الله.

وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

ولعل سبب ذلك تكفير كل فرقة الفرقة الأخرى، فيؤدي ذلك إلى القتال والتسبيب لخراب المساجد بمنع أهلها منها وإهمالها، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ [الحج:٤٠].

فإذا كانت الحروب قد وقعت وهي مظنة تخريب المساجد من قبل أعداء الدين، فلا موجب لتعيين الفاعلين مَن هم، وليس من واجب التفسير تعيين ما أبهم القرآن، ويكفي أن نقول ظاهر الآية التعريض بالفرق الثلاث أنه قد وقع منهن كلهن أو بعضهن منع مساجد الله، والسعي في خرابها، وظاهرها العموم لكل مساجد الله التي كانت موجودة في عصرهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ لأنهم رجس، يجب تنزيه المساجد عنهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة:٢٨].

﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ يستحقون الخزي في الدنيا بأي وسيلة كالطرد من المساجد ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: تدل على قبح منع المسلمين من مساجد الله، وعلى تحريم خرابها الحسيّ والحكمي، وهو منع ذكر الله فيها، وتجب إخافة من فعل ذلك، وأن يخزيهم من قدر على إخزائهم كما في الآية» انتهى.

﴿١١٥﴾ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾ جهة طلوع الشمس ﴿وَٱلْمَغْرِبُ﴾ جهة غروبها، يفرد وهو عبارة عن المشارق

والمغارب باختلاف الاعتبار، أعني قد يعتبر المشرق متعدداً باعتبار تعدد مطالع الشمس بتعدد منازلها، وقد تعتبر المشارق كلها مشرقاً واحداً لعدم اعتبار اختلاف المطالع، وكذلك المغرب.

والمراد: أن له تعالى أن يوجه عباده في عبادتهم حيث شاء؛ لأن الجهات كلها له، ولعل فائدة تخصيص المشرق والمغرب بالذكر أن الشمال والجنوب كان معهوداً حيث صلوا من المدينة المنورة إلى الجنوب إلى الكعبة، وإلى الشمال لغرب حين صلوا هناك إلى بيت المقدس والله أعلم، أو أن المشرق والمغرب يعم أكثر الجهات لامتداد الجهتين إلى الشمال صيفاً والجنوب شتاءً.

وقوله: ﴿تُوَلُّواْ﴾ أي توجهوا وجوهكم، وقوله: ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ تعبير عن كونه يصلح قبلة تتوجهون إليه في عبادة الله، وهو من المجاز معناه: كأن الله هناك يقبل إليكم بوجهه سبحانه وتعالى، وهو منزه عن الأعضاء، وإنما المراد بيان أنه يصلح ليكون قبلة تقبل منكم الصلاة إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الرحمة لعباده كلهم، ولا تختص رحمته بأمة كـ(بني إسرائيل).

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: تدل على جواز التوجّه بالصلاة إلى أيّ جهة شاء المصلي عند التباس جهة الكعبة، والجهل بها» انتهى.

قلت: وتدل على أن الجهات كلها تصلح أن تكون قبلة، ولا يختص بذلك بيت المقدس، فإذا شاء سبحانه وتعالى أن يوجههم إلى جهة صارت قبلة، فالآية كالمقدمة لما يأتي في القبلة.

(١١٦) ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ يظهر أن قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ الضمير فيه راجع إلى الفرق الثلاث: اليهود، والنصارى، والذين لا يعلمون، و﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ ردّ لكلامهم، وتنزيه لله سبحانه عن الولد.

وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ

---

﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ منقادون مطيعون، فعيسى وعزير والملائكة كلهم عباد لله منقادون يقضي فيهم ما يشاء ويحكم ما يريد، ليس لهم من الأمر شيء.

﴿١١٧﴾ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهما دليل على أنه تعالى قادر على إبداع ما يشاء وخلقه قبل أن يوجد له مثل كما بدع آدم من التراب، فكيف لا يقدر على خلق عيسى من دون أب ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لا يعسر عليه خلق حتى كأنه إنما يأمر الشيء أن يكون، فإذا أمره فهو يكون.

﴿١١٨﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من كفار العرب ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ جحداً بالآيات، وزعماً أن آيات الله ليست آيات ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من الكفار كقوم هود في قولهم: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣] وكل أمة كفرت برسولها فهي مكذبة بآيات الله ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ يطالبون أن يكلمهم الله استكباراً وتعنتاً ويكذبون بآيات الله.

﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فهي كلها تكره الحق وتميل إلى الباطل وتتكبر ولا تؤمن بآيات الله ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

فقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ لا وجه له، بل هو أبطل الباطل؛ لأن الله جعل الآيات وجعلها بيّنات لا تخفى على من يريد الحق ومن شأنه أن يوقن لوجود الآيات البينات، أما من لا يوقن مع وجود الآيات البينات فالحجة قائمة عليه؛ لأن المانع من إيقانه هو إعراضه وكراهته للحق وشغل قلبه عن النظر في الآيات بوسواس الشيطان والكبر والحسد، وغير ذلك من الموانع التي هي من عنده، ويجدها من نفسه.

أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ

---

﴿١١٩﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ في قوله: ﴿إِنَّا﴾ بكلمة التعظيم، إشارة إلى أن ذا الجلال والإكرام العزيز الحكيم العلي العظيم أرسلك ﴿بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فما أقبح طريقة الكفار المحاربين للدين من اليهود والنصارى، والذين لا يعلمون يحاربون هذه الرسالة التي تولاها ملك الملوك علام الغيوب أحكم الحاكمين مع أنها رسالة بالحق، ولا يرسل سبحانه إلاَّ بالحق، ومع أنها مهمة لمصلحة البشرية بل ضرورية لنجاة من يريد النجاة من النار وسعادة من يريد السعادة الدائمة، فما أقبح التكذيب بها، وما أقبح الجدال في دلائلها، وما أقبح معارضتها بالمكر، وما أقبح الإعراض عنها.

﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ الذين لم يقبلوا منك ولم يهتدوا بهداك وتمردوا وأصروا واستكبروا، فهم مخذولون لا يرجعون إلى الهدى، ولا يزالون على طريق الجحيم حتى صار اسمهم ﴿أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلَاغُ﴾ [المائدة:٩٩] ليس عليك هداهم، فلست مسئولاً عنهم، وفي قراءة منسوبة إلى نافع: ﴿وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ بالجزم و(فتح التاء) ومعناها إما الأمر بالإعراض عنهم؛ لأن من عادة المعرض أن لا يسأل عمّن أراد الإعراض عنه؛ لأنه لا يبالي به كيف كانت حالته، وإما على معنى لا تسأل ربك عنهم لماذا يعذبهم؛ لأنه لا يُسأل عما يفعل، وإما لا تسأل ربك هل يمكن أن يعفو عنهم أو نحو هذا، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧] وإما لا تسأل عنهم، أي عن العذاب الذي يصيرون إليه تعظيم للعذاب وتعبير عن شدته على السمع. كما قال الهبل:

سماعك بالنار يا ذا الحجا ... شديد شديد شديد شديد

فكيف إذا أنت عاينتها ... فكيف الوقوع فكيف الخلود

ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ

---

وحكى الشرفي في (المصابيح): «عن المرتضى عليه السلام: أن القراءة - بضم التاء، وضم اللام - لم يذكر غيرها. قال الشرفي: وكلام أبي الفتح الديلمي عليه السلام مثل هذا، وهي قراءة جميع القراء، إلاَّ نافعاً» انتهى.

﴿١٢٠﴾ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ لأنهم متعصبون لدينهم وغاضبون مما جئت به في شأنهم وحاسدون لك على الرسالة واتباع أمر الله ومكانتك عند الله.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وقد هداني إلى صراط مستقيم، فلن أتبع ملتكم ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ لأنهم في كفرهم إنما هم متبعون للأهواء تقودهم إلى الكفر والأباطيل والعمل بالمنسوخ من شريعتهم الذي صار بالنسخ قد انتهى حكمه وصار التمسك به تعصباً، إنما هو من الأهواء، وقد خرج عن كونه من الدين ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الذي أنزله الله إليك وهداك به وبين لك أنهم على ضلال مبين.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولى رعايتك ويعصمك من خذلان الله لك بشفاعته ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عذاب الله، وليس معنى هذا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مظنة اتباعه لأهوائهم أو قريب من ذلك، ولكن هذا تعبد كنهيه عن سائر المنكرات التي لا تقع منه، ويثاب على تركها، وفيه دلالة واضحة على أن اليهود والنصارى ما لهم من الله من ولي ولا نصير.

﴿١٢١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ علمناهم التوراة ورزقناهم فهمها والاهتداء بهداها فهم ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ لا يحرفون ولا يبدلون لسلامتهم من التعصب والحسد ورغبتهم في الحق.

إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا

---

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بالذي جاءك من الحق؛ لأن غرضهم اتباع الحق، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [العنكبوت:٤٧] وذلك لأن التوراة تدعو إلى الإيمان بما أنزل على محمد، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] فالذين أوتوا الكتاب قسمان:

قسم كما قال تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥] فهؤلاء لا يتلونه حق تلاوته.

وقسم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ الآيات [القصص:٥٢-٥٣].

وعلى هذا: فالمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ الذين علمناهم وفهمناهم، فخرج عن ذلك الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ فلا يقال فيهم: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ بهذا المعنى وإن كانوا منسوبين إلى الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ كالتخصيص لما سبق في اليهود والنصارى كقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٣] ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي من يكفر من اليهود والنصارى والذين لا يعلمون وغيرهم بالذي جاءك من الحق ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأن التعب في التدين بلا فائدة خسران، بل ويؤدي إلى العذاب الدائم، فهو الخسران الشديد.

﴿١٢٢﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في النعم كقول موسى لقومه: ﴿يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:٢٠]

تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن

---

والمراد بتذكيرهم نعم الله عليهم، حثهم على الشكر، وتحذيرهم من كفر النعم الذي من أعظمه الكفر بما أنزل الله على محمد والتكذيب بآيات الله.

﴿١٢٣﴾ ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾ تحتاجون إلى أن تتقوه وهو يوم القيامة، ولا بديل ينجيكم منه؛ لأنه يوم ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ لا تؤدّي عنها حقاً ولا تقضى عنها ديناً ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ يعدلها، فتفتدي به من مال، أو ولد، أو أي شيء.

﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ ليعفى عنها ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي الذين لم يتقوا ذلك اليوم على أنهم الجمع الكبير الجم الغفير، فلا يُفيدهم ناصر ينصرهم، وهذه الآية الكريمة تكذّب أمانيهم وتبين أنها غرور خادع؛ لأنها قد بينت أنه لا ينجي المكلف من عذاب يوم القيامة إلاَّ التقوى، فعليكم أن تؤمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ وما أوتي من القرآن والسنة والآيات.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ اختبره بهن، أي شرع له خصالاً أو أمره بخصال ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي أتم ما ذكر له في الكلمات، فرجع الضمير إلى الكلمات؛ لكونه أتم المذكور فيهن، كقوله تعالى: ﴿ونرثه ما يقول﴾ ونظيره قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

والمراد: أنه عليه السلام قام بما شرع له في الكلمات المذكورة كاملاً بلا تقصير ولا بخس، فالعمل كامل والنية خالصة والذهن حاضر، والخشوع كامل،

وعلى الجملة قام بـه علـى الوجـه المشـروع بـلا تقصـير في ذات ولا صـفة، وذلك لقوة إيمانه ويقينه وصبره.

ويحتمل: أن هذا الابتلاء كان قبل النبـوة والرسـالة، فكـان إتمـامهن سـبباً للرسالة والإمامة لمن في عصره ومن بعده، ومن يدعي أن هذا الابـتلاء كـان بعد الرسالة، فليس له دليل.

ولا يشكل قول القائل: إن هذا الإبتلاء لا يكون إلاَّ بوحي، فكيف يكـون قبل النبوة؛ لأنا نقول: ما المانع أنه كان عليه السلام محدَّثاً قبـل النبـوّة تهيئـة للنبـوة كما كانت مريم بنت عمران وأم موسى، ولو سلمنا أنه لا يكون قبـل النبـوة فلا دليل على تأخره، ومن الجائز أنه كان في أول النبوة ثـم ترتبـت الرسـالة على إتمام الكلمات بعد النبوة، أي أنـه كـان نبيـاً فـابتلي بكلمـات فـأتمهن، فجعل رسولاً وإماماً للأجيال.

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فإتمامه لما ابتلي به كـان سـبباً لجعلـه للنـاس إماماً، وقد قيل: إن فيه دلالة على أن الإمامة أعظم من النبوة؛ لأنه كان نبياً، ثـم بعد ذلك صار إماماً عندهم، ونقول: لا دلالة علـى ذلـك؛ لأن الإمامـة رتبـت على إتمامه ما ابتلي به لا على النبوة، والنبوة تكون لمـن اختـاره الله لهـا، ولـو لم يكـن رسـولاً، ومـن الجـائز أن يكـون الله اختـار إبـراهيم للنبـوة لكونـه أهـلاً بصلاحه العقلي، وكونه شاكراً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣].

واختاره للرسالة بإتمامه ما أمر به، فكانت النبوة أولاً لنفسه والإمامـة مـن أجل الناس ولعل سبب تقديم النبوة في حقه أنه لم يكن لديه كتـاب ولا أثـر من نبي كان قبله، فلم يكن بد من تقديم نبوته ليعرف ما يخصه من التكليـف

فتأخرت الإمامة عنها لا لكونها أعظم من حيث هي إمامة، ولا لكونها درجة أرفع، بل لكون الإمامة تتوقف على العلم والصبر واليقين بآيات الله، والنبوة لا تتوقف على العلم بالشرعيات؛ لأن ذلك دور، إذا لم يكن عنده كتاب أو أثر من نبي قبله كآدم عليه السلام.

*فإن قيل*: فقد دل ذلك على أن الأهلية للإمامة أعظم من الأهلية للنبوة؛ لأن الأهلية للإمامة توقفت على العلم بالشرعيات بخلاف النبوة؟

*قلنا*: لا دلالة على ذلك؛ لأن الأهلية للنبوة وإن لم تتوقف على العلم بالشرعيات، فالنبوة تتوقف على كمال عقلي واستعداد فائق، فلا يبعد أن يكون بعض من يصلح للإمامة لا يصح للنبوة، اللهم إلاَّ أن يراد الإمامة العامة، كإمامة إبراهيم الخليل وإمامة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإمامة التي هي لازم الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤] وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] وقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩] وغير ذلك فهي إمامة الرسول فيما أرسل به وكونه متبوعاً فيه لكل من أرسل إليهم وكل من أمر باتباعه من الأجيال المتتابعة، فهي متوقفة على النبوة، وهي أعظم درجة من أجل الرسالة من حيث أمر أن يبلغ ويدعو إلى طاعته من أرسل إليهم ويقوم بتكاليف الرسالة الشاقة التي ذكرت في القرآن ودل على عظمها وعظم مشقتها، ولا تكون إلاَّ لذي أهلية خاصة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤].

*والحاصل*: أن الإمامة مُختِلفة، وفضلها مختلف، وعظم إمامة إبراهيم عليه السلام لا يستلزم أن تكون كل إمامة مثل إمامة إبراهيم.

وحاصل الجواب: أنا لا نسلم ترتب إمامة إبراهيم على نبوته، بل على طاعته، فلا نسلم أن الإمامة أفضل، وأنا لو سلمنا أن إمامته أفضل من نبوته فلم نسلم أن كل إمامة مثلها، وقد قال تعالى في (بني إسرائيل): ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤] فلم يرتب إمامتهم على نبوة، وإنما رتبها على صبرهم ويقينهم بآيات الله اليقين المستمر.

وقد قيل: إن يقينهم كيقين إبراهيم الخليل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥].

والجواب: أن يقينهم بآيات الله أنها دليل على ما هي دليل عليه، وهو يصح أن يوقنوا بها جملة، ولا يتوقف على أن يريهم الله ملكوت السموات والأرض كما أرى إبراهيم عليه السلام، إنما يتوقف على العقل الكامل والإيمان الراسخ والنظر والتفكر مع أن الملكوت المُلك - بضم الميم -، وإراءته إعلامه، وهو يحصل كذلك بالنظر المؤدي إلى العلم بأن الله رب كل شيء، فله الأمر، ومع أن يقين إبراهيم مطلق ويقين أئمة بني إسرائيل مقيد بالآيات، فلا وجه للتسوية بين يقين إبراهيم الخليل عليه السلام ويقين سائر الأئمة، وعلم ذلك عند الله تعالى.

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ اجعل أئمة بقرينة قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فالجمع يدل على أن المطلوب جمع، وهو عليه السلام أراد أئمةً للناس كافة لمن في عصره ولمن بعده من الأجيال كما أن إبراهيم عليه السلام إمام كذلك، والكلام في سياق الاحتجاج على أهل الكتاب الكافرين بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، فظهر أنه المقصود بإيراد القصة؛ لأنه رسول إلى العالمين صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا يفيد: أن قد أجاب دعوة إبراهيم وزاده فائدة؛ أنه لن ينال عَهْدَه بالإمامة ظالماً، فليس هذا رداً على إبراهيم عليه السلام، ولا تخصيصاً لدعوته؛ لأنه قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فأتى بـ﴿مِن﴾ التي للتبعيض، فليس فيها عموم وليس في كلامه تعرض لكونه ظالماً أو غير ظالم، وفائدة هذه:

*أولاً*: الرد على من سيكفر ويقول: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١٢٤].

*ثانياً*: الرد على من ادعى النبوة من الظالمين كمسيلمة الكذاب لتكون معرفة ظلمه كافية لإبطال دعواه.

*ثالثاً*: الرد على من ادعى الإمامة الشرعية وهو ظالم، فيكون ظلمه دليلاً على كذب دعواه وهو وإن لم يكن السياق فيه فقد دخل في عموم عهدي، وعموم الظالمين، والعام لا يقصر على سببه، وقد قيل: إن هذا دليل على عصمة الإمام؛ لأن من عصى فهو ظالم، ولو كان قد تاب.

قلنا: التائب قد خرج عن اسم الظلم؛ لأن توبته قد محت ذنبه وصار مستحقاً للمدح غير مستحق للذم، وتسميته ظالماً ذم له بعد خروجه عن استحقاق الذم، وصار مؤمناً، ومحسناً ضد الظالم وضد المسيء، قال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ [الشورى:٢٢].

فهل *تقولون*: أن التائب هو من النوع الأول؟ أم من النوع الثاني؟

فإن قلتم: من الأول، خالفتم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى:٢٥] وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠] وعلى هذا اللغة العربية، فمن أساء سمي مسيئاً حتى يرجع ويتوب من إساءته ويصلح ما أفسد ويحسن، ومتى صار محسناً سمي محسناً ولا ينظر إلى إساءته من قبل.

وكذلك من أحسن يسمى محسناً، ومتى تحول عن طريقته وصار من المفسدين لم يسم محسناً نظراً لإحسانه السابق قبل الإساءة، فدعواكم أن التائب ظالم غير مسلمة ولا حجة لكم إلاَّ استصحاب اسمه قبل التوبة، وهو استصحاب باطل؛ لأن التوبة قد محت ظلمه واختلفت حاله فهو كاستصحاب اسم الكفر لمن قد أسلم، واسم الإسلام لمن قد أشرك، واستصحاب اسم المريض لمن قد عوفي وصار صحيحاً وغير ذلك.

فاللغة لا تثبت لكم هذا الاستصحاب، وهو دعوى على اللغة لا تسمع، فلا نسلم أن التائب من ظلمه المبدل حسناً بعد سوء الذي يبدل الله سيئاته حسنات ظالم داخل في عموم: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وعلى هذا فيكفي ظهور عصمته، أي هدايته وتوفيقه من بعد التوبة والإصلاح، فإن قالوا: لا يخلو إما أن يكون إبراهيم طلب إماماً ظالماً أو لم يطلبه الأول باطل بالاتفاق. والثاني: إما أن يكون طلب إماماً معصوماً أو لم يطلبه، الأول هو ما نريد.

وقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ إجابة مطابقة، والثاني أن يكون طلب إماماً معصوماً أو غير معصوم، فقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لإخراج غير المعصوم، وقصر للإجابة على المعصوم.

*والجواب*: نختار الثاني في أول قسمة، فلم يطلب ظالماً، ونختار الثاني في القسمة الثانية فلم يطلب في هذا الدعاء معصوماً، فلا ذكر للعصمة. وقولكم: فقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لإخراج غير المعصوم، دعوى لا دليل عليها، بل هو إجابة مطابقة.

فإن *قالوا*: إذا جعلناها إجابة مطابقة بطلت فائدتها؛ لأنه إذا طلب إماماً غير ظالم، وأجيب بأنه ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لم يكن الجواب رداً على إبراهيم ولا تخصيصاً لكلامه.

*قلنا*: لا موجب لجعل الجواب رداً على إبراهيم، ولا لجعله تخصيصاً لدعوته، فأما الفائدة فلم تقصر على ذلك، ويكفي في الفائدة التصريح بما لم يذكره إبراهيم، وكون التصريح من مالك الملك.

## فصل

*وقد قيل*: إن هذه الآية دليل على أنه لا بد أن يكون الإمام منصوصاً عليه بعينه، ووجه الدلالة: أن الآية قد دلت على أن الإمام لا يكون ظالماً من غير فرق بين الظالم في الظاهر والظالم في الباطن، فدلت على أنه لا بد أن يكون منصوصاً عليه، وإلا جاز أن يكون ظالماً في الباطن.

*قلنا*: أما الرسول فلا بد من أن يصدقه الله بآية خارقة لا لأجل هذه الآية الدالة على أن الرسول لا يكون ظالماً، وذلك لأن ظهور كونه غير ظالم، وعدم العلم بظلم منه باطن لا يكفي في تصحيح دعواه الرسالة، ولم يثبت دليل عام يقتضي الاكتفاء بظهور عصمته.

وأما الإمام من بعد علي والحسنين فإنه يكفي ظهور فضله، وظهور صلاح ظاهره وباطنه، ولا نكلف علم باطنه؛ لأن الآية لم تشترط ثبوت العصمة إنما نفت العهد للظالم ولم تنف العهد لمن جوزنا أنه في الباطن ظالم

مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ

---

ولا دلت على وجوب العمل بهذا التجويز ولأنه لا يثبت حكم المعصية إلاَّ بعد ثبوتها، وإذا لم تثبت وجب العمل على حسن الظن، لقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢].

والحاصل: أن الآية إنما دلت على أن الظلم مانع، ومجرد تجويز وجود المانع لا حكم له، ألا ترى أن إمام الصلاة يجوز أنه جنب في الباطن ولا حكم لهذا التجويز إذا لم يظهر أنه جنب.

﴿١٢٥﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا (بني إسرائيل) ﴿إِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يثوبون إليه، أي يرجعون؛ لأنهم إليه يترددون للحج وللعمرة رجاء الثواب، وفوائد الحج والعمرة ﴿وَ﴾ جعلنا البيت ﴿أَمۡنًا﴾ لمن دخله، بل ولمن دخل حرمه.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ أي موضع قيامه على الصخرة عند البيت حيث هناك أثَرَ قدميه الشريفتين ﴿مُصَلًّى﴾ يصلون فيه تبركاً به أو لنيل فضل الصلاة فيه، قال الشرفي في (المصابيح): «معنى ﴿اتَّخَذُواْ﴾ أي جعَلوا من مقام إبراهيم مصلى، ومقامه فهو في الصخرة بمكة عند البيت» انتهى، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ قرئ بكسر (الخاء) ومعناه: وقلنا: اتخذوا، وبفتح (الخاء) على الخبر، بأنهم اتخذوه.

﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ البيت: هو الكعبة، وتطهيره للمذكورين دلالة على أنه سيكون للطواف به والصلاة والعكوف، وهو اللبث في المسجد الحرام للعبادة، فأمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بما ذكر إعداداً له.

ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا

---

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: تدل على وجوب طهارة البيت من الأرجاس، ومعاصي الناس» انتهى.

قلت: وهذه الآية تشبه الآية من (سورة آل عمران): ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ..﴾ الآية [٩٧] والسياق في (بني إسرائيل) في الآيتين، فهما رد عليهم من حيث دلتا على ثبوت الدين من عهد إبراهيم وإسماعيل قبل أن تنزل التوراة والإنجيل، فيدل ذلك على بطلان تعصبهم للتوراة والإنجيل، وجعلها ضرورية للدين؛ لأن الدين قد استقام بالإسلام لله وحده والعبادة المذكورة لله، ولم يشترط فيه ما اختصت به التوراة والإنجيل أو اليهودية والنصرانية كالسبت واستقبال بيت المقدس.

﴿١٢٦﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا (بني إسرائيل) ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي الحرم: حرم الكعبة، أو الإشارة إليه وإلى ما حوله ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أراد عليه السلام: أن يتمكنوا من البقاء حول البيت ليقيموا الصلاة ولا يضطرهم الجوع إلى المغادرة لذلك الوادي الذي ليس بذي زرع.

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فالرزق في هذه الدنيا للمؤمن والكافر، وقد أجيبت دعوة إبراهيم، وصار في مكة المركز الديني مركز بني إسماعيل على دين إبراهيم وإسماعيل، خلاف مركز بني إسرائيل، فلم تكن اليهودية ولا النصرانية من ضروريات دين الله.

تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن

---

وأعتقد أن دعوة إبراهيم ربه أن يجعل ﴿هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ معناها: طلب جعله كذلك بقدرة الله وفعله، وإعداد قلوب الناس لذلك لا مجرد الحكم التشريعي.. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص:٥٧] فهو أمرٌ استمر في عهد الجاهلية حتى في عهد الشرك.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ ظاهره: أنه تعالى يلجيه إلى عذاب النار كإلجاء السجين لدخول السجن، وهو السّوق المذكور في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧١] فيظهر أنهم يمشون إلى جهنم لعنف السوق وهيبة السائق، ولعل من الإضطرار ما روي فيه عن النبي ﷺ ما معناه: أنه يبلغ بهم التوبيخ والتخزية على رؤوس الأشهاد أن يتمنوا أنهم سورع بهم إلى النار.

﴿١٢٧-١٢٩﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ أي يبنيان أساس البيت رافعين له، أو كان أصل القواعد موجوداً فزادا عليه بناءً مجانساً لها قوياً كما تبنى القواعد أي أسس البناء، فصار هذا البناء رفعاً للقواعد، ولعل السبب كونه قريباً من مجرى السيل فرفعا أساسه لئلا يدخله السيل داعيين ربهما أدعية:

*الدعاء الأول*: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وتقبُّل العمل الصالح أن يجعله تعالى مقرباً إليه سبباً لثوابه.

*الدعاء الثاني*: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ أي مسلمَين وجوهنا لك، أي مخلصَين لك العبادة، ويحتمل مسلمَين أنفسَنا لك، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] وإسلام النفس أبلغ من إسلام الوجه؛ لأن إسلام النفس لله شأن الخواص الذين لم يبق لهم في الحياة الدنيا غرض نفسي غير عبادة الله وذكره والتقرب إليه بكل وسيلة من الجهاد وغيره، والاشتغال بذلك عن كل غرض نفسي حتى المباحات يصير غرضهم فيها الاستعانة على العبادة أو نيتهم فيها تصيّرها قربة، وحتى أنهم يختارون الأشق على النفس إذا كان أفضل عند الله، وذلك كله لأنهم جعلوا أنفسهم خالصة لله، فسلموها له هذا التسليم ولا إشكال في هذا؛ لأنهم باعوا أنفسهم من الله وطلقوا الدنيا، فلا يقال: ما معنى إسلام النفس لله وهي له وحده لا شريك، سواء أسلمها أم لم يسلمها، فقد صح بيعها من الله، وهي له سبحانه من قبل البيع.

﴿وَ﴾ اجعل ﴿مِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾ الاحتمال فيه كالاحتمال الأول، وقد روي عن الإمام زيد بن علي عليهما السلام أنه قال: «نحن الأمة المسلمة» انتهى.

فهو يقوي احتمال مسلمة أنفسها لك، فتكون خاصة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبذوي القربى، الذين باعوا أنفسهم من الله، وأسلموها له كما أسلم إبراهيم وإسماعيل، وبالخُلَّص الذين ذكر الله تعالى وصفهم بعد آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى..﴾ [التوبة:١١١] فقال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة:١١٢] فدل على جمعهم هذه الصفات مع بيعهم أنفسهم من الله ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة:١١١].

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ علّمنا عبادتنا لك حول هذا البيت، أي مناسك الحج والعمرة ونحوهما ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تب علينا، والتوبة من الله على عباده الرجوع عليهم برحمته وألطافه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة:١١٨] وهو أعم من قبول التوبة والهداية لها.

*الدعاء الثالث*: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي في ذريتنا، وهم ذرية إسماعيل؛ لأن ذريته ذرية لأبيه إبراهيم عليه السلام ﴿رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ فهو من ذرية إسماعيل ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ﴾ الدالة عليك، وعلى أنه رسول الله إليهم، وعلى اليوم الآخر وغير ذلك، ليعلموا أنه رسول الله ويؤمنوا به وبما يتلو عليهم ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ فيحفظوه ويعلموا معانيه ﴿وَ﴾ يعلمهم ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ ليكونوا حكماء في منطقهم وسلوكهم على طريق الصواب وحسن الرأي ورجاحة العقل، وذلك يتوقف على أن يكونوا علماء؛ لأن الجاهل لا يكون حكيماً.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يصلحهم، وقد فسر بأن يطهرهم، ولم يظهر لي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣] فدل على التغاير، فالتزكية بما يكون من الرسول من أسباب صلاحهم من التعليم والمواعظ والترغيب وما يكون لحاضريه ومشاهدي سيرته من بركات النبوة وما يكون لمن سمع بذلك من التأسي به وغير ذلك.

وأيضاً يكون إصلاحهم بالدعوة وظهور الآيات والمعجزات على يديه والبركات الخارقة، وأيضاً بما يكون من جهاده لأعداء الدين الذين يفتنون من أسلم ويدعون إلى الباطل والشرك حتى ترتفع راية الحق ويظهر أمر الله وهم كارهون، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً، فقوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فيه طلب ما يحصل به العلم.

مِلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

---

وقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ فيه طلب ما يُحَصّل به الرسول الإيمان والعمل الصالح والتقوى في الأمة المذكورة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ومن عزتك أن تظهر دينك وتعلي كلمتك، ومن حكمتك أن لا تهمل عبادك بلا بشير ولا نذير، فهذه الدعوات تفيد: أنها ستكون أمة مسلمة، رسولها منها ليس من بني إسرائيل، يتلو عليهم آيات الله ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ﴾، فهم على أساس مستقل وصراط مستقيم لا يحتاجون إلى اليهودية ولا النصرانية، قد كفاهم كتابهم ورسولهم واستغنوا بهما عن التوراة والإنجيل، وهذا يبطل تعصب اليهود والنصارى لملتهم.

﴿١٣٠﴾ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ يقال: رغب عن الشيء إذا لم يُرِدْه ﴿مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ دينه الذي هو الإسلام لله ورفض الأديان المخالفة للتوحيد، والسفه: خفة العقل، ولعله عدي إلى نفسه لتضمينه معنى خسر أو أضاع أو أهمل أو أهان أو نحو ذلك مما هو شأن السفيه، ويفهم من السياق.

والمعنى: أيّ عاقل يرغب عن ملة إبراهيم؟!! كأن ذلك لا يتصور إلاَّ ممن سفه نفسه وذلك لوضوح حجته في أنه إذا عبد الله ولم يلبس إيمانه بمعصية فهو أحق بالأمن ممن عبد غير الله بدون برهان من الله، فعبادة الله لا جدال فيها؛ لأنه الخالق الرازق، وترك الشرك لا ينبغي أن يكون فيه جدال؛ لأنه مجرد خرافة وأسماء يسميها الجاهلون، ليس فيه إذن من الله ولا أي حجة من العقل، فملة إبراهيم هي النهج الواضح والصراط المستقيم، فاتباعها مقتضى العقل، والعدول عنها علامة السفه.

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ

---

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ الاصطفاء: اختيار صفوة الشيء وأفضله ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ للنبوة والرسالة، وما كان معها من مقاومة الشرك والعمل لإعلاء كلمة الله وتمكين دين الله في الأرض، فدينه دين الله الذي اصطفاه لعباده.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فله ثوابه وكرامته عند الله؛ لأنه من الصالحين، وفيه دلالة على أن سبب الثواب هو الصلاح لا ما يمني أهل الكتاب أنفسهم، وفي الآية دلالة على أن الدين هو عبادة الله الخالصة له؛ لأن هذا دينه، فلا حكم لصورة من صور العبادة إلاَّ لكونها عبادة لله خالصة، فمتى خرجت عن ذلك بنسخ أو رياء أو نحوه فليست من دين إبراهيم؛ لأنها خرجت عن كونها عبادة لله خالصة، ودين إبراهيم العبادة الخالصة، وقوالب العبادة غير مقصودة لذاتها في دينه عليه السلام.

﴿١٣١﴾ اذكروا يا (بني إسرائيل) ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ وجهك لربك ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي يجب على العالمين أن يسلموا له وجوههم؛ لأنه ربهم المالك لهم، المستحق لأن يعبدوه وحده، ولعل هذا القول كان أول نبوته، كما قال لموسى في أول ما أوحى إليه: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي**﴾ [طه:١٤].

﴿١٣٢﴾ ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾وقُرئ: ﴿**وَأَوْصَى**﴾ والمراد: أنه أوصى بهذه الكلمة التي قال له ربه ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ أوصى بها بنيه، قائلين لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي اختاره لكم من حيث هو خير الأديان ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ لله وجوهكم، لا تشركون به شيئاً، فأهل الكتاب قد عدلوا عن وصية آبائهم حين أشركوا عزيراً وعيسى وأحبارهم ورهبانهم.

يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ

---

﴿١٣٣﴾ ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي﴾ أي بل أكنتم شهداء، ومعنى الإضراب الانتقال من حجة إلى أعظم منها، كقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان:٤٤] وفي هذه الآية دلالة على شدة اهتمام يعقوب بعبادة الله وحده وشدة خوفه على بنيه من الشرك حيث أقبل عليهم ليأخذ منهم الوعد بالثبات على التوحيد، وهو في حال حضور الموت له.

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ وجوهنا لا نعبد غيره، فنحن على هذا الدين الذي ورثناه منك وورثته من آبائك وورثوه من إبراهيم، لا نعدل عن دين آبائنا الذي توارثوه، الذي هو التوحيد، فقد طمئنوا آباءهم بإفهامه أن تمسكهم بالتوحيد كالأمر الطبيعي لهم؛ لأن من طبع الخلف الميل النفسي إلى طريق السلف، فكيف يعدلون عنه وسلفهم إبراهيم الخليل وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

﴿١٣٤﴾ ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ﴾ الإشارة إلى إبراهيم ويعقوب، وأبناء إبراهيم عليه السلام، ويحتمل أن أبناء يعقوب داخلون فيها ﴿أُمَّةٞ﴾ أهل دين واحد. ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾ ليس لكم من عملهم شيء ولا لهم من عملكم شيء ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر:١٨].

إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ

---

أما قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ فيظهر: أن المراد به: أن يقول لأهل الكتاب: لا سبيل لكم إلى معرفة ما كانوا عليه إلاَّ الأخبار، وخبر الله عنهم أصدق الأخبار.

وأما قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ ففائدته ـ والله أعلم ـ قطع الأماني ورجاء أنهم سينفعونكم بشفاعة أو يهب الله مسيئكم لهم فيعفو عنه لأجل تلك الأمة، وذلك أنهم إنما عملهم لهم وحدهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فلعل المراد به: لستم مسئولين عما كانوا يعملون، والمهم لكم: أن تتبعوا الرسول، وما أنزل إليه من الله الذي أنزل هذا القرآن ـ والله أعلم.

﴿١٣٥﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي اليهود والنصارى ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ ﴿أَوْ﴾ ليست للتخيير، وإنما هي للترديد بين الأمرين، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤] وقول الشاعر:

لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وذلك أن من طلب منه أن يكون يهودياً وطلبه آخرون أن يكون نصرانياً، فمجموع الطلبين يتضمن: أن يكون على إحدى الملتين، من حيث أنه لا يمكن الجمع بينهما، وكونه على إحدى الملتين إجابة لأحد الطلبين، فقد طلب منه اليهود أن يكون على أحدهما؛ وهو اليهودية، وطلبه النصارى أن يكون على أحدهما ؛ وهو النصرانية، فمجموع الطلبين لإحدى الملتين التي هي اليهودية أو النصرانية.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي بل اتبعوا ملة إبراهيم؛ لأن قولهم: ﴿كونوا هوداً أو نصارى﴾ يفهم منه اتباع دينهم كأنهم قالوا: اتبعوا ديننا، فجوابه: بل نتبع، أو بل اتبعوا ملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تكررت هذه الكلمة الكريمة، ففي (سورة آل عمران): ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:٩٥] وفي (سورة الأنعام): ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:١٦١] وفي (سورة النحل): ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:١٢٠].

وفي (سورة آل عمران) ـ أيضاً ـ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:٦٧] وفي (سورة الأنعام) ـ أيضاً ـ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:٧٩] وفي (سورة النحل) ـ أيضاً ـ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:١٢٣] هذا كله في إبراهيم عليه السلام.

وفي (سورة الحج): ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [آية:٣٠-٣١] وفي (سورة لم يكن): ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [آية:٥].

وقد قيل في تفسير (الحنيف): أنه من الحَنَفِ الذي هو الميل في القدم، وهذا عندي بعيد؛ لأن الإشتقاق من العيوب يكون على وزن أفعل مثل: أحنف، أعرج، أعور، أعمى، أصم.. إلى غير ذلك، ولأن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هو معنى العدول عن أديان الشرك، فيكون ذكر الميل فضلة، وهو بعيد في القرآن الحكيم.

ولأن الوصف بالميل إذا أطلق كان ذماً نحو ﴿فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء:١٢٩] ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧] فكيف يستعمل الوصف بالحنف بمعنى المائل، ولا يقيد بأن يقول عن الباطل أو نحوه؟ فهذا لا يليق بكتاب الله الذي هو أحسن الحديث لفظاً ومعنى، فلا يليق به استعمال العبارة الناقصة؛ لأن نقصها خلل في الفصاحة وإن كان المراد صحيحاً، كقول الشاعر:

والعيش خير في ظلال النـ ـــوك ممن عاش كداً

أي العيش منها في ظلال الحماقة خير ممن عاش كداً في ظلال العقل، فكيف إذا كان نقصها يوهم المعنى الفاسد، وقد قيل في معاني (الحنيف) غير ذلك، وأحسن ما قيل في ذلك أنه: الطائع المستقيم الخاشع.

وفي كتاب (الدليل الكبير) أول كتاب من مجموع القاسم عليه السلام: «والحنيف فهو: المحب الخاشع» انتهى. أفاده القاسم عليه السلام في تفسير (سورة لم يكن).

وقال الشرفي في (المصابيح) في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج:٣٠-٣١]: «ومعنى قوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ خاشعين لله ثابتين على دينه، وقد ذكر المعنى الذي هو مائلين، لكن الراجح الذي أفاده القاسم عليه السلام كما ذكرت.

هذا في وصف إبراهيم عليه السلام، فأما من بعده، فيحتمل أنه الخاشع الثابت كما هو الظاهر في قوله تعالى في أهل الكتاب والمشركين: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥] من أجل قوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لأنه يغني عن وصف العبادة بكونها على ملة إبراهيم، فأما الخشوع مع الإخلاص فهو مناسب، وكذا في قوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ لأنه أنسب لكلمة: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٩٩].

مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟

---

ويحتمل: ما كان في كلام الجاهلية من كلامهم أنهم أرادوا به دين إبراهيم لكون إبراهيم كان حنيفاً، فحفظوا الاسم فجعلوا الاسم لمن كان على دينه بزعمهم أنه على دينه، وهذا لا ينافي المعنى الأصلي لوصف إبراهيم عليه السلام أنه كان حنيفاً. واعتقاد الجاهلية أن من اختتن وحج البيت الحرام حنيفٌ؛ لأنهم لم يتمسكوا من دين إبراهيم إلاَّ بالختان والحج، وقولهم ـ مع كونهم يعبدون الأوثان ـ : نحن حنفاء على دين إبراهيم، لعل ذلك الاعتقاد والقول هو سبب استمرار قوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ مقروناً بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ليردّ عليهم باطلهم وانتسابهم كذباً إلى دين إبراهيم.

﴿١٣٦﴾ ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو القرآن والسنة ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أسباط إبراهيم عليه السلام، أي أبناء بنيه أو أسباط المذكورين.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وهو التوراة؛ لأنها كانت لهما، والإنجيل وغير ذلك ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ آمنا بذلك كله خصوصاً وعموماً ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بل نؤمن أن دينهم واحد هو الإسلام لله وأنهم كلهم على الحق وأنهم كلهم مؤمنون برسل الله كلهم ولا يكفر نبي بنبي.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ وجوهَنا، نعبده ولا نعبد غيره، وهذا ردّ على اليهود والنصارى القائلين: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ فديننا الإيمان بالله ورسله، وبما أوتي النبيئون من ربهم، ولا شك أن ذلك كله حق؛ لأن القرآن قد جاء به وأثبت نبوة موسى وعيسى، وصدّق التوراة والإنجيل.

فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا

---

فنحن نصدق ما صدق الله ورسوله ﷺ، ونحن لله مسلمون وجوهنا لا نعبد غيره، بل نعبد الله وحده، فأي عيب في ديننا ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٥٩].

﴿١٣٧﴾ ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾ أي أهل الكتاب ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ فقالوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا..﴾ إلخ، ما ذكر في الآية ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ إلى الحق.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن ذلك وتركوه وقالوا نؤمن بما أنزل علينا، نؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ ليسوا طالبين للحق ولا هم أهل إنصاف إنما يريدون الخلاف ومجانبة الحق.

وقوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ لو كان المعنى المقصود ومفهوم اللفظ: فإن آمنوا بالله وما أنزل لقيل فإن آمنوا بمن آمنتم به على طريقة التغليب، فإما أن يكون المعنى بمثل الله ومثل ما أنزل إليكم، فلا يصح.

*فالراجح*: أن المراد: فإن آمنوا بأن قالوا مثل القول هذا الذي عبرتم به عن إيمانكم، وليس المراد مجرد القول بدون الإيمان بالقلب؛ لأن قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ..﴾ إلخ، المراد القول المقبول المطابق لما في القلب، فإيمانهم بقول مثله لا يكون مثله، إلاَّ إذا طابق ما في القلب، والمراد بالمماثلة أن يقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلى محمد وما أنزل إلى إبراهيم.. إلى آخر الآية.

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يخفي كل منكم ومنهم وما يعلن، ومعنى (يكفيكهم) ينجيك منهم، ويتولى دفعهم عنك ودفع شقاقهم.

فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ

---

﴿١٣٨﴾ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ التي جعلها لنا نصطبغ بها، أي آمنا بالله وما أنزل ونحن له مسلمون، وصبغ الله لنا فهو مصدر نوعي مثل قِعدَة البدوي، فهي خير من صبغتكم التي تصبغون بها أولادكم.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي لا أحسن، فالصبغة التي صبغناها لا أحسن منها، ذكر الشرفي في (المصابيح) أن بعض النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يُسَمّونه المَعمُودِيّة، ويقولون: هو تطهير لهم، فإذا فعل الواحد بولده ذلك قالوا: الآن صار نصرانيّاً حقاً، انتهى المراد.

فصبغة المسلم قوله: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ..﴾ إلى ﴿..وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فإذا قالها صار مسلماً حقاً وهذه مشاكلة، كقول حاتم لما نحر نحيرة من الإبل: هكذا فَزْدِيْ أَنهْ، وذلك أنهم كانوا يفصدون عرقاً من الناقة أو الجمل ويجعلون الدم في إناء ثم يأكلونه، فأراد حاتم أنه ينحرها بدلاً من الفصد.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ لا لغيره، لأنا عباد الله وحده لا شريك له فينا، فلا نتخذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، ولا نعبد عيسى ولا عزيراً.

﴿١٣٩﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ إذ أسلمنا له وعبدناه وحده ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فنحن وأنتم مجمعون على أن عبادته حق، وأنه المالك لنا ولكم، فكيف نجعل له شريكاً بعد علمنا بهذا.

﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ فلستم مسئولين عن أعمالنا، ولا نحن مسئولين عن أعمالكم، فلأي سبب تجادلوننا في أعمالنا؟! ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أنفسَنا وعبادتَنا ولا شك في استحقاقه الإخلاص؛ لأنه ربنا وحده لا شريك له، فلماذا تحاجوننا في ديننا، فلا باعث للجدال إلاَّ الحسد.

كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ

---

﴿١٤٠﴾ ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ ﴿أَمْ﴾ أي بل ﴿تَقُولُونَ﴾ وهذا انتقال من الرد عليهم في المحاجة إلى الرد عليهم في الزور والبهتان الذي يقولونه، فبعد أن حكى قولهم، قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ فقد بين سبحانه أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، وهو علام الغيوب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ في التوراة أو غيرها مما أنزل، وهي تبيّن الحق في هذا الشأن وتوضح أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، وتشهد لنا أنهم كانوا مسلمين، فكيف كتمتم شهادة الله التي عندكم لنا وافتريتم خلافها، كأنكم تدّعون أنكم أعلم من الله، وكيف لم تخافوا الله ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم جزاءً موفوراً.

﴿١٤١﴾ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب والأسباط ﴿أُمَّةٌ﴾ أهل دين واحد قد مضوا ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ فليس لكم من دينهم شيء ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فلا تحتاجون لمعرفة ما كانوا يعملون؛ لأنكم لا تسألون عنه، ولذلك فلا حاجة للجدال فيما كانوا عليه.

﴿١٤٢﴾ ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الذين عقولهم خفيفة، وهم: أناس من أهل الكتاب كفروا بالله ورسوله

انقياداً للحسد بعد ما تبين لهم الحق، وضر ذلك عليهم لأنهم تعرضوا لغضب الله وصاروا من أهل النار، فأي سفاهة فيمن ينقاد للحسد حتى يصير من أهل النار لا يتدبر عاقبة ولا يبالي بضر نفسه.

وقوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يشير إلى أن القائلين ليسوا من أهل الكتاب وحدهم؛ لأن السياق قبل هذه الآية كان فيهم ولم يقل: سيقولون، ونسب القائلين إلى الناس جملة، فلا بد أن غير أهل الكتاب شاركوهم ولعلهم منافقون تلقنوا ذلك من أهل الكتاب.

وقولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ ما حولهم عن القبلة الأولى ووجههم إلى الكعبة تجاهل بالحق الذي هو أمر الله، وإيهام أن ذلك لغرض نفسي كالتعصب للكعبة، ولو كان ذلك كذلك لكان مخالفة لحكم الله وجهالة وسفاهة حاشا رسول الله ﷺ ومن معه، ولكنهم تبعوا أمر الله:

*أولاً*: في استقبالهم القبلة التي كانوا عليها.

*وثانياً*: في استقبالهم شطر المسجد الحرام، والسفهاء، هم: المتّهمون لهم بما هو سفاهة.

وقولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ تشنيع لعدولهم إلى الكعبة؛ فلم يقولوا: ما عدل بهم إلى الكعبة؛ لأن غرضهم أن يجعلوهم متولين عن القبلة ﴿ٱلَّتِى﴾ قد آمنوا بها سابقاً و ﴿كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ فعابوا عليهم تركها بعد إقرارهم بها غير ملتفتين إلى أنهم عدلوا إلى الكعبة البيت الحرام.

﴿قُل﴾ يا محمد ردّاً عليهم: ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ فالأمر له في أن يجعل قبلة أي جهة شاء إما على المعنى الذي مرّ ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

وإما على معنى: أنه هو الذي جعل مشرق الشمس ومغربها واختار له جهاته من الأرض، فانقادت له الأرض والشمس، فكذلك يختار القبلة فتكون كما اختار؛ لأن بيده ملكوت كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يفيد: أن القبلة الكعبة نستقبلها بهداية الله لنا إليها في ضمن هدايته لنا إلى صراط مستقيم، فكان المهم بيان أن الله هدانا إلى صراط مستقيم، حيث هدانا إلى اتباع ما أوحى إلى رسوله من الهدى، كما أن السفهاء كانت مهمتهم في اعتراضهم على ترك القبلة التي كانوا عليها، هو القدح في الدين.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: السفهاء الذين ذكرهم الله سبحانه، فهم السفهاء في نفوسهم الذين لا عقول لهم ولا تمييز ولا دين، سفهاء الرأي والأحلام من أهل الكتاب وغيرهم، وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي إلى بيت المقدس وكان يحب الصلاة إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، وهو قول الله - عزَّ وجل - : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فأمر الله - عزَّ وجل - أن يولي وجهه ومن كان معه من المؤمنين إلى الكعبة وهي قبلة إبراهيم عليه السلام، ثم قال: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ..﴾ إلى قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾.

فأمره سبحانه أن يقول لهم عندما يكون من كلامهم وجهلهم وطعنهم عليه في تحوله عن القبلة وغيرها من الأديان تعبّدٌ من الله تعبدك وهو يفعل عز وجل ما شاء ويتعبد بما أراد، وما تعبّد به فهو طاعة له، فكان قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم: ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قطعاً لحججهم [في الأم لحجهم] وفلاً لكلامهم، فلا يجدون معه قالاً ولا قيلاً.

جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ

---

و﴿اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج:١٨] و﴿يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد:٤١] وقيل: إن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس سبعة عشر» انتهى [هكذا بدون تمييز للعدد ولعله سقط من النسخة التي عندي].

﴿١٤٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جعلنا قبلتكم الكعبة ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً﴾ أهل دين الإسلام لله ﴿وَسَطًا﴾ خياراً ملتزمين بطاعة ربكم ومكارم الأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله على أكمل الوجوه، والخطاب للنبي ﷺ وخاصته الدعاة إلى دينه المجاهدين معه في سبيل الله، فالإعتراض كان موجَّهاً إليهم؛ لأن الغرض به القدح في دينهم لصرف الناس عنهم، ولذلك قال في الجواب: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهذه خاصة بالمتقين لا يدخل فيها المخلطون، وليس المراد بالأمة كل من ينتمي إلى الإسلام، فهو اصطلاح حادث، وإنما المراد به المخاطبون المذكورون، وكذلك ليس منهم المنافقون.

﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿لِّتَكُونُوا۟﴾ بسبب كونكم خياراً ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فالشهيد على الأمة لا يكون إلاَّ أوسطهم، وذلك الرسول ﷺ؛ لأنه في عهده شهيد على الموجودين الذين هو بينهم مطلع على إسلامهم أو كفرهم كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل:٨٩] فقوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى الموجودين، يؤكد هذا ما حكاه الله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:١١٧] ودل ذلك كله أن شهداء الله هم خيار الأمم، وأن من كل أمة شهيداً هو خيرهم يشهد عليهم يوم القيامة بما شاهد من قومه، وأن الرسول ﷺ شهيد على من كان في عصره الذين عرفهم بإيمان أو كفر.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ أي بيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي من يتبع الرسول فيتحول معه إلى قبلته الأخيرة وينفصل ويظهر ويمتاز عمن ينقلب على عقبيه، وهو الذي يعبد الله على حرف، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الحج:١١].

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ ليس معناه: أنه لا يعلم ما سيكون، فهو علام الغيوب، وإنما المراد: أن هذا التكليف يشبه الإختبار من حيث أنه سبب لظهور المؤمن الثابت على دينه بوقوع ذلك منه عند هذا التكليف بخلاف من لم يكن ثابتاً في دينه كما علم الله ذلك من قبل بوقوع الانقلاب منه عند هذا التكليف، والسياق يفيد: أن المقصود في هذه الحالة امتياز المؤمن الصادق في إيمانه امتيازه من غيره، فأما انكشاف من لم يكن كذلك فهو واقع تبعاً للمقصود.

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ شاقة ثقيلة على النفوس، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى:١٣] فهو في التعبير عن ثقلها أشد مما لو قيل ثقيلة؛ لأن كبيرة عليهم يدل على ثقل زائد يصعب احتماله جداً.

ولا إشكال أن المراد بهذا: هو تحويل القبلة، وعلى هذا: فالضمير راجع إلى المفهوم من السياق المؤنث، إما الكعبة أي التحويل إليها، وإما الفتنة بهذا التكليف.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ المراد به: الخاشعون لله الذين يريدون ما يرضي الله ولا يبالون بما خالفه؛ لأن رغبتهم في طاعة الله غالبة على كل رغبة نفسية، بل ربما غلبت حتى لا يبقى رغبة تخالفها، ولذلك لا يثقل عليهم شيء من طاعة الله، وذلك؛ لأن الله هداهم هدى زائداً على الهدى العام للمكلفين، وهو تنوير قلوبهم بحيث يحبون طاعة الله ويكرهون معصيته، ولا يبقى لهم هوى يعارض ذلك؛ لأن هواهم الطبيعي يضعف عن المعارَضة.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بل لا بد أن يثيبكم عليه ثواباً عظيماً، والخطاب للثابتين المتبعين للرسول ﷺ وهم المؤمنون الخلص، ويؤخذ منه أنه لا يضيع صلاتهم إلى بيت المقدس؛ لأنهم صلوها إيماناً بالله ورسوله ويخرج من ذلك من صلى من المنافقين لموافقة اليهود لا إيماناً بالله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لعله على معنى التوزيع، فرحمته سبحانه وسعت كل شيء، وقال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] ورأفته لمن شاء على الحكمة أو تعم الناس لكن من كفر وتمرد تكون الرأفة به في صغره مثلاً، وهذا لأن الرأفة أبلغ من الرحمة بدليل العطف في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧] والعطف دليل التغاير، ويكون المعنى رحمة في بعض الأحوال، ورأفة في بعض آخر.

وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ

---

وفي (لسان العرب) ما لفظه: «ومن صفات الله ـ عزّ وجل ـ الرؤوف، وهو الرحيم لعباده العطوف عليهم بألطافه، والرأفة أخص من الرحمة وأرق» انتهى .

قلت: ولعل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور:٢] أتى بذكر الرأفة لكونها مظنة أن تغلب صاحبها فيقصّر فيما أمر الله به من الحد بسبب شدة الرحمة له، فيناسب هذا كون الرأفة أخص وأرقّ ـ والله أعلم، والله سبحانه منزّه عن الرقة، والمراد: أنه يعامل معاملة الرءوف، وكذلك الرحيم.

﴿١٤٤﴾ ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ تقلب الوجه في السماء نَظَره إلى جهة فوق، وهذا شأن من ينتظر آتياً يأتي من جهة أن ينظر إلى تلك الجهة، فرسول الله ﷺ عمل على دفع الطبيعة البشرية في انتظاره نزول الوحي في شأن القبلة، ولعل سبب ذلك وعد من الله سابق أنه سيجعل قبلته الكعبة أو دعاء يتوقع إجابته أو نحو ذلك، و﴿قَدْ﴾ للتقليل، وذلك لقلة الفعل أو للتحقيق، ولا موجب لحمله على التكثير لإمكان أن تقلب وجهه في السماء قليل.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ هو ﷺ يرضاها؛ لحكم الله بتوليتها، وبالطبع لكونها قبلة أبيه إبراهيم ـ صلى الله عليه ـ وليس المعنى: أنه لم يكن يرضى القبلة بيت المقدس؛ لأنه ﷺ يرضى ما رضي الله له.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ اجعـل ﴿وَجْهَكَ﴾ واليـاً ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي موجهاً إليه، وقوله تعالى: ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي بعضه؛ لأنه يكفي استقبال بعضه، ولذلك صحت الصلاة جوف الكعبـة، والمسجد الحرام الكعبة وتحريمها لأن من دخلها كان آمناً، وهـي مسـجدٌ بـني للصلاة فيه والطواف حوله وغير ذلك، بدليل قوله تعـالى: ﴿أَنْ طَهِّـرَا بَيْتِـيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وظاهر طهارته للركع السجود طهارتـه للمصلين فيه لا للمصلين خارجه.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ والمراد مع التمكن مـن ذلـك، فيصلي إلى الكعبة من أمكنه التوجه إليها، ولو كانت فوقه أو تحتـه، أمـا مـن تعذر عليه ذلك لمرض أو التباس أو غير ذلك، فهو يكفيـه الاسـتقبال حيـث أمكن، بدليل الآية السابقة ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْـهُ اللَّـهِ﴾ وقولـه تعـالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي استقبال شطر المسجد الحرام لعلمهم أن الحكـم لله وأن هـذا حكمـه ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء والضمير لأهل الكتاب من آمن منهم ومن كفر، والمـراد أنـه سبحانه سيجازي كلاً بعمله.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بـالله عليه السلام: تـدل الآيـات على أن القبلة كانت إلى غير الكعبة، وهـو بيـت المقـدس بالإجمـاع المعلـوم، وذلك معنى قوله سبحانه: ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَـانُوا عَلَيْهَـا﴾ وعلـى نسخ استقبال بيت المقدس وتحويلـه إلى الكعبـة المشـرّفة، وعلـى ان امتحـان العباد بالنسخ حسن، وأن فيه حكمةً، وكذلك سـائر الإمتحانـات كمـا يـأتي في قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ..﴾ الآية [الحج:١١].

وكابتلاء (أصحاب السبت) بحشر الحيتان إليهم يوم سبتهم، فكانت تأتيهم شرّعاً وعلى أن طائفة من الأمة جعلهم الله شهداء على الناس؛ لأن الآية لفظها عام، ومعناها خاص؛ لأنه لو كان المراد بها جميع الأمة لكان المعنى: وجعلنا جميع الأمة شهداء على جميع الأمة، وذلك فاسد، فما بقي إلاَّ أن يكون المعنى خاصّاً بطائفة من الأمة» انتهى المراد نقله هنا.

*وأقول*: قد بينت فيما مضى أنه ليس عاماً للأمة، وليس هناك صيغة عموم، وإنما هو ضمير غيبه،في قوله حاكياً: ﴿مَا وَلاَّهُمْ﴾ يحتمل الاختصاص بقادة الإسلام، وحيث أن المقصود به القدح في الإسلام، فالمقصود به أصالة هو رسول الله ﷺ، وإنما ضمّوا إليه خاصته كُفْراً به وتسوية بينه وبينهم.

أما الأتباع الذين ليسوا قادة في الدين فليس السؤال موجهاً إليهم؛ لأنهم أتباعٌ معلومٌ جوابُهم لو سُئلوا: أنه الإتّباع لرسول الله ﷺ «كم» ضمير خطاب لرسول الله ﷺ وأناس معه غير معينين؛ لا بعموم في الضمير ولا خصوص في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ مع أن قوله تعالى: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قد دل من حيث هو جواب السؤال على أن المراد في الجواب رسول الله ﷺ وخاصته الذين هداهم الله إلى صراط مستقيم، الهدى المطلوب في قولهم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الهدى المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٥] وهذا لا يدخل فيه المخلطون، فأكد ذلك أن الكلام في رسول الله ﷺ وخاصته قادة الإسلام المطهرين، فقوله تعالى ـ عطفاً على ذلك ـ : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ خاص بهم؛ لأن السياق واحد، يؤكد ذلك أن الوسط هم الخيار، وقد مر هذا وأعدته لزيادة بعض الكلام.

ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ

---

فظهر: أن قول الإمام «لفظها عام» سهو، وأن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ﴾ خاص برسول الله ﷺ وأناس معه غير معروفين في الخطاب لا بعموم ولا خصوص، فهو مجمل بينته القرائن المذكورة، فأما لفظ ﴿أُمَّةً﴾ فلا يدل على العموم؛ لأن استعماله في أمة الإسلام كلهم عرف خاص طارئ ليس في القرآن، وفي القرآن: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران:١٠٤] ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٥٩] فثبت أنه يستعمل في بعض المنتمين إلى الملة لسبب خاص يجمعهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ لا يدل على أن المخاطبين هم كافة أهل الملة؛ لأنه ﷺ شهيد على الخاصة والعامة الموجودين في عصره الذين علم إيمانهم أو كفرهم، فخطاب الخاصة بأنه شهيد عليهم لا مانع منه.

﴿١٤٥﴾ ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ لأنهم متعصبون لقبلتهم قد كفروا بالحق بعد الآيات البينات فخذلوا، فلا يفيدهم زيادة الآيات، ولو جاءتهم كل آية، فلا يتبعون ﴿قِبْلَتَكَ﴾ التي هي الكعبة.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ لأن الله قد هداك للحق ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٧] ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ لتعصب كل ملة لقبلتهم وكون القائد لكل منهم إلى دينه هو الهوى ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن من الحيف والجور أن يعدل العبد عن أمر مالكه المنعم عليه إلى أهواء أعداء ربه.

كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

---

﴿١٤٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الذين علمهم الكتاب، فهم يقرؤونه ويفهمون معانيه ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يعرفون ما جاءك من العلم، أي يعلمون أنه من الله ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ معرفة تامة ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ أي من هؤلاء الذين يعرفونه ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيعلمون الحق ويعلمون إثم الكتمان، فيعلمون أن ذلك الكتمان قبيح، ومع ذلك يكتمون؛ جرأة على الله وانقياداً للحسد والكبر والهوى.

﴿١٤٧﴾ ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لأن ما أمر به حق، وما شرعه الحق فالحق منه؛ لأن التشريع منه، له الحكم وله الملك، ومن ذلك جعل الكعبة قبلة فهو حق من الله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكّين؛ لأن الله يحكم لا معقب لحكمه ولا مبدل لكلماته، ولا يشرك في حكمه أحداً، فما شرعه فهو الحق وما بعد الحق إلاَّ الضلال، فلا مجال للمرية.

﴿١٤٨﴾ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ منك ومنهم ومن كل فريق منهم ﴿وِجْهَةٌ﴾ قبلة يوليها وجهه ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي الله سبحانه هو الذي شرع تلك الوجهة وجعلهم بحكمه يولونها وجوههم؛ لأنه المشرّع، فهم كلهم في الأصل تبعوا تشريعه لعلمهم أنه الحق وإنما يتعصبون لوجهتهم من بعد ما ولاهم الله إياها، واتبعوا تشريعه، فكان عليهم أن يتبعوا تشريعه إذا نسخها كما اتبعوا تشريعه حين شرعها، وهذا يمكن أنه عبارة عن القبلة فقط،، ويمكن أنه كناية عن الشرعة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ أي الخيِّرات بالتشديد وهو يصلح للأعمال الصالحات وللدرجات التي تنال بالأعمال الصالحات، فإن كان المراد بها الأعمال فالمراد أمر الفرق المختلفة أن تستبق الحق الذي يقبله الله وهو خير الطرق وأفضلها، وأعماله هي الخيرات أي الفاضلات، وإن كان المراد به الدرجات، فهو كقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦] والاستباق إليها: أن يعمل كل ليسبقها، وذلك بأن يعمل العمل الموصل إليها وهو الدين الحق الذي يتقبله الله ويثيب عليه.

فالحاصل: أمر الفرق أن تستبق وتطلب السبق باتباع الحق الذي يؤدي إلى السعادة، فهو الذي ينبغي التنافس فيه لا الطرائق التي لا يقبلها الله، فلا تؤدي إلى الدرجات العلى، وليس لها من صفة الخير والفضل شيء؛ لأنها صارت بالنسخ غير مرضية، وهذه الآية مثل آية المائدة، وحاصل ذلك أمر أهل الملل أن يكونوا على الحق.

ومعنى ذلك: أن يصيروا ملة واحدة هي الحق، وهو دين الله الذي شرعه في القرآن وفيما أوحى إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ﴾ من أقطار الأرض أو غيرها من الأمكنة ﴿يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ﴾ مجتمعين، وذلك يوم يجمعكم ليوم الجمع، وهذا كقوله تعالى في (سورة المائدة): ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [آية:٤٨] ولعل ذكر الأمكنة ليعم كل من يستقبل قبلة فيتناول من يكون قريباً من قبلة فيختارها ويتعصب لها لقربها فبيّن لهم أن مرجعهم إلى الله في أي مكان كانوا، وعلى هذا فعليهم أن يطيعوه في أي مكان كانوا؛ لأن مكانهم لا ينفعهم أو ينجيهم من الرجوع إلى الله لتجزى كل نفس بما تسعى، ويتناول من يكون بعيداً من الكعبة فيظن أن بُعده عذر له في ترك استقبال الكعبة أو يتهاون بالقبلة لبعدها ـ والله أعلم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو على جمعهم إذا شاء قدير.

وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

---

﴿١٤٩﴾ ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ من أي مكان ﴿خَرَجۡتَ﴾ إليه وصرت فيه ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾ منه ﴿شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ فالحكم واحد فيمن كان في بلده، ومن كان خارجاً عنها فعليه أن يستقبل الكعبة في صلاته.

﴿وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وهذا تأكيد لما سبق، وتأكيد بخصوص الخارج من بلده الذي تختلف عليه الجهات، وتلتبس عليه القبلة ويحتاج إلى النظر في العلامات أو سؤال أهل البلد المسلمين، فالحكم واحد ولا يسقط إلاَّ عند تعذر معرفة جهة الكعبة بأي وسيلة ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فهو غير غافل عن المصلي في أي مكان كان.

﴿١٥٠﴾ ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ وهذا تأكيد لما سبق، وليترتب عليه ما يأتي كما ترتب على الأول قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ..﴾ إلى آخر ما قال سبحانه فيهم.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾ أي أمرناكم أن تولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام لئلا يكون للناس عليكم حجة، لو بقيتم على استقبال بيت المقدس وترك الكعبة، والحجة ما يحاجون به، أي يجادلون، ولو لم يكن دليلاً صحيحاً، فلولا ذلك لكان لهم ما يجادلونكم به فيقول أهل الكتاب: لولا أن

ديننا هو الحق ما كان على قبلتنا، ويقول كفار العرب: لو كان على حق لكان يستقبل الكعبة قبلة إبراهيم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هنا هم المكابرون الذين لا يقبلون حجة، ولا ينصفون في جدال، فهم لا يزالون في حيف وجور، ولا ينفعهم بيان الحق ولا دفع الشبهة، فهم لا يزالون يتمسكون بحجة داحضة ويجادلون بشبهة باطلة، فالاستثناء منقطع، أي لكن الذين ظلموا يحاجونكم بحجة داحضة وهي حجة المكابر التي لا يُبالَى بها ولا يُشْتَغَل بالجدال فيها، وإنما جداله بالسيف متى لجّ به الخصام إلى السيف، وعند ذلك ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ ولا تحيدوا عن قتالهم خوفاً منهم، ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ لا تخالفوا أمري فيهم بالقتال كقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة:١٣] وقد أمر سبحانه بقتالهم في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة:٢٩] وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة:١٢٣] وغير ذلك، وأشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦].

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: فالخشية قد تكون من الأذية والكلام والبسط والقتال، فأمر الله أن لا يخشوا الخلق ولا يهابوهم ولا يدارون الظلمة ولا في الله سبحانه يتاقونهم، وأن تكون خشيتهم لله سبحانه وقصدهم إياه والطلب منهم لرضاه» انتهى.

فالأولى تفسير ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ بالمعنيين ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ جعلت قبلتكم قبلة أبيكم إبراهيم التي ترضونها ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ باتباع أمر الله في القبلة التي صار استقبالها هو الهدى وفي غيرها.

كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

﴿١٥١ـ١٥٢﴾ ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ أي جعلنا قبلتكم التي ترضونها ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ..﴾ إلى آخرها، أو جعلنا قبلتكم قبلة أبيكم إبراهيم التي رفع قواعدها ودعا عند ذلك هو وأبوكم إسماعيل أن نجعل من ذريتهما أمة مسلمة، ونبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتنا ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، فكما أجبنا الدعوة في الرسول جعلنا القبلة ذلك البناء الكريم.

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ في صلاتكم وغيرها ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ بالثواب والتكريم ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾ من أجل نعمة القبلة ونعمة الرسول وإتمام النعمة والشكر بالقلب واللسان والأركان العبادة والطاعة شكراً على النعم ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ كما كفرني الجاحدون بالحياة بعد الموت من العرب الذين يزعمون أنهم على دين إبراهيم وهم كافرون بقدرة الله على إحيائهم بعد الموت وبعلمه بما ضاع في الأرض من أجسادهم، فلم تنفعهم دعواهم أنهم حنفاء ولا تعظيمهم للكعبة المشرفة.

ولعلها ـ والله أعلم ـ ستكون جاهلية ينتمون فيها إلى دين محمد كما انتمى بعض أهل الجاهلية الأولى إلى دين إبراهيم ويكفرون بالله تعالى كما كفروا، فيكون هذا النهي حجة عليهم من علام الغيوب كما أنطق عيسى عليه السلام في أول كلامه للناس وهو في المهد بقوله: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٣٠].

ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم

---

ولم يكن يخطر ببال السامعين أن بعض النصارى سيقولون أن الله هو المسيح بن مريم، ومثل هذا التجويز يعتبر لإبقاء الكلام على ظاهره، فأما لصرف الكلام عن ظاهره فلا يلتفت إليه.

﴿١٥٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الذي يظهر من تتبع الآيات المبدوءة بهذا النداء أنها ابتداء كلام بحيث لا يجب ربطها بالآية التي قبلها، وكأنه قد انتهى الكلام مع بني إسرائيل وفي شأن القبلة.

وجاء ابتداء أبحاث جديدة في الجهاد، والحج، والصوم، والزكاة، والطلاق، والإنفاق في سبيل الله، والربا.. وغير ذلك، ولا إشكال في حسن ارتباط الحث على الصبر وفضل الشهادة والصلاة باعتبارها تعين على تحمل مشاق التكليف، وهذا البحث مرتبط بما سبق من ذكر تمرد الكفار والمنافقين والكفار من بني إسرائيل من حيث أن مقاومتهم للإسلام أدّت إلى وجوب الجهاد والإنفاق في سبيل الله من أجل الجهاد والاستعانة بالصبر والصلاة من أجل الجهاد وغيره من المشاق التي تكون بسبب أعداء الإسلام وغيرها.

**والاستعانة بالصبر تفيد القوة من جهتين:**

*الأولى*: إن الصبر على مقاومة الأعداء يؤدي إلى ضعفهم وهزيمتهم من حيث أن صبر أهل الإيمان أقوى، ومن حيث أن النصر مع الصبر.

الجهة *الثانية*: إن النفس تتعود ما عودت حتى يصير سهلاً أو تخف مشقته، فإذا عوّدت الصبر هان عليها الصبر والاستمرار على الصبر.

وأما القوة الحاصلة بالصلاة فمن حيث أن الصلاة الكاملة في إخلاصها لله وخشوعها لله تزيد الإيمان في القلب والرغبة في التقرب إلى الله، وذلك قوة في الجهاد، والدليل على أنها تزيد الإيمان قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] والنهي إنما هو من طريق الإيمان الباعث على كراهة الفحشاء والمنكر، وإذا كانت ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فلا بد أنها ترغب في الجهاد؛ لأنه نهي عن الفحشاء والمنكر.

ثم حسْبُنا دليلاً على أن الصلاة تعين على الجهاد وغيره من التكاليف الشاقة، هذه الآية الكريمة ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ والآية التي سبقت خطاباً لبني إسرائيل: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ وعلى هذا فمن الغلط اعتقاد أن الرغبة في الصلاة تصرف الناس عن الجهاد؛ لأنها من أسباب الصلاح، وأهل الصلاح يرغبون في الجهاد، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٧٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

(١٥٤) ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ أي لا تقولوا فيهم هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ أي بل هم أحياء ولكن أنتم لا تحسون بحياتهم، فلا تجعلوا عدم شعوركم بحياتهم دليلاً على موتهم.

وقد زاد هذا تحقيقاً الآيات في (سورة آل عمران) فهي حياة حقيقة لا شك فيها، والشهيد إنما يخرج من هذه الحياة إلى حياة أفضل، وعلى المكلف أن يؤمن بما أنزل الله ولا يعارضه بجهله، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٨٥] وكفى بهذه ترغيباً في الجهاد في سبيل الله؛

بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

---

لأن المجاهد يكره الجهاد لحب الحياة، فإذا علم أنه إذا قتل في سبيل الله صار إلى حياة أفضل ؛ حياة كرامة وشرف ورزق وفرح صار إليها بعد حياة العناء والمنغصات المحدودة جاهد بقوة، فالحث على الصبر من أجل الجهاد ومن أجل سائر التكاليف كالحج والصيام، فما أحسن هذه الآية فاتحة لما بعدها من الآيات الكريمة في (سورة البقرة)؛ لأن الطاعة لا تتم ولا تستمر إلاَّ بالصبر.

﴿١٥٥-١٥٦﴾ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿لَنَبْلُوَنَّكُم﴾ لنختبرنكم، أي نفعل ما هو مثل الاختبار الذي يتبين به من يصبر ومن لا يصبر، فأنتم تحتاجون معه إلى الصبر الذي سبق الحث عليه.

وقوله تعالى: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ..﴾ إلى آخره، يفيد: تقليل ما يبتلى به، ليوطنوا أنفسهم على الصبر ولا يهابوه، ويظنوا أنه لا يطاق، والابتلاء بالخوف يميّز بين المؤمن الصادق في إيمانه والمؤمن بلسانه دون قلبه وينجم عنده النفاق، فقال المنافقون: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢] وقالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال:٤٩] والابتلاء بالجوع يتبين به من يُؤْثِرُ على نفسه كأهل البيت (عليهم السلام)، ومن لا يصبر على الجوع فيطلب الأكل ولو من الحرام، ومثله نقص من الأموال يتبين به من يرضى بحكم الله ويصبر؛ ولا يحمله النقص على البخل، ومن تمحقه البلوى.

ومثله نقص الأنفس والثمرات، فبان بذلك حاجة المؤمن إلى الصبر للثبات على دينه ولنيل فضيلة الصبر العظمى التي أفادها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ وإنها لبشارة عظمى؛ لأنها من ملك الملوك أكرم الأكرمين الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ هذا بيان للصابرين؛ لأنه لا يتم الصبر ولا يستمر إلاَّ بالإيمان أنا لله مملوكون وعباد مربوبون، فله الحق أن يبلونا بما شاء وعلينا الرضى بقضائه والصبر على بلائه؛ لأنا عباده، والإيمان بأنا ﴿إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ ليجزينا بما قدمنا من إحسان أو إساءة، فنصبر لنفوز بالثواب وننجو من العقاب، فإذا آمنا بهذا بقلوبنا، وعبّرنا عن هذا الإيمان بألسنتنا تسجيلاً على أنفسنا أنا عباد الله نرجوه ونخافه استطعنا أن نصبر ونثبت على الصبر ما دمنا كذلك.

(١٥٧) ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الصفة ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ قيل في تفسير الصلوات هنا: ثناء جميل، قال الشرفي في (المصابيح): «اعلم أن الصلاة من الله هي: الثناء والمدح والتعظيم» وقال (صاحب الكشاف): «الصلاة: الحنو والتعطف، فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة».

ولم أقتنع بهذا ولا ذاك بسبب جمع الصلوات؛ لأنه يكون معناه على الأول: ثناءات وتعظيمات، وعلى الثاني: رأفات، وقد روي عن ابن عباس أنه فسرها: بالبركات، وهذا قريب من حيث أن بعض أهل اللغة قال: أصل الصلاة: اللزوم، ومن حيث أن بعض أهل اللغة قال في البَركة: إن أصلها الثبات، وهذا وإن كان يستلزم ترادف الصلاة والبركة في هذا الموضع لا ينافيه اختلافهما في موضع آخر إذ يجوز أن يكون للصلاة معانٍ متعددةٌ، فتارة ترادف البركة وتارة تخالفها.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

وهذا المعنى يستحسن في هذا الموضع من حيث أن الوعد بالبركات يناسب الصبر على النقص ليفيد تعويض ما فات بطريق البركة في غيره، ومن حيث أن البركات قد جمعت وقرنت بالرحمة في قوله تعالى: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود:٧٣].

وقال الراغب الأصفهاني في (مفرداته): «والصلاة قال كثير من أهل اللغة: هي الدعاء والتبريك والتمجيد» انتهى.

قلت: التبريك: طلب البركة، فلا يبعد استعماله في تحصيل البركة كالتعليم أصله التسبيب لحصول العلم ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾ [الكهف:٦٦] واستعمل في إيجاد العلم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ﴾ [البقرة:٣١] والله أعلم.

وبعد هذا وجدت في تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام لـ(غريب القرآن): «﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ معناه: هو الذي يرحمكم وتدعو لكم ملائكته، وقال: معنى يصلي: يبارك عليكم» انتهى، قال المحقق عليه: انظر (مجاز القرآن لأبي عبيدة) [١٣٨/٢] و(تفسير غريب القرآن لابن قتيبة) انتهى.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ أي الصابرون المؤمنون بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، فالاهتداء لا يتم إلاَّ بالصبر ولا يدوم إلاَّ بالصبر، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، والصبر كما تراه في هذه الآيات: صبر على طاعة الله، وصبر على بلائه.

﴿١٥٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ هذا أول الكلام في الحج والعمرة، و﴿ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ اسم لموضعين مخصوصين بمكة يقال لهما جبلان،

ولعل الصواب أكمتان، فالصفا مرتفع يرقى عليه الحاج أو المعتمر وينزل منه ليسعى إلى المروة وهي مرتفع يرقى عليه الحاج أو المعتمر إذا بلغه في آخر الشوط ومعنى: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ من معالم الله التي جعلها أعلام متعبداته، قال في (الكشاف): «والشعائر جمع شعيرة، وهي العلامة، أي من أعلام مناسكه ومتعبداته».

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ في (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام): عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قال عليه السلام: «كان عليهما أصنام فتحرّج المسلمون من الطواف بينهما لأجل الأصنام، فأنزل الله ـ عزَّ وجل ـ لئلا يكون عليهم حرج في الطواف من أجل الأصنام» انتهى. والآية تفيد: شرعية الطواف بهما، لا وجوبه، ولا عدم وجوبه. ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ قال الراغب في (المفردات): «والتطوع في الأصل: تكلف الطاعة، وهو في التعارف التبرع بما لا يلزم».

قلت: لعله يعني هذا في التطوع اللازم، فأما المتعدي إلى مفعول فقد قال فيه: «وتطوّع كذا تحمّله طوعاً، قال: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٧٩]» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح) في ﴿الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة:٧٩]: «المتنفلين الذين ينفقون طوعاً وهم من المحتاجين» انتهى.

قلت: إذا كان التطوع مشتقاً من الطوع، فمعناه: فعل الخير برغبة، سواء كان واجباً أم مستحباً، ولو كان مشتقاً من الطاعة لكان خاصاً بالواجب، وظاهر كلام الراغب: أن تخصيصه بالمستحب متعارف، ومفهوم هذه العبارة أنه ليس حقيقة شرعية.

يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟

---

وعلى هذا: فلا يفسر به القرآن الكريم إلاَّ أن يكون عرف اللغة، ومعنى ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أنه يفعل كفعل الشاكر من مكافأة العبد المتطوع خيراً وإعلان حسناته ومدحه، وهذا من كرم الله سبحانه وحسن ثوابه لعبده الشاكر لأنعمه.

﴿١٥٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ الذين يخفونه عن الناس، والكتمان: إخفاؤه عن السائل، وعن الجاهل الذي يتوقع منه الغلط بجهله، وعن الغالط المستمر على غلطه مع علم العالم بذلك، ومن الكتمان: إخفاء ما هو حجة عليه.

وعلى الجملة: إخفاء ما هو مطالب بإظهاره بلسان الحال أو بلسان المقال، ومن الكتمان الامتناع عن تبيين ما أمر بتبيينه شرعاً أو عقلاً، وما أنزل الله: ما أوحاه إلى الرسل والأنبياء.

و﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الآيات البينات التي هي حجة لله على المكذبين، كالآيات الدالة على صدق الرسول، ويدخل في ذلك المعجزات بأنواعها، وكلام الله المصدق له، ويدخل في ذلك الكرامات الدالة على صدق الإمام في دعواه الإمامة، وأنه على حق في قيامه ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ عام لكل أنواع التعاليم السماوية من تعليم العبادات والمعاملات والعقائد والمواعظ والقصص والأمثال.

وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾

---

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ احتجاج على الكاتم بأن الله بينه للناس عامة، فليس له أن يختص به أو يخص من يريد، وفيه دلالة على أن الناس كلهم قد أعدهم الله لفهم ما أنزل، وإلا لكان إنما بينه للإمام كما تزعم الباطنية، أو للشيخ كما يزعم بعض الصوفية.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ وعيد شديد بأنه يطردهم من رحمته، والطرد من الرحمة قد يكون بمعنى الإبعاد عن التوبة بالخذلان وإرسال الشياطين على الكاتم كما قال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ دليل على استحقاقهم للعن من كل لاعن.

﴿١٦٠﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿تَابُوا۟﴾ رجعوا إلى الله بالطاعة والإقلاع عن المعاصي، والعزم الصادق على طاعة الله في كل شيء، والندم للعصيان الماضي، ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوا بالكتمان، وما أفسدوا بغير الكتمان ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾ بينوا ما كانوا كتموا ولم يكتموا في المستقبل.

وتوبة الله عليهم: رجوعه عليهم بالرحمة والمغفرة، وهو ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ كثير التوب على عبده، فلا يستبعد منه قبول التوبة ولا هداية العاصي للتوبة إذا لم يصدر منه ما يوجب الإبعاد منها بالخذلان، وإرسال الشياطين، ومن توبته على عبده غير ذلك؛ لأنها عامة كما مر، وهذا الوعيد وهذا الاستثناء كله عام لكل كاتم ولكل تائب، ولو فرض أن الآيتين كان سبب نزولهما أناساً مخصوصين، فالعام لا يقصر على سببه.

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

---

﴿١٦١-١٦٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي استمروا على الكفر حتى ماتوا كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢] وكما روي أن فاطمة عليها السلام ماتت واجدة على أبي بكر، وهذا استعمال ظاهر، ومنه قول الشاعر:

فمت ما على من مات حراً نقيصة ألا إنما النقصان أن تتهضما

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ كأن الملائكة عليهم السلام إنما يلعنون من مات على كفره دون الحي، وعلى هذا فاستغفارهم لمن في الأرض بمعنى طلب قبول توبة التائب وهداية المصر للتوبة، وهذا لعلمهم بشدة العذاب ودوامه، فهم يرغبون في توبة الإنسان إشفاقاً عليه؛ لأنه لو كان يفيده ويدفع عنه العذاب أن يبكي عليه أهل السموات وأهل الأرض رحمة له وإشفاقاً عليه، لكان ذلك حسناً مناسباً لعظم المصيبة عليه.

وقد جادل إبراهيم عليه السلام في قوم لوط لهذا المعنى، وما كان عليه السلام مذموماً بذلك؛ بل مدحه الله، ولو كانوا يستغفرون للمصر لا على طلب هدايته للتوبة بل على فرض أنه يموت مجرماً لاستغفروا لمن مات مجرماً ولما لعنوه.

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ باقين في لعنة الله، فلا يزالون مطرودين من رحمة الله ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ فقوله: ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ يفيد: أنهم لا يموتون، وقوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ﴾ يفيد: أن العذاب باق لا يخفف، وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يفيد: أنه لا يؤخر عنهم إنظاراً لهم، نعوذ بالله.

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

﴿١٦٣﴾ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ليس متعدداً كما يزعم بعض النصارى أن الله تعالى ثلاثة أقانيم، وكذلك ليس مؤلفاً من أعضاء ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فكل معبودٍ سواه ليس معبوداً بحق ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهو الذي ينبغي أن يعبد طمعاً في رحمته.

﴿١٦٤﴾ ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إيجادهما عظيمتين واسعتين على المقدار الذي جعله سبحانه ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ كون كل منهما يخلف الآخر لا يستمر الليل ولا يستمر النهار، وكل يحتاج إليه البشر ﴿وَٱلْفُلْكِ﴾ السفائن ﴿ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ تشق موجَ البحر ليسافر الناس عليها؛ لابتغاء فضل الله، وذلك بصنعه للخشب الذي منه ألواحها والحديد الذي منه مساميرها، وتسخير الرياح التي تسوقها ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ [الشورى:٣٣].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ إنزاله من السماء آية، وكيفية إنزاله آية، وكونه نزل لإحياء الأرض مُعدّاً لذلك آية،

﴿أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ﴾

---

وحياتها بعد موتها آية ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ فرق الدواب ونشرها في الأرض لها رزقها بسبب الماء الذي ينبت المرعى فخلقها آية، واختلاف أنواعها آية، ورزقها آية.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ تحويلها من جهة بعد جهة، من شرق وغرب وجنوب وشمال، ونحو ذلك آية ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾ الذي سخره الله وذلّله فهو يسوقه إذا شاء إلى بلد ويحبسه إذا شاء ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي جمعه حتى يتراكم لا تفرقه الرياح آية، وفي سوقه إلى بلد تحتاجه آية، وفي حبسه عند إنزال الماء منه على بلد آية، وفي كونه مصدراً للماء على خفة السحاب ولطافته وثقل الماء آية، سواء كان يحمل الماء من البحر أم كان فيه مصنع الماء بين السماء والأرض لا تناله أيدي البشر ولا ينزل إلاَّ متى شاء ربهم.

ففي هذه الأشياء كلها آيات تدل على أن الله ربهم الذي تحق له العبادة، وأنه لا ندّ له إذ كل ما سواه مخلوق مربوب، وتدل على قدرة الله وعلمه وأنه قادر على إحيائهم للحساب والجزاء لا يخفى عليه منهم شيء، وتدل على أن الله هو المنعم عليهم الذي يستحق أن يشكروه، ويدل إتقانه هذه المصنوعات وحسن التدبير فيها كما ذكرت على علم الله وقدرته، علمه بكل شيء، وقدرته على كل شيء، وأنه الأول قبل كل شيء، وأنه لا يشبه المخلوقين، وعلى الجملة: أصول العقائد في معرفة الله، ومعرفة رسله، وكتبه، واليوم الآخر، كلها أصل معرفتها مما ذكر الله من هذه الآيات وأمثالها.

ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ

---

﴿١٦٥﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ من لا ينتفع بهذه الآيات ولا يهتدي بها، فهو يتخذ أصناماً أو غيرها مما يجعله شريكاً لله، ويجعلها ﴿أَندَادٗا﴾ لله، أي مثله في الإلهية، من دون الله يعبدها ويخشاها ويرجوها ويدعوها كأنها أقرب إليه من الله ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أي كما يُحبَ الله المنعم على عباده نعماً لا يحصونها، ومنه أصول النعم وفروعها.

والذي يدعوهم إلى رحمته وثوابه يدعوهم إلى السعادة الدائمة، ويفتح لهم باب التوبة، ولا يعاجلهم بالعقوبة فهو الرحيم بعباده الكريم الحليم، فكيف أحبوا أصناماً لا تنفع ولا تضر؟! وجعلوها أنداداً لله، ما أجهلهم! وما أكفرهم للنعم!!

وحب الله معنى في القلب يدعو إلى طاعته، والسعي في سبيل مرضاته، واجتناب ما يكره، وحب رسله وأوليائه كلهم، وبغض أعدائه، وحب عبادة الله والرغبة في التقرب إليه وكراهة معصية الله كما قال الهادي عليه السلام: «لكل شيء ضد، وضدّ حياتي المعاصي» انتهى.

بل كما في الحديث الشريف: « أحِبُّوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي » ومن شأن المحب الرغبة في طاعة المحبوب، ومن شأن المحب الرغبة في أن يحبّه المحبوب، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] ولكون حب الله يستدعي حب عبادته يكون حب الله سبباً في كراهة ما يشغل عن عبادة الله وذكر الله.

قال الإمام القاسم عليه السلام في كتاب (سياسة النفس): وقد بلغني أن عيسى بن مريم ـ صلى الله عليه ـ كان يقول لمن يحضره ولحوارييه: «بحق أقول لكم: إنه لا يصلح حب ربّين، وما جعل الله لرجل من قلبين، لا يصلح حب الله وحب الدنيا في قلب، كما لا تصلح العبادة إلاَّ لربّ» وكان يقول صلى الله عليه: «بحق أقول لكم: إن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وكذلك فحب الله، ولا قوة إلاَّ بالله، فعاصم لأهله من كل سيئة» انتهى.

قلت: لأن حب الله يستلزم حب طاعته والرغبة في عبادته والتقرب إليه، ويستلزم كراهة معصيته والخوف من مقته، وكما أنه يستلزم حب طاعته فهو يستلزم حب أن يطيع الناس ربهم وكراهة أن يعصوه، ويستلزم الغضب لله والرغبة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ لإيمانهم بإنعامه عليهم نعمة الدنيا ونعمة الدين، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، ولكن قلب الفاجر غافل عن الله وعن إنعامه عليه، وكذلك إيمانهم بكرمه وحلمه وسعة رحمته وفضله وإحسانه العظيم، والقلوب تحب أهل الكمال والفضل، فكيف لا تحب من هو المنعم بالهدى لكمال الكامل وفضل الفاضل ذو الجلال والإكرام، وله المثل الأعلى، فأنت تحب الفاضل لحب الفضل، تحب العالم لحب العلم، تحب الكريم لحب الكرم، تحب صاحب العدالة لحب العدل، وهكذا، فكيف لا تحب العزيز الحكيم الرحمن الرحيم الحليم الكريم؟!!

ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟

---

فعلى قدر المعرفة بالله والمعرفة بأسمائه الحسنى على معناها الكامل، أعني على التفصيل ينبغي أن يكون حب المؤمن لله، لكن إذا تفرغ من حب الدنيا الذي يسبب الغفلة، أقول هذا لتحقيق المعنى ولا أدعي لنفسي هذا، ولكني أوصي نفسي وإخواني أن ندعو الله أن ينزع حب الدنيا من قلوبنا ويهدينا لمعرفته كما ينبغي، ولحبّه كما ينبغي إن ربي قريب مجيب.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام:٢٧] وعلى قراءة ﴿تَرَى﴾ بالمثناة من فوق، الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو عام لكل سامع، والذين ظلموا هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أنداداً ظلماً وحيفاً وجوراً أو هو عام لكل ظالم، فلا يقصر على سببه، والمعنى: لو تراهم في تلك الحالة لرأيت أمراً عظيماً من بؤسهم وذلتهم وصغارهم وندمهم لهول الموقف.

﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ لأن القوة لله جميعاً ليس لشركائهم شيء من القوة لينفعوهم أو يدفعوا عنهم أو يشفعوا لهم أو نحو ذلك، ولا لغيرهم قوة إلاَّ بالله، فالقوة لله وحده؛ ولأن الله شديد العذاب، فصار الذين ظلموا إلى تلك الحالة؛ لأنهم لم يكن لهم حول ولا قوة وعظم الخطب عليهم؛ لأن ﴿ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾.

﴿١٦٦-١٦٧﴾ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ لهول الموقف خوفاً من أن يزاد عذابه من أجل إضلالهم ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾

خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ

---

فلم يبق لهم سبب يتعلقون به للتخلص من العذاب فلا توبة تقبل ولا دعاء يُسمع ولا تضرع ينفع ولا فدية ولا شفاعة ولا ناصر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ ليت ﴿لَنَا كَرَّةٗ﴾ إلى حالة التكليف كما كنا في الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ﴾ من المتبوعين ولا نعينهم في شيء من أمرهم ونقطع العلائق بيننا وبينهم ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ فلم ينفعونا بشيء وقطعوا حبالنا عنهم.

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ الطرفين التابعين والمتبوعين يريهم الله أعمالهم ندامات؛ لأن المتبوعين نادمون لزيادة عذابهم بسبب إضلال التابعين، والتابعين نادمون على اتباعهم لتبرئ المتبوعين منهم، بل ولزيادة عذابهم بسبب طاعتهم في معصية الله وإيثارهم طاعتهم على طاعة الله، قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعۡفٌ وَلَكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨] فهناك ظهرت حسرات الفريقين.

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَى﴾ أي لو تراهم حين يرون العذاب وحين يرون أعمالهم حسرات عليهم ويتعادون ويكفر بعضهم ببعض ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لأن القوة لله جميعاً فلا يجدون من ينقذهم، ولأن الله شديد العذاب فلا ينتهي عذابه.

﴿١٦٨-١٦٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ كانت الجاهلية مع شركهم يحرمون بعض ما أحل الله، كما حكى الله في (سورة الأنعام) وهو الحلال الطيب.

وتحريمهم له ليس بمحرم له؛ لأن الحكم لله وحده وليس لأحد غيره أن يحل ما حرم ولا يحرم ما أحل؛ لأن الملك له، واتباع حكم غيره نوع من الشرك، ولذلك قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل:١١٤] فأمرهم الله أن يأكلوا مما رزقهم في الأرض وأحله، إيماناً بالله وكفراً بالطاغوت.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، أي لا تقتدوا به ولا تتبعوا طريقه، أي ما يزينه من الأعمال، وهذا عام في تحريم ما أحل الله على طريقة الجاهلية وفي الغلو والإبتداع، وفي الباطل كله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي بيّن العداوة تحذير من اتباعه؛ لأنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، فأي عداوة تساوي عداوته، وهذا يوجب ترك اتباعه، وأضاف سبحانه إلى هذا المعنى معنى آخر فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ السوء: القبيح ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ ما زاد قبحه من القبائح، وهي صفة محذوف، كالمنكرات الفحشاء، أو الفعلة الفحشاء، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون، وهذا القول من السوء، وخصه بالذكر ليعلموا أنه مما يدعو إليه الشيطان ويأمرهم به ليحذروه، وقد كانوا كما حكى الله عنهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٨] وهو تحذير لهم ولمن بعدهم من أهل العقائد الباطلة والبدع التي ينسبونها إلى الله بغير علم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ إهانة لهم، ودليل على أنهم بطاعتهم للشيطان جعلوا أنفسهم تحت أمره، وأهانوا أنفسهم بجعل الشيطان أميراً عليهم.

أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا

---

﴿١٧٠﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ومع أن الشيطان لهم عدو مبين إنما يأمرهم بما ذكر، يأبون إتباع ما أنزل الله الذي يهديهم ويعصمهم من الشيطان، وانقادوا للشيطان الذي يدعوهم إلى الكبر والحسد والحمية للآباء، فهم يتبعون أمر الشيطان ولا يتبعون ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الذي هو الهدى، وهو أمر ربهم الذي هو أولى بهم، ويجعلون عذرهم التعصب لآبائهم فيقولون: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا﴾ أي ما وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أيتبعون آباءهم ولو كانوا جاهلين ضالين؛ لمجرد أنهم آباؤهم، فمعنى هذا: أنهم لا يريدون الحق، وأنهم قد رضوا لأنفسهم بالباطل، وأنهم لم ينصحوا أنفسهم، فكيف وقد جاءهم النذير ينذرهم عذاب السعير، فهم كما في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان:٢١] قد عرضوا أنفسهم لعذاب السعير.

﴿١٧١﴾ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في عدم قبولهم لما يتلى عليهم من آيات الله، وفي إعراضهم عنها حتى لا يهتدون ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ النعق: زجر الراعي بالغنم، نعق الراعي بالغنم: إذا صاح بها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: أما قوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ فهو مثل ضربه الله لهم بغنم راعٍ

سَامَتْ فضَلَّت وتتابعت فذهبت فأراغَها صاحبها، فلم يجدها فعَلا شَرَفاً من الأرض لها، وأقبل ينعق بها وهي لا تسمعه وهو في دعاء ونداء وهي سائمة ترعى، ولا تجب له صوتاً، ولا تألوه فوتاً، كذلك قال الذين كفروا، حالهم في عدم الإجابة إلى الحق كحال هذه الغنم المستعجمة من الخلق» انتهى.

قلت: وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يفيد أن الكلام فيهم لبيان غفلتهم عن داعي الحق وتشبيههم بالأنعام، فشبّه حالهم مع الداعي بحال الغنم مع الراعي، وحيث المقصود تشبيه حال بحال لا يلزم أن يلي حرف التشبيه المنعوق به، كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ﴾ [يونس:٢٤].

وقول الإمام الهادي عليه السلام: «وهي لا تسمعه» لعله يعني لا تسمعه من حيث هو صاحبها، أي لا تتنبه له؛ لأن صاحبها ينعق بها، فلا تدري أنه يدعوها، أي يطلب إقبالها إليه ولا تفهم أنه ينادي لها، ولذلك قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ ولم يقل: (دعاءه ونداءه)؛ لأنه يمر على مسامعها، ولا تتنبه أنه دعاء صاحبها ونداءه، فهي لا تسمع إلاَّ مجرد دعاء ونداء لا تتنبه له ولا تلتفت إليه.

﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ هذا تشبيه لكل منهم بالأصم الذي لا يسمع، الأبكم: الذي لا ينطق، الأعمى: الذي لا يبصر ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ ما يقال لهم، ولا ما يراد بهم،كما لا يعقله من جمع الصفات الثلاث.

وفائدة ذكر البكم: الذي هو عدم قدرة النطق، المبالغة في الدلالة على بعدهم من الفهم؛ لأن من ينطق قد يسأل ويبيّن وجه الخفاء عليه، فقد يمكن تفهيمه من طريق اللمس، أو الجس، أو حمل الشيء ليعرف خفته أو ثقله، أو محاولة حمله ليعرف ثقله أو نحو ذلك.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ

---

وكذلك تفهيمه من طريق الشم أو من طريق الطعم أو بجذبه، بحيث يشعر أنه قد أشرف على هوة، ولو لم يسأل لم ينتبه له ولا لوجه اللبس عليه، فإذا كان أبكم لا ينطق أنسدت عليه طريق السؤال والتفهيم المتوقف على السؤال.

﴿١٧٢-١٧٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ الأمر بالأكل من الطيبات إما بمعنى لا تجتنبوا الأكل من بعضها لأجل تحريم الجاهلية له بل كلوا مما كانوا يحرمونه ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ تحقيقاً لاستحلاله، أو بمعنى وجوب الأكل من كل نوع رزقه المكلف، أو بمعنى ﴿**لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ [المائدة:٨٧] أو لأجل المعاني كلها، واشكروا لله نعمته عليكم بالطيبات من الرزق وكل نعمه.

﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ فإن من حق من لا يعبد إلاَّ الله أن يعلم أن الحكم لله فلا حرام إلاَّ ما حرم ولا حلال إلاَّ ما أحل ومن جعل لغير الله حكماً بتحليل أو تحريم فلم يخصه بالعبادة ولا يبعد دلالة الآية على أن من أسلم لا يكفيه الإقرار بحل ما كان محرماً له قبل إسلامه إذا ملكه أو أعطيه بل يجب عليه أن يأكل منه ليحقق استحلاله في نفسه وليخرج نفسه عن اجتنابه، ولعله سبب الأمر في الآية لئلا يبقوا على اجتناب شيء من طيبات الرزق، فهي على عمومها في حقه في كل ما كان محرّماً له.

ويلحق به من يتجنب بعض المأكولات اللذيذة ظنّاً منه أن ذلك من الزهد في الدنيا، وهنا تفصيل، فليس من هذا تجنب بعض المأكولات اقتصاداً، وهذا على أحد وجهين:

*الأول*: أن يكون لا يحصل له إلاَّ بأن يشتريه فلا يشتريه ويتركه اقتصاداً، أو يكون معه موجوداً لكنه يحتاج إلى بيعه لحاجته إلى ثمنه حاجة يستدعيها الاقتصاد، وكذلك ليس من هذا تجنب بعض المأكولات اللذيذة أو نحوها من اللذات لئلا تتعودها نفسه، فتقوى رغبتها فيها وتطالبه فيما بعد بتحصيلها في حين لا تحصل له إلاَّ بالاشتغال عن العمل الصالح من طلب العلم أو غيره أو لا تحصل له إلاَّ بتقصير في الاقتصاد.

وكذلك ليس من هذا تجنب بعض المأكولات لئلا يشتغل بها عن عمل صالح من بحث في الكتاب أو درس على الشيخ أو تدريس أو نحو ذلك، أو لئلا تسبب له كسلاً أو نوماً يشغله عن البحث في كتب العلم أو عن أي نوع من أنواع العبادة، فهذه طرائق محمودة.

وكذلك تركه ليقتدى به في ترك الاشتغال باتباع الشهوات. والأعمال بالنيات، وكذلك ليس من هذا ترك بعض المشتهيات إيثاراً لغيره، فذلك من الإحسان وثوابه مع النية الصالحة خير من أكله، ويعظم ثوابه إذا آثر به يتيماً أو مسكيناً أو نحو ذلك.

وكذلك ليس من المذموم تركها فراراً من الدَّين ـ بفتح الدال ـ لأنه خطر إذا لم يقضه لأنه من أكل أموال الناس بالباطل، ولأن غمّ الدين من الضر «ولا ضر ولا ضرار في الإسلام» كما في الحديث رواه القاسم عليه السلام، والهادي عليه السلام، والأصل: تحريم الضر حيث لا إذن فيه خاص.

ومن هنا يتبين حسن الاقتصاد الذي يؤدي تركه إلى تحمل الدَّين، فتحصّل جواز ترك الأكل لوجوه:

*الأول*: الاقتصاد.

*الثاني*: خوف التعود.

*الثالث*: الاشتغال بما هو أهم من الأكل.

*الرابع*: للإقتداء به.

*الخامس*: الفرار من الكسل والنوم.

*السادس*: الإيثار.

*السابع*: الفرار من الدَّين.

*الثامن*: الفرار من الضر في حق من يضره بعض المأكولات كالتمر في حق النَّاقِهِ ونحو ذلك.

هذا وما سوى هذه الأحوال المذكورة فلعله يحصل الامتثال بأكل الكل من الكل، ولا يجب على كل فرد أن يأكل من كل الطيبات، بل يكفي أن يأكل كل فرد من نوع، وقد قيل: يكفي الأكل من بعض أنواع الطيبات؛ لأن ﴿مِن﴾ للتبعيض، ولم يترجح لي؛ لأنك لا تقول إذا أكلت من نوع واحد: أكلت من كل شيء، أعني ليس هذا معروفاً في استعمال العرب.

ولهذا كان قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣] يفيد: تكثير أنواع ما ملكت، ولو كان يكفي في حصول المعنى ملكها الشيء من نوع واحد، لما كان هذا الكلام يفيد المقصود، ولا يبطل بقولنا: يحصل الامتثال بأكل الكل من الكل ما قدمنا من إيجاب الأكل على من كان يحرم الشيء ؛ لأن القرائن تفيد أنه مقصود فلا يسقط عنه بأكل الآخرين منه .

وبقي وجه تخصيص في هذه الآية الكريمة، وهو أنه تعالى قال: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ ومن لم يملك المطعوم ولا صار له بوجه استحقاق ولا أعطيه فلم يُرزَقه، فلم يدخل في عموم هذه الآية، فلا يجب عليه أن يشتري من نوع ليأكل منه أو يصطاده أو نحو ذلك، لأجل هذه الآية الكريمة، بل لا يجب عليه أن يأكل إلاَّ مما رزقه الله وأعطاه، وما ذكرته في هذه الآية هو أوضح في تفسير (آية المائدة).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ هذه التي كان الكفار يستحلونها وهي المحرمة لا ما يحرمونه من البحيرة والوصيلة والحامي وغيرها، والحصر هنا إضافي يرشد إليه السياق فلا ينافي تحريم غير هذه كالربا والرشوة وغيرها من أكل أموال الناس بالباطل، وكذا ما يضر الآكل ضرراً أرجح من النفع، كالطين، والقات في حق من يضره ضرراً واضحاً راجحاً على لذته وفائدته، بحيث يكون معيباً في العقل كمن يسبب له الجنون، أو يسبب له القولنج الذي يحدث به نوبات وجعٍ شديدٍ في البطن يكاد يقتله.

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ الإهلال: أصله رفع الصوت، قال:

لأهلّوا واستهلوا فرحاً

والإهلال بما يذبح أو ينحر: رفع الصوت عليه بكلمة التقرب به، فإن كانت الكلمة ذكر اسم الله عليه أو التلبية فلا إشكال، وإن كانت ذكر غير الله لإفادة التقرب إليه فهي محرمة وهي المحرمة في الآية.

وهل يدخل في ذلك ما يسمى في (اليَمن) المقصد أو الهَجَر ـ بفتح الهاء والجيم ـ وهو ما يذبح لتطييب نفس المذبوح له، أو لطلب مساعدته على أمر لم يكن يرضاه؟

*الأرجح*: أنه لا يطلق تحريمه ولا تحليله، فما أهل به لغير الله حرم بظاهر الآية ـ وإن لم يكن شركاً، وما لم يهل به لغير الله كما هو المعتاد عند أهل المعرفة فلا يحرم، وذلك بأن يقول الذابح: «باسم الله» ولا يقترن ذلك بالإهلال لغير الله، ويتأخر الكلام الآخر بمهلة أو يتقدم بمهلة بحيث لا يكون في العرف مقارناً للذبح.

*والأحوط*: أن يتقدم الكلام ولا يذبح في المجلس؛ لأنه ما دام الذبح عند الكلام قبل الاعراض ولو تأخر فهو يعتبر مقارناً، وليس في الآية ذكر المقارنة فلا فائدة في التعلق بلفظ المقارنة، وما دام رفع الصوت أي الجهر بالكلام ورفعه عند الذبح فقد دخل في عموم الآية، وهو عند الذبح ما دام الذبح في المجلس قبل الإعراض والمراد بالكلام قولهم: هذا جاهنا عندك في طيبة النفس أو في أن توافقنا على ما طلبنا أو نحو هذا؛ لأنهم قد أعلنوا التقرب به إليه ولا يقال: إنهم إنما تقربوا بالمذبوح لا بالذبح؛ لأنا نقول ليس في الآية إلاَّ الإهلال بالمذبوح، فما دام المذبوح ذبح لتطييب نفسه وجهروا بذكره عند ذبحه لهذا الغرض فقد حصل الإهلال به له، فظهر: أنه لا يطلق تحليله ولا تحريمه ـ أعني المقصد ـ وللسيد إبراهيم بن محمد الوزير كتاب في تحريمه وأنه شرك، وقد رددت على جعله شركاً بـ(رسالة).

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ إلى أكل ما حرم الله في هذه الآية ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ بأكل ما حرم الله ﴿وَلَا عَادٖ﴾ ولا متجاوز لما أحل الله كمن رخص له فتجاوز في الأكل ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

ويدخل في الباغي: من يأكل المحرم في حال الاضطرار مصراً على أكله في غير الضرورة، أي يأكله لا للاضطرار، فهو يأكله في حالة الاضطرار كما يأكله في حال عدم الاضطرار.

وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِي

---

ويدخل فيه: من بغى على من يحرم قتله ليأكل منه أو ليشرب من دمه أو على حيوان محترم لا للضرورة بل بغياً عليه وجرأة، فلا تبيحه الضرورة في حقه، ويدخل في العادي كل من عدل عن الحلال، وهو متمكن من تحصيله، وهذا وإن كان خارجاً عن الاضطرار إلى المحرم، فإن الشرط هذا محقق للاضطرار، وفائدته: أن لا يتوهم أنه مضطر إذا اشتد به الجوع ولم يكن يملك طعاماً ولا يباح له، فهو عادٍ ما دام يتمكن من تحصيله حلالاً بأي وسيلة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تشجيع للمضطر إذا كان من أهل التقى لما يحدث من خاطر احتمال عدم الاضطرار، وأنه يتحمل الصبر، واحتمال أن ما قد أكله من الميتة مثلاً يمسك روحه ويقوى به على المشي إلى حيث يجد الأكل أو يقوى به على العمل بالأجرة ليشتري طعاماً أو نحو ذلك، فليأكل ما دام لا يثق بحصول الكفاية لإمساك الروح وإنقاذه من الإضطرار إن كان الأكل ينقذه، وما دام يخاف على نفسه فليأكل راجياً مغفرة الله إن أخطأ ورحمته.

فأما حمل الميتة معه لئلا يضطر في المستقبل فليس بغياً ولا عدواً ما لم يكن غيره مضطراً إليها في الحال، وليس كافراً حربيّاً، فعليه أن يترك له ما يحتاجه في الحال وينقذه من الموت.

﴿١٧٤-١٧٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فالكتمان محرم، واستبدال الثمن القليل بما أنزل الله من الكتاب

محرم آخر، وكل ثمن بدل فهو قليل، فقوله: ﴿قَلِيلاً﴾ ليس شرطاً، بل بيان لقلته وحقارته في جنب بيع الدين، ويدخل في هذا من يكتم ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ لأجل معاش يعطاه من بعض ملوك الجور.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ للتبعيض، ولو كان المراد الكل لقيل: الكتاب الذي أنزله الله، وكل كلمة يصدق عليها ما أنزل الله؛ لأن الله أنزلها، ويقبح كتمانها؛ لأن الله أنزلها، فالمعنى: الذين يعتادون كتمان ما أنزل الله ولو كلمة واحدة من الكتاب تكرر كتمانهم لها، فقد دخلوا في الآية؛ لأن أهل الكتاب لم يكونوا يكتمون كل كلمة من الكتاب، ولعله يدخل في هذا كثير من الناس يأخذون المعاشات، ويكتمون الحق من أجلها.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ لأن ما أكلوه من بدل ما أنزل الله يكون في الآخرة ناراً في بطونهم ولا يبعد أن يكون هذا حقيقة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ..﴾ إلى قوله: ﴿..يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة:٣٤-٣٥].

وعلى هذا فالظاهر الحقيقة، ولا موجب للتأويل.. نعم هو مجاز من حيث تسميته ناراً باعتبار ما يؤول إليه مثل: «أعصر خمراً».

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ إذا صح التعبير بالغضب في القرآن منسوباً إلى الله، والمراد غايته، والله يتعالى عن مشابهة المخلوقين، صح أن نقول: قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ دلالة على غضبه عليهم؛ لأن من آثار الغضب عندنا ترك تكليم المغضوب عليه، فإذا لم يكلمهم كان عدم الكلام دلالة على أنه يعذبهم ويفعل بهم ما يفعل الغاضب، ولا يوجد منه لهم أي شيء ينافيه الغضب في العادة عندنا.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يحكم بأنهم زاكون؛ لأنهم مجرمون، وإن ادعوا لأنفسهم الزكاة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٩].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بتلك الجريمة الكبرى كتمان ما أنزل الله واستبدال المال به، والعذاب مؤلم تأليماً شديداً،فوصفه بأنه أليم يدل على زيادته في التأليم على ما يفيده اسم العذاب.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ في تلك المبادلة بما أنزل الله من الكتاب بالثمن، فمعناها: اشتراء الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، فهي صفقة خاسرة خسراناً مبيناً.

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ فما أشد جرائمهم الموجبة للنار، ولمّا كانوا بذلك كأنهم قد صاروا بسببه في النار لكون مصيرهم إليها بسبب جرائمهم هذه التي يتجرؤون عليها أمراً متحتماً جعلت جرائمهم التي هي سبب النار واستمرارهم عليها أو تكررها منهم كأنها صبر على النار؛ لأنهم في كل مرة من كتمانهم يستوجبون النار، وفي كل مرة من استبدالهم بها المال يستحقون النار، فتكرر أسباب النار منهم كأنه صبر على النار؛ لأنه سبب النار، كقوله تعالى: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾.

وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي عليهما السلام: «﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ معناه: ما أجرأهم عليها» اهـ. فتكرر أسباب النار منهم بدون خوف ولا مبالاة، وهم يعلمون أنه سبب النار عجيب !،كما أن الصبر على النار عجيب واستعمال أداة التعجب من علام الغيوب للدلالة على أن الأمر عجيب في حقنا.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: هذا تبكيت من الله - عزَّ وجل - لكفرة عباده، وتقريع لقلة صبرهم على النار، فقال: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ولا يصبرون عليها، وكذلك تقول العرب للرجل في الشيء إذا لم يقوَ عليه وأيقنت بعجزه عنه: ما أقواك على كذا وكذا، من طريق التقريع له بضعفه وقلة احتماله، وقد قيل: إن معنى ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي ما أصبرهم على عمل النار الذي يهلكون به ويستوجبون العذاب بفعله، فأقام النار مقام عملها» انتهى.

قلت: الأولى الجمع بين التفاسير المذكورة، ولا تعارض إذا كان المرتضى يعني بالتقريع والتبكيت: التّجهيل لهم، فهو معنى حسن جداً نضيفه إلى ما قلناه، وإلى ما روي عن الإمام زيد بن علي عليهما السلام.

قال الشرفي في (المصابيح) - أيضاً -: «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: تدل على قبح كتمان ما أنزل الله، وعلى تحريم أخذ العوض عن ذلك، و[أن] ما حرمه الله من كل وجه لا يملكه من حرم عليه» انتهى.

قلت: يعني ما حرم أخذه لا يملك بالمعاوضة كالربا والرشوة ومهر البغي وغير ذلك، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارًا﴾ [النساء:١٠] فدل على تحريم أكله لا مجرد تحريم المعاوضة فيه وتحريم أكله لتحريم التصرف فيه؛ لأنه أخذ بالمعاوضة المحرمة والتصرف فيه سواء، وإنما خص الأكل للتخويف كما قال تعالى في أموال اليتامى، ولو ملك لحل أكله، والتصرف فيه باشتراء ما يؤكل، وليس المراد أكله بعينه، بل المراد إتلافه بأكله أو أخذ مأكول به؛ لأن الفلوس لا تؤكل، وكثيراً ما تكون الرشوة من الفلوس وأموال اليتامى لا تكون كلها مأكولة.

ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى

---

فظهر: أن المراد الإتلاف في الأكل أو بالأكل، كله يعبر عنه بالأكل، بل لا يبعد أن المراد الإتلاف، ولو لغير الأكل، وعبّر عنه بالأكل على طريقة التغليب، وهذا لا ينافيه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:١٠] لأن بعضه مأكول أو أتلف في مأكول، فصح ذلك مع التغليب.

﴿١٧٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوعيد على الكتمان والاستبدال بما أنزل الله ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فقبح كتمانه والاستبدال به؛ لأنه نصرة للباطل ومعارضةً لأمر الله، وتفويت لفائدة ما أنزل الله ومحاولة لتضييع الحق، فهو محادة لله ومحاربة للحق.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ لعله حيث ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ فصاروا مختلفين في الكتاب؛ لاستناد اليهود إلى (التوراة) والنصارى إلى (الإنجيل) فخالفت اليهود في (الإنجيل) وخالفت النصارى في (التوراة) وخالف الذين لا يعلمون في (التوراة) وكل ذلك عناد وتمرد لا يستند إلى دليل، ثم إن الفرق الثلاث كما اختلفوا في الكتاب فهم في شقاق ومعاندة بجحدهم للقرآن ورسول الله محمد ﷺ، فصار بينهم وبين صراط الله مسافات ومراحل ـ والله أعلم.

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

---

﴿١٧٧﴾ ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) حاكياً عن المرتضى عليه السلام: «معناه: ليس كل البر تولية المشرق والمغرب من القِبَل التي أنتم تُمارون فيها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ..﴾ إلى قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ فأخبر سبحانه بفنون البر وما يصح لهم به الإيمان ويكمل لهم اسم البر والإحسان» انتهى.

﴿ٱلۡبِرَّ﴾ الاتساع في الإحسان وفعل الخير، و﴿قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ الجهات التي يولي إليها الكفار وجوههم ويزعمون أن ذلك هو البر، وليس البر ذلك، ولكن البر الإيمان بلوازمه وتوابعه التي يعملها ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ وقد قدمت معنى الإيمان بالله واليوم الآخر في تفسير أوائل السورة ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ لأن الإيمان بهم من الإيمان بالغيب ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ ومنه القرآن الكريم ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ومنهم خاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فلا بد من الإيمان بالكتاب كله وبالنبيين كلهم.

﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ﴾ أي ماله، كقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ﴾ [النازعات:٤٠] أي نفسه ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ في حال حب المال كالإطعام في حال حاجة المطعِم - بكسر العين - إلى الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان:٨] وقال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

﴿ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي ذوي قرابة المؤتي، قال تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾ ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ الذين فقدوا آباءَهم، أي هلك آباؤهم ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينَ﴾ أهل الحاجة الشديدة الذين يحتاجون إلى المسألة ولم يسألوا، من أجل الحديث عن النبي ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطوّاف عليكم الذي تردّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان» قالوا: فمَن المسكين، يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» رواه الإمام الهادي في (الأحكام).

وليس يعني ﷺ تعليم اللغة، وإنما أراد الحث على إطعام المحتاج الذي لا يسأل ولا يعرف معرفةً تغنيه عن السؤال بحيث يتصدق عليه، ولا يحتاج إلى السؤال، والذي يفهم من الحديث أن المسكين المحتاج الشديد الحاجة، فكأنه ﷺ يقول: ليس المحتاج شديد الحاجة بهذا الطوّاف عليكم، ولكن المحتاج الشديد الحاجة المحتاج الذي لا يسأل ولا يفطن له، وإنما يعرف بالتأمل في وجهه وعلامات الحاجة عنده، فالمحتاجون ثلاثة: سائل، ومعروف بالحاجة أو تظهر حاجته بدون بحث مع أنه لا يسأل، والثالث الذي فيه النص أنه مسكين.

*وفائدة الحديث*: التنبيه على هذا الثالث؛ لئلا يغفل عنه ويكتفي بالإنفاق على الأول والثاني، نعم.. ومن كان من القسم الثالث فاشتدت به الحاجة حتى اضطر إلى السؤال ولم يعتد السؤال لم يخرج عن القسم الثالث؛ لأن الحديث فيمن يعتاد السؤال بكثرة كما يفيده لفظ «الطواف» المفيد للمبالغة، ومن كان يطوف متعرّضاً وكثر ذلك منه فهو في حكم السائل وإن لم يسأل، إذا كان يعطى بالتطواف كما يعطى السائل؛ لأن الحديث لم يذكر إلاَّ الطواف.

وأما ﴿ٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فالسبيل: الطريق، والمراد المار في السبيل المحتاج من حيث هو في السبيل أي تبعاً لمروره في السبيل، ولعله يؤخذ من نسبته إلى السبيل أنه ليس له مرتفق حول السبيل؛ لأنه غريب.

قال الهادي عليه السلام في (الأحكام): «وأما ابن السبيل فهو مار الطريق المسافر الضعيف، فيعان بما يكفيه من قليل أو كثير» انتهى.

ذكر هذا في تفسير آية الصدقات، وتفسير الهادي عليه السلام يعم المنقطع، والذي اشتدت عليه الحال لضعفه وقلة زاده، وكذا من هو مظنة أن يبلغ أي الحالتين لذلك، والمراد إعانته ليرجع إلى بلده أو يتخلص من تلك الحال بالوصول إلى بلد آخر أقرب من بلده أو مثلها، قال الهادي عليه السلام في ذكر إعانة ابن السبيل: «حتى ينتهي ويصل إلى بلده» انتهى.

فمتى تخلص من تلك الحال بالوصول إلى بلده أو مثلها أو بأي سبب فقد خرج عن كونه ابن السبيل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ يعم كل سائل، ولو كان يعتاد السؤال، ولكن من يتخذه حرفة ويسأل وهو غير محتاج وتحقق منه ذلك فيمنع، أو يقلل عطاؤه جداً لئلا يكون إعطاؤه معاونة له على الإثم؛ لأنه بسببه يرغب في السؤال فيعيده ويكرره ويستمر عليه كلما أعطي لرغبته في المال لا لضيق الحال، وقد جاء في تحريم السؤال روايات عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم منها ما رواه في (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام) عن أبيه، عن جده، عن علي عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « كفى بالمرءِ إثماً أن يضيع من يعول أو يكون عيالاً على الناس» وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تحل الصدقة لغني، ولا لقوي، ولا لذي مرة سويّ» اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي في تحرير الرقاب، وفسره الهادي عليه السلام في (الأحكام) بالمكاتبين، الذين يكاتبون مواليهم على شيء معلوم.

قلت: وهذا أظهر وأوفق لتفسير إيتاء المال في الرقاب بإنفاقه في تحرير الرقاب، والسياق هنا وفي آية الصدقات يدل عليه ولا يدل على أكثر منه، والله أعلم، فأما من جعل عتق الأمة صداقها فقد أنفقها في تحريرها وزواجها، فلا يبعد دخوله في هذه الآية لا في آية الصدقات.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام) عن أبيه، عن جده، عن علي عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أربعة لهم أجران: رجل كانت له أمة فأدَّبها وأحسن أدَبها ثم أعتقها فنكحها فله أجران..» الحديث.

قلت: لعله اشترط حسن الأدب ليكون العتق قُربة، وهذا يناسب قول الهادي عليه السلام: «إنه لا قربة في عتق الفاسق الذي يتقوى بالعتق على فسقه؛ لأنه معاونة له على الفسق».

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فهما من البر، وفي ذكر الزكاة هنا دلالة على أن الإنفاق المذكور قبل من غير الزكاة، والآية تدل على: أن من لا يفعله مع التمكن منه والإيسار، فليس من المتقين؛ لأن التقوى تبعث عليه لطلب التثبيت ومحو الذنوب، سواء قلنا: أنه واجب، أم لم نقل.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾ فهو من شأن المتقين، وقوله: ﴿إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾ يفيد: أنه لا يتقرب بالعهد ليوفى به، أي ليس ذلك مراداً في الترغيب في الوفاء، نعم إذا أمر الإمام المحق بالعهد وجب لوجوب طاعته.

﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ حالة الجوع ونحوه ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ حالة المرض ونحوه ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ في حال القتال.

وقلت: في الأول ونحوه؛ لأنه يعم أنواع الفقر حتى ضيق المسكن، وفي الثاني ونحوه؛ لأنه يعم أنواع الضر، ويدخل فيه الغم والحزن والغيظ والخوف والصبر في الحالات الثلاث، وفي كل ما ذكر في الآية يميّز الصادق في إيمانه الذي تطابق قوله وفعله وضميره.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ ونظيره: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وإذا كانوا هم الذين صدقوا وهم المتقون فهم المؤمنون الأبرار، قال (الناصر الأطروش) الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي زين العابدين عليه السلام في (البساط) [ص٢٠ ـ مخطوطة]: حدثنا بشر [بن عبد الوهاب] قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، قال: جاء رجل إلى أبي ذرّ ـ رحمة الله عليه ـ فسأله عن الإيمان؟ فقرأ عليه أبو ذر: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ..﴾ الآية، فقال الرجل: ليس عن البر سألتك؟ فقال أبو ذرّ: جاءَ رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسأله عما سألت، فقرأ عليه كما قرأتُ عليك، فأبى أن يرضى كما أبيتَ أن ترضى، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الذي إذا عمل حسنةً سرته ورجا ثوابها، وإذا عمل سيئةً ساءته وخاف عقابها» انتهى.

قلت: هذا فيمن كان على الحال الطبيعية في الإسلام، فأما من كان رجاؤه وسروره لسوء عقيدته مع إصراره على الكبائر فهو غير مقصود؛ لأنه متمنٍّ مغرور، وعمله غير مقبول لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] والآية التي أتممنا تفسيرها تردّ عليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا

---

﴿١٧٨-١٧٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ القصاص قتل من قَتل ظلماً متعمداً وتوجيه الخطاب إلى الذين آمنوا عموماً، دليل على وجوب تحصيل سلطة تنفذ القصاص حين يعجز وليّ الدم، وأن الواجب معاونة وليّ الدم ليتمكن من القصاص، وهذا وأمثاله من التكاليف دليل على شرعية الإمامة ووجوبها على الأمة عموماً؛ لأنه تعالى قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ فعمهم في الخطاب والإيجاب، ولم يخص القاتل هنا.

﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ وهذا يعم الحر الأصلي ومن تجددت له الحرية وكان عبداً، وإن سمي عبداً مجازاً؛ لأنه حر ليس عبداً ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ أي المملوك ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ الأنثى الحرة بالأنثى الحرة، والأنثى الأمة بالأنثى الأمة، وليس في هذه دلالة على قصاص الرجل بالمرأة ولا الحر بالعبد، ودلت على: قصاص الغني بالفقير، والأمير بالمأمور، وكبير الناس بصغيرهم، والشاب بالطفل، والرجل الشاب بالشيخ الكبير ونحو ذلك.

وكذا في العبيد والإناث، فما يصدر من معاونة القاتل حتى لا يتمكن ولي الدم من القصاص بأي طريق مثل تخويف الشهود أو تخويف الحاكم أو تخويف الولي، فهو من الباطل، والتعاون على الإثم والعدوان.

﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ ﴿عُفِيَ لَهُۥ﴾ أسقط له من أخيه الذي على ملة الإسلام فهو أخوه في الدين المشترك بينهما الذي هو التوحيد والإقرار بالرسول والقرآن ونحو ذلك، وفي ذكر الأخوّة ترغيب في العفو وحث على العطف، وقوله تعالى: ﴿شَيۡءٞ﴾ يعم العفو عن القصاص، وعن بعض الدية إن عفى عن القصاص.

﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي لا يسيء المطالبة بالدية أو بقيتها لأجل أنه قد قتل قريبه، بل تكون المطالبة بشكل معروف لا يستنكره العقلاء أهل المروءة، فلا تقترن المطالبة بسب ولا وعيد، ولا تكون بصوت رفيع مع قرب المطالب بل تكون برفق.

﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ﴾ للدية أو ما بقي منها ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾ كلام طيب وتسليم جميل، وبالأولى أن يكون بالمعروف، فلا يسلم بواسطة الظالم الذي يأخذ بعضه ولا يقترن بالتشكي ودعوى أنه مظلوم بأخذ الدية أو نحو ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ﴾ يعود إلى ولي المقتول، فلا تدفع إلى غيره، وإذا كانوا ورثة دفع إلى كل منهم نصيبه، ولا يبعد دلالتها على: أنه لا يقضى منها دين الميت إلاّ بإذن أهلها، وأنها ليست من الميراث، وإنما يعمل بها ما يعمل بالميراث بمعنى أنها تقسم على حسب الإرث، وهو في قول الله تعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء:٩٢] أوضح.

*وعلى هذا*: فهي ليست عوضاً للميت عن نفسه بل هي عوض للولي؛ لأنه موتور مغيظ محنق، وفائدته: التخفيف عنه وتقريبه إلى العفو؛ لأن العفو لولا الدية يكون بعيداً، فأما الميت فيحكم بينه وبين قاتله يوم القيامة وينصف له ملك يوم الدين، وما قيل: إنها للميت كأرش الجراحات، يرده: إنها لو كانت كذلك لكانت أروشاً على عدد ما في الحي من أعضاء ومعان؛

لأن القتل أبطل ذلك كله، ولأن الدية لا تستحق إلاَّ بما يستحق به القصاص في هذه الآية، وذلك لا يكون إلاَّ عند خروج الروح؛ لأن المجروح لا يسمى قتيلاً إلاَّ متى خرجت روحه بسبب الجرح مثلاً، وفي تلك الحال لا يملك بل يورث ما ترك.

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي شرع العفو وسقوط القصاص بالعفو بإسقاطه، وكذلك سقوط ما عفى من الدية، فهو تخفيف؛ لأن التكليف بالقصاص ثقيل.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إما ولي الدم، وإما القاتل، فولي الدم إذا عفى وأسقط القصاص ثم قتل القاتل فهو معتدٍ يقتل به وله عذاب أليم لعدوانه لا بد من زجره لئلا يظهر إسقاط القصاص، ويأخذ الدية ثم يقتل لأنه قد يطمع في الجمع بين القصاص وأخذ الدية، وقد يقبل الدية، فإذا أكلها ندم على القصاص، وقد يقبل الدية، فإذا أغراه بعض الشياطين ندم وتجرأ على القصاص بعد أن بطل حقه فيه، وأما القاتل إذا عفي عنه فتجرأ على قتل مسلم آخر ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لتجريه على العدوان بعد أن خفف الله عنه ورحمه، فلم يشكر تلك النعمة ويتق الله، بل ازداد جرأة على القتل، أو نسي النعمة كأن لم تكن.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي الْأَلْبَٰبِ﴾ فقصاص إنسان واحد قد يكون سبباً لحياة كثير من الناس، ولو لم يشرع القصاص لتجرأ على القتل كثير من الناس، وحيث يترك القصاص في أهل الجهل ويعدلون إلى النقاء، يكثر القتل بالتسلسل، والنقاء قتل رجل يختارونه أو يتيسر لهم قتله بدل المقتول، وهو غير القاتل، وإنما هو من قبيلة القاتل مثلاً، وولي الدم من قبيلة أخرى.

ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

فإذا رجع الناس لحكم الله وقتلوا القاتل لا غيره انقطع التسلسل، وطريقة أهل الألباب ترجيح الحكمة على العاطفة المخالفة، وفي الآية الكريمة دليل على أن الذين يجادلون في حسن القصاص عادلون عن طريقة أولي الألباب، أي أهل العقول، وخاطب أولي الألباب؛ لأنهم هم الذين ينتفعون ويؤمنون بذلك.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الله، فتقوى الله هي المراد الأهم؛ لأنها تؤدي إلى السلامة من عذاب الله، وهذا تعليل للتعليل، فتقليل القتل تعليل للقصاص والتقريب إلى تقوى الله تعليل لترك القتل العدوان، فالقصاص وسيلة للتقوى من حيث يزجر عن العدوان بالقتل، وهذا الإنزجار قُربٌ إلى التقوى كما أن القتل عمداً عدواناً بُعدٌ عن التقوى.

﴿١٨٠﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أوجب عليكم، وعم الخطاب؛ لأن السامعين كلهم يموتون، والخير المال، و ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بما تعرفه العقول ولا تنكره الفطرة السليمة، وهو إما أن يكون قبل المواريث فيكون على ما يراه الميت بالمعروف، وإما أن يكون بعد نزول وصية الله التي هي أقدم وأوجب، فالمعروف ما طابقها؛ لأنه تعالى صدّر (آيات المواريث) بقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١١] وختمها في أوائل (سورة النساء) بقوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً مِنَ ٱللَّهِ﴾ [آية:١٢] فأرشد إلى العمل بوصيته وترك وصية غيره إذا خالفت.

﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا

---

﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي حق الإيصاء المذكور حقاً على المتقين، أي وجب أو حال من الوصية، أي واجباً كالدين وسائر الحقوق، وفي قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تأكيد لإيجابها.

﴿١٨١﴾ ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ التبديل: إيجاد بدل، إما بدعوى أنه الوصية، أو بدعوى أنه رجع عن الوصية وأبدلها بهذا البدل، وعلى هذا فالتبديل يكون من الكاتب أو الشهود، ويكون من غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ حصر وقصرٌ إضافي، أي إثمه عليهم، لا على الميت ومن أقام الشهادة على وجهها، فأما من أخذ البدل بالزور وهو يعلم فهو حرام عليه وهو آثم بأخذه، وأخذه منكر خارج عن التبديل، بل هو غصب أعانه عليه التبديل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿١٨٢﴾ ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ الجنف: الميل، وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي عليه السلام: «الجنف: الجور والخطأ، والإثم: العمد» انتهى.

قلت: الحاصل الحيف بمخالفة المعروف في تفضيل بعض الموصَى لهم على بعض، تفضيلاً يستنكر ويعاب بغير تعمد لمخالفة المعروف، والإثم: ترك بعضهم، والإيصاء بالكل للآخرين عمداً، ومخالفةً لأمر الله، أو تفضيلهم كذلك.

ولعل الجنف خاص بالأولاد فيما بينهم والأقربين المستوين في الدرجة؛ لأن التفضيل بينهم هو الذي يسمى ميلاً، والإثم: مخالفة الحق عمداً بمخالفة المعروف، أو بترك الإيصاء لبعض مع الإيصاء بالكل للآخرين.

كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ

---

﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ﴾ بين الوالدين والأقربين، فإن الوصية المخالفة لأمر الله لا حكم لها ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ وليس ذلك من التبديل المنهي عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر للمصلح المتحري للصواب والقسمة حسبما كان ينبغي للموصي أن يوصي، وفائدة ذكر الغفران والرحمة: التشجيع على الإصلاح لئلا يترك خوفاً من الخطأ، ومعنى الخوف من الجنف أوالإثم: الخوف مما يترتب عليه من الفساد والشقاق، وكون التركة تؤخذ على غير الحق إن تركت كما أوصى.

﴿١٨٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ فرضَ، والصيام: الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من الفجر إلى الليل بنية ذلك، وقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ تشبيه في أنه كتب، وذلك ترغيب فيه أو تسهيل له، والذين من قبلنا يحتمل أنهم النصارى وحدهم، أو هم وغيرهم وهو الأقرب.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ فهو من أسباب التقوى؛ لأنه تمرين للنفس على ترك ما تشتهي وتعويد لها، والخير كله يسهل بمصيره عادة وفي كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «عوّد نفسك السماح، فإن الخير عادة».

﴿١٨٤﴾ ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ قال في (الكشاف): «وانتصاب أياماً بالصيام كقولك: نويت الخروج يوم الجمعة» اهـ.

وقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ تقليل لمدة الصيام، وفيه فوائد:

*الأولى*: أن الصوم للأيام لا لليالي.

*الثانية*: أن يوم الصوم لا يتبعض، بل يصام كله، وما وقع في الحساب من تبعيض يوم الثلاثين يجعل بعضه من شهر رمضان وبعضه من شوال لا حكم له فيُصام اليوم كله، ولا التفات إلى الحساب.

*الثالثة*: أن الواجب أيام، من حيث هي أيام، وعلى هذا فهو واجبات متعددة، ولا ينافي ذلك إسناد الوجوب إلى الشهر في الآية الثانية.

*ومن فوائد ذلك*: وجوب اليوم واليومين على من له عذر كالهمّ الذي يعجز عن صيام الشهر ويستطيع اليوم الواحد أو اليومين مثلاً، فيصوم ما يستطيع بلا ضرر عليه، ويفطر ما يخاف منه الضرر.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ تجزيه، وهذا يدل على أنها معينة بالشهر مع تعيينها بالعدد، ويدل على أنه يجزيه عن ما أفطر من هذه الأيام عددها من أيام أخر، وظاهره صحة الصيام مع المرض والسفر إن صام، لأن ذكر ما يجزي لم يرفع إيجابها، وإنما صار ذلك واجباً مخيراً في حق المريض والمسافر.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ مع المرض والسفر إذا أفطروا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وفي قراءة نافع: ﴿طَعَامِ مَسَاكِينَ﴾ وطعام المسكين لليوم الواحد، فوجبت عليهم الفدية؛ لأنهم أفطروا وهم يطيقون الصيام لعدم شدة المرض أو صعوبة السفر.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ في إطعام المساكين، وهذا ترغيب في الزيادة من الإطعام على الواجب ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ لما في الإنفاق من الفضل، والفائدة لنصرة الإسلام بإطعام من حول رسول الله ﷺ، ثم لغيرهم.

هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى

---

﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإطعام؛ لأن الصيام أداء واجب والإطعام تبع للرخصة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون، علمتم أنه خير لكم.

﴿١٨٥﴾ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ الراجح: أن ﴿شَهْرُ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ وأن هذا تمهيد لتعيينه للصوم لفضله على غيره من الشهور، ولشكر نعمة إنزال القرآن فيه بصومه، ومعنى إنزال القرآن فيه في الليلة المباركة ليلة القدر أن ابتداءه وأوله كان في شهر رمضان في ليلة القدر.

ولعل الوجه في هذا أن المنزل هو القرآن، وما لحق من بعد ذلك زيادة فيه كأنه شيء واحد ينمو، كما تقول: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، وهو حين ولد أصغر منه حين كبر بكثير، أو أن القرآن اسم جنس يصدق على السورة، والسورتين، والأكثر والكل، قال: ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس:٦١].

وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ لعله بمعنى هدى للناس يعلمون به صدق الرسول ﷺ ويتبع ذلك اهتداؤهم بما في القرآن وما جاء به الرسول، وإيمانهم بما يدل عليه القرآن والسنة.

وقوله تعالى: ﴿وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ بمعنى أنه آيات بينات ودلائل واضحات من الهدى من بيان الصراط المستقيم ﴿وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ بين الحق والباطل، فهذه نعمة عظيمة وفضيلة شهر رمضان على غيره من الشهور.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ (من شهد) من حضر، يقال: فلان شاهد، بمعنى: حاضر في البلد، والمعنى: من كان في بلده في هذا الشهر فليصمه.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ﴾ تجزيه، وظاهرها: أن المريض إذا صام أجزاه، وإذا أفطر وقضى أجزاه، وأما المسافر فلم يتناوله هذا الأمر، وقد احتج به من يقول: لا يجزيه صيامه في السفر؛ لأنه لم يشرع له إلاَّ القضاء، ولا نسلم هذا لأنه وإن لم تدل هذه الآية على شرعيته له فقد دلت عليها الأولى، وعدم الدلالة هنا ليست دلالة على عدم شرعيته له.

فإن قيل: إن التقدير فعليه عدة من أيام أخر، وهذا يدل على أنه لا يجزيه الصيام في شهر رمضان؟

قلنا: إن المفهوم من الآية هو الترخيص لمشقة الصيام في السفر والمرض وتقدير: فعليه عدة لا يفيده، إنما يفيد التكليف بعدة من أيام أخر، وإذا فسرنا العدة بعدة أيام السفر والمرض كان ذلك إضافة تكليف إلى تكليف؛ لأنه لا يفيد الترخيص في الإفطار ولا إيجابه.

فظهر: أن تقديركم لا يفيد المقصود، أما تقديرنا يجزيه فيفيده وهو صالح في سائر المواضع المماثلة لهذا من القرآن مثلاً في كفارة اليمين، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، أي يجزيه، وفي (كفارة الظهار) كذلك، وفي (الحج): ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ﴾ أي تجزيه عن ترك الحلق، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ أي يجزون، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ أي تجزي عن الكتاب،

قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ

---

فالتقدير المطرد الذي يرشد إليه السياق هو الظاهر، وخلافه دعوى بلا دليل من حيث تضمُّنه الزيادة على ما يرشد إليه السياق ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ ولذلك رخص للمريض والمسافر؛ لأنه يريد التسهيل والتخفيف، ولا يريد التشديد.

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ فجمع لكم بين النعمتين: التيسير بتأخير الصوم عن حالة المرض والسفر، وإبدال ما فات، لئلا يفوتكم ثواب إكمال العدة، وفائدة الصوم، وليتم الابتلاء بالعدة كلها ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ شكراً ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ لأنه هداكم للدين المؤدي إلى السعادة الدائمة بهذا القرآن الذي أنزله في هذا الشهر المبارك وتتلونه فيه وتصومون وتصلون وتدعون وتقربون فيه بأنواع القرب العديدة.

﴿وَ﴾ شرع لكم طريق السعادة والكرامة والسلامة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة العظمى، وقد قدمت في تفسير (سورة الفاتحة) الاستدلال بها على أن نعمة الهدى أعظم النعم.

﴿١٨٦﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ لينالوا مني حاجاتهم، وصرف مهماتهم، وبأي وسيلة يتوسلون إلى ذلك، ولما كان تهيئة الوسيلة إليه راجعة إلى كرمه كان السؤال عنها سؤالاً عنه؛ لأنها لا تكون إلاَّ منه وكونها منه راجع إلى كرمه ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ ليس بعيداً كما يتصور الجاهلون، ويظنون أن الوسائط أقرب منه، بل هو قريب من عبده فيمكنه طلب حاجته منه بأيسر ما يكون.

﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ أي حين دعاني، وذلك يدل على سرعة الإجابة، وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: «واعلم.. أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذِن لك في الدعاء وتكفَّل لك بالإجابة، وأمرَك أن تسأله ليعطيَك، وتسترحمَه ليرحمَك، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبه عنك، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه..».

إلى قوله عليه السلام: «فإذا ناديته سمع نداك، وإذا ناجيته علم نجواك، فأفضَيت إليه بحاجتك وأبثثته ذات نفسك، وشكوتَ إليه همومك، واستكشفته كروبك، واستعنته على أمورك، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائِه غيرُه، من زيادة الأعمار، وصحة الأبدان، وسعة الأرزاق، ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته واستمطرت شآبيب رحمته» انتهى المراد.

نقلته لأنه كالتفسير للآية، ولما فيه من التنبيه على كرم الله وعمومه لعباده، وأنه غير مقصور على من يتوسل بهم الناس، وأن استبعاد الإجابة مخالف لما دل عليه بقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾ حيث عمّهم كلهم، ولم يخص أهل الفضل منهم ليدعوه كلهم الفاضل والمفضول والمتقي والمذنب حتى يكونوا كلهم عابدين له بالدعاء متعرضين لفضله لا لفضل الوسائط، شاكرين له متى أجابهم، لا لمن يتوسلون به مستدلين بذلك على عموم كرمه لعباده، وسعة رحمته لهم في هذه الدنيا.

ولينظر العاقل لو كان له بنون يريد أن يحسن إليهم ويعرّفهم رحمته لهم ورغبته في الإحسان إليهم؛ لأنه أبوهم وهم بنوه كلهم، فكان بعضهم إذا احتاج حاجة طلب أباه بلا واسطة فقضاها له فشكره على إنعامه عليه،

وكان بعضهم إذا احتاج حاجة توسط في طلبها بواسطة من خواصّ أبيه، فإذا قضاها له أبوه شكر الواسطة؛ لأنها قضيت له حاجته بسببه غافلاً عن شكر أبيه الذي هو قضى حاجته، وكان يقضيها له من غير الواسطة، فلينظر العاقل أيّ الفريقين أوفق لغرض أبيه.

فإذا نظرنا إلى كرم الله وأنه أكرم وأرحم من الأب بولده، فلماذا نلجأ إلى الوسائط وقد دعانا إلى أن ندعوه وبيّن أنه قريب لا نحتاج إلى واسطة يبلغه ولا حاجب بيننا وبينه، وهو يريد سبحانه أن ندعوه ولا ندعو غيره ونشكره على الإجابة ونعرف فضله ورحمته لنا وكرمه بما نجد من إجابته لدعائنا وقضائه لحوائجنا دون أن يحوجنا إلى واسطة ينعم علينا لأجله لا لأجلنا كأن فضله ورحمته وكرمه مقصور عليه ليس لنا منه نصيب.

إذا عرفت هذا عرفت أن التوسل بالوسائل من الناس لم يظهر أنه مشروع، وما ورد منه مخصوص بمحله، فما روي عن النبي ﷺ في توسل الأعمى به كان مقروناً بأمر الأعمى أن يدعو ربه وكان في التوسل به إرهاص لمعجزة؛ لأنه بالتوسل بالنبي يتبين أن إرجاع الله تعالى لبصره كان من أجل توسله بالنبي ﷺ فكانت فائدة يحصل بها الإيمان بالله ورسوله أو يزداد؛ لوضوح الدلالة في هذه القصة على أن رجوع بصَره بسبب توسله برسول الله ﷺ.

وكذلك ما روي في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ إن الكلمات توسل آدم بمحمد وآل محمد أن يغفر الله له أو أن يتوب عليه، فهذه الرواية إن صحت مقصورة على آدم، وفائدتها: أن يؤمن آدم بمحمد ﷺ وبفضل آله، ويكون ذلك سبباً لزيادة إيمان من صحت له الرواية إن صحَّت، فليس فيها دلالة على شرعية التوسل بهم لمن لا يكون في توسله هذه الفائدة كما قلنا في (قصة الأعمى).

فإن قال قائل: فهل تقول: إن التوسل كله شرك كما تقول الوهابية؟!

قلت: معاذ الله أن أقول ذلك.

فإن قال قائل: فإذا لم يكن مشروعاً، فهل هو ممنوع؟

قلت: إذا لم يكن مشروعاً فلا فائدة له؛ لأن المتوسَّل به للحاجة ليس وسيلة لها في الواقع؛ لأنه لم يصح أن الله تعالى يقضيها من أجل التوسل به لعدم الدليل على ذلك، اللهم إلاَّ في دعاء الغير الذي جاء الدليل على إجابته كدعاء الوالد لولده ودعاء الإمام العادل والمؤمن لأخيه بظهر الغيب، فهذا لا نزاع فيه لورود الدليل فيه، فقد دل الدليل على أن الحاجة تقضى بذلك، فلماذا نتعدى ما ثبت فيه الدليل إلى غيره.

فإن قيل: قد توسل عمر بالعباس، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك وإنا نتوسل إليك بعم نبيك لتسقينا؟

قلت: لعل العباس كان يدعو، فصح التوسل به لأجل دعائه مع أنه لا حجّة في فعل عمر، إنما نحتج به على أتباعه الوهابية الذين يقولون: إن التوسل شرك، وغاية ما فيه أنه مباح من حيث هو توسل، وفيه توسل بقربى رسول الله، فهو إقرار بفضلها، ولكن لا معنى للتوسل بالأشخاص الذين لا يدعون؛ لأنهم ليسوا عملنا وفضلهم لهم ليس لنا منه شيء؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر:١٨].

فإذا قلنا: اللهم اقض حاجتنا بجاه فلان، فلا معنى له؛ لأن جاه الفاضل لنفسه ليس لغيره، اللهم إلاَّ الذرية فقد دل الدليل على أن فضل الفاضل يكون وسيلة لذريته، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور:٢١] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور:٢١] وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢] دلالة على أن ذلك لا ينافي كون عمل الأب لنفسه، فليس ينقص من أجره شيء لولده، وإنما ذلك تفضل ورحمة، ولعل السبب في الذرية أن الأب يكون راغباً في أن يحسن إليهم من أجله.

وقد فهم هذا أبو بكر لما قال: «ارقبوا محمداً في أهل بيته» لأنه طبيعي، والقرآن يقرّه، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

وقال تعالى حاكياً: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ وقال تعالى حاكياً: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ الآية، وقال تعالى حاكياً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

فإن قيل: فإن الله تعالى قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥] فدل على أن من المشروع اتخاذ الوسيلة على الإطلاق؟!

فالجواب: ليس هذا معنى الآية؛ لأنه لم يقل: واتخذوا الوسيلة إليه، ومن الواضح الفرق بين الكلمتين، فإن قوله: ﴿ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥] ليس معناه: إلاَّ أطلبوا الوسيلة إليه، أي أطلبوا ما هو في الواقع وسيلة إليه، أي وسيلة للتقرب إليه، وهو العمل الصالح والدعاء والإيمان، وبالجملة كل ما هو قربة إلى الله.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء:٥٧] أي يدعون مبتغين إلى ربهم الوسيلة بالدعاء وغيره مما يقربهم إلى ربهم، ولو كان معنى ابتغوا إليه الوسيلة ما شئتم لدخل فيه المشركون القائلون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ويقولون: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

والحاصل: أنه لا وسيلة إلاَّ ما جعله الله وسيلة لا ما اتخذناه نحن دون الله سبحانه وتعالى، فلا دلالة في قوله تعالى: ﴿ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥] على جواز التوسل على الإطلاق.

هذا وقد دل قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ على سرعة الإجابة، فما معنى ذلك؟

والجواب: أنه يعجل له حيث الحكمة في التعجيل، فأما إذا اقتضت خلافه؛ وتأجيله أو تبديله فالإجابة لعلها الحكم به له، أي بالمؤجل أو البدل أو يصرف عنه بدلاً من المطلوب ما صرْفه أهم، وقد لا يعطى مطلوبه؛ لأنه ضر عليه كما قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء:١١].

وفي كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام في (وصيته لابنه الحسن): «فلا يقنطنّك إبطاء إجابته، فإن العطية على قدر النيّة، وربما أخّرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الآمل، وربما سألت الشيء فلا تؤتاه وأوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلربّ أمر قد طلبته؛ فيه هلاك دينك لو أوتيته» انتهى المراد.

قلت: وسياق الآية يفهم منه هذا الاستثناء؛ لأن إجابة الدعاء الذي تكون إجابته أضر على صاحبه إلاَّ أنه لا يعلم، ليست مراده في الآية؛ لأن المقصود الدلالة على رحمة الله بعباده وإنعامه عليهم بقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾.

قلت: سرعة الإجابة فيما أجّل تكون بأن يكتب له ذلك وتكون كالموعود به من حين طلبه، كما روي في دعاء المريض رواه في (مجموع الإمام زيد بن علي) عن أبيه، عن جده، عن علي، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيه في أثناء

لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

---

الحديث: « فإذا قال: يا رب، قال: {لبيك عبدي، لا تدعوني بشيء إلاَّ أستجبت لك على إحدى ثلاث خصال: إما أن أعجل لك ما تسألني، وإما أن أدّخر لك..} » الحديث.

فالحاصل: أن الإجابة أن يكون ما هو بمنزلة الوعد له بما طلب أو بما هو خير له، وهذا إذا لم يطلب خلاف القضاء المحتوم أو خلاف الحكمة.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ فاستجابتهم لدعوة الله وإيمانهم به توسل إلى رشادهم، وشكرٌ لربهم على نعمة الحث على الدعاء والوعد بالإجابة، أو نعمة الإجابة.

والرشد: الاهتداء للخير، ويستعمل بمعنى الخير نفسه، كما في قول الله تعالى: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠] وهو في الأول أظهر، وفي المقابلة في الآية بين إجابة الله لعباده واستجابتهم له إرشاد إلى الشكر، ودلالة على كرم الله ورحمته؛ لأنه يستجيب لهم وهو غني عنهم وأكثرهم لا يستجيبون له وهو منعم عليهم وهم محتاجون إليه، وقد تخللت هذه الآية آيات صيام شهر رمضان، فوضعها هنا يشير إلى اغتنام الدعاء في الشهر الكريم كما قال في (الحج): ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾.

يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

---

﴿١٨٧﴾ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ يكون الكلام الذي يستحى منه لغير الزوجين، وهو كناية عن الجماع؛ لأنه من مقدماته، ولا يجب أن يجعل مجازاً؛ لأن من أدب الجماع تقديم بعض مقدماته.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ فهن بتحصينكم عن المعصية ستر لكم وأنتم ستر لهن بما يحصل لهن من الثبات على العفة باستغنائهن بالأزواج، ففي إباحة الرفث ليلة الصيام هذه المصلحة؛ لأنه يطول على الشباب الصبر إلى انسلاخ الشهر، ولذلك وقعت المخالفة ممن لم يصبر ليلة الصيام.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ بإتيانهن ليلة الصيام حين كان محظوراً، وسمّي خيانة؛ لأن الصوم أمانة عند المكلف، فالإفطار خيانة لله، ونسب الإختيان إلى أنفسهم لأن ضره عليهم ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن:٦] والقصة ذكرها الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) [ج١ ص٢٣١] وذكر فيها: «أن الصيام كان لشهر رمضان، من أحكامه: أن لا ينكحوا النساء ليلاً ولا نهاراً حتى ينسلخ شهر رمضان، وقال فيها: فإن ناموا لم يجز لهم أكل ولا شرب حتى يكون من الغد عند دخول الليل» انتهى.

قلت: ولعل ذلك كان معنى قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فكان الصيام النهار كله وبعض الليل من الأكل والشرب، والليل كله من الجماع، فكان الصيام الشهر كله ليلاً ونهاراً إلاّ جزءاً من الليل للأكل والشرب فقط، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ تخصيص لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ أي نسخ لصيام بعض الليل.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بنسخ تحريم الجماع في الليل، وبالهداية إلى التوبة ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ لتوبتكم من المعصية ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ في الليل كله، أي فالآن أبيح لكم ذلك، فالظرف للأمر، فهي من أدلة حدوث القرآن، والمباشرة كناية عن الجماع ﴿وَٱبْتَغُواْ﴾ بالجماع ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ من الولد، بإتيانهن في محل التسبيب للولد وترك العزل، وهو يفيد: أن المشروع طلب تكثير المسلمين، كما في الحديث: «تناكحوا تكاثروا».

وذلك لأن في كثرة المسلمين قوّة لهم إذا اتحدوا، وهم وإن كانوا في عصر من العصور غير متَّحدين فإنهم إذا تكالب عليهم أعداؤهم قتلاً ونهباً وإهانة لا بد أن يضطر بعضهم إلى التوحد، فإذا كانوا كثيراً حصلت القوة، ولا يبعد أن تكون بينهم وبين الكفار حروب طاحنة يُستعمل فيها سلاح الإبادة، فإذا كان النسل كثيراً كانوا خلفاً من الماضين وقوة باقية للإسلام.

أما إذا كان النسل محدداً فهو معرض للنقص بالأمراض والحوادث مع أن من الناس من لم يتزوج أو زوجته عاقر أو يموت أولادها بطناً بعد بطن، فإذا أجحفت الحرب بعدد المسلمين كان البدل قليلاً، فإن استمروا على تحديد النسل قرناً بعد قرن فالخطر أعظم، وإن بدا لهم أن هذا الرأي غلط ويرفضوا تحديد النسل حين شاهدوا النقص والحاجة إلى الرجال كان تحصيل جيل بعد ذلك بطيئاً يحتاج إلى انتظار نحو عشرين سنة حتى يأتي الجيل الجديد، فربما غلبهم العدو قبل ذلك وحدد نسلهم اضطراراً، وما أرى تحديده فراراً من مؤنتهم إلاَّ غلطاً؛ لأن الله هو الرزاق، وإن اتسع العمل بسبب كثرتهم فسيكثر العاملون ويكثر استثمار خيرات الأرض بكثرتهم، وأرض الله واسعة لن تضيق بأهلها، والموت ينقصهم والحروب التي تأتي حيناً بعد حين تأخذ منهم ضحايا قد يكون بها عزة الباقين.

وعلى الجملة: فالقرآن والسنة هما الحق، ومخالفتهما خلاف الصواب؛ لأن ﴿اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة:٧٨] وهو يريد بالمؤمنين اليسر ولا يريد بهم العسر، فلو كان تكثير النسل يؤدي إلى العسر لكان أعلم بذلك، ولَمَا حثّ عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ دليل على أن الصيام إنما هو من هذا الوقت من الفجر، وفي (أمالي أحمد بن عيسى) في (كتاب الصيام) [ج١ ص٦١٥] من (رأب الصدع): «حدثنا محمد، قال: أخبرنا جعفر، عن قاسم بن إبراهيم، قال: آخر وقت السحور: أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، والخيط الأبيض: هو الفجر المعترض، وإنما قيل الخيط لاختياطه [وهو اعتراضه]» انتهى.

ومعنى ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ أن يكون واضحاً لمن يرى، ومعنى ﴿يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ يتميز الخيط الأبيض بوضوحه من الخيط الأسود، أي من ظلام الليل الذي فوق الفجر المعترض الممتد من جهة الشمال إلى جهة الجنوب، والعكس.

فهناك خيط أبيض ممتد يميناً وشمالاً وخيط أسود ممتد فوق الخيط الأبيض بامتداد الخيط الأبيض يتميز الأبيض من الأسود بتضادهما، وعلى هذا فليس المراد بهذا الخيط الضوء القوي الذي يفصل بينه وبين سواد الليل نور ضعيف، بل هو النور الضعيف المجاور لسواد الليل يتبين لمن يراه ويتميز له بمضادته لسواد الليل.

ومعنى تبيُّنه: أن يراه الناظر إليه بغير تأمل، ويتميز له بغير تكلف، ويدخل في هذا من تبين له لكنه لم يتحققه لضعف بصره أو وجود غبار في الأفق أو غير ذلك من الموانع.

فأما ضوء القمر فيحتمل اعتباره مانعاً كسائر الموانع، ويحتمل اعتباره منقصاً لسواد الليل المعين على رؤية الفجر ومعارضاً بنوره لنور الفجر الضعيف فهو باعتبار نقصه لسواد الليل ليس مانعاً وباعتبار معارضته لضوء الفجر قبل قوته يعتبر مانعاً.

فالأحوط مراعاة الأمرين وأن لا يحكم بقياسه على حال عدم القمر بواسطة الساعة المعروفة التي تبين الساعات والدقائق بل يؤخر قليلاً أو ينتظر وضوحه بالتأمل بحيث يعرف أنه لولا القمر لكان واضحاً بدون تأمل والمراد بوضوحه هنا أن يكون معلوماً بالرؤية متيقناً في حال وجود القمر على أن في هذه الطريقة نظراً؛ لأن القمر آية الليل وهي أصيلة فيه، فليس لها حكم الموانع العارضة.

فالأحوط: انتظار تبين الفجر بدون تأمل، وهذا للصلاة، فأما لترك المفطرات فالأحوط العمل بالطريقة الماضية لاحتمال أن عدم التبين سببه معارضة نور الفجر بنور القمر لا تخفيف سواد الليل، ومن الاحتياط للصيام العمل بالساعة في الفجر لاحتمال أن ضوء القمر أخفى ضوء الفجر بالغلبة عليه، وهذا إذا لم تكن الأيام في ازدياد الطول، فأما معه فإن الفجر يكون في اليوم الثاني أسرع منه في اليوم الأول فلا يتكل على الساعة.

﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ الصيام إلى الليل: الصيام إلى حضور الظلمة، وكون الصائم مظلماً أي داخلاً في الظلمة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧] وعلى هذا فهي ناسخة لإجزاء الصيام إلى سقوط قرص الشمس كما نسخت ابتداء الصيام نسخت انتهاءه.

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾ في عطف هذه على حكم الصيام في آيته إشعار بأن شهر الصوم مظنة الاعتكاف، ودلالة على تخصيص إباحة النساء ليلة الصيام بحال عدم الاعتكاف.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾ دليل على جواز الاعتكاف في أي مسجد، وفي كون النهي عن المباشرة في حال الاعتكاف، المراد به لا يباشرها في البيت مثلاً دليل على أن الاعتكاف يكون لبثاً في المسجد مدة محدودة بالنية أو النذر حتى يتصور أن يخرج ويجامع في غير المسجد مع اعتباره معتكفاً في حال الجماع.

وإنما قلت: إن النهي هنا متناول للجماع في غير المسجد لأن الجماع في المسجد لو كان هو المقصود لقال: (ولا تباشروهن في المساجد)؛ لأن الجماع في المسجد لا يختص تحريمه بحالة الاعتكاف؛ لأنه يؤدي إلى الجنابة والكون في المسجد في حال الجنابة اختياراً وعمداً، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أحل المسجد لجنب ولا حائض» والروايات في هذا كثيرة في إخراج رسول الله ﷺ أصحابه من المسجد وسد أبوابهم الشارعة إلى المسجد إلاَّ باب علي عليه السلام.

وقال الشرفي في (المصابيح) في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾: «نزلت في ناس من الصحابة كانوا يعتكفون في المساجد، فإذا عرضت لأحدهم حاجة إلى أهله خرج وجامعها فنهوا» انتهى.

﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ يمكن أن الإشارة إلى حدود الصوم وإباحة الأكل والشرب والجماع وحد إباحة الجماع، ويمكن أن الإشارة موجهة إلى ما جاء في آيات الصيام وما صحبها، وهو أظهر؛ لأن هذه خاتمة الموضوع كله؛

ولأنها وقعت مخالفة من الماضين قبل الإسلام في حد الصيام حيث جعلوه في وقت غير الذي أمر الله به.

﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ تأكيد للنهي عن مخالفة تحديد الله سبحانه بإيجاب التزام العمل به والوقوف عنده وتحذير من التهاون به، وله صور منها: الإفطار قبل تحقق الليل، ومنها الأكل ونحوه في السحر بدون حذر من الأكل أو نحوه بعد طلوع الفجر، وذلك فيمن كان في منزل أو خلف جبل أو في حال الغمام أو نحو ذلك، ومنها: ملاعبة الزوجة في النهار، ومنها: استعمال ما هو مظنة النزول من الحلق مع الريق كالبردقان، فهذه كلها قرب للحد مظنة لتعديه.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ في هذه الجملة ـ وقد تكررت ـ ترغيب في تعلم معاني القرآن ودفع لكيد الشيطان الذي يوسوس للإنسان أنه صعب عليه أو متعذر، فيشتغل بغيره ويتركه، وفيه ردّ على من يجعل فهمه خاصاً بالإمام أو بالشيخ؛ لأن قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ دليل على بطلان قولهم لأن الناس عام شامل لكل الناس، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي باتباع آياته وامتثال أمره ونهيه.

(١٨٨) ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهذه عامة لكل وسيلة لأخذ مال أحد الذين آمنوا مخالفة للحق كالرشوة ومهر البغي وكسب المغنّية وحلوان الكاهن وكل معاملة محرمة، ومن الباطل ما جعل سبباً بواسطة التغرير أو الكذب أو الإكراه، وليس سبباً شرعياً يحل به المال؛ لأنه يعمه اسم البطلان؛ لأن ما كان بالكذب أو التغرير ليس سبباً، وإنما ظن المعطي أنه سبب، وهو في الواقع باطل وغير مرضي عنده، لو انكشفت له الحقيقة.

وأما الإكراه فهو ظلم ولا تصح المعاملة به لفقدان الرضى من المكره، فما ترتب عليه من بيع أو غيره فهو باطل داخل في عموم الآية، ومن الباطل معاشات الظلمة التي تعطى لمن يعينهم أو يكف عن معاونة أهل الحق أو عن القيام بالقسط، فإعطائهم إياها باطل فهم يأكلونها بالباطل.

﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾ أصل الإدلاء: يكون إبداء الحجة، كإبراز شهادة عادلة، واستعمل فيما يسلم من المال إلى الحكام توصلاً إلى أكل مال الغير، سواء كان الغرض أن يحكم الحاكم للراشي، أو أن يترك الحكم لصاحب الحق بحيث يتمكن الطامع من أكل ماله، فالآية الكريمة شاملة للأمرين.

﴿لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقًا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير ﴿فَرِيقًا﴾ «قطعة» وهو مناسب لما في (مفردات الراغب) من اشتقاق الفريق من الفَرْق لفصله عن الفريق الآخر، والأرجح: أنه عبارة عن جملة من المال مأخوذة من مال المسلم؛ لأن الرشوة لا تدفع إلى الحاكم لأخذ التافه الحقير الذي هو أقل من الرشوة، فالفريق عبارة عن مقدار مرغوب فيه ولو شيئاً واحداً في معنى جملة من المال لغلاء ثمنه، ولأنه جملة مؤلفة من أبعاضه الثمينة، فالنهي عنه لأنه مظنة الوقوع بسبب الرغبة فيه.

وقوله: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ أي بالجعالة التي هي إثم، وهو يعم الرشوة والهدية لهذا الغرض، وقوله: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي تعلمون أن الله حرم ذلك فتجرؤون على معصيته، وفي هذه الآية ـ وغيرها من القرآن كثير ـ دلالة على بطلان الإشتراكية بمعنى أن الأموال كلها مشتركة لا يختص فرد بشيء منها، ودلالة على أن أكل أموال الناس بدعوى الإشتراكية محرم؛ لأنه أكل لها بالباطل.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ

---

﴿١٨٩﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِ﴾ الأهلّة: جمع هلال، وهو ما يبدو من القمر في أول الشهر، ذكر الراغب في (مفرداته): «أنه يسمى هلالاً إذا كان في الليلة الأولى من الشهر والثانية» اهـ.

والسؤال عن شأنه لأنه واضح أنه بعض القمر، كأنهم قالوا: لماذا يبدو ثم يكبر ويصير قمراً، ثم يصغر حتى يعود كالعرجون القديم، ثم يبدو هلالاً في أول الشهر وهكذا مستمراً، ولكون الرسول ﷺ بعث والقرآن نزل لبيان المعارف الدينية كان الجواب ببيان ما فيه من حكمة ونعمة، لا بالجواب المطابق أن سبب ذلك ما يذكره علماء الفلك؛ لأن المهم التعريف بحكمة الله ونعمته وإن كان في ذلك الجواب آية لكنهم أحوج إلى بيان النعمة والحكمة مع أن الآيات المشاهدة تكفيهم.

﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ﴾ ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ ينتفعون بها في معاملاتهم وأعمالهم مثل أجل الدين وأجل عمل الأجير وأجل العطلة وغير ذلك، وينتفعون بها لمعرفة أشهر ﴿ٱلۡحَجِّ﴾ ليسافروا للحج ويفعلوه في وقته بواسطة عدد الشهور من محرم إلى شهر الحجة.

﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ لأن الله لم يشرع ذلك، فليس قربة كما كانت الجاهلية تظن ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي عمل من اتقى ربه فأطاعه واجتنب معاصيه ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَا﴾ تركاً للبدعة، ورفضاً لعمل الجاهلية ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ لأن الفلاح لا سبيل إليه إلاّ التقوى التي تنجي من النار وتبلغ أهلها الجنة.

يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ

---

﴿١٩٠﴾ ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ لأنهم يقاتلونكم محاربة لدين الله وصداً عن سبيل الله، فقاتلوهم حماية لدين الله، وقصداً لإعلاء كلمة الله، وفيها دلالة على وجوب نية ذلك في القتال لا مجرد الدفاع، فإنه لا يكفي وإن كان حسناً، بل واجباً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران:١٦٧] لأن المقصود الاستعانة بهم على دفع العدو، وقد عرف منهم أنهم لا يريدون القتال في سبيل الله، فكأنه قيل: قاتلوا في سبيل الله، فإن لم تريدوا ذلك فادفعوا العدو، فليس المراد التخيير في التكليف الشرعي، وإنما المراد قاتلوا على أية حال، ولو لم يكن إلاَّ دفعاً للعدو، وهذا واضح.

والحاصل: أن قتال العدوّ لدفعه واجب، ونية الدفع لحماية الإسلام وإعلاء كلمة الله واجب، مع ذلك الواجب بدليل هذه الآية وغيرها، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ أي الذين قد اعتادوا قتالكم، فليس الأمر هنا مخصوصاً بحالة الدفاع، بل هو كقوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة:١٣] وعلى هذا فالواجب قتالهم كما هو مفصل في (سورة التوبة).

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ بالقتال الذي نهيتم عنه كالقتال في الحرم بغير وجه، والقتال في الأشهر الحرم، وقتال من بينكم وبينهم ميثاق قبل النبذ، وقتال من لم يقاتلوكم ولم يظاهروا عليكم عدواً، ولم يطعنوا في الدين ولم يفتنوا مسلماً، وقتل النساء والصبيان والشيوخ العاجزين.

ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾

---

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وهذا زجر عظيم؛ لأن أهل السياسة يطمعون في الهجوم على العدوّ حال غفلته وعدم استعداده ولا يتقيدون بنهي الله، فبيّن الله أنه لا يحبهم وأنه لا يرضى عملهم، فهم آثمون في ذلك.

﴿١٩١﴾ ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ أي الذين أمر الله بقتالهم ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث ظفرتم بهم ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ من البلد الذي كنتم فيه وهم فيه، فأخرجوكم منه بغير حق، إلاَّ أن تقولوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج:٤٠] فحيث قد أمكنكم إخراجهم وتطهير البلاد من رجسهم فأخرجوهم.

وفيها دلالة على أن الله أمر رسوله ﷺ بقتال أهل مكة وإخراجهم، وقد روي في مكة خاصة أن الله حرمها ولم يأذن في القتال فيها لأحد إلاَّ لرسول الله ﷺ ساعة من نهار، وهذا معنى الحديث، وهو في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام) فأما غيره فلا يقاتل في الحرم إلاَّ دفاعاً وقصاصاً.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ فقد كان الكفار بمكة يفتنون من أسلم ويعذبونه ليرجع عن الإسلام إلى الكفر ولم يكن الكفار يرعون حرمة الحرم ويتركون الفتنة فيه رعاية لحرمته، فليس لهم أن ينكروا عليكم قتلهم فيه؛ لأن فتنتهم لمن أسلم أشد من القتل، فهم يستحقون القتل جزاءً، ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾.

﴿وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي في الحرم، و﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الكعبة، وعنده حرمه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص:٥٧] ﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ وهم إذا قاتلوكم في الحرم هم المسؤولون عن هتك حرمة الحرم ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أن يقتلوا.

فإن قيل: ظاهر الآية هذه تحريم قتالهم في الحرم إذا لم يبدأوا بالقتال فيه، وظاهر الآية التي قبلها جواز ذلك؟

فالجواب: أن الآية الأولى خاصة برسول الله ﷺ وبالمهاجرين معه، بدليل قوله: ﴿مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ فقد أباحها الله له كما في الحديث، والآية الثانية عامة لهم ولمن بعدهم، فالأصل تحريم القتال في الحرم إلاّ دفاعاً أو قصاصاً، وتخصيص رسول الله ﷺ ومن معه من المهاجرين غير معارض لهذا الأصل؛ لأن المشركين قد بدأوهم حين قتلوا بعض من أسلم وفتنوا بعضاً وهموا بقتل الرسول ﷺ، فأخرجوه ومن معه من مكة.

وجواب آخر ـ وهو أظهر ـ: أن رسول الله ﷺ أذن له في قتالهم إلاّ في الحرم، فلا يبدأهم بقتال، وله أن يدخل الحرم بقوته وجند الله معه كافّين عن القتال حتى يبدأهم الكفار بالقتال في الحرم، فالإذن الأول مطلق مقيد بهذه الآية، فإذا بدأوهم بالقتال في الحرم حل قتالهم فيه وأخرجوا منه.

فكأنه قيل: أذن لكم في قتالهم وإخراجهم من مكة بأن تدخلوها ولا تبدأوهم بالقتال، فإذا بدأوكم وهم لا بدّ أن يبدأوكم فاقتلوهم وأخرجوهم، وهذا لتكونوا قد رعيتم حرمة الحرم وقتلتم الذين يقاتلونكم وأخرجتموهم من حيث أخرجوكم.

فإن قيل: فظاهر الآيتين جواز ذلك لمن بعدهم لو وقع لهم مثل ما وقع لهم بأن استولى الكفار على مكة وطردوا أولياءه المتقين منها أن يهجم إمام الحق عليها ويطهرها من الكفار بنفس الطريقة بدلالة الآيتين، وبدلالة قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال:٣٤] فما الحل مع ورود الحديث المصرح باختصاص رسول الله ﷺ؟!

وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ

---

**قلت**: إذا كان إمام شرعي فهو أعلم بالحل، ولعله لا يتفق مثلما وقع في عهده ﷺ، بل يكون مركز دولة الكفر خارج الحرم، أعني موضع الجيش والقوة لضيق مكة بكثرة السكان، فإذا كان كذلك كفى الإمام أن يهجم على مركز القوة، فإذا انتصر عليهم وبطلت دولتهم لم يحتج إلى قتالهم في الحرم فلا إشكال.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ بأن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة كما دل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨] وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٥] فالانتهاء انتهاؤهم عن عداوة الإسلام وتوبتهم من محاربته بالدخول فيه كما ذكر في الآية، وهذا لأنهم ما داموا مصرين على محاربة الإسلام، فلم ينتهوا؛ لأن اسم محاربتهم للدين باق عليهم وحكمهم باعتيادهم لقتال المسلمين ثابت عليهم ماداموا مصرين غير تائبين منه، ومجرد تركهم للقتال مع بقاء الإصرار ليس انتهاء فلا يتحقق انتهاؤهم إلاَّ بالتوبة؛ لأن الإصرار في قلوبهم لا يذهب إلاَّ بالتوبة، فإذا تابوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر لمن تاب، فلا مقاصة في القتال في الحرم السابق للتوبة.

﴿١٩٣﴾ ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ فهذه فائدتان لقتالهم مع الأولى في سبيل الله وتحقيق لغاية القتال الذي أمروا به، فالذين يقاتلون المسلمين يقاتلون حتى لا يُفتن مسلم بسبب إسلامه، وحتى لا يكون دين لغير الله.

ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ

---

والفوائد في قتالهم: أن المؤمن يحصل له أجر الجهاد في سبيل الله، وأجر دفع الفتنة لمن أسلم، وأجر إذهاب الدين لغير الله، ومن الدين لغير الله العمل بالقوانين المخالفة لشريعة الله، واتباع علماء السوء في تغيير الدين، وطاعة ولاة السوء في معصية الله، وأشباه ذلك.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ تابوا عن قتالكم وعن فتنة من أسلم وعن الدين لغير الله كما مر في الأولى ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فحيث قد تابوا فقد خرجوا عن كونهم ظالمين وصار قتالكم لهم عدواناً محرماً، والعدوان على الظالمين الجائزُ قتالُهم في الشهر الحرام إذا اعتدوا على المسلمين فيه.

﴿١٩٤-١٩٥﴾ ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ قصاص للمعتدي ﴿وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ﴾ من حرمة الشهر الحرام وحرمة الحرم ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ بهتك حرمة منها ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في البلد الحرام أو في الشهر الحرام، ولا يضركم تسميته عدواناً في لغة العرب؛ لأن الحرام ما حرم الله والحلال ما أحل.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فلا تزيدوا على ما أحل لكم، مثل: هتك حرمتين قصاصاً في هتك حرمة واحدة، وكذلك حافظوا على طاعته في كل أمر من قتالهم كما أمرتم، والالتزام بحدوده في القتال وغيره، واجتناب معاصيه كلها، والتوبة إليه عند المخالفة.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فقاتلوهم كما أمرتم وارجوا النصر من الله؛ لأنه معكم ما دمتم متقين ولا تخالفوا في شيء من أمره متعمدين فتخرجوا عن التقوى، وعن استحقاق النصر، ويفوتكم كون الله معكم.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في سبيل نصر دين الله، وحماية دين الله، والدفاع عن دين الله، ومنه الإنفاق على أنصار الدين ليثبتوا على نصرهم للدين، أو لتقويتهم على نصر الدين أكثر، وعلى المهاجرين في سبيل الله والمرابطين، وأنصار علماء الدين القائمين في نصر الدين وحراسهم، وعلماء الدين أنفسهم لهذا الغرض، وطلاب علم الدين الذي يتوصلون به إلى الدفاع عن الدين.

﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ بترك الإنفاق في سبيل الله حتى يقهركم أعداء الله لعجزكم عن قتالهم بغلبة الفقر المؤدي إلى ترك الجهاد من كثير من الناس، ومن الإلقاء بالأيدي إلى التهلكة: الاستسلام للعدو مع إمكان الدفاع، ومن الإلقاء بالأيدي إلى التهلكة التخاذل عن نصر الإسلام، والتفرق المؤدي إلى الضعف عن الدفاع، ونحو هذا من التسبيب الاختياري الذي يكونون فيه عملوا سبب هلاكهم بأيديهم كمن يتسلم للعدوِّ معطياً له يديه ليقبض عليهما.

وليس منه جهاد المستميت كأهل بدر، وزيد بن علي، ومحمد بن عبد الله، وإبراهيم بن عبد الله، الذين لم يكن لهم بدّ من القتال، وكان تركهم للقتال إلقاء باليد إلى التهلكة؛ لأنهم لو تركوا القتال لقتلوا، وكالحسين ومن معه رضوان الله عليهم، وهذا لأن أصل المعنى في الآية: ولا تلقوا أنفسكم إلى التهلكة بأيديكم، فمن خرج عن حالة الاختيار لم يكن أعطى العدو نفسه بيديه؛ لأن المراد باختياره وعمله بيديه كما ذكرت.

وكذلك من قاتل يرجو النصر أو دعا للقتال راجياً لحصول أنصار كثير قد سبقت منهم بيعة فنكثوا فاضطروا إلى القتال كما ذكرت، ولو دخل في الآية كل من قاتل وقتل لتعذر الجهاد وخرجت الشهادة عن كونها إحدى الحسنيين، فلا يدخل فيه من قاتل مجوزاً للسلامة، ولو تجويزاً ضعيفاً، بل هذا شأن الأبطال الذين يقاتلون في سبيل الله لرجائهم إحدى الحسنيين، كأمير المؤمنين علي عليه السلام في (بدر) و (أحد) حين فر الناس و(حنين) حين فر الناس، وحين رقد في مرقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفداه بنفسه، وكالمجاهدين من ذريته الذين اقتدوا به، وأشبهوه في بطولته وضربه، وشروا أنفسهم من الله.

﴿وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا ترغيب في الإحسان، بل أمر به وهو مطلق يصدق على الإحسان بالإنفاق وسائر أنواع الإحسان.

قال الشرفي في (المصابيح): بعد ذكر هذه الآيات الستّ: «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام في أحكام هذه الآيات الستّ: تدل على وجوب قتال من قاتل أهل الحق وقتلهم حيثما ثقفوا، وإخراجهم من حيث أخرجوا أهل الحق، وعلى تحريم الاعتداء، وعلى تحريم القتال عند المسجد الحرام حتى يقاتلوا أهل الحق فيه، فمتى فعلوا ذلك وجب قتلهم فيه، وعلى وجوب قتال كل معتد حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، وعلى أن الحرمات قصاص، فمن اعتدى على أهل الحق جاز الاعتداء عليه بمثل ما اعتدى، وعلى أن من اعتدى في شهر حرام اعتدي عليه في شهر مثله، وعلى وجوب إلتزام التقوى مع ذلك كله، وعلى وجوب الإنفاق في سبيل الله وهو الجهاد، وعلى تحريم الإلقاء بالأيدي إلى التهلكة بأن يعصوا الله ويتركوا ما أمرهم الله به من هذه الأحكام، أو أن يسلموا أنفسهم إلى أيدي الظالمين فيهلكوهم، وعلى وجوب الإحسان في الأعمال الواجبة، وفي ترك المحرم، وعلى الحث على الحسنات واجبها ومندوبها» انتهى.

لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ

---

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ لا يبيح المقاصة بالمعصية ولا المعصية المقارنة للقصاص، فأما القتال في الحرم قصاصاً أو في الشهر الحرام قصاصاً فقد دلت الآية على إباحته، فليس قصاصاً بالمعصية، وقد أمر الله بالتقوى في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ يَـٰأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ وغيرها، فلم يرخص في معصيته للقصاص، فلا يجوز القصاص بقتل الصبي جزاء لقتل الصبي، ولا بالزنا بالحرمة جزاء للزنا بالحرمة، ولا بأكل طعامه في نهار شهر رمضان جزاءً لأكله طعامك في نهار شهر رمضان، فليس ذلك وأشباهه مقصوداً في الآية، إن الله لا يأمر بالفحشاء.

ومن هنا حرم القصاص في الجراح بما يظن الموت بسببه، بل ينتظر حال المعتدى عليه، فإن مات من الجراح قتل الجارح له؛ لأنه قتله وإن عوفي سُلِّم له أرش الجناية، وكذلك حرم القصاص بأشد من جناية المعتدي، ولذلك حرم القصاص بما هو مظنة الزيادة ككسر العظم بكسر العظم، وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ والزيادة اعتداء.

﴿١٩٦﴾ ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ هذا فيمن دخل في الحج أو العمرة بالإحرام، فأما الأمر بالحج نفسه فهو في آية أخرى.

﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ عن الإتمام بمرض أو عدو أو غير ذلك ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ يجزي عن الاستمرار فيهما لإتمامهما.

﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ﴾ تحللاً من الإحرام لهما ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾ ومحله الحرم؛ أو منى في الحج خاصة، والإحصار عن الإتمام قيل: خاص بالإحصار عن الوقوف في الحج والطواف في العمرة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ ظاهره: الإطلاق، بحيث يتناول من أحصر عن طواف الزيارة وإن كان قد وقف بعرفات؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾ يصلح في المحصر عن الإتمام وإن كان قد وقف بعرفات إذا لم يكن قد رمى الجمرة وحل له الحلق بالرمي؛ لأنه يحل له الحلق بطواف الزيارة، أي طواف النساء فيكون له الإحلال بالهدي على أن يطوف طواف الزيارة متى استطاع، مع أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ﴾ ليس قيداً في الإحصار، وإنما هو حكم من أحكامه.

ويمكن أن يخص هذا الحكم من لم يكن رمى الجمرة من المحصرين، ولا طاف طواف الزيارة بقرينة أن منع الحلق خاص بمن كان ممنوعاً من الحلق لأجل الإحرام، ويبقى قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ على عمومه، يتناول من قد رمى الجمرة وحلق ولم يطف طواف الزيارة؛ لأنه محصر عن إتمام الحج.

وما قيل: من أن معناه فإن أردتم التحلل من الإحرام فعليكم ما استيسر من الهدي، فلا نسلم صحته، بل معناه: فإن أحصرتم عن الإتمام للحج أو العمرة ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ يجزيكم لترك الإتمام كما قدمت في نظائره، والمذكور هو الإتمام؛ إتمام الحج والعمرة لا إتمام الإحرام، فلا يصح صرفه إلى إتمام الإحرام، مع أن إتمام الإحرام لا يكون إلاَّ بطواف الزيارة؛

لأن من رمى الجمرة يبقى عليه بعض من الإحرام، وهو تحريم النساء حتى يطوف طواف الزيارة، فيكون حكم الإحصار عاماً لمن بقي عليه شيء من الإحرام، وتحريم الحلق خاصاً بمن لم يكن رمى الجمرة، فالمحصر: الذي قد رمى الجمرة وحلق يفدي للتحلل من بقية الإحرام، هذا ما فهمته أنا من الآية الكريمة.

ولم يذكر الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) إلاَّ المحصر عن الوقوف، حيث قال: «فإن هو تخلص من إحصاره حتى يأتي مكة فإن لحق الحج حج..» إلخ.

فظاهره: أنه خاص بالمحصر عن الوقوف، ولكنه لم يذكره تفسيراً للآية، ولم يصرح بأن الإحصار إنما يكون عن الوقوف، ومثله كلام الإمام زيد بن علي عليهما السلام في (المجموع) ويمكن أنهم خصوا بالذكر من أحصر عن الوقوف والطواف في العمرة؛ لأن ذلك هو الغالب في الإحصار، فأما الإحصار عن تمام الحج بعد الوقوف فهو نادر جداً؛ لأنه إن كان لعدوٍّ فالغالب أنه يكون في الطريق قبل الوصول إلى عرفات، ومن لم يمنع من عرفات لم يمنع من مكة في الغالب؛ لأنهما في العادة يكونان تحت دولة واحدة.

وإن كان الحصر لمرض فيمكن التخلص منه في الغالب بركوب سرير يحمل فيه ويطاف به طواف الزيارة، ويذبح دماء عن بقية المناسك، فلم يكن الإحصار بالمرض إلاَّ نادراً فيمن اشتد به المرض وخشي التلف إن طيف به أو زيادة شدة المرض، واستمر به حتى يعود أصحابه واضطر للعودة معهم لخشية الموت إذا تركوه وحده ولم يستطع إيقافهم لينتظروا حتى يطوف، ولم يستطيعوا انتظاره للخوف من انفرادهم في الطريق إذا تأخروا، فبان أنهم لم يذكروا الإحصار عن بقية الحج؛ لأنه نادر جداً.

وعلى هذا: فلا يخص الإحصار بالإحصار عن الوقوف، وقد يتصور الإحصار عن طواف الزيارة فيمن طاف طواف القدوم قبل الوقوف، ثم وقف واشتد به المرض وكان رفيقه جاهلاً، وهو زائل العقل، فلم يطف به، وتركه ثم عاد به معه لجهله كيف يصنع به، ولم يفق المريض إلاَّ في الطريق في العودة أو كان جاهلاً لم يستطع شيئاً من أعمال الحج لمرضه ولم يدر ما يصنع لجهله حتى رجع ثم أحصر عن العودة بمرض أو عدو أو عدم نفقة للعودة، فهذه صورة وهي نادرة أيضاً.

وقد وقع نظيرها في الإحصار عن العمرة للجهل، فقد خرج أناس من المدينة وأحرموا للعمرة ثم انقلبت بهم السيارة وحدثت فيهم جراح وحالة شديدة، فحملوا في سيارة أخرى إلى المدينة المنورة ولبسوا ثيابهم واعتبروا أنفسهم أن قد حلوا لعجزهم في تلك الحال عن إتمام العمرة، أو لذلك وللبسهم ثيابهم، فلما تحسنت حالتهم في طيبة ورجعوا أحرموا للعمرة من ذي الحليفة وهم في الواقع ما زالوا محرمين؛ لأنهم لم يبعثوا بهدي، ثم طافوا بالبيت لهذه العمرة الأخيرة ورجعوا بلادهم وعجز بعضهم عن الرجوع من بلاده لاستكمال بقية المناسك؛ لفقره، فهذا لا إشكال أنه محصر على المذهب.

وإنما الإشكال في الحاج الذي قد وقف لو وقع له حادث فترك في المستشفى ثم أعيد إلى بلده وهو لا يشعر أو لا يدري ما يصنع، ثم لما وصل إلى البلاد سأل، ما يلزمه؟ فإن كانت تُمكنه العودة وجبت عليه ليطوف طواف الزيارة وإن كان عاجزاً عن ذلك فعلى ما رجحته يبعث بهدي ويتخلص من إحرامه ببلوغ الهدي محله، وعلى قولهم: إن المحصر إنما هو المحصر عن الوقوف يبقى هذا على بقية إحرامه حتى يتمكن من العودة أو يموت.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ قال المؤيد بالله في (شرح التجريد): «ولا خلاف أن اسم الهدي يتناول الشاة، وروى ابن أبي شيبة قال: حدثنا حفص، عن جعفر، عن أبيه، عن علي عليه السلام قال: ما استيسر من الهدي شاة. وروى ابن أبي شيبة، عن ابن عباس، وابن عمر ذلك، وهو مما لا خلاف فيه» انتهى.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾ فاحتاج إلى الحلق في المرض، وذلك قد يكون لوضع علاج من الصداع على الرأس إذا احتاج المريض إلى ذلك أو لأي سبب احتاج المريض إلى الحلق أو احتاج إلى الحلق الذي به أذى من رأسه كالذي به القمل الذي يؤذيه في رأسه.

﴿فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام ﴿أَوۡ صَدَقَةٍ﴾ إطعام ستة مساكين ﴿أَوۡ نُسُكٖ﴾ ذبح شاة من الشاء، والنسك: جمع نسيكة، مثل صحيفة وصحف، فمن كان كما ذكر الله ففدية مما ذكر تجزيه عن ترك الحلق من أجل الإحرام، والمراد تقدير لفظ تجزيه أو ما يوافقها في إفادة حَلّ المشكلة مثل: تكفيه أو تغنيه، فهذا هو الذي يفيده السياق كما مر في آية الصيام، وتفسير الصيام والصدقة والنسك بما ذكرت؛ رواه الإمام زيد بن علي في (مجموعه) عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ وزال الإحصار بالخوف، أو سلمتم الإحصار بالخوف فأتموا كما أمرتم ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ﴾ التمتع: الانتفاع العاجل، والتمتع بالعمرة: أن يعتمر من يريد أن يحج، فإذا وصل ميقات الحج أحرم بالعمرة ليستبيح بعدها ما يحرم بالإحرام مما يحل لغير المحرم، ويتخلص بها من الإحرام للحج عند وصوله الميقات إذا كان يطول عليه الإحرام لبُعد يوم النحر.

وهذا لأنه إذا وصل الميقات لم يكن له بدّ من الإحرام، إذ ليس له أن يتجاوز الميقات إلى الحرم بغير إحرام؛ لأن ذلك ينافي كون الميقات ميقاتاً للإحرام، فالإحرام للعمرة أخفّ له؛ لأنه يصل مكة فيطوف ويسعى ويقصر، وانتهت العمرة وحل له لبس ثيابه وتغطية رأسه والطيب والنساء ونحو ذلك من محظورات الإحرام، وبقي على هذا إلى الحج حين يحرم للحج يوم التروية مثلاً، فقد تمتع بما حل له بواسطة العمرة، فلذلك صح التعبير بأنه تمتع بالعمرة إذ لولا العمرة لاحتاج إلى الإحرام للحج حين بلغ الميقات.

﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ يجزيه عن الإحرام للحج من الميقات، واستمراره على إحرامه إلى يوم النحر، وقد قيل: إن في هذا دلالة على أن التمتع دون الإفراد والقران في الفضل؛ لأن هذا جارٍ مجرى الترخيص الذي يقرن بفدية؛ لأن الهدي كان بدل الإحرام بالحج.

وأنا لا أرى في هذا دلالة على ما قالوه، بل يدل على التخيير؛ لأن الهدي لو كان فدية لسماه الله فدية، فلما سماه هدياً دل ذلك على أن الكلام جرى مجرى التخيير بين الإحرام للحج من الميقات وبين التمتع مع الهدي، والتخيير لا يدل على أن أحدهما أفضل، وقد روي عن بعض الأئمة اختيار التمتع بما يفيد أنه عنده أفضل، ولعله أفضل في حق من يفعله حماية لحكم الله من الضياع ودفعاً لإهماله وتصييره بمنزلة المنسوخ، ولئلا يدعى من بعد أنه منسوخ، وكانت الحال تقتضي ذلك؛ لأن عمر نهى عنه.

وروي أن علياً عليه السلام حج متمتعاً فأنكر عليه عثمان، فقال علي عليه السلام: «ما كنت لأدع سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قولك» أو نحو هذا.

وفي (أمالي الإمام أحمد بن عيسى) [ج١: ص٦٩٧] من (رأب الصدع): «حدثنا محمد، قال: حدثنا عباد بن يعقوب، عن يحيى بن سالم، قال: قال أبو الجارود: قال أبو جعفر [أي الباقر]: لو حججت مائة حجة ما حججت إلاَّ متمتعاً» اهـ.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ هدياً ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ ظاهر الآية: أن الهدي يكون عند الإحرام للحج؛ ليكون قد صدق عليه أنه تمتع إلى الحج، فإذا لم يجد هدياً صام عشرة أيام، ثلاثة منها بعد أن أحرم للحج ولم يجد هدياً، وذلك يستلزم أن يحرم قبل يوم التروية ليصوم الثلاثة الأيام قبل يوم الأضحى للنهي عن صيامه وصيام أيام التشريق، ويحتمل أن النهي لغير المتمتع، فلا إشكال، وظاهر الآية أنه لا يجزي الصيام قبل الإحرام للحج؛ لأنه ليس في الحج.

*وعلى هذا*: فالإحرام يوم التروية خاص بواجد الهدي، وعليه تحمل الرواية: أن السنة للمتمتع أن يحرم يوم التروية.

﴿وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ في الطريق أو عند وصول المسكن فوراً بلا تأخير ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ وجبت على المتمتع، وفائدة هذا أن لا يتوهم أنه يجزيه ثلاثة أيام في الحج ويجزيه سبعة إذا رجع، ولم يصم ثلاثة أيام في الحج.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التمتع بالعمرة إلى الحج وأحكامه ﴿لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ فمن كان أهله حاضري المسجد الحرام لم يشرع له ذلك، ولعل معناه: أنه حاضر لا يرد الميقات من خارج، فلا يحتاج إلى التمتع أو أنه يجوز له لو جاء من خارج أن يحرم من داره؛ لأنه ميقاته، وليس عليه أن يحرم من ميقات الآفاقي.

ويحتمل أيضاً ـ وهو الراجح عندي ـ لترابط سياق الكلام فيهما لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ فقد ربط بين المسألتين بـ(الفاء) أن الإشارة إلى حكم التمتع وحكم الإحصار كله، فيلزم من كان أهله حاضري المسجد الحرام: أن يصبر على إحرامه حتى يجعل الله له سبيلاً إلى أهله أو يخرجوا إليه؛ لأن ميقاته داره، فلم يكن محتاجاً إلى الإحرام حيث أحصر، فلم يستحق التحليل بالهدي، أو لأنه لم يصح إحرامه قبل بلوغه ميقاته الذي هو داره في الحرم على القول بأنه لا يصح الإحرام قبل بلوغ الميقات عندهم.

فيؤخذ من هذا: أن ﴿حَاضِرِى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ هم مَن كان ساكناً في الحرم المحرم، وهو الأقرب؛ لأن الحاضر في اللغة ضد الغائب، ومن كان خارج الحرم فهو غائب عن الكعبة، وهي المسجد الحرام، وحضور الكعبة هو القرب منها، ودعوى أكثر من هذا واعتباره حضوراً يحتاج إلى دليل، واللغة هي العمدة في تفسير القرآن لا الرأي، مع أنه قد ظهر وجه التخصيص لمن في الحرم، فالمهم تخليص الحاج من الانقطاع في الطريق؛ لأنه قد يؤدي إلى هلاكه بنفاد الزاد حيث لا يجد بدلاً.

ومن كان أهله في الحرم الغالب أن يكون عندهم لا يحصر عنهم، فإذا اتفق خروجه وإحصاره فهي صورة نادرة؛ لأن الإحصار إن كان من أجل الدولة المستولية على الحرم فهي تفتح له لكونه من اهلها، وإن كان الإحصار من خارج فالعادة في الأصل أن يكون صاحب الحرم محترماً، ولذلك قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت:٦٧] وإن كان من أجل قطاع الطريق الطامعين فهو بعيد في أيام الحج لكثرة الأصحاب الوافدين للحج، وإن كان الإحصار لمرض فالهدي لا يفيده شيئاً إلاَّ ما قد رخص فيه للمرض مع الفدية، وهي تغني عن الهدي.

وقيل: (من كان أهله حاضري المسجد الحرام) من ميقاته داره، إذْ له الدخول بغير إحرام فلا يحتاج إلى التمتع، وهذا مبني على أنه في داره، وهو بعيد؛ لأنه كان يكفي أن يقول: ذلك لمن لم يكن حاضرَ المسجد، ولا معنى يفيد لذكر الأهل وخصوصاً أنه مظنة أن يكون الحاضرون فيه دون أهلهم كثيراً، فذكر الأهل لا فائدة له تظهر إلاَّ في حق من كان متمتعاً أو محصراً قد حيل بينه وبين أهله كما حيل بينه وبين إتمام الحج أو العمرة.

ومن كان وارداً من خارج المواقيت إلى الحرم التي لأهل الآفاق، وفيه أهله مقيمون فلعله يؤخذ من الآية أن له الدخول بغير إحرام، فلا يحتاج إلى التمتع بل يدخل ويحرم للحج من داره؛ لأنه ميقاته، فقد قال بعضهم: إذا أتى داره قبل الإحرام فله أن يحرم منها ولم يلزمه الإحرام من الميقات، ولكن لم يقرر للمذهب، وكلا القولين تخريج للإمام لهادي عليه السلام.

أما من قال: يحرم من ميقات أهل الآفاق فتخريجه من قول الهادي في مواقيت أهل الآفاق مواقيت لأهلهن، ولمن أتى عليهن من غير أهلهن، فدخل المكي في العموم.

وأما من قال: يحرم من داره فتخريجه من قوله في (المنتخب) من كان منزله أقرب إلى مكة أحرم من منزله، وجعل المقصود في الكلام الأول من أتى من أهل الآفاق لا المكي، ومن كان دون المواقيت ويرجحه أمران:

*الأول*: أن الهادي جعل تلك المواقيت لأهل الآفاق خاصة؛ لأنه قال في (الأحكام) في (باب القول في مواقيت الإحرام): «ثم وقّت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأهل الآفاق في الإحرام مواقيتهم..» فذكرها، فظاهره: أنها خاصة بهم؛ لأنه أطلقه، ثم قال بعد تعيين كل ميقات لأهل أفقٍ: هن مواقيت لأهلهن، ولمن

أتى عليهن من غير أهلهن، والظاهر: أن المقصود أهل الآفاق، ويعني بذلك أهل الآفاق، من أتى منهم ميقاتاً من مواقيتهم غير ميقات بلده أو ليس له ميقات مسمى باسم بلده؛ لأنهم المذكورون، ولا ذكر هناك لمن كان أقرب إلى الحرم من المواقيت كلها.

الأمر *الثاني*: أن من كان أقرب إلى الحرم أو فيه ليس من أهل المواقيت المذكورة، وله ميقات أصليّ ليس بدلاً من المواقيت المذكورة لأهل الآفاق، وهو داره كما هو مذكور في (المنتخب)؛ لأنه قال: «أما من حج فأخذ على طريق المدينة فميقات إحرامه من ذي الحليفة، وأما من أخذ على طريق الجادة أو من أتى من أهل نجد ـ أيضاً ـ فميقات إحرامه من ذات عرق..» إلى قوله: «ومن أتى من أهل اليمن من طريق نجد أو من أهل نجد فميقات إحرامه قرن المنازل. قال محمد بن سليمان: قلت: فمن كان منزله أقرب إلى مكة من هذه المواقيت، فمِن أين يحرم؟ قال: من منزله» انتهى.

فدل على أن منزله ميقاته، فإذا أتى منزله أحرم منه، فظهر: أن المنزل في حق الحرمي ميقات أصلي، وفي (أمالي أحمد بن عيسى) [ج١/ ص٦٧٧] من (رأب الصدع): «حدثنا محمد، قال: حدثني جعفر، قال: سألت قاسم بن إبراهيم، ما معنى قول علي: من تمام الحج أن تحرم من دويرة أهلك؟ قال: إذا كان من دون الميقات فمن دويرة أهله. قال أبو جعفر: كذلك هو عندي» انتهى.

فترجح: أن هذا فائدة ذكر الأهل في الآية، وأنه لا تمتع ولا إحصار لمن أهله مقيمون في الحرم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فأطيعوه في الحج والعمرة وأحكامهما، وحكم الإحصار، وفي كل ما شرع لكم، وفيها دلالة على وجوب العلم بـ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ ولا يكفي الظن.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: تدل على وجوب إتمام الحج والعمرة على من أحرم بهما فريضة أو نافلة، وعلى وجوب ما استيسر المحصر من الهدي، وأدناه شاة وتجزي عن المحصر ولو قارناً؛ لأن الآية لم تفصل بعد أن أباح له الخروج من الإحرام، وعلى تحريم الحلق حتى يبلغ الهدي محله المشروع، وهو منى لمن حج [في الأم: حجج، وهو غلط] اختياراً، ومكة لمن اعتمر اختياراً، وسائر الحرم اضطراراً، هذا هو الأحوط في المحلّ، ومحله من الزمان هو ما عيّنه المحصر، والإحصار: هو الخوف والمرض.

وتدل على إباحة محظورات الإحرام للمريض، ومن به أذى، وعلى وجوب الفدية لأجل استباحتها من صيام ثلاثة أيام أو ذبح شاة أو إطعام ستة مساكين كما ورد ذلك مفصلاً في خبر كعب بن عجرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى جواز التمتع بالعمرة إلى الحج، وعلى وجوب ما استيسر من الهدي على المتمتع وهو شاة، فإن كان يستيسر أكبر من شاة فهو أفضل، فمن لم يجد من المتمتعين الهدي وجب عليه صيام ثلاثة أيام في الحج، ويجب أن يكون في غير أيام التشريق، ويجب أن يكون في شهر عرفة لأنـ[ـه] من أشهر الحج، وسبعة عند أهله إذا رجع في أي شهر كان غير رمضان والعيدين وأيام التشريق، وعلى أن التمتع [في الأم: التمتيع، وهو غلط] لم يشرع إلاَّ لمن لم يكن [أهله] حاضري المسجد الحرام» انتهى.

قلت: قوله عليه السلام: «يذبح الهدي في مكة» يعني: أقرب إلى الكعبة؛ لأنها في عصر الإمام لم تكن قد اتسعت كما في عصرنا، أما في عصرنا فلا عبرة بما جاوز الحرم من مكة، فلا يذبح فيه ولا يذبح إلاَّ في الحرم.

مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن

---

وقوله: «إباحة محظورات الإحرام للمريض» يعني: الجائزة قبل الإحرام، وقوله: «في شهر عرفة» لأنه من أشهر الحج، يعني لقول الله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ وقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ وما روي من تفسيرها: بشوال، والقعدة، وعشر ذي الحجة، المراد به وقت الإحرام لا وقت أعمال الحج كلها، ولعله يعني بقوله: «في شهر عرفة» ما دام المتمتع في الحج قبل أن يرجع، فلو رجع بعد إتمام الحج في أثناء شهر عرفة فليس له تأخرها لحين رجوعه؛ لأنه ليس في الحج.

﴿١٩٧﴾ ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ أي وقت الحج أشهر معلومات، وهن شوال وذو القعدة للإحرام بالحج، وذو الحجة لأعمال الحج كلها، إلاَّ أن الإحرام ينتهي وقته بانتهاء ليلة النحر، ولطواف الزيارة والوقوف بعرفة وغير ذلك، لكل منها وقت معيّن، ويجمعها الشهر ذو الحجة، ولذلك سمّي ذا الحجة وسمي يوم النحر يوم الحج الأكبر؛ لأنه أول وقت طواف الزيارة، أو هو وقته الإختياري وهو العاشر من ذي الحجة، وفيه من أعمال الحج غير الطواف، فظهر: أن الحجة من أشهر الحج، كما قال الإمام القاسم بن محمد فيما نقلته آنفاً عنه.

ومن قال: إن أشهر الحج: شوال، والقعدة وحدهما فقد أبعد؛ لأن شهر الحجة متبادر أعظم منهما، وإنما فيهما الرواية، ولذلك قال تعالى: ﴿مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ لأن ذا الحجة معروف بالحج من عهد الجاهلية والإسلام، وتجويز أن المراد شهران خلاف الظاهر.

والإحتجاج بقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤] ضعيف؛ لأنه يستغنى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف، فلا يحتج على استعمال الجمع في غير ذلك، ولو جاء نادراً فلا يفسر به القرآن لتعسر فهمه؛ لأن من الفصاحة سلامة الكلام عن استعمال غريب اللغة النادر الذي لا يفهمه إلاَّ النادر من أهل اللغة كما ذكروا في علم البيان.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أوجبه على نفسه بالإحرام له والدخول فيه بالتلبية بنية الدخول في الحج أو كلمة: أحرمت لك، أو نحوها مما هو من أعمال الحج مع النية كالتقليد للهدي.

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ فكل ذلك محرم على الحاج، الرفث كناية عن الجماع وعن الكلام الذي يستحيا منه، والفسوق: الفجور والخباثة بكل أنواعها من الظلم والإلحاد في الحرم وسبّ أولياء الله ومدح الظلمة وغير ذلك.

والجدال ظاهر، وظاهره المنع من الجدال على الإطلاق، ولعل السبب أنه يوجه القلب إلى موادّ الجدل والأخذ والرد، ويشغله عن ذكر الله والدعاء والاستغفار ويثير الغضب فيشغل القلب أشد من ذلك، ومع كون الحج قد علم الله أنه يلتقي فيه أهل المذاهب المختلفة، فلو جعل الجدال فيه جائزاً واستعد كل أناس للجدال عن مذهبهم واختاروا لذلك منهم أقواهم في الجدل لصار الحج ملتقى جدل وكان مظنة أن تثور فيه الفتن بسبب ما يؤدي إليه الجدل من الغيظ، وذلك شغل عن اغتنام تلك المواقف لذكر الله والدعاء والتماس رقة القلب، وهذا أمر واضح والجدال بالحق له وقت غير الحج، فلا يخص من عموم هذه الآية.

ويمكن بيان الحق بغير جدال، فإن قبل الخصم فالمراد، وإن لم يقبل جعلت بينك وبينه موعداً لما بعد الحج، وإن تعذر ذلك جعلت له موعداً ليدلي بما في نفسه بشأن ما أدليت له من الحجة، فإن وجدته منصفاً زدت له من البيان ما يحلّ الإشكال بدون مرادّة في الكلام ومغالبة تؤذي وتغيظ، وإن وجدته لا يفيده شيء لتعصبه وبُعده عن الحق تركته واعتذرت بهذه الآية الكريمة، فهما أمران مختلفان؛ بيان الحق بلا جدل والجدل لبيان الحق، فيعمل بالأول ويترك الثاني عملاً بالآية.

فإن قيل: بل يجب الجدال بالحق؛ لأن الله أوجب التبليغ وحرم الكتمان؟

قلنا: قد بينّا أنه يمكن الجمع بين الدليلين، فيبين الحق بلا جدال، ويترك الخصم يجادل نفسه إن أراد الحق، أعني يفكر فيما ورد عليه من البيان، وما كان يعتقده حجة وينظر أيهما أصح فاستعمال هذه الطريقة أنفع من المغالبة والمماراة، وما بدا له من إشكال بعد التفكير والنظر الكامل سأل عنه سؤالاً بلا جدال، وأجيب عنه بلا جدال، ثم عاد إلى النظر والتفكير وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ:٤٦].

والحاصل: بيان الحق بغير جدال، جمعاً بين الدليلين، وترجيحاً لحكمة منع الجدال في الحج التي ذكرتها آنفاً، مع أن الجدال أكثره داعية إلى التعصب فهو عكس المطلوب، وإنما ينبغي أن يكون بالتي هي أحسن، وهي كلمة جامعة تحتها آداب:

منها: ترك المقاطعة في الكلام، وترك الخصم يدلي بما في نفسه كله بدون مغافصة.

ومنها: ترك رفع الكلام أكثر من إسماع الخصم.

ومنها: ترك التسجيل عليه بالخطأ قبل أن يمهل حتى ينظر في الحجة.

ومنها: إحالته إلى البحث وذكر مواضع البحث حتى يقدر على ذلك حيث الإشكال يستدعي ذلك، ولا يمكن حله في مجلس واحد كإثبات تواتر حديث أو صحته.

ومنها: ترك الاحتيال لإفحامه قبل أن يقتنع بالدليل، هذا حيث المقصود الإفادة، فأما إن كان المقصود قطع الجدال وكان لا يرضى بتركه إلاَّ بهذه الحيلة وكانت الحال لا يمكن فيها البيان لعذر شرعي فلا بأس بها.

ومنها: الإجابة على الخصم في كل ما أورد عليك، وإن كان في رأيك ضعيفاً، وترك الجواب قد يكون مراوغة وفراراً من حجة الخصم، فهو عيب، وقد يكون عجلةً على الكلام بما في نفسك، فهذا تقصير؛ لأنه لا يفوت ما في نفسك، ويمكن أن تقوله من بعد فاصبر حتى ترد عليه.

فإن كان جاهلاً -والجواب لا يفيده لجهله- قلت له: إنه لا يستفيد من جوابك إلا بعد أن يقرأ ويتعلم، وإن كان قد انتقل عن موضوع الجدال قلت له: هذا انتقال، وإن كان أورد عليك سؤالاً تخشى من الجواب عليه ضرراً من الناس، لأنهم يغضبون عليك ويضرونك أو يهتكون عرضك حتى يمنع من قبولهم منك كلمة الحق فلا بأس أن تروغ عن الجواب لعذر شرعي كما مر، وكما قال الشاعر:

يا رب جوهر علم لو أبوح به   لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

وبالجملة أدب الجدل: بيان الحق بقدر الإمكان، واجتناب ما يثير الخصم إلاَّ بيان الحق بقدر الإمكان ومحاولة تقريب الفائدة بقدر الإمكان.

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ هذا حث على اغتنام فعل الخير في الحج، ولذلك عقبه بقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ فأنتم في سفر بعيد ومهبط أحدكم على جنة أو نار، فتزودوا في هذه الحياة زاداً يبلغكم الجنة، والحج بما فيه من الدعاء عند البيت، وفي عرفات وسائر المشاعر سبب للتقوى التي هي خير الزاد، وكذلك التوبة هناك والاستغفار وكل عمل سبب للتوفيق وطرد الشيطان وتنوير القلب، كل ذلك سبب للتقوى، فكل مسافر يحتاج إلى الزاد لئلا ينقطع، والتقوى زاد خير من كل زاد؛ لأنها تبلغ صاحبها الجنة وتنجيه من النار.

﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ فكل ذي لبّ أي كل عاقل إذا استعمل عقله ونظر في عاقبته وأنه لا بد أن يلقى ربه ويسأله ويحاسبه ويجازيه وأنه لا بد صائر إلى الجنة أو النار وأنه لا طلب للجنة ولا هرب من النار إلاَّ في هذه الحياة، فمن حقه أن يتقي الله؛ لأن من شأن العاقل أن يتدبر عواقب الأمور.

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي أحكام هذه الآية يقول إمامنا المنصور بالله عليه السلام: الأشهر المعلومات: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، أما الأولان وعشر ذي الحجة فظاهر، وأما ما وراء العشر من ذي الحجة فلتمام ما بقي من أعمال الحج كصيام ثلاثة أيام للمتمتع الذي لم يجد الهدي، وكطواف الزيارة، ويباح فيها [أي في الحجة] الإحرام بالعمرة للمتمتع وللقِران مع الحج في أولها، والإحرام بالعمرة للمفرد في آخرها، ويكره تأخير الصيام للمتمتع [عنها] وطواف الزيارة لغير عذر عنها، وتدل على أن فرض الحج فيهن، وأما غيرهن فلا دليل عليه، وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ مجمل، وقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ﴾ مبين.

رَبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ

---

ويجب رد المجمل إلى المبين و[تدل] على تحريم الرفث وهو الجماع، وكل قول فاحش، والفسوق، وهو تعمد المعاصي، وتدل على أن فعل المعصية من المحرم أغلظ، وتحريم الجدال، ويجب على صاحب الحق أن يبينه لما تقدم من تحريم كتمان الحق، فمتى بيّن الحق فلا يزيد عليه للنهي عن الجدال، وتدل على وجوب الزاد وأن خير الزاد التقوى، ومن التقوى ترك السؤال لقوله ﷺ: «لا تسأل الناس شيئاً ولو سوطك إن يسقط منك حتى تنزل إليه، فتأخذه» ونحو ذلك، وتدل على الحث على فعل الخير كله، وقوله: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ من تمّ عقله فإنه داخل فيمن أمره الله بالتقوى» انتهى.

﴿١٩٨﴾ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فقفوا في عرفات ابتغاء فضل الله بطاعته والأعمال الصالحة في عرفات، والتلبية، والدعاء، والذكر، والاستغفار، ولا تتحرجوا من الوقوف فيها كما كانت قريش تفعل وتقف في مزدلفة لئلا تخرج من الحرم، فاخرجوا من الحرم ابتغاء فضل الله، ويدخل في ابتغاء فضل الله التجارة في الحج بدون تقصير في طاعة الله.

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ ﴿ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ مكان في (مزدلفة) مشهور، وذكر الله عنده يتناول ذكره في الصلوات: المغرب، والعشاء، والفجر، وغيرها، وذكر الله عند المشعر ذكره في مزدلفة، فهي كلها عند المشعر الحرام وزيادة القرب منه قبل الخروج من مزدلفة مشروع.

أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ

---

﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿ٱذْكُرُوهُ﴾ شكراً على هدايته إياكم بعد الضلال، فقد كنتم من قبل رحمة الله لكم بالرسول والقرآن لمن الضالين، فلولا الله لما اهتديتم ولبقيتم على ضلالكم من الشرك وتحريم ما أحل الله، والخرافات في الحج: كالوقوف في مزدلفة، والطواف بالعراء، والصلاة بالمكاء، والتصدية، وغير ذلك كثير

﴿١٩٩﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذكر الله عند المشعر الحرام ﴿أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ بلا اختلاف بينهم من وقف بعرفات ومن وقف بمزدلفة حيث يفيضون من مزدلفة إلى منى أجمعون، هذا هو ظاهر الآية وتحويلها عن ظاهرها لأجل رواية عروة بن الزبير لا يصح عندي.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فتلك مواقف استغفار يرجى فيها القبول، مع أن الله غفور رحيم لا تختص مغفرته ورحمته بتلك المواقف، فاستغفروه؛ لأنه ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿٢٠٠﴾ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ أتممتموها بالطواف بالبيت، والبقاء في منى، ورمي الجمار، وغير ذلك كما بينه الرسول ﷺ ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ بعد الحج والفراغ منه؛ لأنكم لم تفرغوا من ذكر الله، فلا تزالوا ذاكرين لله غير غافلين عنه، كما أنكم لا تزالون ذاكرين لآبائكم لطول تربيتهم لكم ونشأتكم في إحسانهم، وعيشكم معهم

في عطفهم عليكم، فالله أحق أن لا تزالوا ذاكرين له؛ لأنه المنعم عليكم بخلقكم وإنعامُه عليكم من حين أحياكم مستمرٌ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

وقد قيل: إنها في الذين كانوا يتفاخرون بآبائهم فيمدحونهم ويشيدون بذكرهم افتخاراً بهم، وهذا عندي ضعيف؛ لأن أكثر آبائهم كانوا مشركين، ولم يكن افتخارهم بهم مرضياً؛ لأنهم حمم جهنم، وأعمالهم في الشرك كسراب بقيعة، وقد روي النهي عنه عن النبي ﷺ، فلو كان المراد لقيل: فاذكروا الله كما كنتم تذكرون آباءكم، أي في زمان الجاهلية، فلما قال تعالى: ﴿كَذِكْرِكُمْ﴾ كان ظاهره أنه ذكر غير ذاك الذكر المهجور، وأنه الذكر المعتاد لكل الناس.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ ينبه على أن ليس المراد الإقتصار على مثل ذكرهم لآبائهم، وإنما المراد التنبيه على أن النعمة سبب الذكر، فقد كانت نعمة آبائهم عليهم سبباً لذكرهم، فينبغي أن يذكروا الله لنعمته عليهم، وليس المراد التحديد.

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ لأن الدنيا أكبر همه، فما له في الآخرة من نصيب، وإنما يبعث للحساب والعقاب والخلود في النار، ليس له أي فائدة في الآخرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء:١٨] وليس من شرط هذا أن لا يطلب الآخرة بلسانه، فكثير من عبيد الدنيا إذا ذكرت لهم الآخرة وعذاب النار قالوا: الله يرحمنا، ويقولون في (القنوت): ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ولكن همهم الدنيا وطلبهم الجاد هو طلب الدنيا.

حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ

---

وأما طلبهم للآخرة فهو بألسنتهم ولا يعملون لها ولا يتقون عذاب النار، وهذا لأن قوله تعالى في هذه الآية لم يذكر فيه الإقتصار على طلب الدنيا بألسنتهم، وإنما أفاد أنها الأهم عندهم، فهم لا يطلبون الآخرة، وإن طلبوها فالطلب بألسنتهم مع الغفلة وترك السعي لها، فهو كلا طلب لأنهم غير مؤمنين بالآخرة، وما وقع منهم من دعاء أو نحوه فهو جري على العادة الموروثة.

﴿٢٠٢-٢٠٢﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وهي التي نحتاجها في الدنيا ولا تفسد علينا في ديننا، فهي نعمة حسنة كقوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] وقوله: ﴿حَسَنَةً﴾ صفة لمحذوف تقديره، إما مفرد مؤنث مثل: عطية ونعمة، وأما جمع يؤنث وصفه مثل أرزاق، وإما جمع مؤنث مثل: نعم وعطايا ومنافع، وحذف الموصوف لعله وقع اهتماماً بالصفة لكونها مهمة عندهم، فهو كما لو قالوا: ربنا آتنا في الدنيا ما ليس فيه محق لديننا، فليس المهم كثرة المسؤول ولا عموم أنواع الهبات، وإنما المراد المحتاج إليه الذي يدل عليه الطلب.

﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ وهي الجنة؛ لأن من لم يكن من أهلها لا يؤتى أيَّ حسنة ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ طلب الوقاية يشعر بعظم الخطر فيها كأنها طالبة للإنسان أو محيطة به إذا لم يكن له وقاية منها لفَحْتهُ واستشعار هذا من تمام الإيمان الباعث على طلب الوقاية، والوقاية هي الهداية والتوفيق ثم العصمة عن المعاصي بحيث يختم للإنسان بتوبة نصوح، والوقاية هذه سبب للوقاية في الآخرة، فأي الوقايتين فهي كناية عن الأخرى للتلازم بينهما.

إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ

---

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ أولئك الذين يريدون الآخرة ويحذرون ويدعون الله، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ في الآخرة، بخلاف الأولين الذين ما لهم في الآخرة من نصيب، وهذا النصيب مما كسبوا في الدنيا؛ لأن كسبهم بعضه مباح وبعضه معاصي في حق أكثرهم قد تابوا منها، والذي منه النصيب في الاخرة هو الإيمان والعمل الصالح والتقوى.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فحسابه لما كسبوا لا يضيع شيئاً؛ لأنه عالم الغيب لا ينسى ولا يغلط في الحساب.

﴿٢٠٣﴾ ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ هي أيام التشريق، يوم حادي عشر ويومين بعده، وهما يوما النفر، يرمي الحجاج فيها الجمار، ويذكرون الله عند الرمي، وينحرون لله البدن، ويذبحون ما أهدوا إذا لم يذبحوه في يوم العيد يذبحون في يومين بعده، ويذكرون الله على ما نحروا وذبحوا.

قال في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام): حدثني زيد بن علي عن أبيه، عن جده عن علي عليه السلام، قال: أيام النحر ثلاثة أيام: يوم العاشر من ذي الحجة، ويومان بعده، في أيها ذبحت أجزاك، وأشهر الحج، وهو قول الله عزَّ وجل: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ**﴾: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، والأيام المعلومات أيام العشر، والمعدودات، هي أيام التشريق ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ يوما النفر يوم اثني عشر ويوم ثلاثة عشر ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ انتهى.

قلت: تفسير أشهر الحج كأنه ناظر إلى اسم الحج في الأصل الذي هو القصد، فقصد البيت والتوجه إليه يكون في تلك المدة، أما بقية أعمال الحج بعد الوصول إليه بالوصول في حرمه فبعضها بعد ذلك كما في أيام التشريق المذكورة، وذكر الله فيها منه التكبير الذي يبدأ من فجر يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق وغيره.

قال في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام): حدثني زيد بن علي، عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يا علي كبّر في دبر صلاة الفجر يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق صلاة العصر».

وفيه عقيب هذا: حدثني زيد بن علي، عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام قال: «التكبير: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلاَّ الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد» انتهى.

وفيه: حدثني زيد بن علي، عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام، قال: أيام الرمي يوم النحر، وهو اليوم العاشر، يرمي فيه جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة ولا يرمي يومئذ من الجمار غيرها وثلاثة أيام بعد يوم النحر يوم حادي عشر ويوم ثاني عشر ويوم ثالث عشر يرمي فيهن الجمار الثلاث بعد الزوال كل جمرة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة ويقف عند الجمرتين الأوّلتين ولا يقف عند جمرة العقبة، انتهى.

قلت: هذه الثلاثة الأيام هي أيام التشريق، والمراد فيها ذكر الله بمنى وفيها دلالة على وجوب البقاء في منى في النهار وأنه أصل ليس لمجرد وجوب المبيت.

ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾

---

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وهما الثاني من أيام التشريق والثالث منها، وهو الرابع من أيام منى، بدليل التفريع بالفاء على ذكر الله في أيام معدودات والمتعجل في اليوم الثاني من أيام التشريق الذي هو ثالث العيد، يكون قد ذكر الله بمنى في أيام آخرها يوم نفر، فالمراد باليومين يومي النفر.

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فهما سواء في الجواز ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ بإتمام المناسك والقيام بما لزم من لوازم الحج واجتنب المعاصي من محظورات الإحرام والظلم والتعدي ومعاونة الظلمة ومدحهم، وسبّ أولياء الله وتخويفهم، وتاب إلى الله من كل معصية فهذا الذي لا إثم عليه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في المستقبل ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لتتقوه وتستعدوا للقائه، وتعدوا للسؤال عند ذلك جواباً نافعاً وعملاً صالحاً مقبولاً، وفيها دلالة على وجوب العلم بالآخرة، وأنه لا يكفي الظن، ومن فوائد هذه الآية الخاتمة لآيات الحج المحافظة على أعمال الحج وحراستها من الإحباط واغتنام الإستمرار على الصلاح الذي كان في الحج؛ لأنه أيسر من العودة إلى الصلاح ثانياً بعد الفساد.

﴿٢٠٤-٢٠٦﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ما يقوله في شأن الحياة الدنيا، كأن يقول: إنها متاع الغرور؛ لأنه كلام يعجب الرسول ﷺ، والراجح يعجبك قوله الذي يغرر به ويخادع؛ لأنك لا تعلم ما في قلبه، وفي الحياة الدنيا، أي في دار التكليف والإختيار، التي ترك الله عباده

يقولون ما شاءوا؛ لأن الحياة الدنيا وقت الإختبار والإبتلاء، فلذلك تركهم الله يقولون ما يعجبك وهم به مخادعون.

﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ﴾ كأن يقول: أشهد الله أن قلبي مؤمن بأنك رسول الله، وكقولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون:١].

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ أي يقول ذلك في حال أنه ألد الخصام، فهو كاذب ومخادع، وهو شديد الخصام يبالغ في الخصام ويتعمق فيه، أي في خصامه لك الذي يفعله وإفساده بما يبيت من القول وما يناجي به أصحابه وما يقوله لشياطينه، وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي عليه السلام: «فالألد: الشديد الخصومة بالباطل، والجمع: لدّ» اهـ.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ عنك بعد دعواه المذكورة، وقد سمع منك الحق والهدى لو كان يهتدي ﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ ﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ حين تولى عنك بحيث يدل ذلك على أنه لم يكن صادقاً في دعواه لمسارعته إلى الفساد حين تولى؛ لأنه لو كان صادقاً لازداد هدىً بحضوره عند الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسماعه منه، وكان بعيداً من الانقلاب والسعي للفساد العام الذي ﴿يُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ لأنه يسعى لغلبة الكفار على رسول الله وهلاكه وذهاب الإسلام وعموم الكفر، وذلك ـ لو كان ـ سبب للعذاب كما كان في الأمم الماضية مثل قوم نوح ومن بعدهم، وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي عليه السلام: «فالحرث: الزرع، والنسل: نسل كل دابة» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ كالبرهان على كذب المنافق في دعواه المذكورة؛ لأنه لو كان صادقاً لكان شأنه أن يسعى لما يحبه الله.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ

---

وفيه تقريع له وتجهيل حيث جعل الفساد مكان الصلاح، كما لو وفد على رجل ضيف فعذبه فقيل في ذلك: ما هذه ضيافة جيّدة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ ﴿أَخَذَتۡهُ﴾ استولت عليه وسيطرت عليه، وصرفته عن التقوى، و﴿ٱلۡعِزَّةُ﴾ عزته في نفسه واعتزازه ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ بتولي الكفار وظنه أن العزة لهم، كقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ [النساء:١٣٩] وقولهم: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨] فلأجل محافظته على هذه العزة لا يتقي الله؛ لأنه يظن أن الإسلام سيذهب، وأن الكفر سيكون الغالب لما يرى للكفار من قوة في العدد والعدّة وللمسلمين من قلة العدد بالنسبة للكفار وقلة المال والعُدّة، فالعزة عنده في تولي الكفار وبقائه على النفاق، فعزته بالإثم صرفته عن تقوى الله التي منها: ترك النفاق، وترك موالاة الكفار في الخفاء، والإيمان كما آمن الناس.

﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ﴾ جزاءً لجرائمه كلها ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ مهّد لنفسه، فقد كان يظن أنه بالنفاق يمهد لنفسه لحين غلبة الكفار على الإسلام، فإذا الواقع أنه مهد لنفسه جهنم.

﴿٢٠٧﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ﴾ يبيعها من الله لإيمانه بالله واليوم الآخر وزهده في الحياة الدنيا ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ لحبه لله ورغبته في النجاة من عذابه وفي ثوابه العظيم.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ فهو يشتري منهم أنفسهم بأن لهم الجنة ويرضى عنهم ببيعهم أنفسهم، وأعدّ لهم أجراً عظيماً وفضلاً كبيراً؛ إذ ليس من الرأفة أن يبيعوا له أنفسهم ويتحملوا المشقة ليرضوه ثم لا يرضى عنهم، أو لا يعظم لهم الثواب ويصيرهم في أسعد حال، وهذا وعد مؤكد تأكيداً عجيباً من حيث أنه عبّر عنه بما هو برهان عليه، وروي أن هذه الآية نزلت في علي عليه السلام.

وروى الحاكم الحسكاني في (شواهد التنزيل) [ج١: ص١٣٠] عن الإمام علي بن الحسين (زين العابدين) قال: «أول من شرى نفسه لله ـ عزَّ وجل ـ عليّ، ثم قرأ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾» ومثل هذا رواه محمد بن سليمان الكوفي في (مناقبه).

ورواه الحاكم الحسكاني في (شواهد التنزيل) بإسناده عن أبي سعيد الخدري قصة مبيت علي عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي آخرها: «فأنزل الله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾» وفي تخريجه للشيخ المحمودي: أنه أخرجه الثعلبي في تفسير الآية من تفسيره (الكشف والبيان).

وروى الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في (المستدرك) [ج٣: ص٤] عن ابن عباس قال: «شرى علي نفسه، ولبس ثوب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم نام مكانه».

ورواه أحمد بن حنبل في (المسند) [ج١: ص٣٣٠ ـ ط١] قال المعلق على (شواهد التنزيل): ورواه الطبراني مطوّلاً في مسند عبد الله بن عباس من (المعجم الكبير) [ج٣ / الورق- ١٢٨] انتهى المراد.

وفي (شواهد التنزيل) [ج١: ص١٢٧ ـ ١٢٨] عن ابن عباس أنه قال: أنام رسولُ الله ﷺ علياً على فراشه ليلة انطلق إلى الغار، فجاء أبو بكر يطلب رسول الله ﷺ فأخبره علي أنه قد انطلق فاتَّبعه أبو بكر وباتت قريش تنظر علياً وجعلوا يرمونه، فلما أصبحوا إذا هم بعلي فقالوا: أين محمد؟ قال: لا علم لي به، فقالوا: قد أنكرنا تضوّرك، كنا نرمي محمداً فلا يتضوّر وأنت تتضور، وفيه نزلت هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

وَرَوَى نحوه بإسناده عن السدّي، وفي الباب روايات غير ذلك في مستدرك الحاكم، وحكاه في تعليق (شواهد التنزيل) عن ترجمة الإمام علي عليه السلام من (تاريخ ابن عساكر) في ترجمة الإمام علي عليه السلام وغيره.

أقول: وإن علياً عليه السلام مظنة ذلك وأهله لسائر الروايات الدالة على أنه عليه السلام فدى رسول الله ﷺ بنفسه ليلة الغار فأما شراؤه نفسه من الله فلا شك فيه ومقاماته تشهد بذلك في (بدر) و(حنين) و(الخندق) و(خيبر) و(أحد) وحديث الراية يدل على ذلك مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة:١١١] وهو رأس المؤمنين الذي «بحبه يعرف المؤمنون».

فصح أنه عليه السلام قد شرى نفسه من الله وأنه داخل في الآية دخولاً أوّليّاً، وهذا يقوّي الرواية أنها نزلت فيه، وليس المراد أنها خاصة به عليه السلام؛ إذ ليس في الآية دلالة على الخصوص، وقد دل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ..﴾ [التوبة:١١١] على العموم لكل مؤمن صادق الإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥]

فيدخل فيها الأئمة المجاهدون في سبيل الله من ذرية رسول الله، كالحسن، والحسين، وزيد بن علي، ويحيى بن زيد، ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن وأخوته، والحسين بن علي بن الحسن بن الحسن المقتول بفخ، وغيرهم.

وقد ذكر الإمام الهادي عليه السلام في أواخر كتاب (الأحكام) كلاماً في هذا جرّ إليه البحث، فقال عليه السلام: بعد أن ذكر الحديث عن جبريل أنه قال: «إن يوم الجمعة يوم القيامة، وفيه تقوم الساعة» قال يحيى بن الحسين: «ما زلت مذ رويت هذا الحديث يدخُلُني في كل يوم جمعة وَجلٌ وخوف، وما ذلك من سوء ظني بربي ولا قلة معرفة مني برحمة خالقي، ولكن مخافة من لقائه ولم أقم بما أمرني بالقيام به، وأنهض بما حضّني على النهوض فيه وجعله أكبر فرائضه عليّ وأعظمها عندي ولديّ في مباينة الفاسقين ومجاهدة الظالمين والنصرة لدين رب العالمين، وإني لأرجو أن يكون الله سبحانه لا يعلم مني تقصيراً في طلب ذلك، ولكن لا راغب في الحق ولا طالب له من الخلق ولا معين لي عليه ولا مؤازر لي فيه، ولقد دعوت إلى ذلك فعُصيت ونهضت فيه فخُذِلت وخُلّيت ودعَوت إلى الرحمن وجهدت في إحياء ما أميت من الإيمان فصُمَّتْ آذان هذا الخلق عن دعوتي وزهدوا فيما خَبَروا من حقائق سيرتي، وخُولفت في أمر الله فلم اتُّبَع، وعُصِيت حين دعوت إلى الله فلم أطع، فقلت: رَبِّ إني لا أملك إلاَّ نفسي، فبِعتُها منه ومالي؛ في جوف الكعبة البيت الحرام؛ بما بذل لي من الثمن الربيح ذو الجلال والإكرام حين يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١]

ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

---

ثم انتظرت أمر الله وأرصدت لذلك حتى يفتح الله ويأذن فيما طلبت من إحياء حقّه إذْنَ معونة وتسديد وتوفيق لذلك، وتأليف بين قلوب العباد الذين يرجَى بهم إصلاح البلاد أو نلقاه سبحانه على ذلك عازمين وبه متمسكين» انتهى.

نقلته لما فيه من الفوائد المتعلقة بالآية، وكونه تفسيراً لها.

﴿٢٠٨-٢١٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ قرئ ﴿السَّلم﴾ بفتح السين وكسرها، وفسر ﴿ٱلسِّلْمِ﴾ هنا بالإسلام، ولكن الإسلام الذي بمعنى إسلام الوجه لله لا يناسبه السياق؛ لأن كل الذين آمنوا قد أسلموا بهذا المعنى، ولو قال: أسلموا لصح حمله على المستقبل بلا إشكال، فأما قوله تعالى: ادخلوا فإنه لا يقال لمن هو داخل فلا بد أنه الإسلام للنفس كلها كالإسلام في قوله تعالى لإبراهيم الخليل: ﴿أَسْلِمْ﴾ وقوله تعالى فيه وفي إسماعيل: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ [الصافات:١٠٣] والفرق أن الأول معناه عبادة الله وحده، والثاني معناه تسليم النفس لله.

وهذا التسليم للنفس يتفاوت، فقسم منه تسليم السابقين الذين يجعلون نياتهم وأعمالهم كلها فيما يرضي الله فلا يعملون شيئاً لهوى النفس حتى المباحات لا يستعملونها إلاَّ لتعين على الطاعة والقربات، وإذا تعارضت القُربة والمباح تركوا المباح واستغرقوا في الطريقة هذه ليلهم ونهارهم وكل أحوالهم وكل معاملاتهم توصلاً إلى مرضاة الله وقسم من التسليم للنفس

تخصيصها في كل أمر واجب، وفي اجتناب كل محظور من غير فرق بين ما يشق على النفس وما يسهل وما تهواه وما لا تهواه لاعتبارهم أنفسهم لله ليس لهم منها شيء حتى اجتنبوا الشبهات، وأقاموا الصلوات وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم تسليماً لها لله.

ومن هذا القسم رفضهم لاتباع الهوى في حكم أو مذهب أو تفسير آية أو حديث أو نحو ذلك أو فتوى أو أمر أو نهي قبل تحقق أن ذلك حق، أي رفض اتباع الهوى بغير هدى من الله، ومن هذا القسم ترك المعاونة في خصومة لأجل الهوى قبل تحقق أنه مع الحق، ومن هذا القسم اجتناب الدخول في حزب من الأحزاب قبل تحقق أنه على الحق لأجل هوى النفس، وعلى الجملة محاربة هوى النفس إلاَّ فيما تحقق أنه حقٌّ بناءً على أنه ملك لله ليس له من الأمر شيء.

وهذا القسم مثل الأول لا فرق بينهما إلاَّ في أمرين المباح المتحقق إباحته يعملونه ويستعملونه؛ لأن الله أباحه، والقربات غير الواجبة واجتناب المكروهات غير المحرمة يلتزمه أهل القسم الأول بقدر طاقتهم، ولا يلتزمه أهل القسم الثاني؛ لأن الله رخص لهم.

فقد ظهر للإسلام بمعنى القسمين المذكورين مناسبة للآية التي قبلها؛ لأن أعظم ما يحقق تسليم النفس لله بذلها لله بالجهاد في سبيل الله وبذل المال في ذلك، ومناسبة لقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ من حيث أن بعض المخالفين غافل عن هذا المعنى وعن الإلتزام به بمعنى تسليم النفس لله ورفض هوى النفس إلاَّ فيما لا يعارض التسليم المذكور، وقد فسر السلم بالإستسلام وهو صحيح بمعنى تسليم النفس.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فإتباع خطوات الشيطان طاعة للنفس وللشيطان بمعصية الله، وهو معارض لتسليم النفس لله، وفي قوله تعالى: ﴿خُطُوَٰتِ﴾ تحذير من الشيطان أن لا يتبعه في خطوة واحدة يخطوها، فاتباعه في خطوة واحدة يعينه على الإنسان فيطالبه بالخطوة الثانية ثم الثالثة فيوقعه في أكبر من الخطوة الأولى ثم أكبر من الثانية ثم أكبر من الثالثة حتى يصير من حزب الشيطان.

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أصل الزلل: زلل القدمين في شيء يزل بهما كالطين، ويستعمل في الهفوة والمعصية الواقعة وحدها ليس فاعلها من المصرين على المعاصي قبلها، فإن وقعت الزلة منكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الدلائل البينات التي تبين الحق القاطعةُ للعلة ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا ينال، فلم يُعْصَ مغلوباً، وإنما ترككم تعصونه لأنكم في دار اختبار.

وسيجازيكم إن لم تتوبوا؛ لأنه ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يترك عباده يعملون المعاصي إهمالاً إنما يتركهم اختباراً؛ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ففي هذا وعيد مؤكد بالبرهان كأنه تعالى يقول: لا تحسبوا أنه يترككم تعصونه وتصرون على عصيانه دون أن يعاقبكم؛ لأن ذلك لا يليق بعزته، ولا يجوز في حكمته.

قال الشرفي في (المصابيح): وقال عليه السلام ـ يعني الإمام القاسم بن محمد عليه السلام ـ في هاتين الآيتين: «تدلان على وجوب الدخول فيما وضح دليله من الدين على الناس كافّة، وعلى تحريم اتباع خطوات الشيطان من مخالفة الحق، وأن الوعيد لمن زل عن الحق ولم يرجع، وان ذلك من الكبائر» انتهى.

ولما تقدم ذكر ألدّ الخصام رجع الكلام إليهم في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ينتظرون ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ في (سورة النحل): ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [آية:٣٣].

وفي (سورة الأنعام): ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ [آية:١٥٨].

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ كقوله تعالى في أهل الكتاب: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر:٢] وقوله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل:٢٦].

والمعنى: أنه تولى إذلالهم وقهرهم من حيث لم يتوقعوا، وذلك بقذف الرعب في قلوبهم، وأنه تعالى تولى هدم بنيانهم بهدم قواعده، فكذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي كما أتى أهل الكتاب بأن يتولى الإتيان بعذابهم ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ ينتظرون منها المطر كما فعل بعاد حين أتاهم العذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يأتون مع ذلك بأمر الله لهم بعذاب آخر، أو بما يزيد عذاب الله شدة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي بينهم وبين الرسول ﷺ كقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:٥٨] فهو رسول أرسله الله إليهم لينذرهم العذاب فإذا جاءهم العذاب ذهب وقت الإنذار وانقطع الخوض بينهم وبين الرسول، فظهر: أن الآيات سواء في المعنى.

سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ

---

وفي (آية الأنعام) زيادة: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [آية:١٥٨] والمراد: أنه لا يفيد فيهم شيء من الآيات والنذر، فلا ينتظر شيء يؤمنون لأجله، فالحصر إضافي، وجعلوا منتظرين للعذاب؛ لأنهم متعرضون له كافرون بالآيات لا يؤمنون حتى يروا العذاب ﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨] يستعجلون بالعذاب تكذيباً به، ويطالبون بآية يؤمنون بها وهم لا يؤمنون إلاَّ بالعذاب، فانتظارهم للآية على فرض صدقهم في المطالبة انتظار للعذاب، والحاصل أنهم في حالهم كالمنتظرين للعذاب ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فأَرْجِعْ يا محمد أمرهم إلى الله وكلهم إلى قضائه.

﴿٢١١﴾ ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ فهم لا يجحدون تلك الآيات البينات المذكورة في أول السورة، ولا يخفى عليهم أنه آتاهم في التوراة آيات كثيرة تهديهم إلى الحق لو اتبعوها، وكل الآيات نعمة من الله عليهم؛ لأنها تدلهم على الخير والسلامة من العذاب.

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وهذا إنذار لبني إسرائيل الذين بدلوا آيات الله التي في التوراة بما يفترونه كما تقدم.

﴿٢١٢﴾ ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ لغفلتهم عن دلائل الإيمان بالآخرة وعدم إيمانهم بها، فليس لهم ما يزهدهم في الحياة الدنيا؛ لأنهم لا يرونها متاع الغرور، ولا يزهّدهم فيها خوف من النار ولا رغبة في الجنة.

مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ

---

﴿وَ﴾ لذلك ﴿يَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لضعف حالهم من ناحية المال والزينة وإقبالهم على العمل للآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ آمنوا و﴿ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ حين تنقلب الحال بإعزاز أولياء الله ورفع درجاتهم وإهانة أعداء الله عزّ وجل.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ لئلا يتوهم أن التصديق بلا تقوى يكفي أو لأن الذين اتقوا مطابق للذين آمنوا؛ لأن الإيمان الصحيح هو إيمان المتقين، فأتى بذكرهم لإفادة هذه الفائدة من حيث أقام الذين اتقوا مقام كلمة الذين آمنوا، وهذا الوجه أظهر.

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ قوله تعالى: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ دليل على أن ما بأيدي الكفار من نعمة الله لم يكن إلاَّ بمشيئة الله اختباراً لهم، ليس كما يتوهمون من الحظ ويمن الطائر بحيث يقول المحظوظ: ﴿وَلَئِنۡ رُدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا﴾ [الكهف:٣٦] بناءً على أنه صاحب حظ وقبول، وجهله أن ذلك من الله بمشيئته.

وقوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ دلالة على أن ما عند الله لا ينفد، فلا يحتاج إلى الحساب، إنما يحتاج إلى الحساب من يخشى نفاد ما عنده، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإنه يرزق من يشاء، فالأمر فيها لله وحده وسيرزق الذين اتقوا بغير حساب؛ لأنه لا ينفد ما عنده، ولأن نعيمهم لا ينفد فالآية شاملة للفريقين.

بغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟

---

﴿٢١٣﴾ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على دين واحد، فاختلفوا، أو علم الله أنهم سيختلفون ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي مع النبيئين ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ لأن الكتاب يكون معروفاً بينهم لا يجحدونه، فمن خالفه كانت الحجة قائمة عليه ولم تكف الروايات عن أنبيائهم؛ لأنه يكون في الروايات الخلاف في صحتها، والكذب على أنبيائهم.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي في الكتاب ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ اختلفوا فيه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ فالاستثناء شامل لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي ما اختلف فيه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ وما اختلفوا فيه إلاَّ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ فدل على أنهم لم يختلفوا عن جهل بما في الكتاب؛ لأنهم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي عُلّموه ولا اختلفوا عن عدم الدلائل البينات فيه أو فيه وفيما حفظ متواتراً عن أنبيائهم، فدل مجموع ذلك على أنهم اختلفوا والحجة قائمة والحق واضح لطالب الحق، ولكن اختلفوا ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ من أجل الهوى؛ لأنه يصد عن سبيل الله.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأنهم لم يغلبهم هوى النفس عن تحكيم الكتاب فيما شجر بينهم ولم يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضى وسلموا للحق تسليماً فهداهم ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي لما اختلف الآخرون المخالفون لهم فيه ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ لأن مطلوبهم الحق لا ما تهوى الأنفس.

وقوله: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ متعلق بهَدى، ولا حاجة لتقدير فاهتدوا بإذنه لإمكان أن المعنى: فهداهم بإذنه أن يهتدوا، أي الإذن الكوني لا مجرد الإذن التشريعي ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ فينبغي التعرض لهدايته بالإيمان الصادق واجتناب موانعها.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ يفيد: الإذن بأن يهتدوا، وذلك يستلزم التمكين ومنع الصوارف، ومعنى الاختلاف في الكتاب بين أهله الذين أوتوه هو الاختلاف في دلالته في محل النزاع حيث يدعي بعضهم دلالة الكتاب على مذهبه وينفيها الآخر، فالاختلاف في دلالة الكتاب اختلاف في الكتاب؛ لأن الدلالة كالصفة للكلام والاختلاف في الصفة يسمى اختلافاً في الموصوف لأن المختلفين في الصفة يتكلمون في الموصوف.

ألا ترى أن هذا يقول: دل الكتاب على كذا، والآخر يقول: لم يدل على ما ادعيتم، فكلاهما متكلم في الكتاب وقد دلت الآية أن القرآن حاكم بين الأمة فيما اختلفوا فيه بسبب الأهواء مثل ما سببت له السياسات الدولية كالخلاف في الجبر والتشبيه والإمامة والوعيد؛ لأنه حاكم بينهم فيما اختلفوا فيه من الدين على الإطلاق، وجعله حاكماً دليل على أنه لا يَحكم عليه رواية قول إمام أو شيخ، أو رواية عن النبي ﷺ بل يتبع القرآن ويرد ما خالفه أو يؤول، وجعله حاكماً دليل على أنه لا يؤول من أجل رواية خالفته أو نحوها.

وجعله حاكماً بين الناس دليل على تيسر فهمه للناس كلهم لا يختص بإمام ولا شيخ؛ لأنه قال: ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ فلا بد من إمكان فهم الناس لحكمه، وليس عجز بعض الناس عن فهمه إلا لعدم معرفته بالعربية، أو هوى في نفسه يصده عن تفهمه؛ لا لكون القرآن غامض الدلالة في نفسه.

ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ

---

وقد وصفه الله بكونه ﴿مُبِينًا﴾ [النساء:١٧٤] ونحو ذلك، فأما ما فيه من الفوائد الغامضة فهي زائدة على مفهوم الكلمة الواحدة بإضافة آية إلى آية، أو إضافة الكلام إلى دليل العقل أو نحو ذلك، ولا يجوز جعل معانيه خفية غير ظاهرة لأنه نزل على العرب بلسانهم قطعاً، ولا يقبل إثبات معانٍ غامضة لا يتوصل إليها بالمعنى الظاهر بطريقة معقولة بل بدعوى إلهام أو وحي جديد، وما قيل من المعاني بطريقة المناسبة فلا يعمل به ولكن ينزل منزلة تأويل الرؤيا ولا يعتبر من معنى القرآن فلا يحكم به.

وليس غموض الحكمة في بعض الكلمات من غموض المعنى؛ كالحروف في أوائل بعض السور مثل ﴿حم﴾ لأن المعنى ظاهر؛ فمعنى الحاء معروف في حروف الهجاء وهو منها، وكذا الميم معناها معروف، والخفي هو الحكمة في الإتيان بالحرفين، ويستعان بالعترة الأطهار على فهم غوامضه التي تعرف بما ذكرته آنفاً، وكذلك عند قصور الفهم بسبب قصور القارئ لقلة علمه باللغة العربية، وليس المراد تقليد الواحد منهم؛ لأن القرآن هو الثقل الأكبر، ولكن ليبينوا وجه الدلالة حتى يفهم السائل معنى الآية.

ومن المؤسف أن أكثر الأمة عكسوا وحكَّموا عليه غيره وتجاهلوا معناه وتعاموا عنه؛ فمن قائل: «السنة حاكمة على القرآن» ومن قائل: «الشيخ» ومن قائل غير ذلك، مع أن قوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤] وغيرهما يدل على عموم هدايته لكل مؤمن، أي أن كل مؤمن يصلح للإهتداء به.

ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ

---

﴿٢١٤﴾ ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُم﴾ **هذا خطاب للذين آمنوا يدل على خطئهم في ظنهم إن ظنوا أنهم يدخلون الجنة من دون أن ينالهم الابتلاء الشاق كما نال من قبلهم من الرسل وأتباعهم ويصبروا كما صبروا.**

وقوله: ﴿أَمۡ﴾ فيها معنى (بل والهمزة) كأنه قيل: بل أحسبتم، ولعل الإضراب راجع إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي لا يكفيكم العزم على التوبة والرجوع إن زللتم، بل لا بد من استعدادكم لتحمل المشاق في ابتلائكم بالجهاد وغيره، أو الإضراب راجع إلى أقرب من ذلك آية تحكيم القرآن، أي لا يكفي استعدادكم لذلك بل لا بد من الاستعداد لجهاد أعداء الله المخالفين لكتابه إن أردتم الجنة.

وقوله: ﴿وَلَمَّا﴾ (الواو) للحال أي في حال أنه ﴿لَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ ومثل الذين خلوا ما نالهم من الشدة، كأنه مَثَلٌ في اشتهاره، وكونه عبرة لغيرهم؛ لأن الأمثال تضرب ليلحق بها ما كان مثلها في المعنى.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَأۡتِكُم﴾ دليل على أن إتيانه أي إتيان مثله متوقع أي سوف يكون، ثم ذكر مثل الذين خلوا، فقال تعالى: ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ﴾ حالة البؤس بالفقر ونحوه ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ حالة الضر بالأمراض ونحوها.

﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾ بالحروب والتخويف من أعدائهم وامتدت مدة ذلك ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ أي رسولهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي استمرت الشدة وهم يطمعون في النصر يقولون: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾؟ لشدة شوقهم إلى النصر، وضجرهم مما نالهم.

بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ

﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ هذا جواب سؤالهم؛ وهو يفيد قرب نصرهم، ثم إنه قد وقع نصرهم كما أخبر الله لأنه أصدق القائلين، وفي هذا عبرة لنا إذا ابتلينا لنتوقع النصر ولا نقنط منه؛ لأن السياق يدل على إتيان المثل بتمامه؛ وتمامه انتهاء الشدة بالنصر.

﴿٢١٥﴾ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ ولعل سبب سؤالهم أنهم لا يجدون ذهباً ولا فضة وما لديهم من القوت ونحوه قليل؛ وبعضه يستبعدون أن يكون إنفاقها مأموراً به كالبيوت وآلة الحرث وآلة سقي النخل.

﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذا الجواب اشتمل على إفادتهم في سؤالهم لأن قوله: ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ مطلق يتناول القوت وغيره مما ينتفع به، واشتمل على زيادة بيان من يُعطَى، فإعطاء الوالدين مطلق؛ لأنهما إن كانا محتاجين عاجزين وجب إعطاؤهما الكفاية لهما، وإن كانا غنيين أعطيا ما تيسر براً لهما وصلة وكذا الأقربون.

وهذه الآية تعم الوارث وغيره، كالآية الماضية: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل:٩٠] فتدل هذه الآيات على وجوب إيتائه ولو لم يكن وارثاً؛ لوجود مسقط مثل الأخ مع وجود الأب، ولا جهالة في ذلك ولا التباس؛ لأنه إن كان محتاجاً فكيف يشكل الأمر بإيتائه وهو محتاج، وإن كان غنياً فلا إشكال في الأمر بإيتائه صلة له والإنفاق للحاجة على قدرها والإنفاق للصلة يكفي فيه ما يعد إحساناً وصلة ورعاية للرحامة ولو قليلاً من المُقِل لأنه لا يعاب إذا قلّت عطيّته بسبب إقلاله.

وهذا لأن قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ وهو لا يخصص العموم إنما هو نص على بعض أفراده، وفيه دلالة على وجوب الإنفاق بسبب المولود على المرضع، وأن الإنفاق على الوارث أوجب، وأن وجوبه عليه قبل الوجوب على غيره، ولا يدل على أنه لا يجب على القريب إذا عجز الوارث أو امتنع ولم يمكن إجباره، أو كان غائباً يحصل الضرر بانتظاره أو انتظار مراسلته، ولا مال له حاضر ينفق منه الحاكم،أو لا حاكم ولا يتهيأ الأخذ منه، ففي هذه الأحوال ينتقل الوجوب إلى القريب لئلا يموت المولود أو يتضرر بالإهمال.

والأقربون: يعم الولد وولد الولد ذكورهم وإناثهم، والإخوة والأخوات، بدليل (آية المواريث) مع قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٧] ففصل ميراث الأقربين بما في آية المواريث، وأما ذو القربى فهو يعم الأعمام وذريتهم.

والكلام في اليتامى كالكلام في الأقربين؛ فإن كانوا أجانب كان الوجوب على الأقربين أسبق إن أمكن الإنفاق من القريب هذا في الإنفاق للحاجة، فأما الإنفاق للتأنيس فيعم القريب والبعيد ويكفي منه القليل الذي يحصل به التأنيس بالنسبة إلى اليتم.

وأما المساكين: فقد مرَّ الكلام فيهم في آية ﴿لَيْسَ الْبِرَّ..﴾ وكذا ابن السبيل، هذا وأما وجوب الإنفاق في سبيل الله فقد سبق الأمر به

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ واجب أو تطوع ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وهذا ترغيب في فعل الخير كله.

وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٢١٦ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ

---

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: تدل على وجوب نفقة الوالدين، والأقربين، واليتامى، والمساكين، والمسافرين المنقطعين، حيث لم يجدوا النفقة، وعلى مواساتهم استحباباً حيث كانوا يجدون ذلك، فقد حث الله على ذلك في قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾» انتهى.

۝٢١٦ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ أي فرض عليكم، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ أي تكرهه النفوس من الناحية الطبيعية، وهذا هو الأصل في الطبيعة ولا ينافيه رغبة السابقين فيه؛ لأنهم يرغبون فيما يشق عليهم رغبة في فائدته، فهو مكروه من ناحية المشقة، مرغوب من ناحية الفائدة.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ أي يقرب أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم لأن الكره يكون لما يشق على النفس وإن كانت فيه فائدة عظيمة إذا كانت مغيبة يجهلها الإنسان أو يغفل عنها والنفس مولعة بحب العاجل، فالإنسان بطبعه يكره فراق بيته وأهله وماله وأصحابه ولا يدري يعود إليهم إذا ذهب للجهاد أم لا، مع أن الجهاد في سبيل الله خير له.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ لأن نفوسكم تنظر إلى وجه الرغبة وتجهل ما فيه من الشر أو تغفل عنه.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ لأنه علام الغيوب؛ فهو يعلم الشيء في حال أنا لا نعلمه لكثرة ما نجهل؛ وما أوتينا من العلم إلا قليلاً،

فهـو سبحانه وتعالى يعلم ما هو الخير لنا وما هو الشر، ونحن نجهل كثيراً من ذلك، فما دلنا عليه من الخير كالجهاد في سبيله؛ فعلينا أن نؤمن بخيره ونرغب فيما دلنا عليه لأنه الخير في الواقع وإن شق على النفوس؛ لأن المشقة تنتهي وتبقى الفائدة أبداً.

قال الشرفي في (المصابيح): «وقال ـ أي الإمام القاسم بن محمد عليه السلام ـ : «هذا نص صريح في أن الجهاد فريضة من الله وإن كان كرهاً للناس» انتهى.

قلت: قد دل القرآن على وجوب الجهاد في هذه الآية وفي غيرها، ودل على أنه من شأن المؤمن.. الفارق بينه وبين مدّعي الإيمان.. وإنما آمن بلسانه دون قلبه، قال تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٤-١٥] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٧٦].

وهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ ترد على من يمنّي نفسه أن قد قام بفريضة الجهاد؛ لأنه يجاهد نفسه وهو الجهاد الأكبر، أو لأنه يجاهد بقلمه، ويحتج فيما يكتب على بطلان أقوال الكفار، ويدافع عن الإسلام بقلمه ولسانه، وهذا كله وإن كان جهاداً فهو لا يكفي عن بذل النفس في سبيل الله، وإذا صدق في جهاد نفسه فمنه بيعها من الله وحملها على القتال في سبيل الله، وتعريضها للقتل أو الغلبة؛ للقيام بما فرض الله عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة:١١١].

ومن الناس من يقول: لو كان جهاد لجاهدت، ويظن أن نيته لذلك تكفيه دون أن يعمل لتحصيل الأنصار والقوة؛ بل يكتفي بانتظار اجتماع جيش ذي عدة ولعل الآخرين مثله، كل منهم ينتظر وينوي أن يجاهد إذا جاء جهاد.

أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ

---

ولعل كثيراً من الناس لو علم وجوب الجهاد وإعداد القوة لاستعد للجهاد ولكن الناس لا يذكرون له الجهاد ولا يأمرونه بالإعداد، فهل الجهاد يأتي الناس وهم قاعدون لا يدعو إليه أحد ولا يستعد له أحدٌ كما يأتيهم شهر رمضان، وشهر الحج، وأوقات الصلاة!!

إذاً فانتظار الجهاد كانتظار الصلاة، أما إذا كان الجهاد لا يكون إلا بالاجتماع له والإعداد له والتداعي إليه والتواصي به والحث عليه والتخويف من الاتكال على الأعذار فإنه يلزم الذين يريدون امتثال أمر الله والقيام بفرضه تحصيل ما لا يتم إلا به، والتماس الأنصار والقوة، والعمل على جلب المحبة والإخاء وتأليف القلوب للقيام بالواجب، وأن يحذروا أن يكونوا كمن أمر بطلوع السطح فقال لا أستطيع ليس عندي سلم؛ وهو يستطيع التماس السلم والصعود عليه، وليعتبروا بالإمام القاسم بن محمد عليه السلام في جهاده وصبره ومصابرته حتى انتصر، وكذلك الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، وكذلك الناصر الأطروش، وغيرهم من أئمة الهدى الذين باعوا أنفسهم من الله صادقين.

﴿٢١٧﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ ما حكمه؟ وما حرمته؟ أي هل يجوز القتال فيه؟! ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ إثم عظيم ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وما عطف عليه مبتدأ؛ خبره قوله: ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَكُفۡرُۢ بِهِۦ﴾ أي بـالله ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي صـد عـن المسـجد الحرام ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ﴾ هذه الأربع الجرائم كلها ﴿أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ مـن القتال في الشهر الحـرام، فالجاهليـة كـانوا يحرمـون القتـال في الشـهر الحـرام ويستحلون تلك الجرائم؛ فيصدون الناس عن الدخول في الإسلام الذي هـو سبيل الله، ويكفرون بالله بإنكارهم للبعث، ويصـدون عـن المسجد الحـرام كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية وأخرجوا أهل المسجد الحـرام منـه؛ حيث ألجئوهم إلى الهجـرة مـن مكـة وحرمـوهم البيـت العتيـق وهـم أهلـه وأولياؤه؛ وليس للكفار من ولاية المسجد الحرام شيء، فهـذه الجـرائم أكـبر عند الله.

وروي أن سبب نزول الآية هذه: أن بعـض المسـلمين قتلـوا رجـلاً وهـم لا يعلمون أن قد دخل شهر رجب وادعى المشركون أن شهر رجب قد كان دخـل وأنهم قتلوه في رجب وضجوا من قتله في الشهر الحرام؛ فردّ الله علـيهم بأنـه لا يحل القتال في الشهر الحرام، وأنهم يفعلون ما هو أكبر عند الله.

﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ﴾ لمـن أسـلم بتعـذيبهم لـه ليرجـع عـن الإسـلام إلى الشـرك ﴿أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ وقد كان الكفار يفتنون من أسـلم ولا يبـالون في ذلـك بحرمة الشهر الحرام ولا حرمة الحرم.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ فهـم في جـرائمهم مسـتمرون، وعلـيكم أن تقـاتلوهم كمـا أمـرتم في الآيـة الأولى، وتصبروا وتصابروا حتى لا يستطيعوا ردكم عن دينكم.

﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ أي بطلت وذهبت كما يموت الحيوان إذا حبط من بعض المأكول.

هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ

---

﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ فلا تبقى لهم حرمة الإسلام بل يقتلون إن لم يتوبوا قبل أن يموتوا ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فلا ينفعهم إسلامهم قبل الردة أي نفع ولا شيء من عملهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أصحاب النار هي لهم مستقر ومقام وهم أهلها ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هم فيها باقون لا يموتون ولا يخرجون.

﴿٢١٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ لأنهم يعلمون أنهم بإيمانهم وهجرتهم وجهادهم مظنة أن يرحمهم الله فيصرف عنهم عذاب جهنم، فهم لكونهم في سبيل الله يرجون رحمة الله مع كونهم يحذرون الآخرة ويخافون سوء الخاتمة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فقد أصابوا في رجائه من حيث أن سببه صحيح، ومن حيث أنهم يرجون رحمة الغفور الرحيم؛ الذي هو أهل أن يرجى لأنه أهل أن يغفر ويرحم، وهذا الرجاء الصحيح المحمود إذا حصل للمؤمن المهاجر في سبيل الله المجاهد في سبيل الله حصل له به فرح وسرور، ورغبة في الإستمرار على سببه، ونشاط في العمل، بخلاف المتمني المخادع لنفسه المتبع لهواه العامل عمل النار وهو يدّعي أنه يرجو رحمة الله فإنه يزداد فجوراً وبعداً عن التوبة.

وإني لأظن أن الرجاء القلبي خاص بالمؤمن، وأن الفاجر بفقده للإيمان الصادق غافل عن الآخرة لا يدخل قلبه رجاء كما لا يدخله خوف لعدم إيمانه بالآخرة إيماناً يبعث على الإستعداد لها فادّعاؤه للرجاء إنما هو قول بلسانه أما قلبه فهو غافل عن الآخرة.

وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا

---

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ يؤخذ منه جواز قتالهم إذا قاتلوا في الشهر الحرام، كما جاز قتالهم في الحرم إذا قاتلوا فيه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ ﴿ٱلْخَمْرِ﴾ عصير من العنب أوالتمر يغطى أياماً نحو سبعة أو أكثر أو أقل حتى يصير مسكراً وحينئذ يكون خمراً، وقد جاءت روايات تفيد تحريم كل مسكر وفي بعضها: «كل مسكر خمر».

﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾ هو القمار، وحاصله: طائفتان يحضران مالاً، ثم يستعمل كل فريق ما يأخذ به المالين من العمل المصطلح عليه أو يستعملا القرعة أو نحوها فيأخذ أحدهما المالين ويخسر الآخر ماله بدون عوض، وكانت الجاهلية يفتخرون بشرب الخمر وإتلاف المال فيه ويفتخرون بالميسر وكانوا يأخذون ما أخذوه بالقمار ويقسمونه للفقراء فيفتخرون بالميسر لذلك، ولعلهم هم الذين سألوا رسول الله ﷺ لينظروا ما هو حكم الإسلام في الخمر والميسر.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ على من استعملها؛ لما في الخمر من تحريمها، ولعنها، ولعن شاربها، وبائعها، ومشتريها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه؛ وذلك لأنها أم الخبائث تجر إلى السكر وما يكون مع السكر من الخبائث، ويستعان بها على الزنا واللواط، كما قال الشاعر:

لها محبان لوطي وزناء

وقد يزني السكران بأخته، وقد يقتل ابنه أو غيره لسكره؛ فيؤدي إلى العداوة، ومع فرط خبثها يولع بها صاحبها حتى كأنه مضطر إليها فيستمر عليها حتى يموت إلا من وفقه الله وأعانه على تركها.

وأما إثم الميسر فلأن الله حرمه وفيه ظلم للغارم لأخذ ماله بالباطل وتسبيبه للعداوة والبغضاء لأنه يجحف بالغارم ويغيظه إذا عظمت غرامته، وقد بين الله مفاسدهما بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١].

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ والمنافع: أصغر من الإثم لا تعادله كالتجارة في الخمر، وإطعام المساكين في الميسر، فهذا لا يعادل تحريمهما وما فيهما من المفاسد، وفائدة ذكر أن فيهما منافع الرد على من يجادل عنهما من الكفار، فكأنه قيل: إنهما وإن كان فيهما منافع فـ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ لا تعادله المنافع، فلا تعارض تحريمهما

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ سبق الجواب على هذا السؤال بذكر ما يفيد أن المنفَق أيّ خير وأن الإنفاق للوالدين ومن ذكر معهما، وهنا زيادة جواب لتحديد المنفَق وهو العفو وهو ما يفضل عن الحاجة الصادقة لا الحاجة النفسية التي هي حاجة الشحيح والطامع في الشهوات ويقدم الأوجب فالأوجب، وأما الإيثار على نفسه فهو فضيلة

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فآيات الله مبيَّنات للمكلفين لا تخص الشيخ ولا الإمام وبالتفكر فيها يهتدي قارؤها للمعنى؛ ومن التفكر، التفكرُ فيما أشارت إليه من مفاسد الخمر والميسر، والتفكر في رحمة الله بعباده حيث لم يكلفهم الإنفاق المجحف، وفي رحمة الله بمن أوجب الإنفاق عليهم، وفي رحمته بالأمر بالإنفاق في سبيل الله لئلا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، ولإعلاء كلمة الله ليسعد الناس في الآخرة ويدفع الظلم ويسود العدل

وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ

---

كما أن إنفاق المال للظلمة المفسدين في الأرض عكس ذلك، ومن التفكر في آيات الله التفكرُ في هدايته للخير العاجل والآجل، كما تدل عليه في مواضع عديدة من القرآن، فهي تهدي إلى الخير للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة فآياته مبينات

﴿٢٢٠﴾ ﴿فِي﴾ شئون ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ إذا تفكرتم فيها اهتديتم إلى خير الدنيا والآخرة، ألا ترى أن الناس لو عملوا بها في الإنفاق في سبيل الله والجهاد في سبيل الله والإنفاق على من أمر الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر حتى ساد الحق والعدل وطاعة الله وذهب التظالم والخمر والميسر والربا وأرجعت المظالم ولم يبق في الأرض مستضعف يمنع ما يستحقه من الإنفاق ومن الحرية والإنصاف لكان الناس في سعادة عاجلة في الدنيا وعمل صالح للآخرة.

وبهذا تبين: بطلان دعايات الكفار الجاهلين بالدين ومنافعه والمكابرين للحق، من قولهم: أن القرآن حجر عثرة في طريق التقدم، وكذبوا وخابوا وخسروا، بل هو طريق السلامة والكرامة، وهو لا يمنع من تعلم العلوم الحديثة في مختلف الجوانب، ومنها: صناعة الطائرات ونحوها، بل هو يدعو إلى إعداد القوة ويحل لهم أخذ ما أعد لعباده من منافع البحر والبر.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞ﴾ لكم ولهم ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ أي فهم إخوانكم، عليكم أن تنصفوهم، ولا تستبدوا عليهم

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾ فعليكم أن تراقبوه في معاملتكم لليتامى وقيامكم عليهم وعلى أموالهم.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡ﴾ لشق عليكم في التكليف، وكلفكم ما فيه الوجع الشديد عليكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا ينال ﴿حَكِيمٌ﴾ فأمره ونهيه على ما فيه الحكمة.

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي أحكام هذه الآية يقول إمامنا المنصور بالله عليه السلام: تدل على تحريم الخمر والميسر للنص الجلي على حصول الإثم الكبير فيهما، وتدل على أن ارتكابهما من الكبائر، وعلى أن النفقة بما فضل عن الكفاية، وهذا إجمال وهو مبين في الزكاة بالأنصباء في المواشي والذهب والفضة وفي المكيل كذلك؛ كما جاءت به السنة المعلومة، وفي نفقة النافلة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: « لا صدقة إلا عن ظهر غنى» وقوله سبحانه: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ [الحشر:٩] في مثل الوجبة والوجبتين مشروع حسن كما يأتي إن شاء الله تعالى.

وتدل على وجوب إصلاح اليتامى في أموالهم وتعليمهم فيما يصلح لهم، وتدل على جواز مخالطتهم ومشاركتهم في طعامهم وسائر تصرفاتهم ولا يجب مع ذلك العلم بالتساوي، وأن الله لم يُعنت المسلمين أي لم يحملهم مشقة في ذلك وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾ تهديد من الله سبحانه لمن أفسد اليتامى في أموالهم وتعليمهم ما لا يليق بهم وأن ذلك حرام» انتهى.

قلت: كلامه عليه السلام لم يستوعب الإنفاق الواجب؛ لأن منه الإنفاق في سبيل الله ولم يذكره هنا و غيره كما مر، وقوله عليه السلام: ولا يجب مع ذلك العلم بالتساوي، يعني عليه السلام مع تحري التساوي وإنما لم يجب تيقن التساوي تيسيراً على العباد.

خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

---

فأما تحري الحق فلا بد منه لئلا يأكل مال اليتيم بغير حق، وقوله التساوي يعني لليتيم بقدره المساوي لما يحتاج الواحد مثله من العائلة، أو ما يحتاج القائم بالإنفاق عليه في مثل حاجة اليتيم وليس مقصوده التساوي بين ما ينفق عليه وما ينفق على غيره على كل حال لأن الإنفاق على قدر الحاجة وهي تختلف باختلاف الناس، فحاجة الصبي في المهد خلاف حاجة الشباب، وحاجة الشيخ خلاف حاجة الشباب، وحاجة المريض خلاف حاجة الصحيح، وحاجة من تحدث به علة يحتاج لأجلها إلى اجتناب ما يضره من المأكولات والإدامات وغيرها واستعمال ما يدفع علته من الدواء والدفء وتخفيف العمل وبعض المأكولات التي لا يحتاجها الصحيح كحاجة ذي العلة، فالتساوي أن يكون لكل بقدر حاجته، وأراد عليه السلام أن ذلك ليس كالمعاوضة في الربويات التي يشترط في جوازها تيقن التساوي.

﴿٢٢١﴾ ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ فلا يكفي تركهن لما هو شرك بل تحريمهن مستمر حتى يؤمنّ وعلى هذا فلا بد من إسلامها وامتحانها حتى يظهر منها الإيمان وفي ذلك فوائد:

*الأولى*: أنها ما دامت على كفرها لا تحل، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠].

*الثانية*: أنها وإن تركت ما هو شرك فلا يؤمن بقاء الشرك في قلبها وإن تركته قولاً وفعلاً.

*الثالثة*: أن حكم الشرك باقٍ عليها ما لم تتب ولا توبة إلا بالإسلام والإيمان بأن الله لا شريك له، وبما وجب الإيمان به؛ فلا تحل قبل ذلك لأنها في حكم المشركة، فالآية الكريمة قد شملت هذه الفوائد، وقد غلط في التعبير من قال في تفسيرها فحرمهن ما دمن مشركات لأن عبارة القرآن أعم وأنفع لشمولها المشركات بقلوبهن ومن هن معرضات للعودة في الشرك لإصرارهن عليه وعدم المانع لهن الذي هو الإيمان.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكَةٍ﴾ والأمة المؤمنة يباح نكاحها لمن خشي العنت، فهي خير من المشركة سواء كانت أمة أو غير أمة وهذا يدل على شرف الإيمان وعلوّ قدره حيث فضلت الأمة المملوكة على الحرة المشركة، مع أن الغالب في ذلك العصر في أول الإسلام أن تكون الأمة من غير العرب وأن المشركة التي هي حول المسلمين تكون من العرب بل قد تكون من قريش، وقد يقال: المراد بالأمة: أمة الله لا أمة المخلوق؛ وهذا بعيد لأنه كان يكفي أن يقول: ولمؤمنة خير من مشركة، لو كان المراد أمة الله فكل النساء إماء الله وتذهب فائدة ذكر الأمة.

﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ﴾ ويدخل في هذا: الإعجاب بجمالها، والإعجاب بها لأجل مالها، أو لأجل منصبها ومعدنها، فالأمة المؤمنة خير منها وأصلح للزواج بينها وبين المسلم.

﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْ﴾ فتحريمهم دائم حتى يؤمنوا، وفي هذا دلالة على أن المزوِّج هو الرجال وأن المرأة لا تستقل بنفسها في ذلك وإن كان لا بد من رضاها، ولولا ذلك لقال: ولا تنكحن المشركين حتى يؤمنوا، فلما قال تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ دون ولا تنكحن دل ذلك

على أن نكاح المرأة متوقف على إنكاح الرجال لها وإلا بطلت فائدة توجيه الخطاب إليهم وصار كما لو قال للنساء: ولا تزوِّجن المشركات مسلماً حتى يؤمنَّ، وهذا لا معنى له مع كون المسلم يتزوج ولا يحتاج إلى أن تزوجه النساء.

﴿وَلَعَبۡدٌ مُّؤۡمِنٌ﴾ من المماليك ﴿خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ﴾ بأي مرغب فيه من الفتوّة والسخاء والشجاعة وجمال الخلق وكمال البنية والثروة وسعة الصدر والرفق واللين والعاطفة فهذه المرغبات وغيرها كلها لا شيء في جنب الإيمان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المشركات والمشركون ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فالخطر في مناكحتهم أعظم من الخطر في مناكحة العبد الفقير، أو الذي لا يظهر فيه مرغب سوى الإيمان لأن الإيمان يدعو إلى الخير واجتناب الظلم واجتناب التقصير في الحقوق.

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ فالزواج بأهل الإيمان هوالذي يدعو إليه لئلا تفوت الجنة والمغفرة لأن فوات ذلك هوالخسران المبين، أما الدنيا فما فات منها فعليه العفاء إذا سلم الدين وهذا معنى واضح لا لبس فيه ولا اشتباه، وعموم الآية يدل على تحريم الكتابية المشركة لأنا لو فرضنا إباحة الكتابية فليس معناه أن كونها كتابية يبيح نكاحها على كل حال ولو كانت مشركة، إنما معناه إن كونها كتابية لا يقتضي تحريمها إذا لم يوجد مانع غير كونها كتابية.

ألا ترى أنها لا تحل إذا كانت أمّاً أو أختاً أو بنتاً أو نحو ذلك أو كانت زانية مصرة على الزنا، فكيف لا يكون الشرك إذا انضاف إلى نسبتها إلى

الذين أوتوا الكتاب مانعاً من نكاحها مع أنه الخطر العظيم على الزوج وأولاده لأن المشركة تدعوهم إلى الشرك بطريقة التخويف مما تشرك به، فقد يمرض ابنها وتعتقد أنه يشفى إذا قربت لمن تشرك به من دون الله، وتخوف أباه إن لم يوافقها على هذا أن ابنه يموت، وكثير من المسلمين ضعفاء الإيمان ينحرف بسهولة.

فأما تربية أولادها على الشرك بنفس الطريقة فظاهر، ألا يكفينا القرآن وهو يحذرنا من ذلك ويفيد أنهم يدعون إلى النار، وأن الله لا يرضى ذلك لأنه يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه فكيف يرضى المشركة إذا كانت كتابية مع حصول المانع فيها من جهة العموم ومن جهة التعليل.

وما مثال ذلك إلا مثال رجل قرأ قول الله تعالى: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ﴾ فقال: قد أباح الله الأكل والشرب ولم يمنع من أكل الحرام في ليلة الصيام فيستحل بذلك الميتة والدم ولحم الخنزير في ليلة الصيام، أو رجل قرأ قول الله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة:٥] فاستحل طعامهم ولو كان فيه خمر أو لحم خنزير، ولا إشكال في أن ذلك من الباطل الذي لا يقوله من يريد الحق.

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما هو في فطرتهم، فمن الفطرة أنه لا ينبغي لعاقل إلا الحذر من أسباب النار على نفسه وعلى أولاده، فقد بين الله الخطر في مناكحة المشركين وأنها تدعو إلى النار ومظنة التسبيب لها لنتذكر ما هو حاضر في عقولنا إن غفلنا عنه، وبهذا ظهر أن هذه الآية هي المحكمة وما توهم منه خلافها فهو من المتشابه.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ

---

(٢٢٢) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ أي عن حكمه في الإسلام وليس المراد السؤال عن مفهوم لفظ (المحيض) لأنهم عرب يعرفون لغتهم ولا يحتاجون إلى السؤال عنها.

﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ لنجاسته وقذارته ﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ لتسلموا نجاسته وقذارته، وبهذا ظهر أن المعنى الأصلي في اعتزالهن هو اعتزالهن عن الجماع أي ترك الجماع، وإنما يحرم ما تحت الإزار لئلا تغلب الشهوة فيقع الجماع لأن الإنسان ضعيف العزم، فلو عزم على الإستمتاع بما دون الفرج وهو عازم على تجنب الفرج فلا يبعد أن تغلبه الشهوة، ولا يقاس على المعصوم للفرق الواضح.

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ بأن ينتهي دم الحيض في الحيضة، وتتطهر منه بإزالة نجاسته والغسل منه، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ لأنها لا تطهر بانتهاء الحيض حتى تتطهر من أثره بما أمرها الله به من التطهر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ دلالة على أنه لا يحل جماعها في حال استمرار الدم، ولا في النقا المتوسط بين حالات الدم، ولا عند انقطاعه وانتهائه قبل التطهر؛ لأنها دلت على أنها لا تطهر بذلك، ولا بد من التطهر لتطْهُرَ بانتهاء الحيض والتطهر من أثره.

وقوله تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ يدل على أنه لا يأتيها من حيث شاء، بل موضع مخصوص أمر الله بالإتيان منه، وهو ما خلق للزوج المذكور في قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦] وهو ما دل عليه في الآية الآتية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ إليه، ومن التوبة: التوقف عند حدود الله واجتناب ما حرم ﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ باجتناب نجاسة الحيض وغيره، فاجتناب القاذورات يسمى تطهراً، قال تعالى: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:٨٢] يعنون بمجانبتهم لأعمال قوم لوط، وفي هذا إشارة إلى تعيين الموضع الذي أمر الله بإتيانهن منه، وأنه غير الدبر؛ لنجاسة الدبر بالبراز فإتيانها منه ليس من التطهر بل هو ترك للتطهر، والموضع الذي أمر الله به خاص بالتواب المتطهر.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام ـ يعني الإمام القاسم بن محمد عليه السلام ـ : تدل على وجوب اعتزال النساء في المحيض، وتحريم وطئهن لأجل الأذى، ويشاركهن في حصول الأذى النفساء؛ فيحرم وطؤها بجامع الأذى، ولا يحل وطؤهن إلا بعد أن يطهرن من الأذى ويتطهرن بالاغتسال، والآية تدل على شمول اعتزالهن فلا يقاربن لوطء ولا استمتاع وقد خصصها ما تلقته الأمة بالقبول من السنة المبيحة لما عدا الوطء من الاستمتاع وغيره من سائر التصرفات كترجيل المرأة رأس زوجها ومس جسدها بيده وتقبيلها وغير ذلك، وتدل على وجوب التوبة من الذنوب والتطهر للصلاة واستحباب النظافة» انتهى.

حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا

---

قلت: وقوله: المبيحة لما عدا الوطء من الاستمتاع، يستثنى منه ما يؤدي إلى الجماع؛ لأن فاعله يعين الشيطان على نفسه، لأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، فلا تجوز معاونته بما يؤدي إلى المعصية لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢] وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «لك ما فوق الإزار، ولا تطلع على ما تحته» وقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ وقد مر تفسيرها.

﴿٢٢٣﴾ ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ شبه النساء بالحرث الذي يبذر فيه البذر فيكون منه الزرع، وهذا تنبيه على أن الموضع الذي أمر الله أن تؤتى منه هو الموضع الذي يكون بإتيانه الولد، وكفى ببيان الله بياناً لمن تفهم، فمن البيِّن: أن فائدة ذلك النهي عن الدبر، ولو لم يكن ذلك هو المقصود لما كان لهذا الكلام أهمية، ولكفى: (ائتوا نسائكم أنى شئتم).

﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ هذا مطلق يتناول التقديم لمنافع الدنيا والآخرة، فالتقديم لمنافع الدنيا، مثل ابتغاء الولد بالجماع، والثمر بالحرث، والتقديم لمنافع الآخرة بالتقوى والعمل الصالح، ووقوعه في هذا السياق يظهر منه منع العزل.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ ومن تقوى الله العمل بما أمر في هذه الآيات، وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ يفيد: وجوب العلم بلقاء الله وهو الحضور يوم القيامة في موقف السؤال والحساب ولا يكفي الظن.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم آمنوا بالله واليوم الآخر وكل ما يجب الإيمان به، وأطاعوا الله ورسوله؛ فلهم البشرى بالثواب العظيم والخير الكثير.

وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ

---

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: تدل على إباحة وطء النساء أي الزوجات في موضع الحرث، وهو موضع الولد من الفرج، من قدّامها وورائها، وعلى جواز الاستمتاع بسائرها ما خلا ما حرمه الله من اللواطة وهو إتيان النساء في أدبارهن فإنه من الفواحش الكبار، والأصل فيه إتيان الذكور فيما لم يجعله الله موضعاً للحرث، فمن فعل ذلك فهو داخل في معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:٧] كما يأتي إن شاء الله تعالى، ولأنه صلى الله عليه وآله وسلم نهى «عن محاش النساء» رواه جابر» انتهى.

﴿٢٢٤﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فسّروا جعله تعالى عرضة للأيمان بإكثار الحلف بالله جرأة على الله، والأولى: لا تجعلوا أيمانكم تعرض وتقطع البر وعمل الخير، ومن الإثم العظيم إذا كانت غموساً فقد جعلوه عرضة لأيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ قال فيه الشرفي في (المصابيح): «وروى المرتضى عن جده القاسم عليهم السلام: أنه سئل عن هذه المسألة؟

فقال ـ رحمة الله عليه ـ : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾ لا تكثروا الحلف بالله في كل حال وعند كل مقام، وقّروا الله وأجلّوه عن أن تجعلوه عرضة لأيمانكم، وإن أصلحتم بين الناس، وإن أردتم بأيمانكم الإصلاح» انتهى.

وقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) [ج٢/ ص١٧٢-١٧٣]: «وقال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وذلك فمعناه أن يحلف الرجل أنِ لا يبر له رحماً، وأن لا يصلح بين اثنين من المسلمين، لأن الله تبارك وتعالى قد أمر بالإصلاح بين المسلمين بقوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩].

ولا ينبغي للرجل إذا أمر بخير فعُصي، أو أصلح بين اثنين فلم يُطَع؛ أن يحلف أن لا يصلح بينهما، ولا يعود في الدخول في شيء من أمرهما، فإذا قيل له أصلح بينهما قال: قد حلفت أن لا أفعل فلست أقدر لمكان يميني ولست أستطيع أن أحنث في قسَمي فنهاه الله عن ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول: ولا تجعلوا أيمانكم علة تعرض وتقطع بينكم وبين طاعة الله في صلة أرحامكم والإصلاح بين إخوانكم؛ بل بروا واتقوا وعن أيمانكم كفّروا، وقد يدخل في تفسير هذه الآية أن يكون الله سبحانه نهى عباده عن القسم به في كل حق وباطل، وأن يجعله عرضة ليمينه في النازل وغير النازل» انتهى.

قلت: الرواية عن الإمام القاسم عليه السلام معناها أن قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّواْ..﴾ إلى آخره؛ تفسير للمحلوف عليه فهو مرتبط بقوله: ﴿لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾ كأنه قيل: لأيمانكم لتبَرُّنَّ ولتتقُنَّ ولتُصلِحُنَّ.

أما تفسير الإمام الهادي عليه السلام فقد جعل قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ وما بعده راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةً﴾ أي لا تجعلوا الله عرضة لأجل أيمانكم يعرض عن أن تبروا وتتقوا وتصلحوا.

وعلى هذا لا يكون: ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ تفسيراً للمحلوف عليه؛ بل كأنه قيل: لا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم من أجل كراهة أن تبروا، وهذا ضعيف لعموم الأيمان وخصوص السبب، وأقرب منه أن يكون التقدير ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم من أن تبروا.. إلى آخره..واستعمال مِن في المحلوف منه ظاهر كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ وعليه تكون الأيمان خاصة بالحلف من البر والمعنى في هذا مستقيم، والنهي عن الحلف من البر أقرب، لكنه غير صحيح؛ لعدم الدليل على تقدير مِن، فلم يبق إلا تفسير الآية بما روي عن الإمام القاسم عليه السلام أو الإمام الهادي عليه السلام، وتفسير الإمام القاسم أظهر باعتبار استعمال العرب لكلمة عرضة، وما ذكره الإمام الهادي عليه السلام قد حكى مثله (صاحب اللسان) عن الفراء.

والهادي والقاسم عليهما السلام عربيان، وفي كل من التفسيرين مرجح، والراجح عندي تفسير الإمام القاسم عليه السلام لما ذكرت، وإن كان تفسير الإمام الهادي عليه السلام أوفق للنظر.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ فهو يسمع الأيمان وغيرها ويعلم ما في صدور الحالفين من إجلال لله أو خلافه ويعلم كل شيء.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام عليه السلام ـ يعني القاسم بن محمد ـ: تدل على تحريم التَّجَاري على الله في الأيمان واعتيادها وإن برَّت وأن يتحرز عن تعودها» انتهى.

(٢٢٥) ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ الراجح في معنى (اللغو) أنه الملغي مع كونه خطأً في اللفظ، أو كذباً غير متعمد وإن تعمد لفظه، والمراد بالملغي الذي لا يترتب عليه في العادة إلزام فعل أوترك، ولا يؤخذ به مال أو نحوه فهو ساقط لا يعتد به، فهي كقوله تعالى بعد النهي عن دعوة الرجل لمن تبناه والأمر بدعوته لأبيه أو بالأخ أو المولى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥] وذلك أن الإنسان إذا تعود اليمين يسبق لسانه بها كما أن تعود الدعوة للمتبني يسبق لسانه بها خطأً، ولأن الله تعالى قابل اللغو بما كسبت القلوب فقال تعالى.

﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥] ويدخل في هذا: اليمين الفاجرة إذا تعمدها الحالف وإن كان يظنها صدقاً؛ لأنه قد تعمد اليمين وليست ملغاة لأنه يترتب عليها أخذ مال أو نحوه، وعلى هذا فليس له أن يحلف إلا بما يشهد به لو كان شاهداً لأنه باليمين شاهد لنفسه كما في اللعان.

وقد دخل في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من حلف على مال أخيه فاقتطعه ظالماً لقي الله يوم القيامة وهو معرض عنه» رواه الهادي في (الأحكام) بصيغة الجزم، وقال: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ..﴾ إلى آخرها [آل عمران:٧٧] نزلت في رجل حلف لرجل عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يميناً فاجرة باطلة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من حلف على مال أخيه..» الحديث.

ولا يقال: إنها من اللغو؛ لأنها ليست من الساقط الذي لا يعتد به كيف وهو يترتب عليها الحكم له بمال أخيه فلم تُلغَ مع أنه يشترط في الساقط الذي لا يعتد به أن يكون ظاناً صدقه مطمئناً به، أعني ظاناً لمدلول اليمين وإلا أثم بالخبر وإن لم يأثم باليمين لكونها خطأً، فالأيمان أقسام:

القسم *الأول*: كثرة الأيمان لغير موجب ولا حاجة تصلح لها اليمين.

*الثاني*: اليمين الفاجرة المتعمدة المعلوم فجورها.

*الثالث*: اليمين الفاجرة المجهول فجورها وهي متعمدة ويستفيد بها شيئاً من الدنيا.

*الرابع*: اليمين المتعمدة التي يظن صدقها وهي لا تفيده شيئاً من مال أو نحوه.

*الخامس*: اليمين غير المتعمدة فيما يظنه الواقع.

*السادس*: اليمين الخطأ فيما لا يظنه الواقع ولا يعلم.

فالأولى محرمة على تفسير الإمام القاسم عليه السلام، والثانية بلا خلاف، والثالثة في الراجح لعموم الأدلة.

والثلاث الباقية لا إثم فيها؛ إلا أن الإثم في السادسة في الخبر، ويمكن جعلها أربعاً:

*الأولى*: كثرة الأيمان.

*الثانية*: المتعمدة التي يقتطع بها مال المسلم.

*الثالثة*: الملغاة.

*الرابعة*: اليمين الفاجرة المتعمدة التي يعلم كذبها ولا تفيده شيئاً، وهي إثم.

وهذه الأقسام في غير المعقودة فهي قسم وحدها، وقد جعلها علماؤنا ثلاثاً: الغموس، واللغو، والمعقودة.

ويمكن جعل الغموس ما يأثم بها، واللغو الملغاة الساقطة كما فصَّلْت.

والمعقودة تأتي ـ إن شاء الله ـ في (سورة المائدة) ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فهو لا يؤاخذ باللغو، ولا يعاجل بعقوبة كسب القلوب، ويقبل التوبة ممن يتوب.

يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ

---

﴿٢٢٦-٢٢٧﴾ ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ أي يحلفون بالله ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أي أزواجهم أن لا يطئوهن ﴿تَرَبُّصُ﴾ انتظار وكف عن مطالبة الزوج ﴿أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ فهذا من حقوق الزوج على زوجته بحكم أحكم الحاكمين.

﴿فَإِن فَآءُو﴾ رجعوا إلى أزواجهم وخرجوا عن أيمانهم بالحنث فيها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ذلك الحلف وإن كان من سوء العشرة للزوجات وخلاف المعروف من المعاشرة، وفي هذا ترغيب في الفيء والرجوع إلى المعاشرة بالمعروف وذلك رحمة للزوجين.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ أي جعلوا الطلاق عزيمة لا رخصة فيها، أي طلقوا طلاقاً هو عزيمة لإيجابه الفرقة بين الزوجين، وخرجوا من رخصة الخيار إلى العزيمة وفي قوله تعالى: ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو..﴾ ﴿..وَإِنْ عَزَمُوا۟..﴾ يدل مجموع ذلك: أنها لا تتربص أكثر من أربعة أشهر، أي لا حق له في ذلك، وعلى هذا فيؤمر باختيار أحد الأمرين، ويحبس إن امتنع ويضيق عليه حتى يطلق أويفيءَ

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع الطلاق ولايخفى عليه إيقاع العزيمة في الفراق فيجب العمل بأحكام الطلاق ولا يجوز إلغاؤه بحال.

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا

---

﴿٢٢٨﴾ ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ ثلاث حيض كاملات، أي يجب عليهن أن يتربصن بأنفسهن، أي ينتظرن بها، ويكففن عن الزواج، وعلى هذا فالقروء من بعد العلم إذا كانت مكلفة ليتحقق منها الانتظار والكف عن الزواج.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ﴾ أي للمطلقات ﴿أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ﴾ من الولد إن كانت قد علقت فليس لها أن تكتمه لئلا تطول عدتها، فأما كتمان الخروج من العدة فأعتقد أنه غير مذكور في الآية، وأن دم الحيض لا يخلق في الرحم وإنما يمر منه، ولكن يحرم كتمان الخروج من العدة؛ لأنه خيانة لله وللمطلّق؛ حيث يكلف زيادة الإنفاق بغير حق ويجعل له الرجعة ولا رجعة له، فأما كتمان الخروج من العدة لغير محذور فلعله لا إثم فيه كردٍّ خاطب غير مرغوب وتخاف من رده لغير عذر فترده بإيهام بقائها في العدة.

﴿إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي إن كن يؤمنَّ بالله واليوم الآخر آمنَّ بأنه لا يحل لهن فلم يفعلنه، وهذا تأكيد لتحريم ذلك الكتمان ودلالة على أن من كتمت فليست بمؤمنة؛ لأن الإيمان ما وقر في القلب، وصدقه العمل.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في مدة التربص، وهذا أحسن من التعبير بالعدة؛ لأنه يدخل فيه بقية الطهر الذي طلقها فيه مستقبلة لعدتها ﴿إِنۡ أَرَادُوٓاْ﴾ بردِّهن ﴿إِصۡلَٰحٗا﴾ لا إن كان المراد الضرار أو الحبس عن الأزواج مع سوء العشرة والإهمال فليس أحق بها لغير الإصلاح بل هو ظالم بإرجاعها وإن كانت مازالت في التربص.

حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ

---

﴿وَلَهُنَّ﴾ متى ردوهن ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ من الحق ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الذي لا يستنكر، فلها حق الإنفاق بالمعروف، والمعاشرة بالمعروف، وعليها طاعة الزوج في نفسها في غير معصية الله، وقد قيل: عليها عمل ما داخل البيت أي من صناعة الطعام، وفرش الفراش ونحو ذلك، وإرضاع ولدها وحضانته، وعلى الزوج ما تحتاج إليه من خارج مع المسكن والذي في هذه الآية ذكر الذي لها، أما الذي عليها فيؤخذ من دليل آخر.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وهذه الدرجة مبينة في (سورة النساء) في قوله تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ...**﴾ الآية [النساء:٣٤] وقوله تعالى: ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ معنى المماثلة، المماثلة في العدل أي يجب لهن بقدر ما يجب عليهن ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فما حكم به فهو حق مطابق للحكمة، ومن خالف حكمه فلا بد من جزائه بما يستحق؛ لأن ذلك من عزته.

﴿٢٢٩﴾ ﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ﴾ أي تطليق مرتين مرة بعد مرة ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ على ما مر في الآية قبلها من الرد في التربص ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ﴾ إرسال وترك للإمساك حتى تخرج من العدة مع الإحسان إليها، بأن يترك لها مثلاً كسوتها ويجهزها للعودة إلى أهلها جهازاً حسناً، وهذا مثل للإحسان؛ لا تعيين ولا تحديد، فأما نفقة العدة فتأتي إن شاء الله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿**إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا**﴾ فليس للضرار ولا للمنع من الزواج مع الإهمال وهو من الضرار.

ومثله الحبس والإمساك ليرثها إذا ماتت، أو لئلا يرثها غيره مع الإهمال أو التقصير في الحقوق الزوجية، فكل ذلك ليس بمعروف ولا إصلاح ويأتي تأكيد الزجر عن الإمساك ضراراً.

وظاهر الآية: وقوع التطليقة الثانية، وإن لم تتخلل رجعة ما دامت في العدة، كما روي عن الإمام القاسم عليه السلام، ولا نسلم أن المطلق قد خرج عن كونه أهلاً للتطليق كما لم يخرج عن الإرث وهو تابع للزوجية، فدل ذلك على بقاء حكم الزوجية مادامت في العدة إلا ما خص المطلقة من أحكام الطلاق المبينة في الكتاب والسنة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ فسماهم بعولة، ولا يلزم أنه مجاز لاستعمال اسم الزوج في البائنة مجازاً باعتبار ما كان عليه.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ وبعض الناس يأسف على ما قد سلم لها فيحاول استرجاعه بحيلة للمخالعة وأخذه باسم الخلع وهو ظالم فيه وفي أخذ مالها ﴿إِلَّا أَن يَخَافَا﴾ أي الزوجان ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ لفرط الكراهة مثلاً بأن يثقل عليها طاعته حتى تظن أنها لا تقوم بواجبه، وهو يظن أنه لا يستطيع القيام بما كانت تستحق عليه من الإنفاق ونحوه لمعصيتها له؛ وهذا لأن حدود الله هنا أحكام الزوجين وحكم كل منهما الذي جعله الله تبعاً للزواج، فإذا كانت تهمل من جانبها فقد جاز الخلع.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أسند الخوف أولاً إلى الزوجين لبيان الحكم في حقهما، ثم أسنده إلى الدولة الإسلامية بقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ لبيان إحالة أمرهما إلى الحكومة حتى تنظر في أمرهما وهل يمكن الإصلاح بينهما وبقاؤهما في الزوجية، أوقد تحقق سبب الخلع فقد يكون الخلاف بينهما لغضب عارض وخلاف على أمر يمكن فيه حلُّ الإشكال والإصلاحُ بينهما وتركُ الطلاق.

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ

---

أما إذا عرف عند دولة الحق أن لا مجال من الخلع؛ تولت هي المخالعة بينهما ليكون على وجه الصحة؛ لأن الخلع قد يدخله ما يفسده ويبطل الطلاق، أو يفسده مع صحة الطلاق رجعياً.

وإذا ترك الناس يتولونه بدون ذلك تولوه بدون إرجاع إلى أهل العلم وحصل الفساد الذي يترتب عليه مفاسد بسبب الجهل، فلا بد أن تتولاه دولة الحق بنفسها أو تحيلهما إلى نائب من العلماء يقوم بالمقصود فإذا وقع على وجه الصحة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لا جناح عليه في الأخذ، ولا جناح عليها في الأداء، وهذا لأن المعاملة بالباطل يكون الإثم فيها على الآخذ والمعطي في الغالب كالربا والرشوة وغيرهما.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي حدها في الطلاق ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ طمعاً في أخذ ما آتيتموهن أو بغضاً لهن أو تهاوناً بأمر الله فيهن ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وإذا كان من الظالمين فهو من أهل النار؛ قال تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر:١٧] وقال تعالى حاكياً: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٢٩] وقال تعالى: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان:٣١] ولا يبعد انحصار أسباب النار كلها في الظلم، وأن كونها ظلماً هو سبب العقاب عليها وإن اختلفت أسماؤها.

﴿٢٣٠﴾ ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ رجع الكلام إلى أول الآية التي قبل هذه في الذي قد طلق مرتين، فإن طلقها مرة ثالثة: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ أصلاً لا في العدة

ولا بعدها ولا بعقد جديد ومهر جديد ولا بأي وسيلة ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ برضاها واختيارها نكاحاً وزواجاً صحيحاً لا ليطلقها وترجع ولكن:

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ كما هو معنى (إن) الشرطية أنها لغير المتوقع، لأن المتوقع يقال فيه: (إذا) أو (متى) ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ بالتراضي بينهما بالمعروف كما يأتي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ وقد جاء في الروايات النهي عن التحليل واشتراط أن يدخل بها الزوج الثاني تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها فلا تحل بمجرد العقد، ولعله شرع ليصعب التحليل؛ لأنها لو كانت تحل بالعقد وحده ثم الطلاق لكان التحليل سهلاً، وكثير من الناس لا يمنعه من التحليل إلا المروءة لئلا يكون كالتيس المستعار، ولو كان يحصل بالعقد وحده لسهل عليهم فكان اشتراط الدخول موافقاً للآية من حيث أن المقصود زواج لا يتوقع فيه الطلاق.

﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ في الزواج ويعملا بحكم الله فيه ليخرج ما كان لغرض فاسد كأن يخدعها ويعدها ويمنيها وقصده حبسها عن التزوج بغيره ولا يريد أن يقوم بحقوقها الزوجية، أو هي ترضى به لا للقيام بحقوق الزواج؛ بل ليسهل لها الزنا من حيث أنها تأمن الفضيحة بالحمل فترجع له لا لأجله؛ بل لأجل غيره، فالزواج المتوسل به للباطل جناح وحرام.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فلا عذر بعد البيان، وفيها دلالة على تمكن كل من يعلم أن يفهم حدود الله وهو كل مكلف وإنما يذم من لا يعلم من المكلفين لأنه متمكن من العلم ولكنه أعرض وتمرد حتى خذل وصار لا يعلم الواضحات بالدلائل البينات، أو أعرض عن التعلم ورضي لنفسه بالجهل.

فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ

---

وكلاهما غير مقصود في الآية؛ لأن اللوم عليهما، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا..﴾ الآية [الكهف:٥٧] وإنما المقصود من يريد الحق ويطلب العلم، فالآيات والحدود مبينة له.

﴿٢٣١﴾ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أعيد الكلام ليبني عليه الزجر عن الضرار ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ أو أن الأجل آخر العدة، فللزوج الرجعة ولو لم يراجع في أولها، وهذا مناسب لترتيب النهي عن الضرار عليه بأن يدعها حتى تقارب انتهاء العدة ثم يراجعها ليطلقها مرة ثانية وتعتد عدة أخرى، وللضرار صور غير هذه.

وقوله تعالى: ﴿لِّتَعْتَدُوا﴾ أي لأن تتجاوزوا حدود الله في الزواج بأن تمسكوهن لغير العمل بحقوق الزواج بل للضرار.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ كما ظلم المرأة، ويوم المظلوم على الظالم شر من يوم الظالم على المظلوم، وكيف لا يكون قد ظلم نفسه وقد صار من أهل النار بظلمه للمرأة.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ بأن تسخروا منها استكباراً وعتواً كما هو شأن كل جبار عنيد، وفيه تحذير لكل من يؤمن بآيات الله بلسانه دون قلبه ويخالفها في سلوكه؛ لأن ذلك الإيمان ليس جداً لعدم الإيمان بقلبه وإنما هو إيهام وتغرير وتدليس.

فإمّا أن هذا معنى الهزؤ، وإن لم يتعمد السخرية، وإما أنه مظنة الهزء والسخرية إذا أصابته فتنة بسبب عصيانه فغضب ووقعت منه السخرية، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣] وقد مر تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أن المعاصي تجر إلى ما هو أكبر منها.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ فليس من شأن المنعَم عليه أن يكفر المنعِم؛ بل إساءته إلى المنعِم أقبح بقدر النعمة، فكيف يكون من غمَرته نعم الله واستمرت له منذ خلق ثم جاءته النعمة العظمى نعمة الهدى إلى الإسلام ومعرفة طريق السعادة والسلامة من النار ولعل هذه النعمة هي المراد هنا أي نعمته بالرسول والقرآن والهداية إلى الإسلام.

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿مَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ عن المعاصي، فاذكروا ما في الكتاب والسنة من الزواجر، والحكم النافعة، والبيان الكافي لطريق السعادة، والترغيب العظيم في الجنة، والتحذير من الشيطان، والتحذير من الاغترار بالدنيا وغير ذلك، فلا تغفلوا عن ذلك وتعصوا ربكم بظلم النساء وإمساكهن ضراراً.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فأخذه شديد وبطشه شديد، وما لكم ﴿مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ﴾ [الطارق:١٠] لدفع عذابه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ لتراقبوه وتتقوه لأنه لا يخفى عليه شيء، وفيها دلالة على وجوب العلم ولا يكفي الظن، والعلم يحصل بالنظر في إتقان مصنوعاته، وما جعل بينها من المناسبة كخلق الإنسان وحواسه، وخلق الطعام المناسب له للذته وتغذيته مع تنويع الأطعمة من الحبوب والفواكه والبقول وغيرها وكلها مناسبة.

فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ

---

وإتقان صنع آلة الأكل؛ فأسنان تقطع، وكواسر تكسر التمر ونحوه، وطواحن تطحن المأكول في الفم، وشفتان تمسكانه لا يتساقط مع الطحن، وريق يسارع إلى اللقمة ليمازجها.

ولسان يردها بين الطواحن ويميز ما فيها مما يضر من حصاة أو شعرة يحس بها فيخرجها من بين اللقمة، ثم آلة ابتلاع اللقمة عند صلاحها لذلك، فيطلع لها المريء ويدفعها إليه الفم فينزلها إلى المعدة لتجمع المأكول والمشروب ثم تهضم المأكول وترسل بعضه إلى الكبد لتعمل عملها فيه وترسل بعضاً آخر إلى الأمعاء لتعمل عملها فيه ليحصل الغذاء للبدن فينمو ويقوى على أعماله فهذا دليل واضح على قدرة الله وعلمه وغيره كثير.

﴿٢٣٢﴾ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي صرن في أجلهن للزواج وخرجن من التربص ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ لا تمنعوهن ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ أي يتزوجن أزواجهن الذين كانوا أزواجهن، وسموا أزواجاً تسمية بما كانوا عليه مجاز، وفيه مناسبة لحال الزوجين حيث رغبا في التراجع بسبب ما بقي في أنفسهما من أثر الزواج الأول من المرغبات في العودة إلى الزواج، فلما بقي أثره في أنفسهما أشبه ما لو كان باقياً فحسن استعمال هذا الإسم للمناسبة.

﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ بأن يرضى هو وترضى هي بزواج بعقد جديد ومهر جديد وزواج صادق كما شرعه الله للزوجين، فإذا لم يكن التراضي إلا على غير المعروف فلا بأس بعضلها، وفيه دلالة على أن أمر زواج المرأة إلى الأولياء .

أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ

---

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي ذلك النهي عن العضل يوعظ به من كان يؤمن لأنه الذي يتعظ، لأن إيمانه بالله واليوم الآخر يبعثه على الطاعة والمحافظة على دينه خشية لله وخوفاً من عذابه؛ ولذلك فهو أهل لأن يخص بالموعظة وأهل أن يوعظ رحمة له لئلا ينقلب، أما الفاجر المصر فلا يستحق إلا الخذلان.

﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أطيب ﴿وَأَطْهَرُ﴾ فلا تحسبوا العضل خيراً لكم، وهذا تأكيد لأن من الناس من يغضب على الزوج بسبب خلاف سبق فيثقل عليه إرجاعها، وقد علم الله من المصلحة ما لم يعلم فقد يؤدي العضل مع شدة ندمهما وحرصهما على العودة في زواجهما ويأسهما من موافقة الولي وغضبهما من عضله إلى أن يقعا في الفاحشة، ويدنسا بذلك أعراض الأولياء، ويقع الأولياء في عار المنع حيث سببوا لذلك فبان أن ترك العضل أزكى وأطهر، وفيه فضيلة عظمى لمن عصى نفسه وأخضعها لأمر الله راغمة.

﴿٢٣٣﴾ ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ هذا في المطلقات فإنه يقع الخلاف على الولد، والعطف على أحكام المطلقات يُشعِر بذلك.

وفائدة التأكيد بقوله تعالى: ﴿كَامِلَيْنِ﴾ ظاهرة لأن الناس قد يدعون تمام الحول مع عدم التحقيق في التاريخ، والمقصود حولين بلا نقص.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ ومن الطبيعي في الوالدين إرادة الإتمام، إلا لعذر مثل: مرض الأم وكراهة إرضاعه من غيرها لعدم الثقة بغيرها، ولعله السبب في إحالة ذلك إلى إرادة الأب أو الأبوين.

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ من أجل الرضاع، أو لأن الحضانة من معنى الرضاع وتوابعه، فالرزق والكسوة للرضاع وتوابعه، فكما وجبت نفقة المعتدة لحبسها نفسها من أجل الزوج وجبت كذلك نفقة المرضعة لولده لحبسها نفسها في رعاية الولد وذلك أجر من الله لها كما جعل المهر أجراً، فلا يلزم أن تجري على الحضانة أحكام الإجارة بحيث تعتبر الجهالة في العمل والنفقة والكسوة مفسدة لأن ضابط ذلك كله الحاجة؛ حاجة الصبي وحاجة المرضعة، وحكم الله فيه أغنى عن تطبيق أحكام الإجارة عليه.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بلا تقتير يستنكر ولا إكثار فوق الحاجة للترفيه بما يشق على الأب ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فعلى الأب أن يقوم بحاجتها بقدر ما يستطيع من بذل الموجود والسعي لما لا يجد ولا يكلف ما لا يسعه.

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ بتكليفها الحضانة وحبسها عن السعي لقوتها مع التقصير من الأب، أي لا يجعل ولدها آلة لضرارها ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ فلا يجوز أن يضارّ بتكليفه ما ليس في وسعه.

ومن الضرار لها التشديد عليها والأذية بدعوى أنها تقصر على الولد، والتهديد لها إن لحقه ضر أو هلك، والاتهام لها أنها سوف تقصر، ونحو ذلك من الأذية.

ومن الضرار: إحواجها إلى المطالبة بنفقتها وجدالها في حاجتها وغير ذلك، ومن الضرار للأب: دعوى أنه يقتّر في الإنفاق، وتحري حال اشتغاله لطلبه مع إمكان طلبه في حال فراغه، والسكوت عن طلب حاجة الطفل بالنهار ثم مطالبته في الليل؛ ليصعب عليه طلبها ونحو ذلك، فالآية تنهى عن الضرار كله.

﴿وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ﴾ للمولود ﴿مِثۡلُ ذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما على الأب وذلك إذا مات الأب أو فقد ﴿فَإِنۡ أَرَادَا﴾ أي الوالدان ﴿فِصَالًا﴾ أي فطاماً للمولود ﴿عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ﴾ فخرج التراضي بطريقة المكابرة والمغاضبة لأن التشاور هو الذي يطلب فيه الرأي السديد؛ لا ما يقصد فيه الضرار ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا﴾ في الفصال.

﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾ حيث أرادت الأم الفصال ولم يرده الأب ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ في استرضاعهم لدى مرضعة أخرى ﴿إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ يحتمل: أنه يدخل فيه التسليم للأم والتسليم للمرضعة، لأنه إذا كان السبب الإساءة إلى الأم عند التسليم إليها بأن لا يسلم إليها إلا بمطالبة وشجار أو يصحب التسليم أذية وتشكٍّ من تغريمه أو نحو ذلك مما يصاحب التسليم خلاف المعروف.

فرفع الجناح عنه في الإسترضاع مشروط بأن لا يكون السبب مخالفته للمعروف فيما كان يسلم للأم؛ لأن عليه أن يسلم بالمعروف كما هو مذكور في أول الآية؛ لأنه داخل في المعروف في قوله تعالى: ﴿رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وما بعده كالتفسير له، وأما المعروف المقارن للتسليم إلى المرضعة الأجنبية والأقرب أنه المراد هنا فهو خلاف ما يستنكر، ومنه اتقاء التهمة فلا يدخل عليها بيتها خالية، ولا يأتيها بالنفقة ليلاً خالية ونحو ذلك.

أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

---

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، واتقوه في المعاملات كلها فلا تظلموا، واتقوا الله في كل شيء ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يعيى في مقدار جزاءه، ولا في الفصل بين الحق والباطل، ولا تعييه الحيَل والأعذار الباطلة.

﴿٢٣٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ من الذين آمنوا فله حرمة الإسلام ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ ينتظرن بأنفسهن ويمسكنهاعن الزواج ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ ليالي بأيامها وهذا عام لكل زوجة مدخولة وغير مدخولة؛ لا بد أن تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشراً من حين تعلم بوفاة زوجها.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ الذي جعله الله لهن لإباحة زواجهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يشير إلى أن الأولياء أو أهل الولاية مأمورون بإلزامها أن تتربص، وإنما رخص لهم بعد تمام العدة في تركها تتزين بالمعروف غير المنكر؛ فلا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى.

وفي قوله: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ إفادة: أنها في حال التربص لم يكن لها ذلك، وأن تركه من التربص؛ لأنها في حال التربص ليس لها أن تتعرض للأزواج.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من حَسَن أو قبيح، ومن حسن في الظاهر وقبيح في الباطن؛ كالتحيل لبعض الزينة بشيء من الأعذار الفاسدة.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟

---

﴿٢٣٥﴾ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ المتوفى أزواجهن لأن السياق فيهن بدلالة العطف، والمراد في حال التربص، فذلك من الرجل لا ينافي تربص المرأة؛ لأنها ليست معرضة بالتزوُّج؛ إنما التعريض من الرجل والتربص من المرأة.

وفائدة التعريض: أن يشير إلى رغبته في تزوجها بعد العدة لئلا يسبقها عليه أحد إن أرادت، ويظهر من هذا تحريم التصريح بالخطبة لأنه لو كان جائزاً ما احتيج إلى التعريض شرعاً؛ لأنه كان يكفي أن يقول: ولا جناح عليكم في خطبة النساء، وإذا ارتفع الجناح من الشرع فكيفية الخطبة موكولة إلى الخاطب ورأيه لنفسه، فلما لم يذكر إلا التعريض فُهِم: أنه الجائز دون التصريح.

*والتعريض*: أن يقول: إني محتاج إلى زوجة وإني منتظر وفاء العدة لعل الله يقسم لنا بالزواج، فإن كانت من أهل الذكاء كفاها أن يرسل لها بمسبحته أو نحو ذلك، والتعريض غير الكناية؛ لأن التعريض كلام يفهم من عرضه إرادة التزوج بها، وليس عبارة عن طلبها للتزوج به، أما الكناية فهي طلب التزويج، مثل أن يقول: أحب أن توافقيني على أن تكوني راعية لبيتي مربية لأولادي.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فعزمتم على الخطبة وكتمتم ذلك حتى تم التربص فلا جناح عليكم في ذلك ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ بقلوبكم أو ألسنتكم أو بهما فرخص لكم فيما قال.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ فالمواعدة ممنوعة وهي أن يعدها وتعده، ووعده لها قد يكون في السر وقد يكون في العلانية بحضور أهلها مثلاً، والذي في السر مظنة أن يكون فيه كلام لا يصلح مع الأجنبية، ولا يليق بأهل الحياء، والحياء من الإيمان، وما كان ينافي الحياء فهو خلاف القول المعروف.

والأعراف والعادات تختلف في حد القول المعروف وخلافه، أي ما ينبغي أن يستحيى منه وما لا يستحي منه المؤمن ذو المروءة؛ باعتبار موضوع الكلام، وباعتبار طريقة التعبير التصريح والتلويح والكناية والمجاز والحد هو المعروف عند أهل الدين والمروءة من أهل البادية في البادية وأهل المدن في المدن، فأما المعروف عند الفجار الذين لا يستحيون فلا حكم له.

﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ ﴿لَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ لا تعقدوا عقد النكاح الذي هو عزيمة لا يبقى بعده رخصة لأحد الزوجين في إهمال موجبه؛ لقول الله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١] هذا تكليف آخر بشأن العقد، فقد يكون بعض العامة الجهلة حريصاً على أن لا تفوت فيطلب العقد خوفاً من أن يأتي خاطب آخر ترضاه ويعد وعداً مؤكداً أنه لا يمسها حتى تخرج من العدة وهذا هو الباطل بعينه؛ فلا حكم لعقده وهي لا تزال في خياريها تختار من شاءت.

لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن

---

و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ هو ما كتب الله عليها من التربص وأجله تمام أربعة أشهر وعشر ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ راقبوه واتقوا فيما تخفون في أنفسكم من الظنون والنيات والعقائد، كالظن بعدم فائدة التربص؛ لأن الميت لا يدري ما تصنع زوجته من تربص أو زواج، وهذا خطاب للجهلة والمنافقين وغيرهم.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فلا يحملكم الحذر منه على ترك التعريض والإكنان في أنفسكم خوفاً من أن يقع في التعريض خطأً كلمةٌ زائدة على المباح، وهذا خطاب لأهل الورع وغيرهم، فهو ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر الخطأ وما تاب منه فاعله ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجل على معاقبة من عصاه بل يؤجله ليتوب إن شاء حتى ينتهي أجله.

﴿٢٣٦﴾ ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي لا حرج ولا تكليف يشق في طلاق غير المسمى لها إذا لم يكن قد دخل بها فلا يجب لها مهر ولا نصف مهر ولا نفقة عدة ولا عدة، والمس كناية عن الجماع والفريضة تسمية المهر.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ بقدر لا يشق عليه ﴿مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فلا يقل بحيث يعاب لقلته ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فهي إحسانٌ لأنها لا موجب لها من عقد أو دخول؛ ولكن جبرٌ لخاطر المطلقة وإحسان لتسريحها، وكونها إحساناً لا يمنع وجوبها من حيث هي حق لله بدليل قوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلعله أوجبها تكرمة للمؤمنين، وتنزيهاً لهم عن مشابهة الجفاة والبخلاء.

تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ

---

﴿٢٣٧﴾ ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي يجزي عن كله ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ فيسقط النصف الواجب؛ بعفوهن وإسقاطهن له ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ وهو الزوج إذا ترك لها المهر كله أو سلمه لها كله فتعين النصف مشروط على ظاهر الآية بما ذكر.

﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ﴾ أيها الأزواج وأيتها الزوجات ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ لأنه تمرين للنفس على فعل الخير والرفق والإحسان، والمسلمون مع الإحسان فيما بينهم أقرب إلى التحابّ في الله؛ الذي هو من التقوى لأنه واجب وهم معه أبعد عن التظالم والتحاسد والتفرق.

﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ وهذا عام للمسلمين ليس خاصاً بالمطلّق والمطلّقة؛ ولذلك خرج الكلام عن الغيبة إلى الخطاب وقال: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ليعم المخاطبين، وفي (نهج البلاغة) و(صحيفة الإمام الرضا) عن آبائه واللفظ لـ(نهج البلاغة): عن أمير المؤمنين علي عليه السلام [رقم ٤٦٠] وقال عليه السلام: «يأتي على الناس زمان يعضُّ المؤسر فيه على ما في يده ولم يؤمر بذلك، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ تَنْهَدُ فيه الأشرار، وتستذل فيه الأخيار، ويبايع المضطرون، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بيع المضطرين» انتهى.

وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

---

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجعل لكل عمل ما يليق به من ثواب أو عقاب، أو صلاح حال عاجل أو سوء حال عاجل، أو بركة أو نزع بركة، أو شفاء مرض أو تلف مال، أو غير ذلك، ما شاء كما شاء فهو ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمال العباد حسنها وقبيحها، وما يعذَر فيه صاحبه وما لا يعذر وغير ذلك، وقد حكى الهادي عليه السلام عن العرب استعمال (بصير) بهذا المعنى حيث قال: «من ذلك قول العرب: فلان بصير بالفقه، والنحو، والحساب، بصير بالشعر والكلام في كل الأسباب..» انتهى المراد، ومحله في (المجموعة الفاخرة) [ص٣٥/ مخطوط].

﴿٢٣٨﴾ ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ وهي الخمس: الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والمحافظة عليها: إقامتها في أوقاتها بكل حال؛ لا تترك لشغل، ولا لنوم، ولا لمرض، ولا لسفر، ولا لخوف.

وقد يقال: كيف قلت: ولا نوم، وقد جاء في الحديث: «رفع القلم عن ثلاثة؛ وذكر من الثلاثة: النائم حتى يستيقظ»؟

والجواب: أن الذي يسهر اختياراً ثم ينام عند الفجر وهو يعلم أنه لا يستيقظ في وقت الفجر، يكون غير محافظ عليها؛ لأنه يستطيع أن ينام في النصف الأول من الليل ليستيقظ، وهذه عُدَّةٌ من أراد الصلاة؛ والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة:٤٦] فلم يعذر من فقد العدة وقت الخروج لأنه كان متمكناً من إعدادها من قبل، فإذا أمرنا أن نحافظ على الصلاة فذلك يلزم منه إعداد العدة لها.

فإن قيل: فإن رسول الله ﷺ نام فلم يستيقظ إلا من حر الشمس هو وأصحابه فصلوا الفجر بعد الشروق؛ وسبب ذلك التعب وتأخر النوم؟

قلنا: إن في الحديث أنه قال: «مَن يكلؤُنا الليلة» فقال رجل: أنا يا رسول الله، فبات الرجل مرة قاعداً، ومرة قائماً، حتى غلبه النوم؛ فكان سبب تأخير الصلاة هو نوم الكالئ؛ لأنه لو لم ينم لنبه النبي ﷺ ومن معه فلا تفريط.

وكذلك لو أن رجلاً سهر واتخذ وسيلة ليستيقظ بها في وقت الفجر؛ كأن يطلب ممن يستيقظ أن يوقظه، ويثق به أنه يوقظه، فينام فينسى من وثق به أو ينام فهذا لا تفريط منه ولا إخلال بالمحافظة.

فإن قيل: أنه غير مكلف بصلاة الفجر قبل دخول وقتها؟

قلنا: أما التكليف فإنه فقد كُلِّف من حين حمل عقله، وأما الصلاة قبل وقتها فلم يكلف أن يصلي قبل الوقت، لكنه قد كلف أن يصلي في الوقت، فليس له أن ينام على صفة تفوته الصلاة متعمداً لأنه مكلف قبل النوم، وإن لم يكن مكلفاً حال النوم، ألا ترى أن الذي ينام في الدار المغصوبة آثم بنفس بقائه فيها حال النوم، لأنه تعمده قبل النوم، وإن لم يكن مكلفا حال النوم، وسبب إثمه أنه مكلف قبل النوم أن لا ينام فيها.

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ الفضلى؛ قال تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم:٢٨] واختلف فيها أيّ الصلوات هي؟ وقد روى الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): عن علي عليه السلام: «أنها الجمعة في يومها، والظهر في سائر الأيام» ويؤكد هذا أن الله خص الجمعة بالحث عليها في (سورة الجمعة).

﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ أي قوموا في الصلوات لله، فالقيام منها؛ ولا تتم إلا به في حق من أمكنه القيام.

وقوله تعالى: ﴿قَٰنِتِينَ﴾ حال، والقنوت استعمل في القرآن في مواضع يجمعها الخضوع، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا..﴾ الآية [الزمر:٩] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ..﴾ [الأحزاب:٣١] وقال تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ [النساء:٣٤] وقال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧] وقال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ﴾ [التحريم:٥].

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: القانتون: فهم الداعون إلى الله، المسلمون لأمر الله، القائمون بحكم الله» انتهى.

قلت: لعل كلام الإمام الهادي عليه السلام وقع في تفسير (آية آل عمران) وهو يعني: أن الخضوع لله ليس معناه الإنشغال بالذكر والصلوات النوافل، بل منه: القيام بحكم الله، والجهاد في سبيله؛ فهو أعظم الخضوع لله، وقد جعل (صاحب القاموس) من معاني (القنوت) التواضع لله، وهو مناسب للخضوع.

وقال في (اللسان) بعد ذكر معان مختلفة: «وقنت له؛ ذَلّ» قال في (لسان العرب) أيضاً: «وفي التنزيل: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام؛ فأمسكنا عن الكلام، فالقنوت هاهنا: الإمساك عن الكلام في الصلاة» انتهى.

قلت: يمكن أن زيد بن أرقم فهمه من الخضوع لله كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن في الصلاة لشغلاً» فهو يعني: أن الخاضع لله في صلاته ينشغل بذلك عن كلام الناس، وعلى هذا تكون تسمية الدعاء قنوتاً لأن فيه خضوعاً لله زائداً.

قال في (اللسان): «ويرد بمعان متعددة: كالطاعة، والخشوع، والصلاة، والدعاء، والعبادة، والقيام، وطولَ القيام، والسكوت، فيصرف في كل واحد من هذه المعاني إلى ما يحتمله لفظ الحديث الوارد فيه» انتهى.

قلت: الراجح: أنه مشترك معنوي، وأنما ذكروه إنما هو قنوت حيث يكون خضوعاً، ألا ترى أن القيام لغير العبادة لا يسمى قنوتاً، لأنهم إنما أرادوا القيام في الصلاة؛ ولذلك قال في (اللسان): «والمشهور في اللغة أن القنوت الدعاء، وحقيقة القانت: أنه القائم بأمر الله، فالداعي إذا كان قائماً خص بأن يقال له قانت، لأنه ذاكر لله وهو قائم على رجليه، فحقيقة القنوت العبادة والدعاء لله عز وجل في حال القيام، ويجوز أن يقع في سائر الطاعة لأنه إن لم يكن قياماً بالرجلين فهو قيامٌ بالشيء بالنية. ابن سيدة: والقانت: القائم بجميع أمر الله» انتهى.

فظهر: أنهم أرادوا قيام الطاعة لا مجرد القيام، فالمعاني مشتركة في الخضوع، وظهر من قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر:٩] أن القيام ليس من مفهوم القنوت؛ ولذلك صح في حال السجود، فظهر أنه الخضوع، وهو معنى قول (صاحب القاموس): «قنت لله: تواضع له» وقول (صاحب اللسان): «قنت له: ذلَّ».

والتعبير بـ(الخضوع) أحسن من التعبير بـ(التواضع) هذا والقيام هو الإنتصاب مع البقاء في مكان واحد أي الوقوف، فلا تصح الصلاة مع المشي إلا في حال الضرورة.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ

---

﴿٢٣٦-٢٤٠﴾ ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ فاضطررتم إلى السير ﴿فَرِجَالًا﴾ صلوا ﴿أَوۡ رُكۡبَانٗا﴾ سائرين كما في حال المسايفة والفرار من عدوّ يجوز الفرار منه، والفرار من سَبُعٍ أو نحوه، وعلى الجملة؛ حالة الخوف الملجئ إلى السير.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ أي فصلوا قياماً ذاكرين لله شكراً على نعمته بتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون، وفهم الأمر بالقيام مما تقدم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم﴾ أي شأنهم وواجبهم وصية عند الموت لأزواجهم ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ﴾ وهو النفقة والسكنى إلى تمام حولٍ من موته ﴿غَيۡرَ إِخۡرَاجٖ﴾ فلا تخرج الزوجة في الحول ولو كان في الخروج متاع لها ما لم تخرج وهي مختارة للخروج.

﴿فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖ﴾ من منافعهن بِالْمَعْرُوفِ غير المستنكر؛ أما المستنكر كالتعرض للأزواج في الحول، والوقوف مواقف التهم، وترك الإحداد حين يعاب تركه فلا يجوز.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ فلا يهمل ولا يرضى الباطل؛ لأنه غالب لا ينال وحكيم ليس في أمره مخالفة للحكمة فلا بد من جزاء من ترك ما أمر به أو فعل ما نهي عنه بما يستحق.

بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

﴿٢٤١-٢٤٢﴾ ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والمتاع نفقة العدة للمعتدة، وأما من لا عدة لها فلها المتعة كما مرَّ، وفي الآية دلالة على أن ترك ما فيها مخالف للتقوى ومخرج منها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فبين تعالى آياته في القرآن الكريم كما بين هذه الآيات للناس ليعقلوا معناها ويحفظوه ليتبعوا آياته، وفي هذا دلالة على أن القرآن غير غامضِ الدلالة على ما كلفنا الله به من أحكامه، وذلك يبطل قول الباطنية ومن يخص به الشيخ أو الإمام.

﴿٢٤٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مخرجه مخرج التعجب، كأن الله يعجِّب خلقه من حال هؤلاء الألوف ـ ثم قال ـ : ولا يجوز أن يكون هذا العدد دون العشرة؛ لأن بناء فُعُول في (باب العدد) على ما زاد على العشرة» انتهى.

قلت: التعجيب منهم حين تركَّز على كثرتهم، يظهر منه: أنهم فروا من القتال وهم يستطيعون الدفاع لكثرتهم، فكان عجزُهم عن الدفاع عن أنفسهم، ولجوءهم إلى الخروج من ديارهم ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ عجيباً؛ لأنهم يستطيعون الدفاع، واقتران هذه الآية بما بعدها من الأمر بالقتال في سبيل الله يؤكد هذا.

فأما الرواية أنهم فروا من الطاعون فالله أعلم بصحتها، ولا يبعد أنها من أكاذيب اليهود إذا كان هؤلاء الألوف منهم.. فرووا هذه القصة؛ ليستتروا من عار الفرار، ومن البعيد أن يفرق بين الكثير والقليل في الفرار من المصائب الربانية؛ لأن الفرار طبيعي من طبائع البشر والكثير والقليل فيه سواء.

ألا ترى أن فرار الألوف من الفيضان ليس عجيباً، ويؤكد هذا أن قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ يفهم منه أن ذلك جرى مجرى العقوبة على فرارهم، والعقوبة إنما تكون على فعل معصية أو ترك واجب، فظهر: أنهم فروا من القتال وكان واجباً عليهم الدفاع.

*فإن قيل*: أنهم فروا من الله فأراهم قدرته على إماتتهم؟

*قلنا*: ليس الفرار من أسباب الهلاك يعتبر فراراً من الله؛ لأن الله قد مكن من الفرار وجعل الطباع تدعو إليه، وجعله سبباً للنجاة في بعض الحالات، فدل ذلك على جوازه إذا لم ينه عنه، وأنه ليس فراراً من الله، كما أن الفرار من الفيضان ليس فراراً من الله، وأيضاً الفرار من أسباب الهلاك لا يستلزم الجهل بقدرة الله على إهلاك الهارب حيث صار فلا يوجب العقوبة، فظهر: أن عقابهم على فرارهم من القتال، وترجيحهم حذر الموت على الدفاع الذي فيه دفع الظالم عن ظلمه ومنعه عن زيادة التمكن والقوة على الفساد؛ فلذلك يستحقون أن يعاملوا بنقيض قصدهم فأماتهم الله؛

﴿ثُمَّ أَحۡيَـٰهُمۡ﴾ تفضلاً عليهم، ولا مانع من حمله على ظاهره، وأنه تعالى أحيى الأشخاص الذين أماتهم كالذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لأنه ينعم عليهم ويعاملهم معاملة الحلم والرحمة

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ

---

وفي إحياء الذين أماتهم نعمة عظيمة لتعريضهم على التوبة والنجاة من عذاب الآخرة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لأن الإنسان ظلوم كفار لا يهمه إلا مطالبةُ العاجلة دون ما عليه من الحق لربه.

﴿٢٤٤﴾ ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ العطف إما على قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ وهو أظهر، وإما على ما يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ من الحث على الشكر، فكأنه قيل: اشكروا فضل الله وقاتلوا، والأمر هنا بالقتال في سبيل الله مطلق يقتضي وجوبه على الإطلاق كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ [النساء:٧٦] وغير هذه من الأوامر والدلائل على وجوب القتال في سبيل الله.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه من يجاهد ومن يقعد ومن يحرض ومن ينصر ومن يثبط ومن يتكل على الإعتذارات الكاذبة، فعلينا مراقبته واتقاء عذابه.

﴿٢٤٥﴾ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ والقرض الحسن الإنفاق في سبيل الله من الحلال برغبة ونية خالصة لله ومنه الإنفاق في سائر وجوه البر ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ وقد ذكر الله تضعيف الإنفاق في سبيل الله في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ

---

وجاء في حديث في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام) في تضعيف صدقة السر «فيربيها كما يربي أحدكم فلوّه أو فصيله، حتى تصير اللقمة مثل أحد» ولا يبعد أن التضعيف نوعان:

الأول: بالتفضل بزيادة الأجر كجزاء الحسنة بعشر أمثالها،

النوع الثاني: ترتيب فوائد كثيرة للحسنة وآثار حسنة تكثر فتعظم بها الحسنة التي هي سببها، ولعل هذا معنى الحديث المذكور والآية تشمله وتشمل الأول.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فهو يقبض ابتلاءً ويبسط ابتلاءً، وبيده الخير فلم يرغب في الإنفاق من قلة ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجزي كل نفس بما تسعى، ويوفي المحسنين أجورهم.

﴿٢٤٦﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ إشارة إلى أن ما يذكره عجيب، والملأ كبار القوم ﴿إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا القول منهم دليل على قلة المعرفة أو قلة الدين لأن الذي يبعث لهم ملكاً هو الله سبحانه، وإنما يملك النبي إن أذن الله له أن يدعو الله لهم بأن يبعث لهم ملكاً؛ ولذا قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ..﴾ الآية، ولم يقل: (قد بعثت لكم).

وطلبوا ملكاً ليجمع كلمتهم ويلم شعثهم ويوحد صفهم حتى يستطيعوا الجهاد؛ لأن الجهاد لا يصلح بلا أمير له هيبته ونفوذ الأمر في قومه كما قال أميرالمؤمنين: «وإنه لا بد للناس من أمير يقاتَل به العدوّ» وقالوا ﴿نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليساعدهم النبي على ما طلبوا، لأنهم لو طلبوا ملكاً لاسترجاع أرضهم وطرد عدوهم عنها لكان هذا غرضاً دنيوياً، والنبي لا يدرون لعله لا يساعدهم على ذلك، أما إذا كان الغرض الجهاد في سبيل الله فهو غرض صالح مظنة أن يوافقهم عليه نبيهم.

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟﴾ هل الأقرب منكم أنكم لن تقاتلوا إن كتب عليكم القتال بوجود الملك، وفائدة هذا الكلام: الإشعار بأنه لم يغتر بكلامهم ولم يصدق وعدهم؛ وإن أسعدهم إلى ما طلبوا وفيه بعث للحميّة وصدق النيّة وتأكيد الوعد بالجهاد.

﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ أي لأي سبب لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا لأن القتال قد جمع لنا الغرضين؛ الديني والدنيوي، فكيف لا نقاتل لنسترجع أرضنا ونرجع إلى ديارنا وأبنائنا ولننصر الله.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لما كان لهم ملك ووجب عليهم القتال ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ عن طاعة الله وعن الجهاد ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم الذين يأتي ذكرهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ العصاة الذين تولوا، وفيه دليل على أن العاصي المتمرد ظالم؛ وذلك لأنه حاف ومال عن العدل والإنصاف، لأن الحق على العبد طاعة المالك المنعم، فمعصيته حيف وجور فهو ظلم.

طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

---

وإنما سمي الضرر العاري عن جلب نفع أو دفع ضرر أو استحقاق ظلماً، لأنه مخالف للعدل حيف وجور، فالظلم مخالفة العدل والإساءة بغير حق وإن لم تكن ضراً، وأما كون ذلك ظلماً للنفس فهو معنى آخر.

﴿٢٤٧﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ كما طلبتم لتقاتلوا في سبيل الله ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ من أين يكون له الملك علينا كأنهم توهموا أن الملك يثبت بالوراثة أو بالثروة ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لشرفنا في قومنا ومكانتنا عندهم لأنا نحن الملأ ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ ليميل الناس إليه ويرغبوا في نصرته، لأجل تحصيل المال منه.

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ اختاره صفوة وخيرة، فبطل قولكم: ﴿نَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لأن الذي يصطفيه الله أحق؛ لأن الحكم لله والولاية له على عباده، وبطل قولكم: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ أيضاً لأن الحكم لله لا للناس؛ فله أن يختار من شاء، وليس الخيار للناس فلا تشترط رغبتهم ولذلك فلا يشترط أن يؤت سعة من المال ترغّبهم فيه

﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ فكماله بتوسعه في العلم والقوة وكمال البنية خير من سعة المال، وزيادته عليكم في ذلك كله يوجب له أنه أحق منكم، وفي الآية دليل على أن أحق المسلمين بالقيادة والملك عليهم هو أعلمهم وأقواهم على هذا الشأن كما قال أمير المؤمنين: «أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بحكم الله فيه».

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ

---

فالقول: بجواز «إمامة المفضول مع وجود الأفضل» ضعيف إلا أن يكون وجود الفاضل كلا وجود.. كالمحبوس الميؤوس منه، بشرط كمال المفضول في علمه بما يجب في هذا الأمر، وعلم الدين كله، وكماله في قدرته على القيام بواجبات هذا الأمر، وفضله في ذلك على بقية من في زمانه لدلالة الآية الكريمة على أن صاحب الزيادة أولى، وعلى أنه يجب أن يكون صفوة وخيرة.

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ لأنه المالك للناس كلهم وهم كلهم عباده فليس لهم شيء من الأمر وليس لهم أن يولوا من شاءوا فلو أجمعوا على رجل غير مرضي عند الله ما كان له الحكم ولا صحت له ولاية، فما يجري من الإنتخابات التي تستعمل فيها الدعايات المضللة أو المغريات من الأموال والوعود لا حكم لها.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ففضله واسع، فلذلك يكمل من يشاء، ويزيده بسطة في العلم والجسم، ويجعله صفوة ولو كان فقيراً لا يراه الناس مظنة لذلك، أو لا يرغبون في ولا يته؛ وهو عليم بموضع الإختيار والإصطفاء وحيث يجعل ملكه والأهلية لملكه.

﴿٢٤٨﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ إن علامة ملكه، زادهم دليلاً على الدليل الأول: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ يدل عليه بما فيه من السكينة والبقية.

قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ

---

قال في (الكشاف): «التابوت: صندوق التوراة» فقال: ﴿فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فإذا كان معكم في الجهاد نزلت السكينة عليكم من ربكم، وقويتم على عدوكم، فمعنى ﴿فِيهِ﴾ بسببه؛ كما قال الشاعر:

ففي الشك تفريط، وفي الحزم قوة ... ويخطئ في الحزم الفتى ويصيب

﴿وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ من كتب العلم كالتوراة، أو منها ومن آثار، إما تذكّر بموسى وهارون فتبعث الحمية على القتال في نصرة دينهما، وإما أن كرامتها وعزتها عليهم تبعثهم على الجد في القتال لحفظها ودفع العدو عنها.

﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ حال من ﴿يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ أي يأتيكم تحمله الملائكة فتلك معجزة لطالوت تدل على أن الله جعله ملكاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فقد قطع علتهم ولم يبق لهم عذر في ترك الجهاد معه ولم يبق إلا أن يتمردوا؛ لعدم الإيمان في من تمرد منهم.

﴿٢٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ﴾ فقد اضطروا ـ لغلبة الحجة عليهم ـ إلى إظهار الطاعة والانقياد وفيهم الأخيار الأبرار الصادقون، فالجنود قد جمعت من يصلح ومن لا يصلح فكان من الحكمة التمييز بين الخبيث والطيّب والإكتفاء بالطيّب وإن قل.

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ فاختبرهم بهذا النهر من الماء؛ لأن من صبر على العطش صبر على القتال، ودل امتناعه من الشرب على صدق نيته في الجهاد، ومن شرب دل ذلك على فساده، وقلة صبره، وضعف نيته، وكانت الغرفة الواحدة مستثناة؛ لأنها لا تنافي صدق النية ورحمة للعطشان ليخف عنه العطش؛ حتى يصير إلى مكان آخر يرخص لهم فيه في الشرب.

﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهنا تميز الخبيث من الطيب، ورجع الجمهور الفاسد عن المسيرة، ولعل الحكمة في ذلك أنهم لو خرجوا معه ما كانوا إلا مفسدين، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ..﴾ الآية [التوبة:٤٧].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ يعنون أنهم قليل؛ لأنهم قد خلفوا الجماهير الذين شربوا من النهر أكثر من غرفة للواحد، وقد تبين: أن المتقي المطيع مؤمن، وأن العاصي ظالم من الآيتين هذه والأولى ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فكل فريق يختص باسمه فلا الظالم مؤمن، ولا المؤمن ظالم، كما فهم من سياق الآيتين.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ أهل الأمل القصير في الحياة فهم لذلك راغبون في الشهادة، راغبون في الجهاد في سبيل الله، ليختموا به البقية الباقية من أعمارهم ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قالوه تشجيعاً لأصحابهم وتثبيتاً لهم، والإذن بوقوع الشيء يلزم معه إزالة الصارف والمانع من وقوعه.

وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ

---

ولذلك فقوة جالوت تنهار مع الإذن من الله بأن يكون هو المغلوب وحزب الله هم الغالبون، فقولهم: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ تنبيه على أن النصر من عند الله وأنه إن ينصرهم فلا غالب لهم.

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولذلك إذا صبرنا عند لقاء العدو كان الله معنا، وإذا كان معنا كانت القوة معنا..الغالبة على كل قوة وكنا نحن الغالبين، وبناءً على ذلك بطل قولهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ ولم يبق إلا العزم والثبات والصبر ليفوزوا بالنصر وعظيم الأجر.

﴿٢٥٠﴾ ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فاستعملوا السلاح الذي هو سلاح المؤمن قبل استعمال السيوف ونحوها، ومعنى ﴿بَرَزُواْ لِجَالُوتَ﴾ ظهروا له ولم يبق بينه وبينهم حاجز من جبل أو غيره ولا بعد مسافة بل أشرفوا على الشروع في القتال، فاستعانوا بالله، وطلبوه أن يفرغ عليهم ﴿صَبۡرٗا﴾ أي يصب عليهم صبراً، ولعل اختيار الصبّ ليشمل الأعضاء فتتحمل ما يلحقها من الضرب ونحوه.

﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ عند اللقاء؛ لأن المقاتل قوي ما لم تزل قدماه عند مصاولة العدو فيسقط، وتلك الحال مظنة زلل الأقدام لما يكون من المراوغة القوية واختلاف اتجاه حركات الأقدام ووجود ما يتعثر فيه في الأرض مع اشتغال الذهن والبصر بالعدوّ، ومن تثبيت الأقدام الإعانة على البقاء في المعركة وترك الفرار؛ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية: «تِد في الأرض قدمك» يعني أثبت مكانك حتى كأن قدميك موتدتان على الأرض.

ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

---

﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الذين هم أعداؤك وأعداء دينك، وفي هذا الدعاء دلالة على أن مهمتهم نصر دين الله وكبت أعداء الله حيث قالوا: ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقولوا مكانها وانصرنا على أعدائنا.

﴿٢٥١﴾ ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ الذي بيده قلوب العباد؛ يقوي منها ما يشاء، ويرعب ما يشاء، وبيده ملكوت كل شيء؛ فأعز جنده، وهزم عدوه، وجعله المغلوب المقهور ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ وتحقق النصر من الله؛ بقتل قائد الجيش وأميره وتمت النعمة لطالوت ومن آمن معه بما صبروا ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي آتى داود عليه السلام، وكأنها كانت جائزة له على إقدامه وقتله لجالوت لعظم فعل ذلك وعموم نفعه؛ كما روي في فضل قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لعمرو بن عبد ودّ.

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ كتعليمه صناعة الدروع الجيدة الجامعة بين القوة وحسن تقدير السرد؛ فلا تثقل أكثر مما يلزم ولا يخرقها السلاح.

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ فالجهاد مصلحة ضرورية، والمسئولية في سفك الدماء على أعداء الله الذين لو خلوا وشأنهم لفسدت الأرض؛ لأنهم يدعون إلى الباطل، ويصدون عن سبيل الله، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويحرقون الكتب الدينية، ويسعون في الأرض فساداً؛ والله لا يحب المفسدين، وفي قصة الملأ من بني إسرائيل ونبيهم وطالوت ونخبته فوائد عسكرية مع كونها دينية، فقد أفادت أن كبار الناس وأشرافهم قد يطلبون الجهاد باسم الدين وغرضهم الدنيا والحصول على المناصب.

ومنها: أنه لا يوثق بهم للجهاد لأن من همه ونيته الدنيا يكون حريصاً على الحياة، فليس مظنة الثبات للموت وإن كانوا أبطالاً فإن حبهم للحياة يمنعهم من المغامرة في مظانِّ الهلاك؛ ولأن حرصهم على المناصب يؤدي إلى إفساد نياتهم إذا لم تحصل لهم المناصب.

ومنها: أن الجدال على المناصب علامة حب الدنيا الذي ليس من شأن من يقاتل في سبيل الله.

ومنها: انتخاب القائد القوي الكامل في كفاءته ودينه الذي لا إشكال في أنه أصلح للقيادة ليقتنع به أهل النفوس البريئة من فساد النية ويصدقوا في الكون معه، وطاعته ونصحه، ولأن القائد الزاهد في الحياة الدنيا أشجع وأثبت في المهالك وأصبر على الشدائد وأحسن رعاية لأصحابه لصدق نيته وسلامته من الأنانية والتكبر وحبه لهم ورحمته لهم وسلامته من الإستبداد والغش للأصحاب، ولأن القائد الديني أقوى رغبة في الجهاد والشهادة فهو أشد إقداماً وثباتاً.

ومنها: انتخاب القائد الذكي المدبر السليم من الجبن المعارض لحسن الرأي والسليم من البخل الذي هو من أعظم أسباب الذلة وتفرق الأصحاب مع معارضته لحسن الرأي في الإنفاق.

ومنها: انتخاب الأعلم في علم الدين ليكون أعلم بالحق في تصرفاته وتصرفات أصحابه وأثبت على الحق لعلمه أنه على حق.

ومنها: انتخاب الأقوى في بدنه ليتحمل شدائد القتال وما يكون معه من الحر والبرد والمطر والجوع والعطش فيكون ثابت الصحة بعيداً من المرض وليحمل ما حُمِّلَ من التكاليف بجدارة وقدرة كاملة ويستطيع الثبات على القتال والإستمرار عليه ومصابرة العدو، ويتحمل التعب والسهر وأذى الأصحاب مع العناء في الجهاد.

ومنها: أن يكون واسع الصدر حليماً يصبر على الأذى، ويتحمل السب والاتهامات التي تعرض من جهلة الأصحاب، ولا يضيق صدره عنهم أو يضيع عليه الرأي لأجل ضيقه منهم أو يصير في شقاق بينه وبينهم، وليستطيع حسن البيان لهم حتى يردهم عن الغلط برفق ولين، وتكون معاملته لهم كلها ترغيب وسبب لحبهم إياه وثباتهم معه.

ومنها: أن يكون له شجاعة طبيعية ورباطة جأش ليستطيع القيادة في المعارك واقتحام المهالك؛ لأنه إذا كان ضعيف القلب والأعصاب لا يستطيع ذلك وإن كان دينياً زاهداً في الحياة، فهذا ما حضر من صفات القائد المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ فأما من جهة الجند فقد ظهر منه اختياره ما تيسر من الصالحين الصادقين إذا اجتمع له جند منهم.

وقد قيل: أن أصحاب طالوت الذين ثبتوا معه كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر، وهذا النصاب نص عليه الإمام زيد بن علي عليه السلام في (المجموع) وذلك لأنه إذا لم يكن له من يثق به ويعتمد عليه من الصالحين؛ كان على خطر من أصحابٍ مظنةِ الهزيمة أو الخلاف له أو الاختلاف، ولم يكونوا مظنة الصبر الذي هو سبب النصر، ولا اللجوء إلى الله في طلب الصبر، ولم يكن له يد عليهم في أمرهم بالمعروف والنهي عن المنكر؛ بل يحتاج إلى مداراتهم في دين الله، فليسوا مظنة النصر بالطريقة التي انتصر بها أصحاب طالوت بل يكون معهم بين الرجاء واليأس إن صدقت نياتهم.

ومن تدبير الجند: دفع أهل النيات الفاسدة عن صحبته، وردهم عن الخروج معه بحيلة يحتال لها القائد الذكي، بحيث لا يؤدي ردهم بالعنف إلى أن يصيروا مع العدوّ، أو ينظموا منظّمة ضده أو غير ذلك من فسادهم كالإرجاف على من بعدهم والدعايات المضللة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

---

ومن تدبير الجند: إعداد ما يحتاج إليه من الطعام والشراب وغيره بواسطة عمال لهذا العمل، فإن كانت نفقاتهم من عنده تولى تحصيل عمال لتحصيل ما يحتاجونه وعمال لأخذه وإيصاله إليهم وعمال أمناء لتوزيعه عليهم وإن كانت نفقاتهم منهم فإعداد من يشترون منهم إذا نفد ما بأيديهم من الزاد.. لكن هذا الأخير وإن لم تدل الآيات عليه من حيث انتخاب الجند فقد دلت عليه من حيث اصطفاء القائد فهي من جملة صفاته التي تقدمت وهي حسن الرأي.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فمن فضله أن يجعل أولياءه يدفعون أعداءه عن الفساد في الأرض، ومن فضله أوجب الجهاد، ودل عباده على أسباب النصر، وأمرهم بإعداد القوة، وأمر بالكون مع الصادقين، وأمر بالتعاون على البر والتقوى، وأمر بتكوين أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقال سبحانه: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الصف:١٠-١١] فدل على أن الجهاد خير للذين آمنوا، وأن من الدعوة إلى الخير الدعوة إلى الجهاد.

يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ

---

﴿٢٥٣﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تلك إشارة إلى الآيات السابقة من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ..﴾ أو من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأ..﴾ فهي آيات أنزلها الله مطابقة لما عند أهل الكتاب من ذلك القصص، ولذلك فهي دليل من حيث هي إخبار بغيب بالنسبة إلى المبلغ لها؛ لأنه لم يقرأ في الكتب بل هو أمي من الأميين في بلد الأميين نشأ ولم يخالط أهل الكتاب، فتبين أن الله يتلو عليه هذه الآيات وأنه من المرسلين ﷺ.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ تلك إشارة إلى الرسل الذين قد ذكرهم فيما مرَّ، وهم: محمد ﷺ، وعيسى، وموسى، وإبراهيم، وداود، وسليمان، والتفضيل من الله زيادة خير لبعضهم على بعض كزيادة العلم، وعموم رسالة إبراهيم وجعله إماماً للعالمين واتخاذه خليلاً.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ فقد ﴿كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] وفي الكلام خلاف؛ فالحنابلة وغيرهم يجعلونه صفة، والأشاعرة يثبتون كلاماً نفسياً ويجعلونه صفة، وقيل بل كلام الله مخلوق من جملة أفعاله، ولا إشكال أن كلام الله في علمه أنشأه بلا رويّة ولا تفكر، وأوحاه إلى رسله وأنبيائه وكلم به موسى، كما لا شك في قدرته على الكلام وأنه يقول ولا يلفظ، فليس قوله يكون بآلة كآلة المخلوق التي هي اللسان وما إليه؛ بل يقول سبحانه بدون آلة كما يفعل بدون آلة.

وقوله كلام مؤلف من الحروف والكلمات المرتبة التي يتقدم بعضها على بعض ويتأخر بعضها عن بعض، فهو محدث بلا إشكال، فأما تسميته مخلوقاً فلا ضرورة لها، وليس يوصف الكلام بالخلق إلا على معنى الكذب في لغة العرب، فالتعبير بأنه محدث أولى، كما لا ضرورة لجعله فعلاً من الأفعال فيوهم أنه تعالى لا يقدر على إيجاد الكلام بقدرة القول، أي لا يقدر على أن يقول وإنما يقدر على أن يخلق أعني لا نتوهم أنه لا يقدر على القول إلا من حيث قدرته على الخلق، وأنها لا تتعلق قدرته بالقول من حيث هو قول، وهذا أمر إعتباري والخلاف فيه لفظي، والأولى في التعبير أن نقول: هو تعالى قادر على القول كما هو قادر على الفعل وإن كانت القدرة واحدة.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ مع تفضيله لأن الفضل يصدق بزيادة درجة واحدة فبين تعالى أنه فضل بعضهم ورفعه في الفضل درجات.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الآيات الواضحات الدلالة على أنه رسول من الله إلى بني إسرائيل ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ قويناه ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بجبريل عليه السلام و ﴿ٱلْقُدُسِ﴾ البعد من القبائح، وجبريل عليه السلام هو الروح الأمين؛ سماه الله روحاً، فقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل:١٠٢] وأضيف إلى القدس كما تقول: حاتم الجود؛ إضافة الموصوف إلى الصفة، ولعله سمي روحاً؛ لأنه حياة للدين كما سمي القرآن روحاً؛ لأنه حياة للإيمان في القلوب.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من بعد الرسل السابق ذكرهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ مع عيسى وموسى وإبراهيم وغيرهم ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ فليس الخلاف لالتباس الحق أو خفائه، وإنما هو للهوى المؤدي إلى الكفر.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ لأنه عزيز حكيم، فهو مع تخليته للكفار وتمكينهم للابتلاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤] وقال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١] ينصر من ينصره ويعز جنده ويدافع الكفار بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ..﴾ ثم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ..﴾ لعل الأولى إشارة إلى أنه قادر على جعلهم أمة واحدة لا يختلفون، ولكن اقتضت حكمته تمكينهم وتخليتهم فاختلفوا، والثانية إشارة إلى أنهم حين اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم كفر، هو قادر على إهلاك الكافرين دون أن يحتاج المؤمنون إلى قتالهم؛ ولكن اقتضت حكمته الابتلاء للفريقين بالتخلية والتمكين للكفار والمؤمنين والأمر للمؤمنين بقتال الكفار.

فنظير الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة:٤٨] ونظير الثانية قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد:٤].

(٢٥٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الإنفاق هنا هو المشروع، ومنه الإنفاق في سبيل الله، والإنفاق للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل، وغير ذلك كما مرَّ.

وفي هذه الآية أمر بالإنفاق لينفع المنفق نفسه، ويقدم لنفسه ليوم لا ينفعه غير ما قدم في هذه الدنيا من الإنفاق والعمل الصالح؛ حيث تبطل الوسائل المعهودة في الدنيا كالبيع لتحصيل الربح، أو الحاجة التي ينتفع بها.

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

---

والخلة ليعين الخليل خليله عند الحاجة لنفع أو دفع، والشفاعة حيث يشفع أهل الوجاهة لمن يستشفع بهم فتنفعه شفاعتهم، فكل هذه الوسائل لا توجد في يوم القيامة إذا لم يقدم الإنسان لنفسه عملاً صالحاً وتقوى؛ تنجيه من النار وتبلغه الجنة.

فأما الشفاعة للمؤمنين فهي لهم بإذن الله، بسبب إيمانهم وتقواهم، والمقصود في الآية بالنفي شفاعة من يتدخل بالشفاعة كما في الدنيا، والشفاعة التي سببها الإستشفاع كما في الدنيا، فالمنفي هو الشفاعة المعهودة التي يتوصل إليها المكروب باختياره، ألا تراه نفاها كما نفى البيع والخلة؛ وهما اختياريان، فالمقصود نفي الوسائل المعهودة ليجدَّ الإنسان في التقديم لنفسه في هذه الدنيا، ولا يتكل على الأماني.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كأنه بمعنى أن الله لم يظلمهم بتعذيبهم في الآخرة ومنعهم الشفاعة وكل سبب للإنقاذ من العذاب؛ بل هم الظالمون بما اكتسبوا في الدنيا، فهي كقوله تعالى: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ**﴾ [الزخرف:٧٦].

﴿٢٥٥﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو لأنه رب العالمين المنعم عليهم؛ فهو المستحق لأن يعبدوه؛ ولأنه يسمع الدعاء ويستجيب، ويعلم العبادة ويثيب؛ لأنه عالم الغيب والشهادة، القادر على كل شيء، الرحيم

الكريم فهو الذي تنفع عبادته لطلب الثواب والهرب من العقاب، وجلب الأرزاق وشفاء الأمراض، والبركة، وصرف المصائب وغير ذلك، مع أنه قريب مجيب رحيم ودود لم يلجئنا إلى وسائط، ولم يجعل بيننا وبينه حاجباً.

بل هو أقرب من كل قريب، وأكرم من كل كريم، وأرحم من كل رحيم، قد أمرنا أن ندعوه ووعدنا الإجابة فلماذا الوسائط؟! أهُم أرحم؟ أم هم أكرم؟ أم هم أقرب وأسمع للدعاء؟ سبحانه وتعالى علواً كبيراً، فالله هو المعبود بحق الذي تأله إليه القلوب.

﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ﴿ٱلْحَىُّ﴾ بخلاف الأصنام والأنصاب التي تعبد من دون الله ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ القائم بأمور السماوات والأرض ومن فيهما؛ فبه قيام السماء والأرض؛ وهو الخالق والرازق ومدبر أسباب المعيشة، وصارف ما لا يأذن به من المصائب، فبه قامت أحوال العباد فهو الذي يستحق أن يعبدوه.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فلا يغفل عن عبد من عباده لحظة واحدة، فلا يزال عبده تحت رعايته ورقابته، والسِنَةُ النعاس ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فكلهم عباده فهو المستحق للعبادة، أما شركاء المشركين فهم عباد مثلهم مملوكون لله.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ لأنهم كلهم عباده وله الملك وحده فليس لأحد أن يشفع عنده إلا بإذنه، وليس لأحد أن يتدخل بشفاعة عنده؛ ولو كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً، لأنهم كلهم عباده ليس لهم من الأمر شيء.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ يعلم مستقبلهم وماضيهم من أعمالِهم وجزائهم، وما يكون من شأنهم يوم القيامة، فنفيه للشفاعة صدق وحق؛ لأنه خبر علام الغيوب ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ لأنه لا علم لهم إلا ما علمهم، ولا يحيطون به علماً، وليس لهم من العلم بالله إلا ما دلتهم عليه آياته في ملكوته وكتبه وما أوحاه إلى رسله الحاصل ما علمهم سبحانه، أما ما لم يعلمهم فليس لهم إليه سبيل، وعليهم أن يقفوا عند حدهم ولا يتكلفوا ما لم يُكلَّفوا.

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ لأنه ملك الملوك؛ أحاط ملكه بكل شيء، ووسع كل شيء، ولما كان الكرسي من عادة الملوك أن يتخذوه كان عبارة هنا عن الملك، وسعته عبارة عن سعة الملك.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام في كتابه (الأصول الثمانية) في (الإيمان) ما لفظه: اعلم أن السماء والأرض محلهما في ملك الله تعالى من صغرهما في ملكه كبيت في صحراء، أنّى يرتفع [لعله تصحيف أين يقع] البيت في الصحراء، وكمحل حلقة في أرض فلاة كما قال النبي ﷺ، كذلك قال الله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾.

والكرسي: ما يستقر عليه، ويكون محلاً لما يحل فيه، فجعل الله السماوات والأرض مستقِرة في حيِّز ملكه، فصار قوله ـ عزَّ وجل ـ: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ معناه: وسع ملكه السماوات والأرض» انتهى.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ أي لا يثقل عليه حفظهما أي حفظ السماوات والأرض، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ﴾ [فاطر:٤١].

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾

---

وفي هذه الآية إفادة حفظهما من كل شيء؛ فلا تزولان ولا تتصادمان، ولا يصدم أحدَهما شيء حتى يأذن الله بخرابها بأي طريقة، أو كيف شاء؛ لأنه على كل شيء قدير ولا يعسر عليه شيء.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ القاهر فوق عباده ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ له عظمة الملك، والقدرة على كل شيء، والعلم بكل شيء، والغنى عن كل شيء، والقهر على كل شيء، والإنعام على العالمين، والكرم والحلم والعزة والحكمة والفضل والرحمة له الأسماء الحسنى.

﴿٢٥٦﴾ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ نفي لشرعية الإكراه وكونه من الدين بل وينفي وقوعه في ضمن الدين أي من أهل الدين، والمقصود أن تكون دعوة الناس إلى الدين من خلال التبيين لا الإكراه لتحصل القناعة عندهم به، ولتكمل الحجة عليهم إذا ما رفضوا وصاروا صادين عن هدى الله فاسدين مفسدين لعباد الله، فيجب جهادهم لدفعهم ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة٢٥١] كما أن الأمر بقتال الكفار في غير موضع من القرآن.

*وعلى هذا*: فالمراد بالآية: أن يقتصر المسلمون ـ في دعوة الكفار إلى الإسلام ـ على الدعوة إلى الدين وبيان الحجة على أنه الحق، والترغيب فيه، ودفع الشبه، ولا حاجة إلى الإكراه فلا يعملوا للإدخال في الإسلام بالإكراه على الدخول في الإسلام.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ

---

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ أصل الرشد إصابة الطريق، وأصل الغي الغواية عن الطريق، ثم استعمل الرشد في الخير والحق، واستعمل الغي في الشر والباطل، وروى الشرفي في (المصابيح) عن الهادي عليه السلام قال: «الرشد هاهنا فهو الحق والهدى وقيام الحجة على الكفرة والأعداء، والغي فهو الباطل الذي كانوا فيه من كفرهم وغيهم» انتهى.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ الطاغوت ما أطغى عن الله من الأصنام وسائر شركاء المشركين ومن الكهانة والحكم بغير حكم الله، والعروة الوثقى مجاز عن المنجي لمن تمسك به؛ فلا يهوي ولا يميل عن الطريق بمعنى أنه تمسك بمقبض وثيق، وأصل العروة التي تكون في الدلو والكوز يقبض بها.

وقوله تعالى: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ تعبير عن ثبات ما تمسك به من الدين كالعروة التي لا تنفصل بمن تمسك بها ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع من آمن به وكفر بالطاغوت ويعلم ما في نفسه فيجزيه بما يستحق ويزيده هدى بما اهتدى ويتولاه بألطافه وحسن رعايته إذا صدق في ذلك.

﴿٢٥٧﴾ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يتولى أمورهم، ولا يكلهم إلى أنفسهم، ولا إلى أحد من عباده، فيحسن رعايتهم ويجعل لهم ألطافاً ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الجهل وشُبَه الباطل إلى نور الحق والهدى.

إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ

---

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ لا يتولاهم الله بألطافه؛ بل يكلهم إلى ما اختاروا لأنفسهم ويوليهم ما تولوا، فتضلهم الشياطين وكل ما يطغي عن الله، وسمّوا أولياء على طريق المشاكلة وهم في الحقيقة مهملون مخذولون، قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:١١] وإنما الشياطين تضلهم وذلك تولّيها لهم مجاز.

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ وهذا لأن فطرة الله التي فطر الناس عليها تدعو إلى الحق وترك الشرك، وإنما الكفار تغويهم الشياطين فيخرجون عن حكم الفطرة إلى الكفر والشرك ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ سكّانها باقون أبداً لا يموتون ولا يتحولون عن صحبتها.

﴿٢٥٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كلمة تعجيب للسامع وتوقيف له على الأمر الذي يذكر بعدها، وهنا الأمر العجيب؛ مجادلة المجادل في الله وآياته الدالة عليه لا تحصى، وأَقْرَبُهَا الإنسانُ: خَلْقُهُ وإِتْقَانُ صنعه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ دلالة على أن الباعث له على الجدال في الله الحسد لإبراهيم وكراهية إيتائه الملك، كجدال فرعون في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]؟

يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ

---

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي إيتاء الملك إبراهيم صلوات الله عليه يقول المرتضى عليه السلام: معنى إيتائه فهو حكمه له وبه، فلما أن بعثه الله إلى الخلق داعياً، وإلى الحق هادياً كان صلوات الله عليه متبوعاً لا تابعاً، وآمراً لا مأموراً، ملكه الله أمر الخلق ونهيهم، إن أطاعوه أصابوا حظهم ورشدوا في أمرهم، فكان الأمر والنهي لإبراهيم بحكم الله والملك له خالصاً، فكان حاله في مخالفتهم له وبعدهم عنه كحال من أعطي شيئاً وولي عليه فاغتصبه غيره فانتزعه من يديه، والغاصب ظالم لا ملك له» انتهى المراد، وقد مرت قصة طالوت وملكه وليس له سعة من المال وثبت له الملك بإيتاء الله له.

﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وهذه آية من آيات الله تكفيه لو أنصف ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ عبارة جوفاء جادل بها وهو يعلم أنه لا يحيي ميتاً، ولا يميت كما يميت الله الأحياء، وإنما يقتل النفوس البريئة ظلماً وتجبراً؛ وهذا لا يوجب له الربوبية، وترك قتل بعض الأحياء حياً ليس إحياءً، وهذا يشترك فيه كثير من الناس ولا يدعون أنهم أرباب، وإنما هي مكابرة وطغيان.

﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ لم يدر ما يجيب به لأنه لم يهتدِ للحق، ولو اهتدى لقال: (آمنت بالله) ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لتمردهم لم يستحقوا إلا الخذلان.

وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى

---

﴿٢٥٩﴾ ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ﴾ على معنى أو لم تر كالذي مرّ على قرية قد تهدمت دورها على سقوفها لأن أهلها قد ماتوا.

﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ قال من أين يحيي هذه الله بعد موتها وبأي طريقة وكيف يحييها، ولعل هذا السؤال كان بمعنى التعجب من إحيائها بعد موتها أي من القدرة على ذلك ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ فهذه آية عظيمة تدل على قدرة الله على البعث بعد الموت.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ أي ميتاً ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ﴾ أي بقيت في الموت مائة سنة ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير بمرور السنين عليه أعني لم يفسد، وهذه آية أخرى تدل على قدرة الله أن يخرق العادات ويخلق المستبعدات ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ فلك فيه آية أخرى ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ﴾ فعلنا ذلك بك.

﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ عظام الحمار ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ بالراء المهملة أو بالزاي قرئ بكل منها، ننشر نعيد حياتها ونبعثها، وننشز بـ(الزاي) نرفعها بالحياة فنجعلها تتحرك لتجديد بنائها وانتظامها ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ حتى يرجع الحمار كما كان، وهذه آية عظيمة وبما شاهد من بعثه نفسه ثم بعث حماره وما إلى ذلك؛ يتبين له أن قدرة الله على إحياء القرية بعد موتها ليست أمراً عجيباً لقدرة الله على كل شيء.

كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ

---

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ ما دلت عليه هـذه الآيـات ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا أقـول أنـى يحيـي هـذه الله بعـد موتهـا لأن علمـي بقدرته على كل شيء لا يبقى معه استبعاد ولا استغراب.

﴿٢٦٠﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أرنـي إحيـاءك للموتى بحيث أشاهد موتى يحيون بعد المـوت ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟! لأن المؤمن يكون موقناً بالإحياء بعد الموت، موقنـاً بقـدرة الله علـى كـل شـيء، موقناً بعلم الله بكل شيء؛ وإذا لم يعلم ذلك فليس مؤمناً ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ آمنت ﴿وَلَٰكِن﴾ طلبت ذلك ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ بمشاهدة إحيائك للموتى.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أملـهن إليـك واضـممهن إليك،وأعتقد أن الله جعل في ذلك سراً لتحيى وتأتيـه حـين يـدعوها ليكـون سبباً كنفخة عيسى في هيئة الطير من الطين ليكون طائراً بإذن الله.

﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ظـاهره الأمـر بتقطـيعهن وأن يجعل من القطع على كل جبل منهن جزءاً لتباعَد القطع بعضها مـن بعـض، وعموم كل جبل محدود بالاستطاعة، أي بقدر ما يستطيع بلوغـه مـن الجبـال في وقت محدود قد فهمه.

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ﴾ أي ادع الطير الأربعة يأتينـك يسـعين إليـك سعياً، فكان هذا كما أخبر الله أصدق القـائلين ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فلعزته وحكمته لا بد أن يحيي الموتى لتجزى كل نفس ما كسبت، فهذا دليل آخر يدل على أنه لا بد من البعث، مع الدليل على أن الله قادر عليه.

يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا

---

﴿٢٦١﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في إحياء دين الله وإعلاء كلمة الله، وأصل السبيل الطريق، والمراد بإضافته إلى الله: أنه الذي شرعه الله لعباده، أي الدين الذي شرعه، والإنفاق فيه الإنفاق لتقويته أو للدفاع عنه فهو الإنفاق في الجهاد في سبيل الله.

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ والسنبلة: هي التي تخرج من الزرعة فيتكون فيها الحب، قال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يوسف:٤٧] ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ فكانت جملة الحب سبعمائة حبة من حبة واحدة، وهذا توضيح لتضعيف ثواب الإنفاق في سبيل الله لما يترتب عليه من نصرة الدين والدفاع عنه، وما يترتب على نصرة الدين وعلى الدفاع عنه من دفع الفساد، وانتشار الصلاح، وخمول الباطل، وظهور الحق، وكثرة حسنات الثابتين على الدين والداخلين فيه بسبب الجهاد.

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ بتضعيف الثواب أو بتضعيف الحسنات نفسها بما يتفرع عنها من حسنات بتيسير الله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ بفضله ورحمته يعم المؤمنين ويهدي من يشاء بواسع فضله ﴿عَلِيمٌ﴾ بما ينفق من أنفق، وبمقدار ما يستحق من التضعيف وبكل شيء.

﴿٢٦٢-٢٦٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ فهم الذين يضاعف الله لهم، فهذا قيد للآية التي قبله وبيان شرط

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ

---

للتضعيف، وهو أن لا يتبعوه ﴿مَنًّا﴾ والمنّ: ذكرك الإحسان لمن قد أحسنت إليه احتجاجاً عليه لتريَه أن لك حقاً عليه؛ إما لقصد أذيته، وإما لغرض الترفع عليه، أو لغرض دنيوي، ولعله يخرج منه ما ألجأت إليه ضرورة دينية لتعريفه بالحق عليه لنهيه عن منكر، أو أمره بمعروف، كما قد يصدر من الوالدين للولد لزجره عن العقوق؛ ولذلك قلت لغرض دنيوي.

*والأحوط*: اجتناب هذا واتخاذ واسطة ينبه الولد على حق الوالدين؛ لأني لا أعلم أحداً قال هذا التفصيل وإن كانت أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان الحق تشمله.

الشرط الثاني لتضعيف الإنفاق: أن لا يتبعوه ﴿أَذًى﴾ إما بقول أو فعل أو ترك، فإذا اجتمعت الشروط كان ﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ لا يضيع منه مثقال ذرة ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ في العاقبة ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ لأنهم قدموا لأنفسهم ما يمنع ذلك.

﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ كلمة طيبة تقولها للمسلم ﴿وَمَغۡفِرَةٌ﴾ عما يصدر منه من أذية أو غيرها ﴿خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗى﴾ خير للفاعل لأنه يثاب على القول المعروف والمغفرة ولا يثاب على صدقة يتبعها أذى ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتكم وإنما تتصدقون لأنفسكم ﴿حَلِيمٞ﴾ لا يعاجل بالعقوبة على المن والأذى وغيرهما من المعاصي.

وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ

---

(٢٦٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ هذا نهي يدل على التحريم والإثم على المانّ والمؤذي مع الدلالة على بطلان صدقته ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فلا أخلص لربه النية، ولا كان مؤمناً ليقبل منه الإنفاق لو أخلص؛ لأن الإيمان شرط في قبول العمل، ولذلك قيد به الوعد في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤] وغيرها.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ مثل حجر أملس لا يُنبت ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ مطر قوي عظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أجرد لا تراب عليه ولا نبات، قال في (الكشاف): «ومنه صَلِدَ؛ جبين الأصلع إذا برق» فهكذا يذهب إنفاق المرائي ذهاب التراب عن الصفوان؛ لأنه لا بقاء عليه إذا جاءه المطر.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ فقد فات المال وفاتت فائدته، ولا يقدرون على تلافي ثواب الإنفاق أو تلافي المال الذي كدوا له وجمعوه ثم صار هباءً منثوراً ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا تصلح أعمالهم وتحبطها معاصيهم.

(٢٦٥) ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ ﴿يُنفِقُونَ﴾ أموالهم من أجل ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي طلب مرضاة الله،

تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا

---

أي يطلبون بالإنفاق مرضاة الله لا يراءون ولا يريدون به جزاء ولا شكوراً، وهذا شأن المؤمنين أهل الخشية من الله لأنها تبعثهم الخشية على ابتغاء مرضاة الله وطلبها بالصدقة لأن رضوان الله والنجاة من غضبه أهم ما يطلبه المؤمن.

﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ لتثبيت أنفسهم على الهدى، ولئلا تتحول إلى الباطل خوفاً من سوء الخاتمة، فقوله: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ معطوف على المفعول من أجله مثله في المعنى، فما أعظم فائدة الصدقة حيث تدفع البلاء في الدين كما تدفع البلاء في البدن فمثلها في عظم فائدتها:

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ ﴿جَنَّةٍ﴾ بستان أو زرع بمكان مرتفع تستفيد فيه بالهواء النقي والشمس ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر غزير ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أفادت أهلها وأعطتهم أكلها ثمرها المأكول ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ ضعفي الثمر المعتاد ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ يقوم مقام الوابل ويجزي عنه، فلا بد أن تؤتي أكلها وافراً أو مضاعفاً، ولعل هذا إشارة إلى اختلاف الصدقات في مواقعها وأسباب تضعيفها لأهلها، فمنها ما تكثر أسباب التضعيف فتكثر الأضعاف، ومنها ما تقل أسباب التضعيف فلا يحرم أهلها الثواب الموعود به ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لأنه عالم بدرجات الأعمال في الحسن والقبح.

﴿٢٦٦﴾ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا﴾ في خلالها ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فهناك أنواع النخيل وأنواع العنب، وفي خلالها الفواكه الأخَر والزروع، فله في هذه الجنة من كل الثمرات.

كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ

---

﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ فهو محتاج إلى ثمرها مع ضعفه عن التكسب أشد مما كان في الشباب ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ فهو في أشد الحاجة إلى غلول جنته لنفسه ولذريته لضعفهم عن التكسب كضعف أبيهم أو جدّهم.

﴿فَأَصَابَهَآ﴾ أي أصاب جنته ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ إعصار من الريح تهب من الأرض نحو السماء وتمر بشدة فأصاب الجنة يضربها بناره ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ فما أشد الخسارة في هذه الحالة فاتت جنته، فمن أين يقوت نفسه وذريته؟! لأنه ضعيف عاجز عن التكسب وذريته ضعفاء مثله، فلا يستطيع ولا يستطيعون العمل لكسب الرزق، فضلاً عن العمل لإبدال الجنة بجنة أخرى عوض عنها، وهذا المثل يبين للعاقل خسارة إحباط العمل وخسارة إبطال الصدقة التي تقدم تشبيهها بجنة بربوة ليحذر المؤمن إبطالها بالمنّ والأذى وإحباطها بالمعاصي المحبطة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ كيف تحبط الأعمال، وكيف يكون الخسران؛ لأن الإنسان يأتي يوم القيامة أحوج ما يكون إلى حسناته، فإذا كان قد أحبطها تحققت خسارته في حين لا يمكنه إبدالها بحسنات جديدة يكتسبها في الآخرة، كما قال الشاعر:

قل لي إذا متَّ كيف تنقص من ... سيئة أو تزيد في حسنة

وفي هذه الآية: دلالة على أن الله يبين آياته للذين آمنوا كلهم لم يخص بها إماماً ولا شيخاً، فلا هي رموز ولا هي ألغاز.

﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ

---

﴿٢٦٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ وهذا عام لما يكسب بالتجارة والإستغلال وغيرها كالغياصة في البحر يكسب بها العنبر والمرجان واللؤلؤ، فتعم الآية الزكاة والخمس وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ وقد مر في السورة ذكر مصارف عديدة في آيتين.

﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ من نباتها وما يؤخذ من ترابها من المعادن وغيرها، وما يخرج من الأرض من البترول، ولعل الأولى جعل المعادن ونحوها والبترول من القسم الأول طيبات ما كسبتم، ويخص النبات بقوله تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم﴾ لأنه هو يخرج النبات وثمراته، وهذه الآية كما ذكرت تعم الخمس والزكاة وغيرهما، والتفاصيل من السنة.

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ﴾ ولا تتعمدوا وتقصدوا ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ الرديء الفسل ﴿مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ دون غيره بل يخرج الواجب من الوسط ولا يجب أن يُنتقى أجوده للإنفاق وإن كان هذا فضلاً لصاحبه إذا أنفقه.

﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِ﴾ هذا تحقيق للردي الذي نهينا عن تيممه، وهو الذي لا يؤخذ بالثمن ولا ينفق إلا إذا أغمض صاحبه عن بعضه وأعطاه بدون ثمن في القصد والإرادة ليشتري الكل رغبة فيما يغمض عنه فيه.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتكم وعن كل شيء وإنما يأمركم لمصلحتكم ومصلحة المجتمع ﴿حَمِيدٌ﴾ يستحق الحمد لأنه المنعم على عباده غنيهم وفقيرهم ولأنه الكريم الحكيم في أقواله وأفعاله.

ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا

---

﴿٢٦٨﴾ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ لتخافوا الفقر فتبخلوا أو تنفقوا الردي دون الجيد ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ كالمن والأذى والحرص على المال الحرام والبخل بالواجب ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ بالإنفاق ﴿مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ كما أفاده في الآية السابقة ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ..﴾ الآية.

فمن الفضل مضاعفة العوض، ومن الفضل إنزال الرزق كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «استنزلوا الرزق بالصدقة» وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام «إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة» ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ بفضله ورحمته يعم عباده في الدنيا ويضاعف لأوليائه في الآخرة ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن ينفق، وما أنفق، وفيمَ أنفق، وبنيّته في إنفاقه، وبكل شيء.

﴿٢٦٩﴾ ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ كما يرزق عباده ويعمهم بفضله يؤتي ما هو خير من المال وهو الحكمة من يشاء كما يختص برحمته من يشاء، والحكمة هي العلم النافع والهدى للعمل ووضع الأمور مواضعها وجودة الرأي والتدبير.

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي الحكمة وتفسيرها يقول إمامنا المنصور بالله عبدالله بن حمزة عليه السلام: والحكمة العلم النافع؛ وهو علم القرآن، وتفسير معانيه، وتفصيل مجمله ومحكمه، والمعرفة بأحكام أوامره ونواهيه، ومحكمه ومتشابهه، وخاصه وعامه، ومجمله ومبينه، وناسخه ومنسوخه، والإعتبار بعبَره، والفهم لأمثاله العجيبة وقصصه الغريبة، فهذا عندنا رأس الحكمة ومفتاح الرحمة» انتهى.

لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن

---

وقد ذكر الإمام المنصور بالله عليه السلام هذا مختصراً في (حديقة الحكمة) في شرح الحديث الأول، ثم قال عليه السلام: «ومثل هذا التأويل مرويّ عن جدنا عبدالله بن الحسن عليه السلام» انتهى.

قلت: يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس:١-٢].

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ خيراً من ما في الدنيا من الأموال والمتاع، كما قال تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] وفي الحديث «من حفظ القرآن فظن أن أحداً أوتي مثل ما أوتي فقد حقر ما عظم الله وعظّم ما حقر الله» أو كما قال.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أهل العقول؛ الذين يستعملون عقولهم في طلب الحكمة؛ فهم الذين يذّكرون بتذكير الله، فتحصل لهم الحكمة من الله بتقوى الله التي هي شأن أهل العقول الذين يتدبرون العواقب، والزهد في الدنيا الذي هو شأن أهل العقول الذين يتدبرون عواقب الأمور..أهل العقول الراجحة، التي لا يلهيها حب الدنيا عن طلب الحكمة.

﴿٢٧١﴾ ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ فإن الله يعلمه فيجزي على الخير خيراً وعلى الشر شراً ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ كالذي ينفق ماله رئاء الناس، والذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، والذين ينذرون لغير الله تقرباً إليه أو رجاء أن ينفع بما لا يقدر عليه إلا الله، والنذر لغير الله هو النذر الذي يوقع لغير الله.

فأما النذر لله بما يعطى لغير الله من صدقة ونحوها فليس من النذر لغير الله، ومعنى النذر: الإيجاب على النفس، فإن كان الإيجاب لله مثل النذر بالصوم أي إيجابه فهو مشروع بشروطه المذكورة في محله، وإن كان الإيجاب لغير الله بحيث يرجى نفعه بالوفاء ويخشى ضره بترك الوفاء والخوف منه في ترك الوفاء خوف أن يسبب تلفاً في مال أو مرضاً في ولد مثلاً؛ فإذا وقع شيء من ذلك نسب إلى المنذور له من أجل النذر له وترك الوفاء، فهذا معناه أن النذر أوجب له المنذور به وصير له حقاً في العقاب بترك الوفاء.

فلا يبعد أن يكون الشرك فيه من حيث اعتقاد الوجوب له بالنذر له لمكانته وعظمته، لا لأن الله أوجب الوفاء بالنذر وتوهُّم أن هذا منه، فإن كان لا يعتقد له الحق وهو خلاف الظاهر لأن المقصود بالنذر الإيجاب على النفس للمنذور له، وإنما يخشى ضره بترك الوفاء مع قطع النظر هل له حق أو لا، فلا يبعد أن يكون الشرك فيه من حيث اعتقاد نفعه وضره بما لا يقدر عليه إلا الله؛ كبركة مال وأولاد، وشفاء مريض، وصرف ضر بطريقة لا يقدر عليها إلا الله علام الغيوب، القادر على كل شيء.

ولكن أمرهم إلى الله، فهو يعلم ما تكن صدروهم، وما يعلنون من عقائد ونيات وأعمال وأقوال، وله الحكم وإليه يرجعون، وما نذروا له من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين بالشرك في النذر أو بترك الوفاء فيما يجب الوفاء به من أنصار، ولعل الذين ينفقون أموالهم لنصر المشركين في الحرب، والذين ينذرون لشركائهم لينصروهم؛ داخلون في هذه الآية دخولاً أولياً فما لهم من أنصار وإن ظنوا أن آلهتهم تنصرهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس:٧٤].

يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ

---

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ لا للرئاء ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي الصدقات، ولم يقل فنعما هو أي الإبداء، وفائدة هذا أنها لا تبطل بالإبداء ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ أي تخفوها عن الناس بحيث لا يعلم بها أحد.

وقوله: ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ يفيد أن لا ينتظر بها سؤال الفقير؛ لما ذكره الراغب في معنى الإيتاء في (مفردات الراغب) وهو قريب لحسن ذلك المعنى وتكرر كلمة الإيتاء في القرآن بخلاف الإعطاء.

﴿فَهُوَ﴾ الإيتاء بالإخفاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنه يضاعف لكم أكثر من صدقة العلانية، وهذا في غير الزكاة والعُشر لأنها تسلم إلى رسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣] وبعد الرسول ﷺ إلى القائم مقامه.

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ بسبب إخفاء الصدقات وإيتائها الفقراء، وفي (أمالي أبي طالب عليه السلام) في (الباب الثاني والعشرين) بسند صحيح: عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إن صدقة السر تطفئ غضب الرب، وإن الصدقة لتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» انتهى.

وهذا فيمن تقبل منه، فأما الفاجر المصر المتمرد فلا تفيده لقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٥٣] ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عليم بخُبرِه؛ فلا يخفى عليه ما هو خالص له، وما ليس خالصاً.

﴿٢٧٢﴾ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ أن يكونوا في طريق الحق غير ضالين عنه، إنما عليك أن تهدي من يهتدي، وتقيم الحجة على من أبى، بأن تبين له الحق

ليهلك من هلك عن بينة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ بألطافه وبأسباب من المهتدين كقبول الحق من أول معرفته وكالدعاء بالتوفيق وكالصدقة وغير ذلك.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ أنفقتم؛ لأن نفعه لكم، وفي الحديث: «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت» وروي أن بعض نساء النبي ﷺ تصدقت بلحم واحدة من الغنم لم تبقِ منه إلا العنق، فقالت لرسول الله ﷺ: لم يبقَ منها إلا العنق، فقال ﷺ: «كلها بقي إلا العنق» هذا لفظ الحديث أو معناه، وقد تكرر الترغيب في الإنفاق؛ لعظم فائدته مع أن الأنفس أحضرت الشح؛ فهي تحتاج إلى التكرار.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ فهذا هو الذي يبقى لكم ما تنفقون في حال أنكم ما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله أن ينظر إليكم أن يرضى عنكم؛ لأن شأن من يرضى منا عن إنسان أن ينظر إليه، كما أنه إذا سخط عليه أعرض عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران:٧٧] فكما كان نفي النظر إليهم عبارة عن غضبه عليهم؛ كان النظر إليهم عبارة عن الرضى عنهم ويعبر عن ذلك بالوجه.

ألا ترى أن أبناء يعقوب عليه السلام قالوا: ﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ [يوسف:٩] فقد كانوا يغارون من نظره إلى يوسف عليه السلام وأرادوا أن يكون نظره إليهم وحدهم؛ فعبروا عن النظر إليهم وحدهم بقولهم: ﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ [يوسف:٩].

وأعتقد أن هذا هو السر في تكرار كلمة الوجه في مواضع التعرض لرضوان الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩].

ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ

---

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم:٣٩] وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:٥٢] وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:٢٨] وغيرها، فهذه كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ [الحديد:٢٧].

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ فأنتم تقدمونه ليوفَّ إليكم يوم القيامة، ولا تظلمون أي لا تنقصون منه شيئاً، فالنفقة مع فوائدها العظيمة ترجع لصاحبها مع فوائدها؛ ثم بين تعالى مصرف هذا الإنفاق الذي رغب فيه هنا؛ فقال تعالى:

﴿٢٧٣﴾ ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ فلهؤلاء تنفقون لأنهم مع فقرهم محصرون في سبيل الله في مركز الإسلام، مستعدون لنصر الله ورسوله؛ ولذلك لا يستطيعون ضرباً في الأرض؛ لإحاطة أعداء الإسلام بدار الإسلام، فلا يستطيعون أن يسعوا لتحصيل قوتهم وقوت عيالهم إن كان لهم عيال، فحاجتهم إلى الإنفاق ممن يجد ما ينفق حاجة شديدة، مع عظم ثواب الإنفاق عليهم لشدة حاجتهم وكونه نصراً للإسلام؛ لأنه إذا لم ينفق لهم هلكوا وهم أنصار الإسلام.

أو اضطروا إلى التقية وإظهار كلمة الردة واللحوق بدار الكفر وهم أنصار الإسلام، ولذلك قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧] فالإنفاق عليهم نصر للإسلام، فأجره عظيم من هذه الناحية ـ أيضاً ـ مع عظم أجره من حيث أنه في أناس صالحين أبرار أهل دين ومروءة.

﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ عن أموال الناس، وخص الجاهل؛ لأن العالم يعرف أن التعفف عن أموال الناس شأن المؤمن المتقي للحرام وللشبهات؛ فليس علامة الغنى، وكذلك التعفف عن السؤال خوف الإثم من السؤال أو للحياء والمروءة حيث يباح، فالجاهل بهم الذي لا يعرف حالهم ومكانهم من الدين والمروءة يحسبهم أغنياء فينبغي التعرف لهم فبماذا يعرفون؟!

قال تعالى: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمۡ﴾ أي بعلاماتهم، فالجائع يظهر جوعه في وجهه، والمغتم من جوع أولاده يظهر غمه في وجهه، كما يظهر حالهم لمن تأمل من بقائهم في المسجد حين يذهب عنه الناس ليأكلوا وغير ذلك.

﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافًا﴾ الإلحاف: الإلحاح والتشديد والمبالغة في الطلب، وهذا يتنزه عنه المؤمن لدينه ومروءته؛ لأنه لا يريد شيئاً بسوط الحياء، كما أنه يستحي من الإلحاح، فينبغي الإنتباه لهم، ولا ينتظر منهم السؤال، فإن اضطروا إلى السؤال للتعريف بحاجتهم أكتفي منهم بالتنبيه ولم يتركوا إذا لم يُلِحُّوا بناء على أنهم لو كانوا محتاجين لألحوا، أو لو كانوا شديدي الحاجة لألحوا لأنه غلط.

وقد فسّر قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافًا﴾ بأنه تعريض بالمنافقين وليس المراد به أن هؤلاء المؤمنين يسألون؛ لأنهم قد وصفوا بالتعفف.

﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا

---

وأقول: لكن التعفف غير مقصور على ترك السؤال فإنه يصدق بالتعفف عن أموال الناس، فالمحتاج قد يأخذ سنبلة من الزرع لأن صاحبها لا ينكر عليه، أو يأخذ ما يتساقط على من يكتال أو يكيل لأنه لا ينكر لقلته، أو يتعرض لما يتساقط من النخل من التمر كذلك ونحو ذلك، فترك هذا يعتبر تعففاً، فلا يقصر التعفف على ترك السؤال وخصوصاً السؤال الجائز للضرورة فإنه لا ينافي التعفف، بل قد يكون واجباً لإنقاذ النفس من الموت، أو إنقاذ محترم الدم من الأولاد أو غيرهم، وعلى هذا فلا إشكال في وصفهم بالتعفف، مع فرض سؤالهم بدون إلحاف.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وهذا ترغيب في الإنفاق لأن الله يعلمه ولو سراً في ظلمة الليل فيجزي به كما وعد.

﴿٢٧٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لعله لرغبتهم في الإنفاق كلما جاء سبب مع وجدان ما ينفق، فإذا كان عنده ما ينفق ورأى محتاجاً النهار أعطاه ليبادر مع الحاجة، وإذا علم أحداً محتاجاً في الليل وعنده ما ينفق كالجار يبيت جائعاً أعطاه وكذلك ينفق سراً حيث تيسر الإسرار، وعلانية حيث اقتضت الحال العلانية للإقتداء، أو وجود المحتاج ويخشى فواته إن أخّر ليعطيه سراً، أو سأله واحتاج إلى إعطائه علانية لئلا يتهم بالبخل أو نحو ذلك من الأسباب، وقد روي أنها نزلت في علي عليه السلام.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مدخر ليوم حاجتهم إليه ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أما غيرهم فقد يخاف عليه من الإنفاق لأنه إسراف أو نحوه،

يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى

---

وقد يحزن لأنه أنفق لغرض فاسد، أو لأمل الحصول على غرض فلم يحصل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

روى الحاكم الحسكاني في (شواهد التنزيل): بإسناده عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ نزلت في علي خاصة؛ في أربعة دنانير كانت له تصدق بعضها نهاراً وبعضها ليلاً، وبعضها سرّاً وبعضها علانية» انتهى.

قلت: لتكون الحالات أربع يمكن أنه أنفق نهاراً سراً مرة ومرة نهاراً علانية، وأنفق ليلاً مرة سراً ومرة علانية.

ولما كمل الحث على الإنفاق والترغيب فيه بحيث إذا عمل به المسلمون لم يحتج الفقير إلى الربا جاء التحذير من الربا فقال تعالى:

﴿٢٧٥﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال القاسم عليه السلام: المس: هو اللمم، واللمم فهو الجنون، وأما التخبط فما يعرف من خبط المتخبِّط، وهو الغشيان من خارج لا من داخل، وكما يعلم من مقابلة المقابل» انتهى.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية يقول القاسم عليه السلام: إنما مثّل الله آكل الربا إذ مثلوا رباهم وما حرم الله عليهم من الربا ونهاهم بالبيع الذي فيه إرباء، وإنما هو أخذ بالتراضي وإعطاء، فقالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ وشبهوا ما لم يجعل الله متشابهاً فشبهوا الحرام بالحلال، والهدى فيه بالضلال فمثلهم الله لما هم عليه من الجهل أنه عندهم أنقص أهل النقص من الجنون والخبل» انتهى.

وقد قيل: أن هذه صفتهم يوم القيامة يعرفون بها يقومون ويسقطون كالمصروع، وأنا لا أستبعد أن هذا في الدنيا، وأن المراد بقيامهم قوتهم بالمال إذا جمعوه من الربا وأنه يشتد حرصهم على المال وخوفهم من الفقر ولا يزال بهم خوف الفقر والسقوط بعد القوة، فهم في توقعهم للفقر وخوفهم منه؛ كالذي يصاب بالصرع، فلا يقوم إلا وهو خائف أن يصيبه مرضه متوقع له.

وقد روى أبو طالب عليه السلام في (الأمالي) في (الباب الخامس والأربعين): عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أمسى وأصبح والآخرة أكبر همّه جعل الله الغنى في قلبه، وجمع له أمره، ولم يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، ومن أمسى وأصبح والدنيا أكبر همه جعل الله الفقر بين عينيه، وشتت عليه أمره، ولم ينل من الدنيا إلا ما قسم له» انتهى.

فظهر: أن هذا المعنى قريب أن يرسل الله خوف الفقر على آكل الربا، فلا يزال يتوقع السقوط أي ذهاب المال وضعف الحال.

ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ

---

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾ عن الربا ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ في الجاهلية لا يطلب به تيسيراً عليه لكونه أخذه قبل نزول القرآن بتحريمه ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إن تاب تاب عليه وإلا عذبه ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى الربا بعد نزول القرآن ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عقوبة على الربا.

﴿٢٧٦﴾ ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ ينقصه ويبخسه والمحق ضد البركة ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يضاعفها لأهلها المتصدقين بها فتوفّى إليهم في الآخرة مضاعفة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ فهم مظنة أن لا يهديهم ولا يوفقهم لتوبة، والكفّار المبالغ في الكفر بآيات الله أو الكفر لنعم الله، والأثيم صاحب الإثم، ودخل في هذا أهل الربا القائلون: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾.

﴿٢٧٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا الوعد للمؤمنين بعد الوعيد لأهل الربا والكفّار الأثيم على عادة القرآن الكريم في الجمع بين الإنذار والتبشير تحذيراً وترغيباً، وبضدها تتبين الأشياء، ليختار العاقل ما هو خير له؛ حيث يرى الفرق بين الإيمان الموجب للجنة، والعصيان الموجب للنار، ويرى الفرق بين المحسن والمسيء وحكمة الله في الفرق بينهما.

بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ

---

﴿٢٧٨-٢٧٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿ذَرُوا۟﴾ اتركوا ما بقي من الربا عند صاحب الدين الذي ضوعف عليه فما بقي من التضعيف لا حق للمقرض فيه؛ وإنما عفي له ما أكل في الجاهلية لا ما بقي ولم يأكله.

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي معنى هذه الآية يقول المرتضى عليه السلام: الربا الذي نهى الله عنه وحرمه: هو ما قد عرف من هذه المعاملات والزيادات في الإسلام والديون والمشارات، فلما أن حرم الله ذلك وحظره كانت بقايا للمسلمين من تلك الأسلاف والديون والمباعات قد بقيت من ديونهم وتخلفت عن غرمائهم، فكانوا يظنون أنه ليس عليهم إثم في اقتضاء ما بقي منها، وأجروا آخرها كمجرى أولها؛ فنهاهم الله عن ذلك وغفر لهم ما قد سلف من قبل التحريم وحظر عليهم ما بقي لهم، فأمرهم بتركه ومنعهم من أخذه واقتضائه وهو بقية الربا.

ثم قال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يريد القتل والقتال حتى يفيئوا إلى أمر الله ويرجعوا إلى حكمه، وحكم عليهم بالقتل بعد إذ سماهم مؤمنين إن لم ينتهوا عن أخذ الربا والميل إلى الهوى، وأوجب عليهم في ذلك أعظم بلاء فهذا معناها ومجراها» انتهى.

قلت: تسميته ديناً لهم بقي لهم؛ مجاراة لهم في التعبير، ولا شيء لهم بعد تحريم الله له في الآيات السابقة.

وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ

---

﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من الربا ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ فما بقي من رؤوس الأموال فلهم أخذه ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الربا ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بمنع رؤوس أموالكم كاملة غير منقوصة.

﴿٢٨٠-٢٨١﴾ ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ معسر وفي ذمته رأس مال ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ بدل من طلبه في حال الإعسار فينظر حتى الإيسار وتمكنه من القضاء ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فتسقطوا عن المعسر ما في ذمته أو بعضه، وهذا ترغيب يكفي العاقل؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ومن لم يصدق خبر الله سبحانه فليس بمؤمن.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ جعل اليوم نفسه مخوفاً نحتاج إلى اتقائه كما قال تعالى حاكياً: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٠] واتقاؤه هو الإعداد له في هذه الحياة الدنيا بتوبة نصوح وتجنب للمعاصي وعمل صالح والرجوع إلى الله المصيّر إلى موقف الحساب والسؤال عن الأعمال، ولعله سمّي رجوعاً لرجوع الحياة فيه بعد الموت.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من صالح أو سيئ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة عقاب على ما يستحقون ولا بنقص صالح مما كسبوا كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]

وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ

---

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ [الزلزلة:٧-٨] ولهذا عظم ذلك اليوم وثقلت القيامة في السماوات والأرض.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام عليه السلام - يعني القاسم بن محمد -: دلت على صحة التوبة خوفاً من الله ومما يجازي به أهل المعاصي يوم القيامة» انتهى، قلت: يعني إذا صحت التوبة بالندم على المعصية لقبحها كما حققه في (الأساس).

﴿٢٨٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ التداين: التعامل، أي إذا تعاملتم بدين، أو هو التعامل بالدين، أي إذا تعاملتم بدين، أي بتأجيل لأحد العوضين في المعاملة من قرض أو غيره؛ فاكتبوا الدين المؤجل عند المعاملة، وظاهره الوجوب.

﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أي التمسوا كاتباً يكتب بينكم الدين بالعدل واطلبوه أن يكتب ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ فليس له أن يمتنع وعليه أن يجيب شكراً لنعمة الله عليه بتعليمه الكتابة ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ الدين ﴿وَلۡيُمۡلِلِ﴾ أي يملي على الكاتب ﴿ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ ليكون إملاؤه اعترافاً وإقراراً بالدين أو بالمسلم فيه إن كانت المعاملة سَلَماً.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام ـ يعني القاسم بن محمد عليه السلام ـ: دلت على وجوب الكتابة لا يضيع الدين بأن ينساه أيهما لا سيما الغريم فيكون ظالماً ولا يضيع لرب الدين ماله، فإن تضييع المال حرام لأنه حينئذٍ لم يتصدق به، وعلى وجو ب الكتابة لمن كان يحسنها، وعلى أن لا يزيغ فيما كتب ولا يكتب إلا الحق ولا يبخس» انتهى.

﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي الذي عليه الحق ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ عند إملائه على الكاتب لينقص بعض الحق نقص عين أو نقص صفة.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ وفي الآية دلالة على أن الكتابة إنما تكون بعد ثبوت الدين في ذمة المؤجل له، فما يقع من الكتابة قبل استلام القرض وقبل أن يثبت في الذمة كذب وخطأ.

والسفيه: المعتوه الذي لا يحكم بإقراره، والضعيف: الذي نقص ذهنه وإدراكه وعقله من الكبر، والذي لا يستطيع أن يمل: هو الأخرس العاجز، والولي: هو الأب والجد والوصي والإمام ومنصوبه، فعليه أن يملي بالعدل لا زيادة ولا نقص.

والأولى أن الضعيف يعم الصبي والكبير المختل عقله، لقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤].

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام - يعني إمام زمانه القاسم بن محمد عليه السلام -: دلت على وجوب الولاية على من كان هذا حاله، وعلى وجوب قيام الولي بما يجب على من كان كذلك» انتهى.

﴿وَاسْتَشْهِدُوا﴾ على الإملاء أو على المداينة ﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ فلا يكتفى بالصبيان ولا بالنساء ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ حيث لم يوجد رجلان أو لم يرضيا ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ يجزون عن رجلين ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ وهم العدول حيث يوجد العدول، والمعروفون بالصدق الموثوق بهم عند عدم العدول كما في كثير من الأقطار؛ لأنهم يكونون مرضيين للضرورة أي موثوق بهم، وقد أجاز الإمام المهدي محمد بن القاسم الحوثي الحسيني العمل بشهادتهم إذا حصل الظن بصدقها، وظاهر الآية: العموم لمن وثق به المتعاملون.

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ والضلال قد يكون النسيان، فالتذكير للناسي تذكيره بالدين وما حضر عليه من المعاملة، وقد يكون الضلال العدول عن طريق الحق والعزم على كتمان الشهادة أو تغييرها عن وجهها فتذكيره تخويفه بالله، وظاهر الضمير في إحداهما للمرأتين فهو تعليل لإيجاب امرأتين بدلاً من رجل.

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أعتقد أنه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ﴾ فالمعنى لا يأبوا تحمل الشهادة إذا ما دعوا؛ فهو أمر لهم بإجابة

طلب المتعاملين المأمورين باستشهادهم، وسمُّوا شهداء كما سمّوا في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾ فأما تحريم كتمان الشهادة فيأتي في الآية التي بعد هذه، وهذا لأن السياق ما زال في أول المعاملة وما يجب فيه.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ وهذا تأكيد للأمر بالكتابة وتحذير من التكاسل والتساهل بأمر الكتابة، والسئآمة: الملل والضجر فلا تجوز؛ لأن هذا واجب أوجبه الله، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ تأكيد للأمر بكتابة الأجل.

﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾ أقسط عند الله أي كتابة الدين إلى أجله أعدل عند الله؛ لئلا يؤخذ في القضاء أكثر من الحق ولا ينقص من الدين شيء ﴿وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ لأن الشهود بالكتابة يتذكرون، فيشهدون شهادة قيمة لا عوج فيها، وأدنى أي أقرب لئلا ترتابوا، فلا يرتاب الذي عليه الحق بتوهمه أنه قد طلب بأكثر مما عليه، ولا يرتاب الذي له الحق بتوهمه أن الذي عليه الدين يريد أن ينقصه مما له، فالكتابة تمنع الريب؛ لأنها تذكرهما بالحقيقة، وتمنع التوهم والغلط، وهذا تأكيد لإيجاب الكتابة، ودلالة على وجوبها لئلا يقع نزاع أو ارتياب يفسد ذات البين فهي من المحافظة على صلاح ذات البين.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَا﴾ تجارة حاضرة أي كلا العوضين حاضر، تديرونها بينكم فتداولها الأيدي لطلب الربح فيها فلا جناح في ترك الكتابة؛ لأنه لا يكون نزاع على أحد العوضين لعدم التأجيل.

﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡ﴾ ليشهد الشهود على ذلك عند الحاجة؛ لأن الأصل بقاء المال للبائع إذا لم يثبت البيع إذا لم يرتفع الأصل باليد.

وقد تكون مشكلة إذا شهد الشهود على ملك البائع لأنهم لا يعلمون البيع، ويمكن أن يقاس مظنة الخلاف على الدين فتجب الكتابة؛ لا لأجل الخلاف في قدر الثمن؛ بل لأجل نفي البيع جملة والتشاجر فيما بعد؛ وهذا في الأراضي والدور الموروثة، فأما المستهلكات والأشياء الحقيرة والتي لا يعرف ملك البائع فيها لقرب عهده باستفادته، أي لو أنكر البيع ما وجد شهوداً على الملك فلا بأس، ويمكن أن يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ إذا كان الشهود ينسون مع طول المدة؛ وهذا لأن قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾ في سياق التوثيق بسبب التأجيل.

وهنا سبب آخر في بعض المعاملة غير التأجيل وليس من التخصيص بالقياس؛ لأن الأقرب في قوله تعالى: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أنه في الذي تتداوله الأيدي لطلب الربح؛ وهذا بعيد عن المشكلة بخلاف الموروث الذي يباع، فليس بيعه تجارة؛ لأن التجارة ما يطلب فيه الربح، وكذلك قد يحدث الخلاف في الحدود أو الحقوق في الأراضي والدور.

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ الراجح في هذا أن أصله (ولا يضارَر) بفتح الراء الأولى، بدليل الخطاب بعده بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ ولم يقل: وإن يفعلا، أو إن يفعلوا؛ لأن حث الكاتب على العدل قد سبق، فترجح أن المراد نهي الغرماء عن مضارة الكاتب أو الشهيد؛ وذلك ليكتموا الحق فيقول الكاتب: ليس هذا خطي، والشهود: لا نعلم هذا؛ خوفاً من الغريم.

أو يقول الكاتب: أنا غلطت في الكتابة والصواب أقل أو أكثر؛ ليسهل للشهود الباطل إذا خافوا أو ليشكك عليهم إذا كانت المدة قد طالت ومضارّتهم بعد أداء الحق والشهادة على وجهها معاقبة لهم من الغريم الظالم

تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقۡبُوضَةٌۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضًا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن

---

ومن الضرار: تهديدهم إن شهدوا بالحق، ومن الضرار: إدخالهم في خصومة شديدة، فإذا شهدوا قال الغريم: لا تصح شهادتهم عليّ لأنهم غرماء حاقدون، فالآية تنهى عن الضرر كله وبأي شكل كان، وقد جعلها الإمام القاسم بن محمد عليه السلام بمعنى فتح (الراء) وبمعنى كسره، حملاً للمشترك على معنييه.

﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ﴾ خروج بكم عن الحق إلى الخباثة والفجور ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ فلا تخالفوا في شيء مما في هذه الآية الكريمة ولا غيرها ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ العلم النافع، فاعملوا به، واشكروا الله عليه ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ فتعليمه الحق والصواب وهو ﴿عَلِيمٞ﴾ بمن اتبع تعليمه ومن خالف، فيجزي كلاً بما يستحق.

﴿٢٨٣﴾ ﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ﴾ تجزي عن الكتاب فيدفع الذي عليه الحق رهناً يقبضه الذي له الحق وثيقة في حقه ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ فلم يأخذ منه رهناً ﴿فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ أي ما أتُمن عليه من الحق الذي أتُمن عليه ولم يؤخذ منه رهن، أو من الرهن إذا رده إليه حتى يرجعا البلد مثلاً، فهي تعم.

﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ لأنه رقيب عليه وإن تمكن من الجحد في الدنيا فلن ينفعه الجحد يوم القيامة، وهذا الكلام خاص بالسفر لعدم الكاتب، وللسفر أحكام تخصه فلايلحق به حال السعة في الحضر؛ ولذلك قال تعالى:

تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا

---

﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ فالكلام الأول على أصله من إيجاب الكتاب والشهود ونسبة الإثم إلى القلب لأنه الكاتم بالكف عن الشهادة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ من كتمان أو غيره فراقبوه.

﴿٢٨٤﴾ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ فله الحكم بما شاء، فما سبق من أحكام في السورة هو الحق وليس لأحد مخالفته وليس لغير الله حكم؛ لأن غير الله إذا حكم فهو عبد يحكم على عبد مثله.

﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ من حق أو باطل ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ لأنه عالم به ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾ لأنه المالك لا راد لأمره ولا يشاء إلا الحق، وما الله يريد ظلماً للعباد، ومن المغفور الخواطر التي ليست اختيارية تأتي مع الإيمان الصحيح، كما في الحديث الذي رواه الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) ولكن لعلها لا تدخل في الحساب، اللهم إلا أن يقع تقصير في دفعها فتدخل في الحساب؛ لتغفر أو يعذب صاحبها إن تعمد التقصير ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ من تعذيب أو غيره.

﴿٢٨٥﴾ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ والذي أنزل إليه هو هذا القرآن، وما أوحي إليه سواه آمن به كله لأنه الحق من ربه ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ آمنوا بما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

---

﴿كُلٌّ﴾ من الرسول والمؤمنين ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ لأن ما أنزل إلى الرسول ﷺ قد دلهم على ذلك وهداهم للإيمان به، وللتلازم بين الإيمانين تم الإتصال لأنهما صارا إيماناً واحداً بما أنزل وما دل عليه، والمراد: الإيمان بالله كما يجب لا كتصديق الكفار بالله مع شكهم في البعث واستبعادهم القدرة عليه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ لا كما تفعل اليهود والنصارى من التصديق ببعض والكفر ببعض.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي الرسول والمؤمنون ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ لما أمر الله به وما حكم فيما أنزل إلى الرسول ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أي اغفر لنا غفراناً ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فأمنوا باليوم الآخر والمرد إلى الله للحساب والجزاء.

﴿٢٨٦﴾ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ لأنه حكيم رحيم، وهذه الآية ترد على المجبرة؛ لأنهم إن قالوا: الكافر مكلف بالإيمان لكنه لا يستطيع الإيمان؛ خالفوا هذه الآية، وإن قالوا: إنه غير مكلف؛ لزمهم أن تعذيبه ظلم وخالفوا المعلوم من الدين، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:٦٢].

﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ من خير ﴿وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ من شر من المعاصي والظلم ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ﴾ حكاية لدعاء الرسول والمؤمنين بعد إيمانهم بالمصير إلى الله وإيمانهم بأنه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾.

أو قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ من كلامه تعالى معترض بين كلام الرسول والمؤمنين؛ للتنبيه على أن قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ليس التزاماً بما ليس في وسعهم، وأنهم لم يلتزموا إلا بما في وسعهم، ونظيره قوله تعالى في (سورة الأعراف): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آية:٤٢].

﴿إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ فقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ليس مانعاً من النسيان والخطأ؛ لأنهم بشر ينسون ويخطئون فهم يدعون الله أن لا يؤاخذهم به.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرًا﴾ حملاً ثقيلاً يشق تحمله، كالحمل الذي يأصر حامله مكانه ولا يستطيع المشي به لثقله ﴿كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا﴾ بسبب عصيانهم واستحقاقهم للتشديد كأصحاب العجل وأصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ إما حقيقة لا طاقة لنا به فهو تعبد بالدعاء، كقولهم: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران:١٩٤] وإما مجاز والمقصود به صرف التكاليف الشاقة كوجوب القصاص والديون الغالبة التي يحتاج معها إلى الخروج من ماله كله لا يبقى له إلا قوت يومه وستر عورته ومسكنه الضروري، وكما لو كلفهم في وقت نزول القرآن بأمر أعظم من هذا وهم في الواقع يطيقونه، ولكنه يقال له في مجاز الكلام لا يطاق لصعوبته وثقله على النفس.

﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ما صدر منا بالتوفيق للتوبة والإستغفار إن كان المراد ما يصدر في المستقبل، وإن كان المراد ما قد صدر في الماضي فهذا نفسه استغفار منه ﴿وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ طلب الرحمة يعم خير الدارين أعني يصلح له وأهم الرحمة الرحمة بصرف عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام:١٦] فهي الرحمة العظمى التي تتم بها السعادة.

وفي الجمع بين طلب العفو وطلب الغفران وطلب الرحمة عناية كاملة لإسقاط العقاب على ما قد صدر، وترك المعاجلة بالعقوبة على ما يصدر من الزلات حتى نتوب؛ لأن الغفران والرحمة قد يستعمل بهذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦].

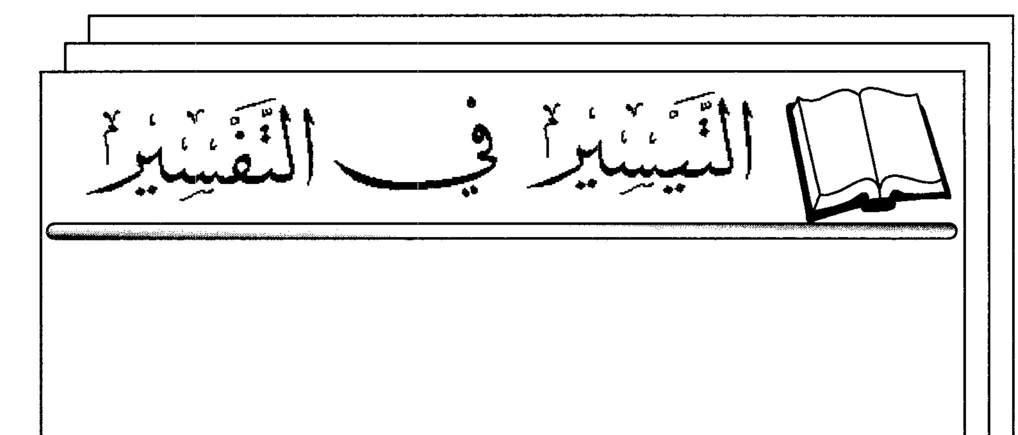
﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ وهذا يدل على أنهم في كمال إيمانهم المذكور مستعدون لجهاد الكفار، فليس الجهاد مما يطلبون أن لا يكلفوا به، وقولهم: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ بمعنى: أنت المتولي لأمورنا، كما وعدتنا في قولك: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:١١] وقولك: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنعام:٤٠] ولكونك مولانا ومتولي حسن رعايتنا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ لتنصر دينك، ويكون الدين لك وحدك.

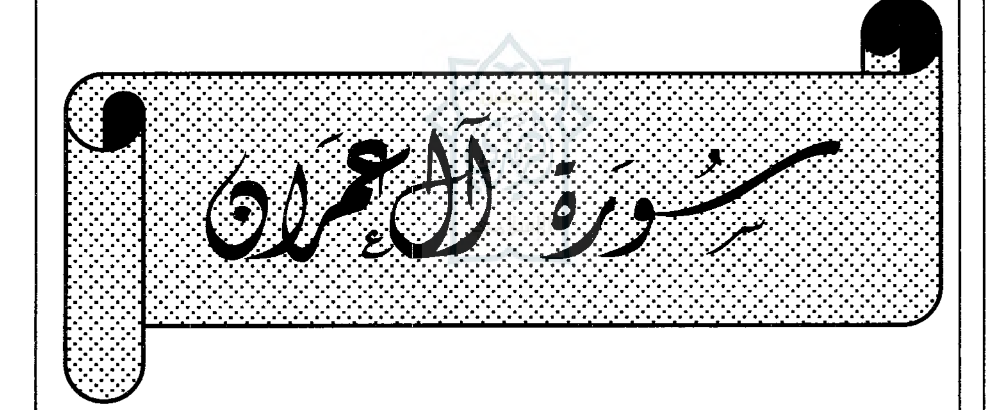
وقولهم: ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ولم يقولوا على أعدائنا؛ يشعر بأن المهم في النصر عندهم إعلاء كلمة الله وإبطال الكفر.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله ـ يعني القاسم بن محمد ـ عليه السلام: دلت على وجوب جهاد الكفار والدعاء إلى الله بنصر المؤمنين على الكافرين» انتهى.

والحمد لله رب العالمين..




التيسير في التفسير


سورة آل عمران





# سُورَةُ آلِ عِمْرَان

مدنيها ٣ — آياتها ٢٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾

---

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ﴾ سبق الكلام في الحروف التي تكون في أوائل السور، كما سبق تفسير (البسملة).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا المطلع الكريم يناسب ما يأتي في هذه السورة من الرد على النصارى في شأن عيسى عليه السلام والدعوة إلى الإسلام الذي هو إخلاص العبادة لله، والإله هو المعبود بحق فلا معبود بحق إلا الله، وكل ما سواه عبد مربوب.

﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ الحي الذي لا يموت وما يعبد المشركون أموات غير أحياء، أو جائز عليهم الموت، وقد قال الله تعالى في عيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وهذه الوفاة إحدى الموتتين، والله هو ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ بشؤون السماوات والأرض ومن فيهما بتدبير أمور المعاش وغيرها، وشئون الآخرة.

﴿٣-٤﴾ ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فكله حق لأنه كلام أصدق القائلين وأحكم الحاكمين ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ لما قبله من كتب الله يحكم بصدقها وما فيه موافق لما فيها من الإخبار عن الله وعن توحيده وعن اليوم الآخر وغير ذلك.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ فهما من كتب الله، فالقرآن مصدق بهما ومصدق لما فيهما فلا عذر لأهلهما من تصديق القرآن الذي ثبت بالبرهان القاطع أنه من الله كما مر في أوائل (سورة البقرة) ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي أنزلهما من قبل في زمان سابق ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ ليس فيهما شيء من أباطيل أهل الكتابين من الشرك والأماني وغيرها وإنما هما هدى بما يدلان عليه من التوحيد والإنذار لأعداء الله والتبشير لأولياء الله وغير ذلك.

﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ الفرقان بين الحق والباطل، فتمّت حجته على من أشرك ومن عصى ومن كفر بآيات الله؛ لأنه لم يبق لهم عذر بعد الفرقان الذي أنزله الله بين الحق والباطل: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢] و﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ إما عبارة عن كل ما جعل الله لعباده من الفرقان بين الحق والباطل من القرآن والكتب السابقة وغير ذلك من المعجزات وهو الأقرب هنا لتقدم ذكر القرآن، وإما عبارة عن القرآن كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] وعطفه على ما مر؛ لأجل وصفه بأنه (فرقان) أي يفرق بين الحق والباطل، كما قال الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لما كانت الآيات سبيل العبادة التي خلق لها الإنس والجن، وسبيل سعادة البشرية في الدنيا والآخرة، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، كان التكذيب بها من أكبر الجرائم؛ لأنه معارضة لحكمة الله ورحمته لخلقه، ومعاونة للشيطان، ودفع للمصالح، ومحافظة على الفساد والجهل، فاستحقوا العذاب الشديد، وجاء فيهم هذا الوعيد لأن الله ﴿عَزِيزٞ﴾ ومن عزته: أن لا يهمل أعداءه يفسدون ويحاربون دينه ويصدون عن سبيله ويضلون عباده، دون أن يجزيهم بما يستحقون من العذاب الأليم.

هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ

---

فلا بد من تعذيبهم لأن الله ﴿عَزِيزٌ﴾ ولا بد من تعذيبهم لأن الله ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي ذو مكافأة للمجرمين بالعقوبات على جرائمهم، فليس لأحد أن يغتر بحلمه وإمهاله ورحمته، فإن كل جزائه في الآخرة وفق حكمته، وكما هو رحيم فهو ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ولو كانت الحكمة في الآخرة أن لا يعامل إلا بالرحمة ما عذب أحداً؛ لأنه غني عن تعذيبهم، ولكن اقتضته عزته وحكمته فلا بد لهم منه ونعوذ بالله.

﴿٥﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه لا يغيب عنه شيء، ولا يعزب عنه شيء، وهو علام الغيوب ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩].

﴿٦﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ (الرحم) موضع الولد الموجود في بطن أمه ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من الصور؛ لعلمه بكل شيء، وقدرته على كل شيء، وهذه من أوضح الآيات دلالة على ذلك، فهناك تصوير العظام التي أصلها الماء المهين، وجعلها عظام إنسان برأسه وعنقه وسلسلة ظهره، وعظام أضلاعه وصدره ويديه، وحوض في أسفله يركب فيه رجليه، ثم توصيل العظام بالأعصاب، مع تواصلها في أصل صنعتها بتداخل أطرفها، ثم دماغ وقلب وكبد ورئتان وأمعاء وكلى إلى غير ذلك، ثم عروق يجري الدم فيها من القلب إلى نواحي البدن شبه المواصير، ثم نفخ الروح فيه وقد أعدّ له في بدنه الأعضاء والفم واللسان لأنه سيُلهم البيان، ومع ذلك ترى الوجوه مختلفة لا تتفق كما تتفق مصنوعات الورشة الواحدة، حتى الأخوة من الأم والأب، وهذه من أعظم الآيات مع كثرة الناس فسبحان الله وبحمده.

ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ

---

﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنه المالك لما خلق وكلهم عباده، ولأنه هو الذي يرجى ويخشى وتنفع العابدين عبادته ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا ينال ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل خلاف ما يوافق الحكمة، فلا يتخذ ولداً لأنه غني ولا يتخذ شريكاً لأنه خلاف الحكمة وفي هذه الآيات مناسبة لما يأتي في شأن عيسى عليه السلام بعد إحدى عشرة آية.

﴿٧﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ﴾ لا تشابه فيها والقرآن الكريم تنزيل من حكيم، فهو كله على وفق الحكمة ليس فيه خلل، ولكن اقتضته حكمته تعالى أن يجعل منه محكماً هادياً لمن يهتدي، لا إشكال فيه ولا خفاء في معناه، ليكون دستوراً للأمة كلها، وأن يجعل منه متشابهاً للابتلاء والاختبار، فقال سبحانه في المحكمات: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ المرجع الذي يهتدي به المهتدون ويؤمه طلاب الحق ويصيرون إليه، كما قال تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٩].

وقال تعالى في المتشابه: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾ أي وآيات أخر متشابهات لنوع إبهام فيها، يحتاج المؤمن عندها إلى الإيمان بأنها من الله، وأن لها معنى صحيحاً خلاف ما يتوهم منها الجاهلون من الباطل، وقد ظهر من التفريع الذي يأتي أن المتشابه هو ما يتعلق به أهل الباطل بسبب خذلانهم وقصدهم للفساد، ووجود نوع من الابهام مكنهم أن يتعلقوا به.

وعلى هذا: فهو شامل لما كان فيه اشتباه:

إما لإجمال فيه مثل: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠] قبل نزول البيان، ومثل: ﴿الم﴾ ﴿حم﴾ ونحوها.

وإما لاستبعاد فاسد صيره مشكلاً مثل: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا..﴾ الآية [الحج:٧٣] فإن استبعاد الكفار وجهلهم صيره متشابهاً عندهم وفي حقهم.

فأما ما خفي معناه وأمكن البحث عنه وصار واضحاً وإنما كان غامضاً لغفلة القارئ أو قلة معرفته باللغة، فهذا ليس من المتشابه.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ﴾ ميل عن الحق وهم الكفار والمجرمون كلهم الذين ذكرهم في (سورة البقرة) في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ..﴾ الآية [آية:٢٦-٢٧].

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ أي يتعلقون به ويجعلونه دليلاً لهم على باطلهم، ولجعلهم إياه دليلاً اعتبر تعلقهم به اتباعاً له؛ لأنهم جعلوه إمامهم قائداً لهم إلى باطلهم.

﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ أي طلب الفتنة أي للجدال به للصدّ عن الحق ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ ابتغاء منهم لتأويله أي لتأويلهم إياه، فهو إضافة المصدر إلى مفعوله؛ لأنهم يدّعون أنه يؤول إلى سبب باطل أو معنى فاسد، ألا ترى أنهم تعلقوا بقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠] للجدال في القرآن فقالوا: أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر! فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ..﴾ الآية [المدثر:٣١].

وتعلق ابن المُقَفَّع لإبطال القرآن والكفر به بالحروف المذكورة في أول السور، فردَّ عليه الإمام القاسم عليه السلام في كتاب (الردّ على ابن المقفّع): «أوَ لا ترى أن الكفار قالوا: أما يستحي رب محمد أن يمثل بالبعوض كأنهم أرادوا ذكر الذباب، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦].

وتعلق ابن المقفع بقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥] فقال لعنه الله: إن ربهم على كرسيه، وقال ابن المقفّع: ثم زعموا أن الله خلق الأشياء كلها بيده من شيء موجود، وزعم أن اليد لا يمكن قبضها وبسطها إلا بعد وجود» انتهى. فأقول: صدق الله العظيم.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي التأويل الصحيح للمتشابه وما يؤول إليه على الحق والصواب، وهذا لا يمنع التأويل الذي يوافق المحكم بضرب من الترجيح لكونه المعنى لا القطع بأنه المعنى كله؛ فالعلم لله الذي هو فوق كل ذي علم، أما المخلوقون فعلمهم محدود ومن الجائز عليهم أن لا يحيطوا بمعنى المتشابه وبما يؤول إليه معناه، وإن علموا أو ظنوا بعض ذلك، والمراد بما يؤول ما يتفرع عنه وتفاصيل مفهومه الحقيقيَ، كالعلم بخزنة جهنم على التفصيل وغير ذلك، فلم يعْرَ عن الفائدة ولم يجب أن يعلموا تأويله كله.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ إنه الحق أي الكتاب ﴿كُلّٞ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ نزل، وفي خطبة رواها الإمام أبوطالب عليه السلام في (الأمالي) في [ص:١٥٦] في (باب الخطب والمواعظ عن أمير المؤمنين علي عليه السلام): «وما كلفك الشيطان علمه مما ليس عليك في الكتاب فرضه،

وفي سنة رسول الله، ولا عن الأئمة أثره، فكِلْ علمه إلى الله سبحانه، فإن ذلك منتهى حق الله عليك، اعلم أيها السائل أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن الاقتحام على السُّدَد المضروبة دون الغيوب الإقرارُ بجملة ما جهلوا تفسيره من تفسير الغيب المحجوب فقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ فحمد الله سبحانه اعترافهم بالعجز عنْ تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التَّعَمُّق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً» انتهى المراد؛ ونحوه في (نهج البلاغة) في (خطبة رقم:٩٠).

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: والراسخ: هو المتمكن في بحبوحة الشيء الذي يدخل ولا يطيش، والعرب تقول: رسخت الحجر في الماء إذا تمكنت ووقعت في أسفل الماء ودخلت» انتهى المراد.

قلت فالمعنى: الثابتون المتمكنون في العلم، الذين لا تزلهم الشبه ولا تطيشهم عن مكانهم من العلم، لأنهم ثابتون فيه متمكنون، وذلك لأنهم علي يقين وهدى من ربهم، وهذا عام للمتقين الموقنين ليس خاصاً ببحار العلم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٢٦] وقال تعالى في (سورة المدثر): ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ الآية [آية:٣١].

وعلى هذا فكأنه قيل: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ للشك والتشكيك فيه، وأما الراسخون في العلم فيقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ فالآية هذه كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤].

أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ

---

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ بما في القرآن من التذكير وبسائر آيات الله وتذكيره وينتبه من الغفلة والجهل والعمى﴿إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ جمع لُبّ، والمراد به هنا: العقل الذي يستعمله صاحبه لمعرفة الحق، فجعل قلبه كالثمرة التي فيها لُبُّها وجعل قلب الزائغ كالثمرة الفارغة من اللب، قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص:١٠] وقال تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣] فجعل القلب فارغاً لما فيه من الحَيرة وذهاب التعقل، فكذلك قلوب أهل الزَّيغ لا ينفع فيها التذكير؛ لأنها تأباه وتكرهه وتعرض عنه كما قال تعالى حاكياً: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود:٢٨].

﴿٨﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ هذا حكاية عن الراسخين، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ جملة معترضة بين كلامهم، أو من كلامهم، والزيغ قد يكون عقوبة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] ونسبته إلى الله تعالى كنسبة الختم إليه وقد مر معناه، والمراد طلب العصمة والألطاف عن أسباب الزيغ.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام الهادي عليه السلام: إن قال قائل: كيف يُزيغ قلب من هداه؟ وكيف جاز لهم أن يظنوه بالله؟

قيل لهم: هذا دعاء منهم بالتثبيت لهم بالمعونة، والتوفيق والتسديد والإرشاد يقولون: ربنا زدنا هدى إلى هدانا، ومعونة إلى قوتنا، ولا تتركنا من رحمتك فنهلك وتزيغَ قلوبنا بعد ما نحن عليه من اجتهادنا في طاعتك واتباعنا لمرضاتك، لا أنهم يتوهمون على ربهم ويظنون بخالقهم ظلماً لهم وإزاغة عن رشدهم» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام الناصر للحق الحسن بن علي الأطروش عليه السلام: يريدون بذلك لا تثقّل علينا المِحَنَ وتشدد علينا البلوى فنؤثر أهواءنا فتزيغ قلوبنا من محنتك فندع عند ذلك طاعتك، وإذا كان ذلك منهم فإنما أتوا من قِبَلِ أنفسهم، فجازَ في اللغة أن ينسب ذلك إلى الله - جلَّ ذكره - لما كان من محنته وبلواه، يراد بذلك أنها لما اشتدت عليهم مِحَنُهُ أغواهم» انتهى .

قلت: يشير عليه السلام إلى مثل ما وقع على أصحاب السبت بسبب فسقهم الماضي، ولعله المراد في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣] أي اختبار يكون منهم عنده زيغ قلوبهم، فالدعاء أن لا يزيغ قلوبهم لخوفهم من الزيغ بسبب ما قد يقع منهم من الزلات ليوفقهم الله للتوبة وترك الإصرار إن وقع منهم ذلك، وأن يثبتهم على طاعته حتى لا تقع منهم معصية تسبب الزيغ فالدعاء شامل للمعنيين.

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تنويراً للقلوب وزيادة في الألباب وحباً لما يرضيك وكراهة لما يسخطك وزهداً في الدنيا وانتباهاً من الغفلة، فالمراد بالرحمة ما هو سبب للبعد من الزيغ والمصير إلى رحمة الله في الآخرة.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ اسم مبالغة لأنه الواهب لكل خير كثير فمنه الهبات التي لا نحصيها عدداً، فأنت المرجو لكل خير المدعو لكل حاجة، قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: تدل على وجوب الالتجاء إلى الله والاستجارة به من الضلال وطلب الهداية» انتهى.

(٩) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وهذه من الحكاية عن الراسخين في العلم تفيد إيمانهم بالقيامة وما فيها، وبأنه لا ريب فيها لوضوح آياتها، ولكون وعد الله بها لا يتخلف،

أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى

---

لأن الله لا يخلف الميعاد، لأنه سبحانه يعلم ما سيكون فلو أخلف الوعد لكان الوعد كذباً أخبر به عن الموعود به وهو يعلم تخلفه، وهو سبحانه غني حميد كريم لا يصدر عنه شيء من النقايص والعيوب، وهذا من الراسخين أعني التصديق بوعد الله خلاف ما يكون من أهل الزيغ من الجدال في آيات الله ليجحدوا ما يفيده المحكم من الوعيد أو من الوعد والوعيد أو نحو ذلك من فوائد القرآن التي يكذب بها أهل الزيغ.

﴿١٠-١٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أيّ كفر؛ لأنهم كذبوا بآيات الله التي تهدي إلى التوحيد والإيمان بالكتاب والرسول والملائكة والنبيين واليوم الآخر ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لن تكفي وتدفع عنهم من الله شيئاً من عذابه، فالأموال لن تقبل منهم فدية تفديهم من العذاب، والأولاد يفصل بينهم وبين والديهم يوم القيامة: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١] ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:٣] ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧] أي يشغله ويدفعه عن أهله فلا يمكن أن يفدي الولد أباه بنفسه أو يفتدي به أبوه، فالغناء بمعنى الكفاية والدفع، قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤٧] أي تكفوننا نصيباً من النار فتدفعوه عنا؟ والمراد بالكفاية هنا ما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب:٢٥] ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر:٩٥] ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٣٧].

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس:٣٦] أي إن الجاهلين يدافعون الحق بظنهم والظن لا يدفع الحق وذلك لأنهم يتبعون الظن دفعاً للحق الذي هو القرآن الدال على بطلان ما هم عليه من الشرك ونحوه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان:٢١].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] أي لا تدفع شفاعتهم شيئاً، وقوله تعالى في (سورة الجاثية): ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الجاثية:١٨-١٩] أي لن يكفوك ويدفعوا عنك من الله شيئاً، أي فإن اتبعت أهواءهم فلن يكفوك العذاب من الله ويدفعوه عنك، وفي (سورة إبراهيم): ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم:٢١] أي فهل تكفوننا شيئاً من عذاب الله تدفعوه عنا، وقد بسطت في هذا دفعاً للغلط.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الكفار ﴿هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ أي هم حطب نار جهنم، والمراد به هؤلاء الكفار في وقت محمد ﷺ، ولذلك قال تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) لقوله تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾: «معناه: كشأنهم وعادتهم».

قلت: استعمال الدأب بمعنى العادة ظاهر في قول امرئ القيس:

كدأبك من أمّ الحُوَيْرثِ قبلها ... وجارتها أمّ الرباب بمأسل

ومثل تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام في (القاموس) وفسره في (لسان العرب): بالعادة والملازمة.

والحاصل: أنه لا إشكال في استعمال الدأب بمعنى العادة، والراجح: أن المراد هنا بيان سنة الله في الذين خلوا، وهي أنه يأخذهم بذنوبهم ليعتبر بهم الباقون ويعلموا أن الله تعالى يعاقب المجرمين، فلا يكذبوا بتعذيبهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٦-١٩] وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر:٤٣].

نعم.. وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ قال تعالى: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ ليعم التكذيب وكل ذنوبهم في أنه سبب للأخذ والعقاب الشديد، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ كما يدل على شدة عقاب الأولين فهو إنذار صادق للآخِرين، نعوذ بالله من عذابه.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي الذين حولك من قريش وغيرهم من أهل الكتاب وغيرهم فهو عام لهم ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ سينصر الله دينه فتغلبون، فهو كقوله تعالى: ﴿جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ﴾ [ص:١١] وصدق الله فقد غلبوا كلهم والخسارة الكبرى أنهم يحشرون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ سميت مهاداً، لأنها جزاء أعمالهم في الدنيا، وشأن العاقل أن يمهّد لنفسه مكاناً حسناً موافقاً للبدن والروح، كما فعل المؤمنون في تمهيدهم لأنفسهم الفرش المرفوعة ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات:٤٤].

وأصل المهاد: الفراش ونحوه الممهد لينام عليه مثلاً، فلما كانت لهم جهنم بدلاً من المهاد سميت مهاداً على طريق المشاكلة التقديرية، وفيه حسن بليغ؛ لأنها ضد المهاد وشر مكان.

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ

---

﴿١٣﴾ ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ يحتمل: الخطاب للذين كفروا ليؤكد لهم قوله تعالى: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ وهذا هو الراجح، ويحتمل: الخطاب للمؤمنين؛ لأن الأولى وعد لهم بالنصر، ويحتمل: الخطاب للفريقين، فهي آية للمؤمنين على النصر، كقوله تعالى في (سورة الحشر): ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آية:٢] وذلك تشجيع لهم على الاستمرار في الجهاد.

﴿فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ في جماعتين كل واحدة فئة، واللقاء هنا لقاء الفريقين للقتال، وكان هذا يوم بدر ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في نصر دين الله والدفاع عنه، فقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي بسبب سبيل الله وفي شأن سبيله، فسبيل الله ينسب إليه القتال، فقال تعالى: ﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وينسب إليه الإنفاق، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٩٥] وينسب إليه الهجرة، قال تعالى: ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النور:٢٢].

فالمعنى: القتال من أجل سبيل الله، وكذلك الهجرة والإنفاق لأن المراد نصر الدين بالإنفاق وبالهجرة، كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الحشر:٨].

﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي وفئة أخرى كافرة تحارب دين الله ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ قرئ ﴿تَرَوْنَهُم﴾ بالتاء المثناه من فوق، وقرئ ﴿يَرَوْنَهُم﴾ بالياء المثناه من تحت، والراءون: هم الكفار يرون المسلمين في حال المعركة مثليهم رأي العين لا رأي الظن والحسبان، وهذا نصر لرسول الله ﷺ ومن معه.

وفي (قراءة نافع) استمرار على خطاب الكفار؛ لأنهم بأصنافهم راضون بحرب قريش لرسول الله ﷺ، فصح أن تنسب الرؤية إلى جملتهم، والمراد الحاضرون للمعركة؛ هذا إذا كان قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ خطاباً للكفار موجهاً إلى اليهود، فأما إن كان خطاباً للكفار غير مقصود به اليهود إلا بطريقة العموم، فنسبة الرؤية إلى الذين كفروا أظهر؛ لأن المقصود الحاضرون منهم.

أما رأيهم مثليهم، فيحتمل: أنه بسبب اختلاط الملائكة بهم في صورة البشر، كما كان جبريل ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧] وهذا ممكن في قدرة الله أن يجعل الملائكة كذلك، ليكثر عدد المسلمين في أعين الكفار.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: الفئتان اللتان التقتا يوم بدر كان المشركون فيما يقارب الألف إلا أمراً يسيراً، وكان المسلمون في ثلثمائة وثلاثة عشر، فنصرهم الله على المشركين وأظهرهم عليهم ومنحهم أكتافهم، وإنما خرج رسول الله ﷺ في هذه الجماعة اليسيرة لطمع بالعير التي فيها أبو سفيان، وبلغ ذلك قريشاً فخرجوا في لقاء العير فالتقوا حيث ذكر الله ﷻ حين يقول: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ [الأنفال:٤٢] فكان نصر الله لنبيه وللمؤمنين على جمائع الكافرين يومئذٍ من أكبر الدلالات والآيات في النصر والعون لمحمد ﷺ، وكان مما يشهد له بالنبوة واللطف من الله والكفاية لنبيه ﷺ» انتهى.

قلت: ووجه الدلالة على أنهم سيغلبون: أن الله نصر نبيه ومن معه في بدر على قلة عددهم وعدّتهم على الكفار وهم جمع كبير أهل قوة وبأس شديد.

حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ

---

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ﴿يُؤَيِّدُ﴾ يقوّي من يشاء جرت بذلك عادته كما أيّد طالوت ومن معه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ النصر ﴿لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ليعلموا أن الله ينصر نبيئه فيما يستقبل من الحروب، وكذلك ينصر أولياءه المجاهدين في سبيله في كل زمان ومكان، ونظير هذا قوله تعالى في (سورة الحشر): ﴿فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ﴾ [آية:٢] و﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ بمعنى البصائر، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: معرفة لأولي العقول».

﴿١٤﴾ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ﴾ أصل حب الشهوات المذكورة طبيعي، ولكنه يقلّ بأسباب الزهد في الدنيا حتى يغلبه العقل، ويكثر ويتربى بطول الأمل والغفلة أو الجهل بما يؤدي إليه و﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ هوى النفس في المشتهيات، وهو الخطر على الدين، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:٤٠-٤١] وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦] فمن حق العاقل العارف بخطره أن ينفر منه ولا يراه حسناً جميلاً، ولكن أكثر الناس يجهلون عواقبه، أو يغفلون عنها فيرونه حسناً لما يترتب عليه من اللذات العاجلة والأغراض النفسية فذلك تزيينه.

﴿وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «واحدها قنطار، فالقنطار: ألف ومائتا أوقية، والقنطار: مائة رطل، والقنطار: ألف دينار، ومن الورق اثنا عشر ألفاً مثل الدية» انتهى المراد. و﴿ٱلۡمُقَنطَرَةِ﴾ المجمّعة المؤلفة من قناطير.

ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ

---

﴿وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ﴾ في (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «معناه: المعلمة المسماة» انتهى، وفيها تفاسير مختلفة، و﴿ٱلۡمُسَوَّمَةِ﴾ بهذا المعنى تكون العلامات عليها والأسماء، دليلاً على فضلها، وافتخار أهلها بها، كأنهم يتحدّون بها أهل الخيل أن يأتوا بمثلها، كما يتحدى البطل في الجهاد بأخذ سِمَة على رأسه مثل عصابة حمراء أو ريشة كبيرة في عمامته، فتفسير الإمام زيد عليه السلام أوفق للسياق.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ الأزواج الثمانية لكثرة منافعها ﴿وَٱلۡحَرۡثِ﴾ لما فيه من فوائد من زرع وفواكه كثيرة، والفتنة بالحرث عظيمة لبقائه، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:١٧٦].

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ منفعة الحياة الدنيا المنفعة القصيرة المدة فهي تفارق صاحبها أو يفارقها بالموت ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ ﴿حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ حسن المرجع في الآخرة، فهو أولى بأن يحبه العقلاء لأنهم يحبون تلك الأشياء لأنهم ينالون بها حاجاتهم وما يهوونه منها، و﴿حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ الجامع لكل ما تشتهيه الأنفس على أكمل وجه وعلى الدوام هو عند الله ومن الله يدعو إليه، ويَعِدُ به وعداً صادقاً، وأنت في هذه الدنيا تحب من ترجو منه حاجة تشتهيها ويعدك بها لاعتقادك أنه يريد لك الخير ويرغب في قضاء حاجتك، فكيف يؤثر الإنسان حب شهوات الدنيا على حب الله الذي يريد له الخير في الدنيا والآخرة إن اتقاه.

﴿١٥﴾ ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡ﴾ الذي تحبونه فهو أولى أن تحبوه ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ فما أعظم هذا الخير، لأنه نعيم عظيم دائم، لا يموت صاحبه ولا يفارقه.

رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلۡقَـٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ

---

﴿وَأَزۡوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ لعلها خصّت بالذكر، لذكر نساء الدنيا في الآية الأولى وتقديمها في الذكر هناك وطهارتها، من خلقها نظيفة من كل وسخ ومن ذلك الحيض، ومن ذلك الزكام والنخام، وقد ذكر لها صفات أخرى مفرقة في القرآن.

﴿وَرِضۡوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للذين اتقوا فهو يفعل لهم من صرف العذاب عنهم، وصرف كل مكروه عنهم، وتكريمهم وإعطائهم رغباتهم ما يفعله الراضي عنهم المقتدر على كل شيء، العليم بأحوالهم، وما يريدون، وما يكرهون، وما يسرهم، وما يسوءهم، ولا يشغله عنهم شيء ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

فالرضوان في العادة: مصدر الإحسان، وصرف المكروه، فهي كلمة تدل على صرف كل مكروه والإحسان إليهم والتكريم بما لا نطيق حصره وحسن الرعاية على أبلغ الوجوه.

ألا ترى أنك تعطي ضيفك طعاماً وشراباً وغير ذلك من حاجاته لئلا يلحقه برد ولا يضره حَر وتحاول أن لا تلحقه أذية، ولكن إذا كان الضيف كريماً مرضيّا فإنك تجدّ في تحصيل حاجاته والمحاذرة أن لا يلحقه شيء يؤذيه وتحاول تكريمه بقدر ما تستطيع، فكلمة (الرضوان) وعد عظيم، ولذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ لعلمه بأعمالهم ومقادير ما يناسبها من الجزاء، وقدرته على تنزيل كل عامل منزلته، ثم وصف الذين اتقوا الذين وعدهم بما ذكر في الآية، فقال تعالى:

﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا

---

﴿١٦-١٧﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الماضية لأنا قد آمنا بما يجب الإيمان به، وذلك يستلزم العزم على الطاعة، لأنه يستلزم الخوف من الله والخوف من النار.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على بلاء الله وعلى طاعته؛ لأن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قولهم: ﴿آمَنَّا﴾ وفي كل خبر ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ لله الخاضعين له ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ فيما أمر الله بالإنفاق فيه أو شرع، وهذه الصفة سبقت في أول (سورة البقرة) وفي قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ الآية [البقرة:١٧٧] وهي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات:١٥] وغير ذلك.

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ لخوفهم من عذاب النار يمتنعون من النوم في ذلك الوقت ليستغفروا الله في ذلك الوقت الذي هو مظنة الإجابة، و(الأسحار): جمع سَحَر ولعله من أول ما تظهر نخلة الفجر حتى تذهب الظلمة أو تضعف، كما أفاده الراغب في (مفرداته) وفائدة الجمع العموم ليفيد استمرارهم على ذلك.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت الآيتان على أن يتوسل إلى الله بالإيمان باللسان وبذكر ما يفعله المؤمن من الطاعة وما يتجنبه من المعصية لأن ذلك من الإيمان، وعلى الصبر فيما يجب، وعلى صدق اللهجة والاستكانة لله سبحانه، والاستمرار على طاعة الله، وعلى الإنفاق مما رزق الله سبحانه الواجب والمستحب، وعلى أن أفضل أوقات الاستغفار الأسحار من الليل» انتهى.

(١٨) ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ أصدق القائلين الذي يصدّق به الكفّار من أهل الكتاب ومشركي العرب: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو فلا عيسى ولا غيره كلهم عباد لله ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ شهدوا بذلك، ولعل هذا للرد على من يعبد الملائكة ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ شهدوا بذلك فلم يبق إلا الجاهلون الذين أهملوا عقولهم.

﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، فكما أن الشرك ظلم، فالتوحيد عدل؛ لأن الله الخالق الرازق هو المالك للمخلوقين المنعم عليهم، فهو المستحق لأن يخضعوا له بإظهار عبوديتهم له، وجعل غيره إلهاً معناه أنه شريك في ملك المخلوقين فيظهرون عبوديتهم له وهو في الواقع عبد مثلهم فهو ظلم أن يعبدوا غير الله والله خالقهم، ويشكروا غير الله والله هو المنعم عليهم، وقد روي في حديث عن الله تعالى أنه قال: {إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر غيري} أو كما روي.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد وتمهيد لقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فإن العزة لله جميعاً فكل من سواه عبد ذليل والله سبحانه هو الحكيم، فكيف يجعل لنفسه شريكاً أو يرضاه وهو عبد لله، وليس ذلك يصلح في الحكمة، كما بين تعالى في قوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

فليس من الحكمة أن يجعل لنفسه شريكاً ينازعه في ملكه أو يعارضه، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٥] فكيف يجعل شريكاً لله من لا ينفع ولا يضر؟!

ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ

---

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:٧٦] فأصنامهم لا تصلح لشيء، فكيف تُجعل أنداداً لله؟!! وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [النحل:٧١] فليس من الحكمة أن يجعل عبده شريكاً له في ملكه، له حق المعارضة والمُشَاكَسَة.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ ﴿ٱلدِّينَ﴾ الذي يُدَان به لينفع صاحبه، فالدين النافع: هو الإسلام، أما الشرك فليس شيئاً بل هو ضر على أهله و﴿ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ أن نسلم وجوهنا لله، أي نخلصها لله ونجعلها سالمة له كقوله تعالى: ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩] وإسلامنا لوجوهنا: أن نتوجه بها لله وحده لا شريك له.

*والحاصل*: أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، فهذا هو الدين النافع ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في شأن عيسى وعزير وفي توحيد الله تعالى وغير ذلك: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ وقامت الحجة عليهم بما عندهم في التوراة والإنجيل وبعقولهم، ولكنهم اختلفوا من بعد ذلك ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ داخل في الحصر، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً، فقوله: ﴿بَغۡيَۢا﴾ داخل في المستثنى بـ(إلا) ويظهر من ذلك: أن سبب الخلاف السياسة وبغي بعضهم على بعض، فكانوا يخلقون الخلافات في الدين ليجعلوا المخالف مفسداً ويبرروا بذلك بغيهم عليه.

أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

---

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لأعماله ومقاديرها في القبح وقدر ما تستحقه من درجات العقاب فهو حساب سريع لا يغادر شيئاً لأن الله علام الغيوب، وهذا وعيد بجزائه بقدر جرائمه كلها، قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام ـ يعنى القاسم بن محمد عليه السلام ـ: دلت على قبح الاختلاف وأن مخالفة ما علم من الدين في الآيات كفر بآيات الله» انتهى.

﴿٢٠﴾ ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ أي المذكورون من أهل الكتاب جادلوك بما يتخذونه حجة لهم على شركهم ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ فأخلصنا له العبادة وجعلنا وجوهنا له وحده لا نشرك به شيئاً في وجوهنا، فكيف تدّعون: أن الله لا يرضى منا ذلك ونحن أخلصنا له كما أمرنا، ولأنه الذي خلقنا ورزقنا، وكيف لا نكون نحن المهتدين للحق والصواب، وأيّ ذنب في ذلك وهو ربنا.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ وهم قريش ومن حولهم الذين ليس لهم كتاب: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ كما أمر الله وبين الحجة الصحيحة على أنه الدين النافع فهل أسلمتم له وجوهكم كما أسلمنا له؟!! ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ لطريق الحق وقبلوا هدى الله لعباده ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن هذه الدعوة التي جاءت في صورة الاستفهام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ ليس عليك هداهم وقد بلغت ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ لأنه عليم بما يفعلون ومقاديره، وهو قادر على جزائهم بما يستحقون، وهو الحكيم فهو لا يَعْيَ عن جزائهم بما يستحقون بقدر ما يستحقون.

بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا

---

﴿٢١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يقولون: لا تدل على ما جعلها الله آية له ويجحدون كونها آية له ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ظلماً وعدواناً، وهذا يدل على أن الواقع من اليهود كذلك، وفيه إشارة إلى أن ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ عباد من عباد الله تجري عليهم أحكام العدالة كما تجري على غيرهم، فلو فرض أن قتلهم كان بحق كالقصاص ما ضر القاتلين كونهم أنبياء، وهذا لأنه لا يكون قتل النبيئين إلا ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وعلى هذا فالواجب التسوية بين الشريف والدنيء في إقامة أحكام الله عليهم.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ولعل أكثر ما يكون ذلك حرصاً على الرئاسة، لأن الجماهير تحب الأبرار الذين يأمرون بالقسط أي العدل من الناس فالرؤساء الظلمة يخافون أن يغيروا عليهم رئاستهم.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأن سعيهم المذكور هو في الواقع سعي للعذاب الأليم ومن سعى لأمر يبشر بحصول ما سعى له، فهذه عبارة عن إخبارهم بأنهم يصيرون إلى عذاب أليم، وتسمية هذا الإخبار المفجع بشارة مُشَاكلَةٌ وتَمْلِيْحٌ، وفي هذا دلالة واضحة على أن الرضا بالظلم مشاركة فيه؛ لأن الذين في عهد رسول الله ﷺ لم يباشروا قتل النبيئين فأمره ﷺ بتبشيرهم بالنار لأجل قتلهم، إنما هو لمشاركتهم لأسلافهم بالرضا منهم بقتل النبيئين.

وكذلك قال الله في (قوم صالح): ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥] والخطاب لقومه جملة والكلام فيهم جملة، مع أن القاتل للناقة واحد منهم بأمر طغاتهم.

لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا

---

﴿٢٢﴾ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أصل الحبوطِ: حُبُوطُ الدابة من الغنم أو الإبل، تأكل مأكولاً كثيراً أو زرعاً صغاراً يضرها فتموت، فشبهت بها أعمال هؤلاء المذكورين من أهل الكتاب، فلعلهم كانوا يصلون ويصومون ويفعلون بعض أعمال البر، لكنها حابطة لا تفيدهم ثواباً لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ لا ينصرهم من عذاب الله أحد من أتباعهم أو أهل دينهم، ولا من شركائهم مثل: عزير، والأحبار، والرهبان الذين اتخذوهم ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:٣١].

﴿٢٣-٢٤﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب من قصتهم أنهم أهل كتاب ينتمون إليه وقد قرؤوا نصيباً منه وفهموه، ومع ذلك ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ عن تحكيم كتاب الله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ يمتنع من الإجابة للتحاكم إلى كتاب الله ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن كتاب الله منشغلون بدنياهم من قبل ذلك، فحالهم مستمرة على الإعراض.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التولي والإعراض ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ فكان قولهم هذا، أو اعتقادهم أنها لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات سبباً لجرأتهم على التولي عن تحكيم كتاب الله والإعراض عنه،

رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن

---

﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الروايات المكذوبة على أنبيائهم أومَنْ قوله عندهم حجة.

والإنسان العاقل ليس من العادة أن يغترّ بما يفتريه هو، فليس المراد: أنهم يتعمدون الكذب على أنبيائهم ويغترون، هم الكاذبون أنفسهم بما افتروه على أنبيائهم لأنهم يعلمون أنه كذب افتروه هم، فليس المراد إلا: أن بعضهم اغتر بما يفتريه البعض الآخر مما يوافق أهواءهم ويرضون به من أكاذيب يبنون عليها أمانيهم كقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

*فدل ذلك*: على أن الروايات التي لا يعلم صدقها لا يصح قبولها لمخالفة ما جاء في كتاب الله، وأن الواجب تحكيم كتاب الله، وأن اعتماد الروايات المفيدة للظن اغترار خلاف الصواب، وهذا لأن الإنسان لا يغتر إلا بما يظنه صدقاً، فتخصيص حكم الكتاب بها أو تبيين مجمل فيه أو اتباع متشابهه لأجل الروايات خطأ مبني على اغترار، وهذا في الوعيد واضح من نص الآيات وسياقها.

﴿٢٥﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿فَكَيْفَ﴾ يصنعون إذا انكشف لهم اغترارهم ووضح الحق وقد أحضروا لموقف الحساب والجزاء الكامل حيث توفى ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ كما وعد الله، وخلق له السموات والأرض، وجعل القيامة والجزاء، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١] وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم:٤٩-٥١] فالجزاء الأوفى دستور الملك الذي بني عليه خلق السموات والأرض.

هذا والتعجيب من أهل الكتاب ـ فيما أرى والله أعلم ـ ليس في مجرد توليهم عن كتاب الله وإعراضهم من حيث توليهم عن الحق وإعراضهم عنه فليس ذلك عجيباً منهم، ولا في توليهم عنه وإعراضهم عنه مع كونه كتابهم الذي ينتمون إليه فهذا ليس عجيباً لأن حب الدنيا يميل بالناس، ولا في اغترارهم بما يرويه أسلافهم لأن كثيراً من الناس يغترون بما يظنون صدقه.

وإنما العجيب هو اعتلالهم وتسهيلهم لميلهم وتسويفهم لرفضهم كتاب الله بما هو حقيق أن يكون زاجراً لهم عن ذلك؛ لأن بقاءهم في جهنم أياماً معدودات ليس بالأمر السهل؛ لأن الساعة الواحدة بل الدقيقة الواحدة تنسيهم لذات الدنيا كلها، ولا يعادلها ملك الدنيا كله لو نالوه ودام لهم حتى قامت القيامة، كيف وهي ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة:٦-٧] وصاحبها ﴿يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم:١٧].

تأمل قوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ لتفهم أن كل جزء من الإنسان فيه من الألم ما هو سبب للموت لو كان يموت لكنه لا يموت، فما أعجب هؤلاء المغترين يستعدون للبقاء فيها أياماً من أجل أغراض هذه الدنيا الحقيرة التي هي ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ وهي لا تبقى لهم ولا يبقون لها.

تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ

---

﴿٢٦﴾ ﴿قُلِ﴾ يا محمد لتبين لهم أن الأمر لله وحده ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فبيّن لأهل الكتاب وغيرهم أنهم لا يستطيعون من ذلك شيئاً وأن الأمر لله وحده، وهو الغالب على أمره، فلا يستطيعون إبطال نبوة محمد ورسالته ﷺ، ولا رد نقل الملك في محمد وآل محمد عن بني إسرائيل وإعزاز رسول الله ﷺ وإذلال حساده الذين حاولوا إبطال أمره: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير هذه الآية: «قال الإمام الناصر للحق الحسن بن علي الأطروش عليه السلام: فإن مراد الله سبحانه بهذا: أنه يعطي النبوة من اصطفاه، ومعنى اصطفاه: اختاره على علم منه بقيامه بأمره وطهارته وإخلاصه له في الدين، فحكم سبحانه لأنبيائه بالملك وجعله لهم، وقد حكم ـ أيضاً ـ لغير الأنبياء من الأئمة الملوك الذين أخذوا الملك من جهة الطاعة له مثل: طالوت وذي القرنين فمن دونهما، فإنهما لم يكونا نبيين وكانا بقيامهما بأمر الله وطاعتهما إياه مستحقين للملك، فأما من تغلب بالكفر والمعاصي لله على الناس فلم يعطهم الله ذلك الذي تغلبوا عليه.

وقوله: ﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ فذلك تسليطه الأنبياء والمرسلين على من تغلّب بالناس، فملكوهم حتى انتزعوا الملك منهم بأمر الله وحكمه، وذلك في مثل: كسرى وغيره، أو بموتهم فإنه إذا أماتهم فقد انتزع منهم ملكهم في كل شيء» انتهى.

قلت: ويدل على هذا التفسير ما مر في (قصّة طالوت) ففيها: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٤٧] فدل ذلك على أن إيتاءه الملك: توليته عليهم.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام الهادي: والملك: هو جبايات الدنيا وأموالها، والذين يشاء أن يؤتيها إياهم، فهم الأنبياء، ثم الأئمة من بعدهم، والذين يشاء أن ينزعه عنهم، فهم أعداؤه من جبابرة أرضه، ومعنى ﴿تُؤْتِي﴾ فهو الحكم بالملك لهم صلوات الله عليهم [فمن] حكم له بالنبوة أو بالإمامة فقد آتاه الملك، لأن الملك هو الأمر والنهي والجبايات والأموال التي بها قوام العساكر واتخاذ الخيل والرجال والسلاح» انتهى.

فأما إعزاز من يشاء، فالراجح: أن معناه نصر أوليائه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ فبالنصر ذهبت الذلة وصاروا في عزة، وإذلال من يشاء، مثل: إذلال كفرة أهل الكتاب، حيث صاروا يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وحين أخرجهم من ديارهم ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر:٢] فالإعزاز: بالحكم، والنصر، والإذلال: بالحكم، والقهر.

ويؤكد هذا التفسير قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ فإيتاء الملك الذي هو خير إيتاء أولياء الله الذين هم ولاة العدل والإحسان، فالملك خير لهم بما ينالون به من ثواب عناء القيام بمصالح الناس، ودفع الفساد، والجهاد في سبيل الله، وخير لرعاياهم بدفع التظالم بينهم، ونشر العلم النافع، والإرشاد وصلاح الدين والدنيا، بخلاف تمكين الجبابرة فليس خيراً لهم ولا لرعاياهم؛ لأنهم يفسدون في الأرض، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس،

ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى

---

وذلك سبب لشيوع الباطل، وخمول الحق ونزع البركات، وظلم الضعيف، وتضييع أحكام الله وكل ذلك سبب لعذاب الآخرة للملوك وأعوانهم ومن أفسدوه من رعاياهم؛ ومثل المعنى هذا في إيتاء الملك يأتي في نزع الملك والإعزاز والإذلال.

فظهر: أن قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ يؤكد ما ذكرنا من التفسير، وأن كل ما ذكر نعمة ورحمة من الله الذي هو على كل شيء قدير، فهو يقلب الأحوال ويأتي باليسر بعد العسر بقدرته، وقد أتبع هذه الآية الدليل على قدرته على تقليب الأحوال، فقال تعالى:

﴿٢٧﴾ ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فبينا ترى النهار مبصراً في الآفاق كلها قبيل غروب الشمس، ترى الليل مقبلاً بسواده من المشرق يتخلل سواده ضوء النهار طالعاً في أفق المشرق حين غروب الشمس، ثم ينتشر سواد الليل حتى يعم الآفاق التي تراها، وهكذا في آخر الليل يكون الظلام في كل أفق، ففي السحر تطلع نخلة الفجر ثم نور الفجر متخللاً سواد الليل وذلك بقدرة القادر على تقليب الأحوال؛ وهذا في تفسير ﴿تُولِجُ﴾ أظهر عندي.

وقد فسر: بإدخال بعض وقت الليل في النهار، وإدخال بعض الليل أي بعض وقته في النهار، وذلك اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر في الشتاء والصيف ـ والله أعلم.

شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى

---

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كإخراج الشجر الحي من الحب والنوى الميت، كما ذكر الله تعالى في قوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾** [الأنعام:٩٥] فقد يموت الحمل في بطن أمه فيخرج ميتاً بقدرة الله تعالى.

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ رزقاً تفضلاً محضاً لا يحاسب فيه المرزوق لأن الحساب إنما يكون في القرض وما في معناه أما رزق الله لعبده فليس كذلك، فهو يرزقه طفلاً وشاباً وكهلاً وشيخاً، ولا يمنعه قلة شكره عن رزقه، بل يرزق الكافرين والغافلين عن نعمه اللاهين عن ذكرها، وإن طالت مدة الرزق وطالت معه مدة الكفران، وإنما يحاسب العبد على أعماله ليجزى بما يستحق من ثواب أو عقاب ولا حساب على الرزق.

﴿٢٨﴾ ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا نهى عن طريقة المنافقين الذين يتخذون ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهي الموالاة الشَّنِيعَة لأن معناها: أنهم جعلوا الكافرين أخصّ بهم وعلاقتهم بهم أقوى وأدخل، فكأنهم جعلوا الكافرين في مكان أقرب إليهم يليهم والمؤمنين أبعد خلف الكافرين.

والحاصل: أنهم جعلوا الكافرين بينهم وبين المؤمنين، وهذا معنى ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك لأنهم جعلوا لأنفسهم علاقة بالكافرين وعلاقة بالمؤمنين والواقع صورة علاقة بالمؤمنين، وقد نهى الله عن هذه الطريقة وشدد فيها؛ فقال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ فهو عدو لله ليس له بالله أي صلة.

وفي (سورة النساء): ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٤-١٤٥] وفائدة التأكيد في التحذير ظاهرة؛ لأن الدواعي كانت تتوفر إلى النفاق؛ لأن المسلمين كانوا قليلاً بالنظر إلى الكفار فمن لا يكون راسخ الإيمان يطمع في الاتصال بهم ليأمن على نفسه حين تنقلب الحال علي ما يتوقع من سقوط دولة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة:٥٢].

فإن قيل: فإن موالاة الكفار حرام على كل حال، فما فائدة التقييد بقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟!

قلت: فائدتها: التنبيه على أنه لا يمكن الجمع بين اتخاذ الكافرين أولياء والمؤمنين أولياء؛ لتضاد الطريقتين، لأن من كان مع الكافرين في شؤونهم المهمة فليس مع المؤمنين، وفي ذلك فائدة: تحديد المنهي عنه وتوضيحه؛ لئلا يتوهم منه تحريم الإحسان إلى من لم يقاتل المسلمين والعدل في معاملتهم، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

وكذلك التنبيه على أنها لا تحرم مصانعتهم لضرورة التقية، كما استثناه تعالى فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ لأنه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩] والتحذير من توليهم باسم التقية والواقع النفاق أو إظهار الولاية لمن قد قاتل في الدين لغير ضرورة التقية.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾

---

فإن قيل: فكيف صح استثناء التقية من توليهم دون المؤمنين؟!

قلت: هو استثناء منقطع، وفائدته: التحقيق للرخصة فيما صورته توليهم دون المؤمنين للضرورة واتقاء القتل أو نحوه، وإطلاق التقية يدخل فيه التقية على النفس و على الولد وعلى كل من يشق على النفس مشقة عظيمة؛ فما يقال من أنه لا يجوز الكذب ولو كان فيه نجاة نبي من القتل مبالغة للتحذير من الكذب.

والأقرب: أنه يجوز، أو أنه معفوٌ عنه كالنطق بكلمة الكفر لنجاة من في قتله ضرر ومشقة عظمى من سائر المؤمنين فضلاً عن الأنبياء والأئمة بدلالة هذه الآية، لأن الاتقاء عليهم اتقاء على النفس لما يلحقها من الحزن عليهم والغيظ لقتلهم، فأما الأئمة الذين في قتلهم ذلة وهوان لأتباعهم فقتلهم أضر عليهم، فالاتقاء عليهم اتقاء على النفوس التي تذل وتظلم بسبب عدم من يدفع عنهم.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ قال المنصور بالله عليه السلام في (حديقة الحكمة): «و﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ المنتهى» انتهى ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم:٥١].

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو يعلم من قلبه مريض ومن قلبه مطمئن بالإيمان وهو صادق حين يعتذر بالتقية وعلمه تعالى محيط بـ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على جزاء كل نفس بما عملت ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ أي يوم القيامة يوم الجزاء على العمل، ويحتمل: حضور العمل، أنه يسجل فيرَى ويسمع نفسه كما في التلفزيون والسينما، أو أن العمل نفسه يكون محفوظاً في شي إن كان هذا ممكناً في بعض الأعمال، كما روي في الذكر لله في جوف الليل ـ والله أعلم ـ فيحضر يوم القيامة عند عامله، أو أن حضور العمل حضور جزائه وإعلامه أنه جزاؤه، أو أن العمل يجعل في صورة شخص يساعد العامل كما قيل ـ والله أعلم ـ والأقرب الأول.

قال الشرفي في (المصابيح): «واعلم أن العمل عرض لا يبقى ولا يمكن وجدانه يوم القيامة فلا بدّ فيه من التأويل، وهو من وجهين:

*الأول*: أنه يجد صحائف الأعمال، وهو كقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩] وقال: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦].

*والثاني*: أنه يجد جزاء الأعمال» انتهى المراد.

قلت: في هذا العصر ظهر التلفزيون والسينما وغيرهما من الوسائل، ورؤية ما فيه تعتبر رؤية لما هو صورته، وسماع ما فيه سماع لما سجل في إذاعته، فالناس يقولون: رأينا فلاناً في التلفزيون، وسمعنا فلاناً في التلفزيون، فلا يبعد مثل هذا في رؤية العمل وحضوره بحضور جهازه.

وقد كنت زماناً أجوّز هذا في نفسي وأرجحه قبل أن أجده لأحد من العلماء، ثم وجدت بعض علماء العصر قد سبقني إليه ـ والله أعلم ـ وهو أقرب المجاز الذي يفهم من الكلام لتعذر الحقيقة عند السامع إذا كان المراد حضور العمل في موقف السؤال والحساب.

وهو الأرجح في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١-١٤] وكقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار:١-٥] فالظاهر: أنه العمل محضر بحضور كتابه.

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ تجده محضراً أي كل نفس تجد ما عملت من سوء محضراً، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف:٤٩] ويحتمل: أنه الجزاء في (آية الكهف).

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ فالظاهر: العطف، بدليل الحال الذي هو قوله تعالى: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي تجده محضراً وهي تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.

والأمد: المدة الطويلة، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ [الجن:٢٥] أي أجلاً بعيداً غير قريب، فقوله تعالى: ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾ معناه: أجل بعيد بعيد.

ومجيء الحال من المعطوف وارد في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٤٩-٥٠] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ [النور:٤١].

وهذا المعنى أرجح لإفادة حضور العمل السيء بطريقة النص، وإذا جعلنا قوله تعالى: ﴿مَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ مبتدأ، و﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ خبراً لم يكن نصاً على حضوره، والتنصيص على حضوره مما يقتضيه السياق فهو أرجح.

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ

---

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ لحكمته ورحمته ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ ومن رأفته التحذير من عذابه وتكثير الآيات الدالة عليه، وتكرار المواعظ دعوة إلى التوبة والنجاة من عذابه، مع أنه غني عنهم ولا يضره تعذيبهم.

﴿٣١﴾ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد للنصارى المُدَّعِين لحب الله ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ كما تدعون فمن شأن المحب أن يكون راغباً في أن يحبه محبوبه ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ فإنكم إن اتبعتموني أحبكم الله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ من الشرك وغيره لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، واتباع الرسول في كل دينه يمحو الذنوب كلها؛ لأن من دينه التوبة إلى الله، والطاعة في كل شيء ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فتعرضوا لمغفرته ورحمته باتباع رسوله.

﴿٣٢﴾ ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ فأسلموا له وامتثلوا أمره باتباع الرسول وطاعته فهذا هو المقصود باتباعه ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ فما داموا كافرين متولين عن دعوة الرسول ﷺ فإن الله لا يحبهم لكونهم كافرين؛ وفائدة التعليق على الكفر: أن لا يتوهم أنه لا يحب الأشخاص لذاتهم أو أنه قد كره ذواتهم كما يكره الإنسان من قد أساء إليه في الماضي إساءة موجعة بقي أثرها في نفسه، سبحان الله الحكيم الكريم الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] بل متى تابوا واتبعوا الرسول غفر لهم ورضي عنهم، وصار الماضي منهم كأن لم يكن.

عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ

---

﴿٣٣-٣٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ من البشر، فهو صفوة الله أكمله وهداه، واصطفاه على بنيه الأولين الذين في عهده وأكثر الآخرين ﴿وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد دخل محمد وعلي وذريتهما في ﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لأنه من ذريّة إبراهيم.

وقوله تعالى: ﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يظهر أن مثل هذا يستعمل فيعم المضاف إليه، كما مر من قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ [البقرة:٢٤٨] بالتغليب، وهذا إذا لم يقدم ذكره وحده كالصلاة عليه وعلى آله، ومثل: «إن الصدقة لا تحل لمحمد، ولا لآل محمد» فهذا خاص لا يعم المضاف إليه.

أما إذا ذكر في الإضافة فقط كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤] فالراجح: أنه عام، ومنه: قول زيد بن أرقم وهو عربي اللسان في (تفسير أهل البيت): «آل علي، وآل جعفر، وآل العباس، وآل عقيل» يعني: علياً وذريته، وجعفر وذريته، والعباس وذريته، وعقيلاً وذريته، ويظهر أن منه: قول الله تعالى في (سورة الحجر): ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [آية:٥٨-٥٩] وقوله تعالى بعدها: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [آية:٦١-٦٢].

ويؤكد أن المراد بـ﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إبراهيم وذريته، وكذلك ﴿ءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ على طريقة التغليب قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا بد أن إبراهيم وعمران قد دخلا في الاصطفاء، لئلا يؤدي إلى أن الله اصطفى المذكورين على إبراهيم وعمران إذا كانا داخلين في عموم العالمين.

والآل: هم الذرية الذين اصطفاهم الله لحمل رسالته وجعل فيهم النبوة والكتاب، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤] فهم ورثة العلم، ومنهم الأنبياء، ومنهم ورثة الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٦].

و﴿ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ هي ذرية إبراهيم، لهم فضل النسبين، كما قال في (بني إسرائيل): ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء:٣] فقد ظهر معنى الاصطفاء وأنه لذرية إبراهيم وعمران، وأنها قدمت هذه الآية تمهيداً لقصة مريم بنت عمران وابنها عيسى عليه السلام.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال في (الكشاف): «﴿ذُرِّيَّةً﴾ بدل من آل إبراهيم وآل عمران» انتهى، ولا إشكال أنه تفسير لآل إبراهيم وآل عمران، ومدح للأبناء بمشابهة الآباء في الجملة على اختلاف درجات المشابهة.

وقوله: ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ لتحقيق هذه المشابهة، وأن أساسها هو النسب وذلك من فضل الله على الآباء والأبناء، كما قال تعالى في (سورة الأنعام) بعد ذكر الهدى لعدد من الأنبياء، فعطف عليهم: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آية:٨٧].

ولعل هذا بسبب دعاء الآباء لأبنائهم، كما قال تعالى حاكياً عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة:١٢٨-١٢٩].

ﭐلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا

---

وحكى سبحانه عن زكريا: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً﴾ وهذا الاصطفاء بالنسبة إلى بقية الناس لجملة الذرية أن فيهم الكتاب والحكمة وهداية الناس، وليس لكل شخص كما هو واضح، وقد قال تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٦] ولكن وجود الفاسقين وحتى المشركين لا يبطل هذا الاصطفاء لغيرهم من الذرية ـ وبالله التوفيق.

وقد رجحت تفسير قوله تعالى: ﴿بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ﴾ بما ذكرت، وحاصله: أن قوله تعالى: ﴿بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ﴾ كناية عن التشابه بين الفروع والأصول، كما يتشابهون في الصور وغيرها، رجحته على جعله مجازاً على تفسير بعضهم لقوله تعالى: ﴿بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ﴾ أنه مجرد المشابهة في الدين، وإنما رجحته لمناسبة السياق وكونه أقوى.

وهذا دليل كاف على التفاضل، وليس لأحد أن يعترض على الله في ذلك، والعنصرية الممقوتة تكون باعتبارات، مثل: المال، اللون، أو غير ذلك مما ليس له أساس في التشريع.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فاصطفاؤه لمن اصطفاه لعلمه بأنه خير من غيره وأصلح لحمل الرسالة، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] وقوله: ﴿سَمِيعٌ﴾ لعله يشير إلى سبب الاصطفاء الذي هو الدعاء، كدعاء امرأة عمران لبنتها مريم وذريتها.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ﴿نَذَرۡتُ﴾ أي أوجبت ﴿مَا فِي بَطۡنِي﴾

تعنى حملها، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) لقولها: ﴿مُحَرَّرًا﴾ «معناه: خالص دائم، لا يخالطه شيء من أمر الدنيا، والمحرر: المعتق» انتهى

قال سيد قطب في (تفسيره): «والتعبير عن الخلوص المطلق بأنه تحرر مُوحٍ فما يتحرر حقاً إلا من يخلص لله كله ويفر إلى الله بجملته وينجو من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل قيمة، فلا تكون عبوديته إلا لله وحده، فهذا هو التحرر» انتهى المراد.

قال الشرفي: «والتقبل: أخذ الشيء على وجه الرضى به» انتهى. وقوله: «أخذ الشيء» أي ما جُعِل للآخذ.

﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل قول، ومنه نذرها بما في بطنها ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، ومنه نيتها وقصدها بالنذر.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ كالشكوى إلى الله، والتأسف لفوات الغرض المقصود بالنذر، لكون الأنثى لا تصلح له، أو الشكوى من نقص الغرض لأن الأنثى لا تقوم بما يقوم به الذكر من الخدمة ليلاً ونهاراً، وعلى اختلاف الأحوال.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ يشير إلى أنه تعالى يعلم من حال مريم وكمالها وما قد أعدّها له ما لو علمته لم تأسف لكونها أنثى. وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ يحتمل: أنه حكاية عنها، وأرادت أن الذكر لا يحتاج إلى مثل ما تحتاج الأنثى من التستر واجتناب المزاحمة في المسجد، واجتناب دخوله حين يخشى الخلوة بأجنبي، واجتناب الذهاب لحاجات المسجد من أي موضع، فالذكر ليس كالأنثى في ذلك، فلذلك أسفت لكونها أنثى رغبة منها في خادم منها يخدم المسجد مثلاً.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً﴾

ويحتمل: أنه من كلام الله تعالى وليس حكاية عنها، فيكون معناه: وليس الذكر الذي ظنته أصلح للغرض المقصود بالنذر، ليس كالأنثى التي وضعتها بل هي أفضل؛ لما فيها من المصلحة العظمى، والنفع في الدين، وإن لم يكن ذلك بخدمة المسجد.

وقولها: ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ قيل: أصل (مريم) في لغتهم: العابدة فسميت بذلك تفاؤلاً، وهو قريب من حيث مناسبته للسياق ولغرض أمها.

وقولها: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ دعاء لها بسبب الرغبة في صلاحها ولذريتها كذلك، وهكذا أهل الصلاح يحبون لذرياتهم الصلاح ويدعون لهم به.

﴿٣٧﴾ ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ تقبلها من حيث هي نذر له، وهذا يدل على أن النذر لم يبطل بكونها أنثى؛ لأن النذر وقع عليها بقول أمها: ﴿مَا فِى بَطْنِى﴾ وقوله تعالى: ﴿رَبُّهَا﴾ يشير إلى أن التقبل رحمة لأمَته من حيث هو ربها ومالكها.

﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قبول أن تكون مختصة بعبادته، وهذا ﴿حَسَنٍ﴾ لأن نفعه لها وهو كرامة لها وشرف ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أنشأها نشأة حسنة بكمال البنية وجمالها، وإكمال طبائعها الكريمة من الحياء والميل إلى الأدب والعفة والخير.

طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ

---

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ نبي الله، جعلها في عياله يحفظها ويرعاها، ولعل سبب الكفالة أن أمها توفيت فحضنتها أختها (امرأة زكريا) ولا نثق بما يروى في كتب التفسير مما لا نعلم مصدره وطريقه.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ مكانها الذي تتعبد فيه، وقوله: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي من أين لك هذا؟! سؤال إما ليتأكد أنه جاء لها من الله بطريقة خارقة ليعرف بذلك كرامتها عند الله تعالى، وإما لعنايته بتفقد أحوالها، والأول أرجح.

وقولها: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يفهم: أنه ليس من طريق أحد من البشر وإلا لكان الجواب غير مطابق للسؤال؛ لأن زكريا عليه السلام يعلم أنه من الله وإنما بواسطة البشر، فليس السؤال عنه من هذه الجهة.

وقولها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ تنبيه على أن الله رزقها؛ لأنه شاء ذلك كما يشاء رزق غيرها، وفيه تغافل حسن عن كونه كرامة لها.

﴿٣٨-٤١﴾ ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى المكان الذي سألها فيه،

وهو يشير إلى أن زكريا لما رأى صلاحها دعا ربه الذي أنبتها نباتاً حسناً وجعلها من الصالحين أن يهب له ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ والطيبة: ضد الخبيثة، ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ تجيب الدعاء، أو لا يخفى عليك دعائي، أي دعوتك لأنك سميع الدعاء وأرجوك الإجابة.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ النداء في اللغة: قول رفيع، يسمع من بعيد كالنداء للصلاة، والمراد بـ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الذين أرسلهم الله إلى زكريا لتبليغه البشارة، والوعد من الله تعالى وتبليغهم كلام الله ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى﴾ لا يشغله عن الصلاة كسماع القرآن، لأنه في سماعه لكلام الله متّجه إليه.

﴿بِيَحْيَىٰ﴾ بولد سماه الله يحيى ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كلمة مبهمة يكون التصديق بها واجباً وفضيلة ليحيى، والكلمة (عيسى) الذي خلقه بدون أب، كقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَاهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء:١٧١] ولعله سمي (كلمة) لأن الله وعدها به وكان كما وعدها، أو لأن الله أوجده بقوله: ﴿كُن﴾ لا بواسطة أب، فتسمية ذلك كلمة مجاز في الأصل، ولعل هذا معنى ما حكاه الشرفي في (المصابيح) عن الإمام الهادي عليه السلام، وصار حقيقة في عيسى.

﴿وَسَيِّدًا﴾ معطوف على ﴿مُصَدِّقًۢا﴾ أي يسود قومه، وفي ذلك تطمين له من خوفه من الموالي بأن ابنه يسودهم فلا يكون لهم أمر ما دام ﴿وَحَصُورًا﴾ معطوف كذلك على﴿مُصَدِّقًۢا﴾ فهو من صفات يحيى، ﴿وَحَصُورًا﴾ كثير الحصر لنفسه عن هواها، ولعل من ذلك الرهبانية يرعاها حق رعايتها.

قال الشرفي في (المصابيح): قال الإمام المرتضى عليه السلام: ﴿وَحَصُورًا﴾ وهو الذي حصر نفسه عن النساء، فكان ـ صلى الله عليه ـ هو الذي حصر نفسه عن ذلك [و] قد يُروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا حصر بعد يحيى، ولا سياحة بعد عيسى، من رغب عن سنتي فليس مني، عليكم بالمساجد». انتهى

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ عطف على ﴿مُصَدِّقًا﴾ وفي ذلك بشارة لزكريا بابنه يحيى جامعاً للصفات المذكورة قبل موت زكريا.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ سؤال عن طريقة حصول الولد؛ لأنه لم يكن قد علم بالطريقة، وليس معنى السؤال الاستبعاد، بل هو يجوّز أن يحصل له بطريقة عادية، أما من جهة كبره فباستعمال شيء يعيد له الماء والقدرة مثلاً، وأما من جهة امرأته فكذلك أو بأن يأمره يتزوج فتاه؛ أو هذا السؤال لتأكد أن الولد يحصل له بطريقة خارقة كقوله لمريم: ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ فهو يجعل لك ولداً على كبر سنك، ومع كون امرأتك عاقراً؛ لأنه الله الذي يفعل ما يشاء، والعاقر: هي التي لا تحمل.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ تدلني على ذلك، وفيه وجهان: أحدهما: السؤال عن وقت ذلك ليأتي أهله فيه؛ لأنه لا يريد أن يأتيها إلا لهذا الغرض لكبَره وضعفه، فجعل له آية ثلاثة أيام ليأتي أهله فيها، وهذا هو الراجح لقوله تعالى في (سورة مريم): ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ [آية:١١] فظاهره: أن حبس لسانه كان من ذلك الوقت لا حين علقت زوجته، والوجه الثاني: تدلني على أن قد علقت به.

ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ

---

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ إلى المعنى، والمراد: يرمز إليه فيفهم بدون كلام يفيده بوضعه، كأن ينطق بكلمة تشير إلى المقصود ولا تكفي في الدلالة الوضعية، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: إشارة باللسان من غير بيان» انتهى.

وهذا يناسب استثناءه من التكلم وإن كان منقطعاً، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠].

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ في الثلاثة الأيام وبعدها، أو في الثلاثة الأيام؛ بقرينة العطف، وما سواها مسكوت عنه؛ والعشي: من الظهر إلى الغروب ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ دخوله في البكرة التي هي من طلوع الفجر، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) لقول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب:٤٢]: «معناه: صلوا له، والبكرة: صلاة الفجر، والأصيل: صلاة العصر» انتهى.

ويحتمل أن قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أمر بتسبيح زائد على المأمور به من قبل إجابة دعوته المذكورة، وهو الأقرب إذا كانت الصلاتان واجبتين عليهم بتسبيحهما من قبل.

﴿٤٢﴾ ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿وَإِذْ﴾ أي واذكر إذ ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ اختارك صفوة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من المعاصي.

إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾

---

﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ اختارك على نساء العالمين صفوة لدينه، فأجمل الاصطفاء أولاً، ثم بينّ أنه الاصطفاء على نساء العالمين كافة؛ لأنها أصلحهن لما أراده من إظهار دينه بواسطتها وجعلها أم رسوله عيسى، وجعلها وابنها آية للعالمين، بحملها لأبنها من غير أب، البلوى التي لا تتحملها وتمتثل أمر الله فيها إلا هي بحيث أتت به قومها تحمله واثقة بالله متوكلة عليه، فهو تعالى اصطفاها لأمر عظيم، وتكليف ثقيل لا يصلح له غيرها.

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ اخضعي له، وتذللي له بالعبادة وفي العبادة ﴿وَاسْجُدِي﴾ له ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ وصلي مع المصلين لتركعي معهم، فهو كناية عن الصلاة مع الجماعة،وقد كانت النساء يصلين مع الجماعة خلف صفوف الرجال في وقت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتفسير الآية بمثل ذلك أقرب، وأمر الملائكة لها أمر بشكر النعمة، والاستعداد لتحمل التكليف الثقيل.

﴿٤٤-٤٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر في (آل إبراهيم) و (آل عمران) من قوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ...﴾ الآية؛ وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ تنبيه على الدليل على أنه تعالى يوحيه إلى نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم المخاطب بهذه الآية الكريمة لإخباره بما لا يعلم، لولا أن الله يوحيه إليه؛ لأنه لم يتعلم عند أهل الكتاب، ولم يقرأ كتاباً، ولم يستطع قراءة مخطوط، لأنه لم يخط كتاباً.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ أي يقترعون قرعة بإلقاء أقلامهم، ولا ندري كيف كانت قرعتهم بإلقاء أقلامهم وأنه إلقاء في الماء كما يُروى أو في غير ماء، وليس المهم معرفة كيف كانت القرعة ولذلك لم يذكر، إنما المهم الدلالة على كرامتها في أهل بيتها أو من لهم بها علاقة تؤدي إلى المنافسة في كفالتها مع المتنافسين، وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي يتخاصمون، أي يتشاجرون في هذا الشأن الذي هو كفالة مريم.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ قد انتهى الكلام قبل هذه الآية في (قصة مريم عليها السلام) من حين كانت حملاً مما يفيد: صلاح أمها وهي حامل بها، ويفيد: صلاح أمها حين وضعتها، ويفيد: حسن تربية مريم ونشأتها في كفالة نبي الله زكريا، ونشأتها على الطهارة والعبادة، ومالها من الكرامة عند الله بما دل عليه كلام الملائكة لها، وبالرزق من عند الله وغير ذلك، وهذه الآية تبدأ الكلام في (قصة حملها عيسى عليه السلام) من حين بشرت به.

وقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ يفيدها: أن هذا الولد يوجد بكلمة من الله، فهو تقدمة لإفادتها أنه يوجد بدون أب، وإكمالاً للبشرى أخبرت باسمه ورسالته وما يعلمه الله من العلوم الواسعة، وما يجعل له من الآيات العظيمة عقيب ولادته، وعند رسالته ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

و﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ لقب له عليه السلام تلقته العرب باشتهاره، ولعل العرب لا تعرف أصل معناه في العبرانية، ولا أن أصله في لغة قومه مشيحاً، فلا يلزم تفسير المسيح إلا بأنه لقب لعيسى عليه السلام.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ

---

وقوله: ﴿عِيسَى﴾ هو العَلَمُ، وقوله: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ عطف بيان يشير إلى أنه ينسب إلى أمه ولا ينسب إلى أب قريب، والوجيه: الذي له شرف وقدر رفيع وذلك بما جعل الله له من أسباب الشرف وعلو الشأن، وما هداه له من كمال التقوى والعلم والعمل والزهد الكامل الذي يضرب به المثل، والورع والحكمة وغير ذلك، فهو وجيه في الدنيا عند الله وعند الناس، وجيه عند الله بحيث يجيب دعوته وينصره على أعدائه ويختاره للرسالة، ووجيه عند الناس لأن له جلالة في النفوس وشرفاً وهو وجيه في الآخرة عند الله له ما يشاء عنده.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ في الدنيا والآخرة فهو مكرم معظم محبوب عند الله مرضي عنه ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿ٱلْمَهْدِ﴾ ما يمهد للصبي من الفراش والمضجع، فالمعنى: أنه يكلم الناس في صغره وهو في المهد لم يبلغ وقت التكلم في العادة، وفي إسناد التكليم إلى الناس هذا التكليم الخارق، إشارة وإطماع لها أنه سيكلم الناس بما ينزهها ويدل على طهارتها.

والكهل: ابن الأربعين فما فوق، ولعل ذكر الكهولة لإفادة أنه يعيش معها حتى يكون كهلاً، وأن قوله: ﴿يُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ ليس لتخصيص الكلام بالمهد، ووصفه بالصلاح لأنه أساس الخير كله، وسبب الوجاهة والتقريب، وبشرى لها لرغبتها في صلاحه.

﴿٤٧-٤٨﴾ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ جعلت جوابها للملائكة موجهاً إلى الله علام العيوب ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ من أين يكون؟!

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ يكون لك ولد من دون أن يمسك بشر بقدرة الله الذي ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فقوله: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ﴾ بمعنى: يخلق ولداً من غير أب؛ لأنه على كل شيء قدير، وفسره بقوله: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فهو تعريف بالله من حيث دلالته على أنه على كل شيء قدير.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿قَضَىٰٓ﴾ يختلف معناه باختلاف سياق الكلام، وقد فسر هنا بالإرادة، والأقرب: أنه يشير إلى معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم:٢١] وأن الأمر المقضي: هو المحتوم الذي لا بد من وقوعه لأن الحكمة تقتضيه، فالمعنى: إذا حتم أمراً وأوجب أن يقع ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يعسر عليه إيجاده، بل كأنه في إيجاده له إنما يأمره أن يكون، وعند ذلك يكون.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إما مصدر بمعنى يعلمه الكتابة، وإما بمعنى الكتب ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ من عطف الخاص على العام، وهذا أظهر، فمعناه: أنه يعلمه الكتب النافعة من كتب الله وكتب العلماء الأولين.

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ علم وصلاح ورجاحة عقل، وحسن رأي وتدبير، بحيث يضع الأمور مواضعها اللائقة بها، ويدل على الخير وما يكون أحسن عاقبة ويحذر مما تكون عاقبته شراً بمعرفته لعواقب كثير من الأمور التي تستفاد بالتجربة وحسن النظر والوحي.

﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ كتاب الله الذي أنزله على موسى بقي حكمه في وقت عيسى عليه السلام لم ينسخه (الإنجيل) إلا بعض الأحكام.

جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ

---

﴿٤٩-٥١﴾ ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عطف على ﴿وَجِيهًا﴾ وأخر ليتصل به الكلام في الرسالة ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لعل رسولاً إلى بني إسرائيل ضُمِّن معنى مكلماً لبني إسرائيل؛ لأنه أرسل إليهم ليكلمهم بهذا الكلام إلى آخره الذي يأتي.

﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ أي شيئاً ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ في (لسان العرب): «الهيئة: صورة الشيء وشكله وحالته» انتهى.

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَائِراً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الذي جعل ذلك النفخ سبباً لحياته، كما جعل حضانة الدجاجة للبيضة سبباً لحياة الفرخ فيها.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ الأعمى الذي لم يكن بصيراً فعمي بعد إبصار ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ المصاب بالبرص، وهو: بياض شديد في الجلد يصير به الجلد خشناً، وإبراؤه: إزالة العمى والبرص بالتسبيب كالدعاء.

وقولـه: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كـالأول ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أخبركم بهذه المغيبات عنى، وظاهره: الاستقبال؛ لأنه لو كان المراد الماضي لقيل: بما أكلتم وما ادخرتم، ولأن دلالته على الوحي من الله علام الغيوب أوضح، وقد يجاب عن الاستقبال: بأنه لا يلزم أن يكون مستقبلاً إلا في حال قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ لا في حال إنبائه لهم بذلك على التفصيل، فيصح أن ينبئهم في الحال أي في حال أكلهم وادخارهم وقبله وبعده، مع أن ذلك كله مستقبل بالنسبة إلى حال قول عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آية) أي دليلاً على صدقي في قولي: إني رسول الله ﴿جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بها دليلاً عن صدقي، فإن كنتم مؤمنين إذا جاءتكم آية فما جئتكم به آية لكم، والمعنى: أنها تكفي من كان شأنه الإيمان؛ لأنه منصف يريد الحق، ولا يجحد بها إلا الظالم المتمرد في الباطل.

﴿وَمُصَدِّقًا﴾ أي جئتكم بآية من ربكم وجئتكم مصدقاً لما بين يدي فلا عذر لكم في أن تكفروا بي لتصديقكم بالتوراة ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ﴿بَيْنَ يَدَيَّ﴾ قدّامي، أي جاء من قبلي.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ رحمة من الله أحل لكم في ديني بعض الذي حرم عليكم عقوبة لكم بظلمكم، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠] فكان تحليلها في دين عيسى عليه السلام نسخاً لذلك التحريم أو بعضه، و هو رحمة لمن آمن بعيسى منهم.

إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ

---

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾ فقد وجب عليكم الإيمان بي؛ لأنها آية من ربكم الذي تجب عليكم طاعته، افتتح خطابه: بأنه قد جاءهم بآية من ربهم، واختتم احتجاجه بذلك لأن ذلك هو موجب الإيمان به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ فالحكم له فينا ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ بامتثال أمره؛ لأنكم عباده، ولا تطيعوا غيره أو تتعصبوا لغيره من الرهبان أو الأحبار الذين يصدون عن سبيل الله، لأنكم عباد الله وحده، وهو ربكم وحده لا شريك له ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ طريق قيّم لا عوج فيه، واضح لا خفاء فيه، وهو أن تعبدوا الله، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله.

كان هذا الكلام حكاية لمريم عليها السلام من عند الله تعالى عالم ما سيكون، ولما كان وعده صدقاً لا يتخلف كان ذكره كافياً عن ذكر وقوع ما وعد به، فقد خلق الله عيسى عليه السلام كما وعد وكان من أمره ما ذكر، وقال لقومه ما حكى الله.

﴿٥٢-٥٣﴾ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (الإحساس): إدراك المحسوس بإحدى الحواس الخمس: (السمع، والبصر، واللمس، والشم، والذوق) فالمقصود: أن عيسى عليه السلام سمع منهم الكفر وتيقنه يقيناً كما هو شأن المحسوس، وفيه إشارة إلى تثبّته عليه السلام، وأنه لم يتسرع إلى قتالهم لظن أو خبر مخبر.

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ التمس لـه أنصاراً يدفعون الكفار وينصرون الله ورسوله، وهذا من إعداد القوة كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] فليس للمؤمن أن يقعد عن نصر الإسلام والدفاع عنه بدعوى عدم الناصر، بل عليه أن يلتمس الأنصار.

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي متوجهين إلى الله في توجهنا للجهاد؛ لأنا نجاهد في سبيله، ونسلم له أنفسنا التي اشتراها منا بالجنة و﴿إِلَى﴾ في هذا الموضع مثلها في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء:١٠٠].

و﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ هم المؤمنون الخلص، الذين صدقوا الإيمان وصدّقوه بالجهاد في سبيل الله الذي هو مَخبَر الإيمان، وقد صار الحواريون اسماً لهم خاصاً بهم، أعني هؤلاء الذين أجابوا عيسى عليه السلام.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أجابوه كما طلب وكما يريد أن يجاهدوا لله، أي لنصر دينه لا لعيسى عليه السلام ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الذي أوجب علينا نصرك فنحن ننصرك لأنا آمنا بالله، واشهد لنا يوم القيامة بأنا مسلمون أوجهنا لله مخلصون له ديننا، ويحتمل قولهم: ﴿وَٱشْهَدْ﴾ أي ونشهدك ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أعني أنه إنشاءٌ للإشهاد.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

أجابوا عيسى عليه السلام، ولجأوا إلى ربهم متوسلين بإيمانهم واتباعهم الرسول أن يكتبهم مع الشاهدين الذين شهدوا شهادة الحق لله ولعبده ورسوله، أي فتقبل منا هذا، لأن كتابته لنا تدل على قبوله بخلاف شهادة المنافقين في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون:١] فهي غير مقبولة، ولا مكتوبة لهم في كتاب الأعمال الصالحة، والسياق يفيد إخلاصهم لله ونزاهتهم الكاملة عما صار إليه بعض النصارى، ولذلك توسلوا بإيمانهم واتباعهم الرسول لا بعيسى عليه السلام وجاهدوا لله لا لعيسى عليه السلام.

ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ

---

وقال: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وهذا هو الدين القويم، الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾ وليس المراد أن التوسل بالأنبياء مذموم مطلقاً ولكن توسل من يعتقد لمن توسل به وجاهة عند الله معناها المشاركة لله تعالى في الملك، فأما من لا يرى للمتوسَّل به نفوذاً في ملك الله يخوله أن يتدخل بين الله وعباده ويكون ما تدخل له بل هو بريء من ذلك، فلا بأس إذا كان للتوسل معنى يسوغه، كما قدمت في تفسير: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦].

﴿٥٤﴾ ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ الضمير للذين أحس عيسى منهم الكفر ﴿مَكَرُواْ﴾ ليغلبوه ويبطلوا دينه ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ بهم عقوبة لهم ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ لأن مكره حق، لأنه لا يمكر إلا بمن يستحق، ولأن مكره يكون مع إقامة الحجة ليهلك من هلك عن بينة.

وفي (المصابيح): «قال الإمام المرتضى عليه السلام: قد سئل جدي القاسم صلوات الله عليه عن هذه المسألة.

فقال: أما مكر الله واستهزاؤه فهو استدراج الله وإملاؤه ومكر من كفر بالله ربه فإنما هو احتيال من الذين كذبوا وحيه واستهزاء..

إلى قوله: وإذا كان استهزاؤهم ومكرهم إنما هو إخفاؤهم ما يخفون، وسترهم من أمرهم ما يسترون، فأمور الله أستر وأبطن وأخفى عنهم وأكنُّ وذلك فقد يكون مكراً من الله بهم، واستهزاءً واختداعاً، فلذلك كان الله سبحانه خادعاً لمن خدعه لا مخادعاً ولا مخدوعاً، وكان قلب من خادعه سبحانه عن العلم بمكر الله مقفلاً مطبوعاً».

وكأن هذه الآية تذكر ما يأتي في قصة رفعه عليه السلام، وقد ذكر تعالى في (سورة الصف) ما يفيد ظاهره: أن عيسى عليه السلام والحوارين جاهدوا وانتصروا، فالقصة في (آل عمران) فيها اختصار؛ لأن سياقها في الرد على المشركين بعيسى، والذي في (سورة الصف) في الحث على الجهاد.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قوله: ﴿إِذْ﴾ هو ظرف إذا كان متعلقاً بمكر الله، وأما إن كان التقدير: واذكر إذ قال الله، فهو مفعول به.

وقوله تعالى: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي من رجسهم، فلا ينالونك بقتل ولا أسر ولا يسمعونك كلامهم الفاحش.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ في الماضي قبل هذا القول وهم ﴿الْحَوَارِيُّونَ﴾ الذين قالوا: ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ومن كان قد تبعهم بإحسان إن كان أحد قد تبعهم، وجعله تعالى لهم ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ نصرهم أولاً، كما قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف:١٤].

ومعنى ﴿ظَاهِرِينَ﴾ عالين عليهم غالبين، فأما بعد موتهم، فبقاء العزة لطريقتهم ودينهم إلى يوم القيامة، بحيث يكون ذكرهم بالصلاح والهدى، وأنهم كانوا أهل الحق في الأجيال متوارثاً في النصارى والمسلمين، بخلاف الذين كفروا، فكانوا فوقهم أحياء وأمواتاً ـ والله أعلم.

كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا

---

وهذا لا ينافي اختلاف النصارى فيما كان الحواريون عليه إذا كان الغالب بينهم والأكثر أو الإجماع أنهم كانوا على الحق، وإنما اختلفوا في الحق الذي كانوا عليه فقد بقي نصرهم وعلوّ شأنهم وبقيت ذلة أعدائهم؛ لكون أتباعهم مقهورين إلى يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ هذا من كلام الله تعالى لعبده ورسوله عيسى عليه السلام ﴿ثُمَّ إِلَيَّ﴾ إلى الله ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أنت ومن اتبعك من جانب والذين كفروا بك من جانب ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ﴾ في الماضي قبل هذا الكلام أو في الماضي قبل رجوعكم إليّ ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ فبيّن: أن الحكم له، وأن الملك يوم القيامة له وحده، وأن مرجع المختلفين إليه وحده؛ لأنه ربهم وحده لا شريك له.

﴿٥٦﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ وهذا فيه فائدتان:

*الأولى*: أنه قد بشر عيسى عليه السلام بتفوق الحواريين إلى يوم القيامة، وفي هذه الآية الكريمة بين حال الذين كفروا، فأفاد بيان حال الذين كفروا بعيسى، وأنه يعذبهم عذاباً عاجلاً ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ ولعله كان بتسليط أعدائهم عليهم وضرب الذلة عليهم والمسكنة وما صاحب ذلك من العذاب، ويحتمل أنه تعالى عذب الذين كفروا بعيسى ـ وأصل الكلام فيهم ـ بعذاب عاجل من عنده أو بأيدي أعدائه لا ندري ما نوعه.

يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن

---

*والثانية*: عذاب ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فهو ظاهر.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ فلن ينقذهم من عذاب الله عزير ولا غيره.

﴿٥٧﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يحتمل العموم للحواريين ومن قبلهم ومن بعدهم في كل زمان، ودخل الحواريون فيه دخولاً أولياً، ويحتمل اختصاصه بالحواريين لأنه في سياق بيان ما يترتب على الحكم المذكور سابقاً.

والأجور: ثوابهم الكريم الذي يسعدون فيه أبداً، وسمى أجوراً لكونه في مقابل العمل جزاء للعاملين ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالعاقبة للمتقين وحدهم.

قال في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام ـ هو القاسم بن محمد القائم على رأس الألف من الهجرة باليمن ـ: دلت على أن ثواب الله ليس إلا لمن آمن وعمل صالحاً لا لمن قال: الإيمان قول بلا عمل، وعلى أن الله لا يحب الظالمين من شريف ووضيع، وعلى أن الله لا يحابي أحداً من خلقه» انتهى. قلت: ففيها رد على الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨].

﴿٥٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ القصص لأمر مريم وعيسى عليهما السلام، حال كوننا ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ تتلقاه من ربك هو ﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على صدقك ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلذِّكْرِ﴾ المحكم الحق الصادق الذي ينطق بالحكمة، فدلالته على حقيقة عيسى وحُكمه ومنزلته عند الله هو الحق.

فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ

---

﴿٥٩﴾ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وهذا المثل ردّ على الغلاة من النصارى الذين يحتجون بأنه ليس له أب من بني آدم، كما أنه ردّ على اليهود الكفار الذين يقذفون أمه زاعمين أنه لا يكون مولود بدون أب، فبين الله تعالى قدرته على خلقه عليه السلام من دون أب كما خلق آدم من دون أب ولا أم، وكفى في وجوده قول الله ﴿كُن﴾ أي إيجاده اختراعاً بدون كلفة، وقوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾ تصوير لحال وجوده حين قال له كن كأنه كائن في الحال.

﴿٦٠﴾ ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ هذا هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لا قول النصارى ولا اليهود ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين في أمر عيسى عليه السلام بعد أن جاءك الحق من الله أصدق القائلين الذي خلق عيسى، فقد بطل به قول اليهود وغلاة النصارى.

﴿٦١﴾ ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ يا رسول لله ﴿فِيهِ﴾ في هذا القصص عن عيسى، أو في عيسى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بالحقيقة، وأن قد تيقنت الحق: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ﴾ من يعز علينا تعريضه للهلكة لنباهلكم، والمباهلة: أن نجعل ﴿لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ منا أو منكم، وهو علام الغيوب، قد علم من هو الكاذب ليجعل لعنته عليه بدعاء الفريقين نحن وأنتم.

أخرج مسلم في (جامعه) المسمى (صحيح مسلم) [ج١٥: ص١٧٦] بسنده عن سعد بن أبي وقاص من حديث، قال: ولما نزلت هذه الآية: ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً، وفاطمة، وحسناً، وحسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي» انتهى.

وأخرجه بكامله أحمد بن حنبل في (المسند) [ج١: ص١٨٥] وأخرجه الترمذي [ج١٣] من شرح (جامع الترمذي) عارضة الأَحْوَذِي [ص ١٧٢] قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

وفي (تفسير ابن كثير) ما لفظة: «وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن داود المكي، حدثنا بشر بن مهران، أخبرنا محمد بن دينار، عن داود ابن أبي هند، عن الشعبي، عن جابر، قال: قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب، فدعاهما إلى الملاعنة، فواعداه على أن يلاعناه الغداة، قال فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، ثم أرسل إليهما [فأبيا] أن يجيبا، وأقرّا له بالخراج. قال: فقال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق لو قالا: لا، لأمطر الوادي عليهم ناراً».

قال جابر: فيهم نزلت: ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ قال جابر: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب، و﴿أَبْنَآءَنَا﴾ الحسن والحسين و ﴿وَنِسَآءَنَا﴾ فاطمة.

قال ابن كثير: وهكذا رواه الحاكم في (مستدركه) عن علي بن عيسى، عن أحمد بن محمد الأزهري، عن علي بن حجر، عن علي بن مسهر، عن داود بن أبي هند به بمعناه، ثم قال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» انتهى المراد.

وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا

---

قلت: وهذا الحديث أخرجه أبو نعيم في (دلائل النبوة) [ص١٢٤] بهذا السند وزاد فيه مع أحمد بن داود المكي محمد بن زكريا الغلابي، قالا: حدثنا بشر بن مهران الخصاف.. إلى آخر السند والحديث، وفيه زيادة في القصة، وفيه: ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له وليس فيه (بالخراج) وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق لو فعلا لأمطر الوادي عليهما ناراً» انتهى.

وقال الإمام زيد بن علي عليه السلام في كتاب (الصفوة) بعد ذكره لهذه الآيات: «فلم يكن تبارك وتعالى يأمره أن يدعو أبناءه وليس له أبناء، فكان ابناه يومئذ الحسن والحسين عليهما السلام، ولم يكن له ابن يومئذ غيرهما» انتهى.

وفي (تفسير ابن جرير الطبري): «حدثنا ابن حميد قال حدثنا عيسى بن فرقد عن أبي الجارود عن الإمام زيد بن علي، في قوله تعالى: ﴿نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ...﴾ الآية قال: كان النبي ﷺ، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين» انتهى.

ولـ(صاحب الكشاف) كلام حسن في تفسير (آية المباهلة) ثم قال بعده: «وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي ﷺ؛ لأنه لم يروِ أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك» انتهى.

﴿٦٢﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ القصص في عيسى عليه السلام ﴿لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ﴾ لأنه الصدق وخلافه الباطل ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلا عيسى إله ولا غيره ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الإله الواحد.

ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ

---

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فلا يشاركه في عزته أحد: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] فليس لعيسى شيء من الملك، والله هو ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ وليس من الحكمة أن يجعل لنفسه شريكاً في ملكه حتى لا يبقى له إلا نصيبه.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فحسبك علمه بهم، فهو يكفيك وأمرهم إليه، وسيجازيهم بما أفسدوا، أي هؤلاء المكذبون بالحق في عيسى وفي توحيد الله تعالى.

﴿٦٤﴾ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «﴿إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ معناه: عدل» انتهى.

وفي (المصابيح) تفسير الشرفي: «أي هلموا إلى كلمة فيها الإنصاف من بعضنا لبعض، ولا ميل فيه لأحد على صاحبه، والسواء: هو العدل والإنصاف» انتهى.

وفي (الصحاح): «عن الأخفش: تقول مكان سُوى، وسِوىً، وسَوَاءٌ: أي عدل ووسط فيما بين الفريقين» انتهى، وهذه الدعوة عامة لأهل الكتاب اليهود والنصارى.

وقوله: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلى آخره تفسير الكلمة السواء، وقوله: ﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ أي لا نجعل له شريكاً في شيء من صفاته كالقدرة على كل شيء، والعلم بكل شيء، والربوبية والملك.

تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا

---

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أن نجعل الحكم لله وحده، ولا نصنع كما صنعتم في اتخاذكم أحباركم ورهبانكم ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وفي هذا زيادة إيضاح وإعلان بالإنصاف، وإن كان قد دخل تحت قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

ومعنى: ﴿تَعَالَوْا۟﴾ إلى هذه الكلمة، إلى الاجتماع عليها، وتطبيقها منا ومنكم، فلم ندعكم إلى أن نستعبدكم، أو نستأثر عليكم، أو نستبد عليكم، إنما ندعوكم ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ هي لكم مثل ما هي لنا، وهي لنا مثل ما هي لكم، لأن معناها: استواء الجميع في العبودية لله تعالى، والانقياد منا ومنكم لذلك وهو الدين الذي ندعوا إليه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن هذه الدعوة أو عما دعوتموهم إليه فيها ﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أنفسنا لله وحده لا نعبد إلا إياه ولا نتخذ رباً غيره، فديننا هذا ونحن برءاء من دينكم.

﴿٦٥-٦٦﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ﴾ لأي غرض ولعل الغرض فاسد يعاب عليهم وهو الجدال في الحق، وذلك أنه قد قام الدليل الواضح على أن القرآن من الله مصدق لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فما بقي لمن أنصف إلا أن يؤمن.

مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ

---

فتوجيه الأنظار إلى إبراهيم عليه السلام، وإثارة الجدال في دينه ما هو؟ حتى يستحيل الموضوع إلى مسألة تاريخية يقول فيها كل فريق ما أراد، وحتى يتمكن المبطل المخالف لحجة الرسول الواضحة أن يدعي أنه على حق بدعوى أنه على دين إبراهيم ويعارض بذلك الحق الواضح مغالطة وجدالاً بالباطل.

مع أن هذا الجدال لا أصل له يعتمد عليه؛ لأن دعوى كل فريق أن إبراهيم عليه السلام منهم أي كان يهودياً أو نصرانياً دعوى واضحة البطلان؛ لأن اليهودية والنصرانية إنما كانت بعد بعثة موسى وعيسى عليهما السلام وإنزال التوراة والإنجيل، ولذلك استحق المجادلون فيه أن يوبخوا بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لأنهم لم يستعملوا عقولهم كما هو شأن من لا يهمه إلا التخريب.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي موضوعه أو حكمه في التوراة أو الإنجيل، وقد نسخه الإسلام مثلاً كما لو جادلوا في السبت، فهذا جدال ينبني على أساس وإن كان باطلاً من حيث أن الله يحكم ما يريد، فهو يحدث من أمره ما يشاء، وينسخ ما يشاء بحكمته، أما جدالهم في إبراهيم فلا أساس له؛ إذ ليس في التوراة ولا الإنجيل أنه كان يهودياً أو نصرانياً، فالجدال ذلك مجرد مشاغبة ومعارضة لا سماع لها، وخصوصاً وهي معارضة لما أخبر الله به وهو يعلم ما لا يعلمون، ولا علم لهم بما قالوا كما أن كثيراً من الأمور يجهلونه ولا يعلمونه.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ

---

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ إبطال لقول اليهود ﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ إبطال لقول النصارى ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إبطال لدعوى بعض المشركين من الأميين أنهم على دين إبراهيم إذا اختتنوا وحجوا، وهو مع ذلك إبطال لدعوى المشركين من أهل الكتاب.

والحنيف: الخاشع لله المحب له كما مر عن الإمام القاسم عليه السلام، ومر الجواب على من فسره بالمائل. والمسلم: المسلم لوجهه لله البريء من عبادة غير الله.

ومعنى (أسلم وجهه لله): أخلصه لله، ولم يجعل فيه شركاً لغيره، من السَّلَم الخالص لله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩] ولهذا كان الإسلام دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ودين إبراهيم ودين الأنبياء والرسل كلهم ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ولهذا يكون من نطق بالشهادتين خروجاً من الشرك مسلماً من قبل أن يعمل أعمال الإسلام أي من عقيب النطق بالشهادتين.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ في عهده وبعده فكانوا حنفاء لله مسلمين له غير مشركين﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه حنيف مسلم وما كان من المشركين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر لأنهم حنفاء لله غير مشركين به ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كلهم الأولين والآخرين والأنبياء منهم وغير الأنبياء فهو يتولى شأنهم ويحسن رعايتهم ويدبر لهم ما هو خير لهم فعليهم أن يكِلُوا إليه أمورهم ويثقوا به ناصراً ومعيناً وكافياً.

وبهذا تم الجواب على جدالهم في إبراهيم، ويأتي ذكر مكيدة لأهل الكتاب أو مكائد وذكر ما فيه تحذير للمؤمنين منهم.

(٦٦) ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ جماعة منهم﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ ﴿لَوْ﴾ في هذا السياق تقوم مقام (أن) المصدرية، إلا أنها تدل على أنه مع الطمع فيه مما يؤيس منه، ولذلك يقال: إنها للتمني.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بما هم فيه من الضلالات ومن ضلالهم هذا الطمع الفارغ الذي يبعثهم عليه الحقد على المسلمين والحسد لهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم ما يضلون إلا أنفسهم؛ لفرط خذلانهم وعمى بصائرهم.

ولسيد قطب هنا كلام جيّد في دس أهل الكتاب، منه قوله: «دسوا ولبّسوا في التاريخ الإسلامي وأحداثه ورجاله، ودسوا ولبّسوا في الحديث النبوي، حتى قيض الله رجاله الذين حققوه وحرروه، إلا ما ندّ عن الجهد الإنساني المحدود، ودسوا ولبسوا في التفسير القرآني حتى تركوه تيهاً لا يكاد الباحث يفيء فيه إلى معالم الطريق، ودسوا ولبسوا في الرجال ـ أيضاً ـ فالمئات والألوف كانوا دسيسة على التراث الإسلامي...» الخ.

وقد يسر الله لهذا الدين من يدافع عنه كما في الحديث الذي رواه الإمام زيد بن علي عليهما السلام في (مجموعه): عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» انتهى.

كما حفظ الله دينه بحفظ القرآن الكريم الذي ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] وجعله الله حاكماً بين الناس، وأوصاهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالتمسك به، وبأهل بيته لئلا يضلوا.

ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت

---

وروى الإمام أبو طالب عليه السلام في (أماليه) بإسناده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن عند كل بدعة تكون بعدي يكاد بها الإيمان، ولياً من أهل بيتي موكلاً يذبّ عنه، يعلن الحق وينوِّرُه، ويردّ كيد الكائدين، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وتوكلوا على الله» انتهى، وهو موافق لـ(حديث الثقلين) وكذلك (حديث السفينة) و(حديث النجوم) وقد بسطت في ذلك في (تحرير الأفكار).

والحصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ إن كان حقيقياً مطلقاً، فمعناه: أن هذه الطائفة لا يقبل منها أحد لا من المسلمين ولا غيرهم؛ لأنها لا يرغب أحد في موافقتها لحقارتها وهوانها، وسوء ظن الناس فيها، وإن كان الحصر إضافياً، فالمعنى: ما يضلون إلا أنفسهم لا إياكم، وهذا أقرب ـ والله أعلم.

﴿٧٠﴾ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ ﴿لِمَ﴾ سؤال عن الباعث على الكفر، وهل هو إلا الحسد والكبر وحب الرئاسة، وهذه معايب يستحي العاقل أن تعرف فيه، وكفرهم بآيات الله منه الكفر بالقرآن الكريم وإنكار أنه من الله، وهم يشهدون تلاوته، ويشهدون تعجيز العرب عن الإتيان بسورة من مثله، فهي جرأة قبيحة أن يحضروا الآيات التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويشاهدوها، ثم يكفروا بها، فالحجة عليهم أعظم ممن بلغته الآيات ولم يشهد حين جاء بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لأن المشاهد علمه ضروري، أما الغائب فقد يحتاج إلى الاستدلال على صدق الأخبار.

طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ

---

﴿٧١﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ﴾ أللحسد والكبر وحب الرئاسة تتورطون في هذه الجرائم؟ فأين عقولكم!! ولبس الحق بالباطل: خلط الحق بالباطل ومثال ذلك: أن يعترفوا بشيء مما في (التوراة) مخلوطاً بغيره مما ينسبونه إليها وليس منها، وكتمانهم للحق مثل: أن يكتموا شيئاً في (التوراة) من أوصاف رسول الله ﷺ أو من غيرها كرجم الزاني ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه موجود وتعلمون إثم ذلك.

﴿٧٢﴾ ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال في (المصابيح): «قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام: هذه حيلة قد علمها الله من أهل الكتاب فأخبر بها المؤمنين لئلا يقبلوا نفاقهم» انتهى.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ لتظهروا أنكم منصفون ما تريدون إلا الحق ولذلك آمنتم ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ ليشكوا في دينهم إذا كفرتم، بدعوى: أنه بدا لكم أنكم غلطتم بالإيمان، وأنكم ما كفرتم إلا لذلك، بحجة أنكم قد آمنتم أول النهار ولو كان الباعث الحسد أو التعصب ما آمنتم أول النهار لكنكم عرفتم أنه غلط.

وقولهم: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فرار من أن يقولوا: (أنزل على محمد) ودعوى أنه ومن معه سواء في دعوى الوحي، كما قدمت في قولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ [البقرة:١٤٢].

قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ

---

﴿٧٣-٧٤﴾ ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا من تمام الحيلة، أي اكفروا آخره ولا تؤمنوا بعد هذا الكفر، لأنكم إذا ترددتم مرة أخرى ذهب اعتباركم، فابقوا على كفركم ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ مرة أخرى ﴿إِلَّا لِمَن﴾ هو تبع لكم في ﴿دِينَكُمْ﴾ يوافقكم على الكفر، وعلى جحد الحق الذي تعلمونه، فهو يعلم أن الحق مع محمد ﷺ لما في (التوراة) من نعته، فإذا آمنتم له بذلك فهو لا يؤديه إلى الدخول في الإسلام، لأنه تابع لكم في دينكم لا يريد خلافكم.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ فلن تستطيعوا بحيلتكم ولا غيرها أن تضلوا من هدى الله، وهذه الجملة معترضة بين حكاية كلامهم جاءت عند تمام حكاية الحيلة ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ تعليل لاستعمال الحيلة ومحاولة أن يرتد المؤمنون ليبطل أمر النبي ﷺ فلا يكون للعرب مثل ما لبني إسرائيل كتاب يتبعونه ودين يجمعهم ومكانة ظاهرة بين الأمم باسم دين وعلم، بل ليبقوا كما كانوا، وكذلك غيرهم من الأمم، عليكم أن تسعوا في أن لا يكون لهم مثل ما لكم.

﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ لو آمنتم بعد كفركم مرة أخرى لأنها تبطل دعواكم أنه أنكشف لكم الخطأ في الإيمان وجه النهار، فإذا كفرتم بعد ذلك لم يبق لكم ما تحاجونهم به عند ربكم؛ لأنكم قد أقررتم لهم مرتين وأبطلتم دعواكم انكشاف الخطأ، فالتعليل الأول لاستعمال الحيلة والعطف عليه لتعليل الثبات عليها وحياطتها بدوام الكفر بعد الإيمان وجه النهار.

ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ

---

﴿..قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هذا جواب يردّ عليهم في استعمال الحيلة لئلا يؤتى أحد مثل ما أوتوا في الدنيا، ولئلا يحاجوهم في الآخرة فيسعدوا بالحكم لهم على أهل الكتاب، فهو يبين: أن حسدهم للمسلمين خير الدنيا والآخرة وكيدهم لهم لإبطال نعمتهم لا يفيدهم، لأن فضل الله ليس بيد غيره ممن يُتصورُ الاحتيال عليه ليحولـه عمن شاء.

بل هو ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ الواسع الـذي هـو رب العـالمين المنعم علـيهم كلـهم المربي لهم العليم الذي يعلم حيث يجعل رسالاته يؤتيه من يشاء، فلا يمسـكه أحد عمن آتاه الله، لأنه ﴿اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١] ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ لكرمه وقدرته على العطاء الكبير لا ينقصه البذل والجود، كمـا لا يفره المنع والجمود سبحانه وتعالى، فمنه الخير كله وبيده الخير كلـه ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥] [لأن له الملك وحده لا شريك له، وليس لأحد أن يعارضه في اختصاصه، لأنه لا دخل لهم في الملك، وما أعظم فضله علـى بني إسماعيل الأمة المسلمة بالرسول والقرآن، بل فضله بذلك علـى العـالمين من اتبع الرسول ﷺ والقرآن، فـأداهم ذلـك إلى الفـوز العظـيم الـذي هـو السلامة من النار وإدخالهم الجنة خالدين فيها أبداً.

﴿٧٥-٧٦﴾ ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ تأمنه بأن تدفع إليه قنطاراً قرضاً أو وديعة، والقنطار مقدار كبير.

قال في (الصحاح): «والقنطار معيار، ويروى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: هو ألف ومائتا أُوْقِيَّة. ويقال: هو مائة وعشرون رِطلاً. ويقال: ملء مسك الثور ذهباً، ويقال: غير ذلك ـ والله أعلم ـ ومنه قولهم: قناطير مقنطرة» انتهى.

فأما الراغب ففسره: «بما فيه عبور الحياة، أي ما يكفي الحي لاستمرار حياته ـ ثم قال ـ: وذلك غير محدود القدر في نفسه، وإنما هو بحسب الإضافة ـ ثم قال ـ : ولما قلنا: اختلفوا في حده، فقيل: أربعون أوقية، وقال الحسن: ألف ومائتا دينار، وقيل: ملء مسك ثور ذهباً.. إلى غير ذلك، وذلك كاختلافهم في حد الغنى» انتهى المراد.

ففهمنا من ذلك: أنه مقدار كبير، إذا أمنت به هذا البعض من أهل الكتاب أداه إليك ولم يجحده ولم يمطل، ولعلهم الذين أسلموا إما بعد أن أسلموا أو قبل؛ لأنهم لا يستحلون أموال الأميّين.

والدينار قليل بالنسبة إلى القنطار، وهو عملة من الذهب، ولعله وزن ستين حبة من الشعير ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ﴾ بهذا المقدار يغلبه الحرص عليه فيجحده أو يمطله ﴿إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗا﴾ فهو يرجو نفعك ولو جحد أو مطل انقطع عنه نفعك، وذلك مثل من يقترض فيوفي، لأنه يحتاج إليك ويخشى لو مطلك أن تمنعه حاجته، فما دمت قائماً عليه بقضاء حاجاته فإنه يوفيك لذلك، أما من لا يحتاج إليه فإنه يمطله إذا كان من الأميين.

وقد فسر بالقيام على رأسه بالمطالبة والمحاكمة، وهو عندي غير مناسب لقوله تعالى: ﴿مَا دُمۡتَ﴾ ولو كان المراد لكان ـ والله أعلم ـ يقال: إلا إذا قمت عليه، وذلك لأن تسليم الدينار لا يكون وقته ممتداً بامتداد وقت المطالبة والمحاكمة بل يؤدى في لحظة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تـرك الإيفـاء بالـدينار ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي المـذكورين مـن أهـل الكتـاب ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا﴾ سبيل لتعذيبنا أو معاقبتنا ﴿فِي﴾ أكل مال ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ بغير حق.

قال الشرفي في (المصابيح): «عن الإمام المرتضى محمد بن الإمـام الهـادي، عن جده الإمام القاسم بن إبراهيم عليهم السلام: تأويل ذلك أن مـن أهـل الكتـاب من يستحل كل مال المسلم يهودي أو نصراني، وقـال: إن الأرض ومـا فيهـا من الله طعمة» انتهى.

يعني عطية لهم، أي لليهود إن كان يهودياً، أو للنصارى إن كـان نصـرانياً، والحاصل: أنهم يقولون: لا إثم علينا في الأميين، لأنهم وما ملكوا عطيـة لنـا من الله.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنـه كـذب، فيتعمـدون الكذب على الله، أو وهم يعلمون أنه كذب ويعلمون إثم الكذب على الله.

﴿بَلَىٰ﴾ كلمة إبطال لكلامهم الذي هو كذب علـى الله ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ هذا تفصيل لردّ قولهم.

﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾ يفيد: أن على المسلمين عهداً، ولعلـه عهـدهم علـى الجهاد قال تعالى: ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار﴾ وقـال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠] أو هو قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:٧] فهـو بيعـتهم علـى السـمع والطاعة ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ أي اتقـى الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فكيـف يجعلـهم طعمة لأعدائه المغضوب عليهم بل دماؤهم وأموالهم حرام.

ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ

---

﴿٧٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ﴿يَشۡتَرُونَ﴾ يستفيدون ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ ثمناً قليلاً ﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أو يستبدلون بعهد الله ثمناً قليلاً وأيمانهم، فالأول: من يحلف فاجراً ليحكم له بمال على خصمه، والثاني: من عاهد وحلف ثم نكث لغرض دنيوي يستفيده بالنكث؛ والأولى أن الآية عامة للفريقين فالأول بقوله: ﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ والثاني بقوله تعالى: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ والاستفادة والاستبدال كُلُّهُ اشتراءٌ مجاز.

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (كتاب الأيمان) بعد أن ذكر هذه الآية ما لفظه: وقوله تعالى: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فهو لا نصيب لهم في ثواب الله في الآخرة، وأما قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فمعناه: لا يبشرهم برحمة، ولا يخصهم منه بمغفرة، ولا ينظر إليهم بنعمة، وأما قوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ فهو لا يحكم لهم بتزكية، ولا يختم لهم برحمة ولا بركة، ولا يجعلهم في حكمه من الزاكين، ولا عنده من الفائزين.

قال: وهذه الآية نزلت في رجل حلف لرجل عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يميناً فاجرة باطلة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من حلف على مال أخيه فاقتطعه ظالماً، لقي الله يوم القيامة وهو معرض عنه» انتهى.

فقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ﴾ أي لا نصيب لهم، والنصيب: هو المفروض ولو لم يكن أجراً كما في المواريث، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ مجاز عن الغضب، وخصه الإمام الهادي عليه السلام بكلام

مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ

---

الرضى عنهم، وهو صحيح لأنه المقصود في السياق، ولأن كلام الاحتجاج عليهم وارد في القرآن، قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس:٥٩-٦٢] وقال تعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..لاَ تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١٥].

﴿٧٨﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (فريقاً) بعضاً مفارقاً لبعض آخر، ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم﴾ يفتلونها، أي يحولونها عن قراءة (التوراة) على الصواب إلى القراءة المزيفة ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي يكتبونه بأيديهم ليوهموا أنه من التوراة فيجعلون هذا الكتاب المزيف آلة للعدول عن التوراة بأن يقرؤوه كما يقرؤون التوراة ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بدعوى أنه حق وصواب ليوهموا مع قراءتهم الموهمة إيهاماً مؤكداً أنه من الكتاب أي من التوراة وما هو من الكتاب ولا هو من عند الله لا من (التوراة) ولا من غيرها.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون على الله آثمون بالكذب على الله، وكأنهم مع تعمدهم للكذب على الله يفرون من الكذب الصريح بأنه من التوراة، إما لئلا يفتضحوا في العاجل، وإما لخوف عذاب عاجل.

وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ

---

﴿٧٩﴾ ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مثل: قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ يستعمل للدلالة على أن المنفي بعيد الوقوع شبه المستحيل، ألا ترى إلى قول إبليس نعوذ بالله منه: ﴿لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ﴾ [الحجر:٣٣] يعني: أن هذا شبه المستحيل منه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣] للدلالة على أن ذلك ينافي الحكمة لأن النذير يتقدم التعذيب ولا يقارنه لأن العذاب الحاضر الذي لا يمكن في الحكمة كشفه ولو آمنوا لا معنى لإنذاره.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾ [النساء:٩٢] لأن قتل المؤمن عمداً ينافي إيمان القاتل لخوفه من الله وحبه لأخيه المؤمن في الله، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧].

فقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ..﴾ الآية يدل على أن ذلك شبه المستحيل من هذا البشر الذي اختاره الله واصطفاه لإيتائه الكتاب والحكم والنبوة، لأن الله علام الغيوب فلو كان هذا البشر يدعو الناس إلى الشرك ما اختاره لذلك لأنه خلاف الحكمة، ثم إن ما آتاه الله من الكتاب والحكم والنبوة يزيده صلاحاً إلى صلاحه ونوراً إلى نوره ويدعوه إلى شكر النعمة كما هو شأنه، بدلالة قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤] فرسل الله صفوة من عباده

يصطفيهم على علم بهم وبغيرهم، فالكتاب والحكم والنبوة يزيدهم هدى إلى هداهم، فبينهم وبين الباطل مسافات ومراحل، فلا يجوز أن ينسب إليهم أنهم دعوا عباد الله أن يكونوا عبيداً لهم من دون الله لأن ذلك شبه المستحيل منهم.

﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ هو الحكم بما أنزل الله ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ هي الوحي بشريعة ودين كامل مصحوباً بآية تدل على أن ذلك وحي من الله تعالى.

وقوله: ﴿كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لأكون لكم وساطة بينكم وبين الله أقربكم إليه، وأشفع لكم عنده وتتوسلون بي إليه هذا معنى ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومعنى ﴿كُونُواْ عِبَادٗا لِّي﴾ اتخذوني إلهاً وربّاً مالكاً لكم كما فعلت النصارى بعيسى عليه السلام، وقد تضمن هذا الكلام من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ..﴾ الدلالة على بطلان دعوى ذلك من النصارى وغيرهم، وقام هذا مقام النهي عن دعوى ذلك فعطف عليه قوله تعالى:

﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ عابدين لرب العالمين، دعاة إلى عبادته، معلمين لعبادته، ناصحين له، موالين لأوليائه، معادين لأعدائه، مخلصين له، مكثرين لذكر رب العالمين، حتى تستحقوا هذا الاسم الكريم ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ الذي معناه النسبة إلى ربهم لكثرة لهجهم بذكره ونصحهم وإخلاصهم في عبادته ودعوة الناس إليه.

﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بسبب علمكم لكتاب الله، فإنه يدعوكم إلى أن تكونوا ربانيين بما فيه من الهدى والمواعظ، هذا على قراءة نافع ﴿تعلمون﴾ بالتخفيف، فأما على قراءة ـ ضم التاء، وفتح العين، وتشديد اللام ـ فالمعنى بسبب تكرار تعليمكم لكتاب الله، فإن المعلم أحق أن يعمل به وهو في حال التعليم يتذكر ما فيه من الهدى والمواعظ.

أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ

---

والذي يعاود التذكر بتكرار التعليم واستمراره أحق أن يتذكر ولا يغفل ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ من كتب الهداية إما من كتب الله تعالى وإما من كتب العلماء الهداة التي فيها التذكير والمواعظ والإرشاد.

﴿٨٠﴾ ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ بشر علمه الله الكتاب والحكم وآتاه النبوة ﴿أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فكما لا يتصور منه أن يقول للناس: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كذلك ﴿لَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ لأن هذا ينافي دينه وعقيدته وحاله في إخلاصه لله.

وقوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم﴾ سؤال إنكار بمعنى يأمركم بالكفر بما جاء به من عند الله والعدول عنه إلى عبادة غير الله بعد إذ قد أجبتم دعوته وأسلمتم لربكم وجوهكم تعبدونه لا تشركون به، أيدعوكم إلى الضلال بعد الهدى، وإلى الفساد بعد الصلاح، وإلى الكفر بعد الإيمان، وإلى الشرك بعد الإسلام هذا كما نقول في لغتنا لا يتصور منه لمنافاته طريقته وحاله، ولأنه يهدم بذلك بنيانه الذي قد بناه وتعب في بنائه وتحمل المصاعب والشدائد والأذى والخوف، حتى إذا تم بنيانه رجع لهدمه، ولأنه يكون كما قال شعيب عليه السلام: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف:٨٩] لأنه إن كان صادقاً في أول أمره فقد كذب في دعوته إلى الشرك، وإن كان صادقاً ـ والعياذ بالله من القول بذلك ـ في دعوته إلى الشرك فقد كشف كذبه فيما مضى منه من الدعوة إلى التوحيد و إخلاص العبادة لله.

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ

---

﴿٨١-٨٢﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا أهل الكتاب ﴿إِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ على الإيمان والنصرة لأي رسول أرسله الله وأتاهم مصدقاً لما معهم، والمقصود بهذا العهد: أتباعهم الذين أتاهم رسول الله محمد ﷺ مصدقاً لما معهم من كتب الله، الذي لو بعث في حياة أنبيائهم الأولين لوجب عليهم الإيمان به ونصره بهذا العهد الموثق ليعلموا أتباعهم الذين بعث فيهم أنه رسول من الله يجب عليهم الإيمان به ونصره.

ولعل هذا معنى ما حكاه الشرفي في (المصابيح) عن الإمام أبي الفتح الديلمي عليه السلام حيث قال: «قال في (البرهان): والميثاق الذي أخذه الله عليهم هو: أن يأخذوا على قومهم بتصديق النبي ﷺ» انتهى.

وكذلك ما حكاه الشرفي عن الإمام المرتضى محمد بن الهادي عليهما السلام حيث قال: «قال المرتضى عليه السلام: معنى ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ هو محمد ﷺ والمخاطبون فهم أهل الكتاب» انتهى المراد، ولعله يعني الخطاب بحكاية أخذ الميثاق.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ﴾ أي اذكروا يا أهل الكتاب ﴿إِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ بيان لما أخذ عليه ميثاقهم، كقول يعقوب عليه السلام: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ [يوسف:٦٦] وجعل العهد معلقاً على ما آتاهم من الكتاب والحكمة أن يكون سبباً للإيمان بالرسول المصدق له، وهذا مناسب للآية التي قبل هذه ومؤكد لمعناها، لأنه دل على أن الواجب أن يكون الكتاب والحكمة سبباً للإيمان ولا يكون سبباً للدعوة إلى الشرك أو الكفر بالرسول المصدق لما معهم.

فالآية الكريمة عامة للنبيئين توجب عليهم الإيمان بكل رسول يأتي مصدقاً لما معهم، وسياقها يوضح: أن محمداً رسول الله ﷺ قدْ تَناوَله العهدُ العامُ للنبيئين أن يؤمنوا به لو جاءهم في حياتهم لأنه مصدق لما معهم وينصروه، وذلك حجة على من ينتمي إليهم من أهل الكتاب العارفين بهذا الميثاق الممثل لوحدة النبيئين في هذا التكليف ومنع تعصب أتباعهم لهم بحيث يكفرون بالرسول المصدق لما معهم إفراطاً في التعصب أوتستراً باسم الدين واسم اتباعهم لأنبيائهم.

فقوله: ﴿لَمَآ ءاتَيْنَاكُم﴾ ـ على قراءة نافع ـ (ما) موصولة مبتدأ، والخبر القسم المقدر وجوابه، أي والله لتنصرنه، والرابط مقدر أي من أجله أي بسبب ما آتيناكم، أو أغنى عن الرابط ضمير الرسول المصدق لما معكم وهو (ما آتيناكم) فكأنه قيل: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ من كتاب وحكمة لتؤمنن بالرسول المصدق له.

﴿قَالَ﴾ الله للنبيئين: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ أقررتم هذا الميثاق ورضيتموه ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ الذي هو الإيمان والنصرة ﴿إِصْرِى﴾ عهدي الثقيل الذي تتقيدون به، أي احتملتم الميثاق الذي حملتكم ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾ رضينا وقبلنا، وكفى هذا في احتمالهم ما حملوا؛ لأنه قد لزمهم بحكم الله، فليس منهم إلا الرضى وكان الرضى هو أخذ الميثاق، إلا أن له وجهتين: وجهة القبول والرضى واجتناب الإباء لحكم الله، ووجهة تحمله بالرضى به نفسه.

﴿قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ بهذا الميثاق المأخوذ عليكم لدى أممكم ليعلموا به ويعملوا بموجبه ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ به فحكمه لا يضيع أبداً.

دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ

---

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ﴿تَوَلَّىٰ﴾ عن العمل بموجب هذا الميثاق، ويدخل فيه تولي أتباعهم؛ لأنه ملزم لهم من حيث دلالته على أنه الحق الذي يجب إتباعه لكونه الحق، ولذلك فالمتولون عن إتباع الرسول الذي أخذ الميثاق على الأنبياء بالإيمان به ونصرته من إتباع الأنبياء ﴿هُمُ﴾ أي الأتباع المتولون ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي الخبثة الفاجرون، وهذا لوضوح الحق وأنهم لم يعدلوا عنه إلا لفسقهم، فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة:٩٩].

﴿٨٣﴾ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ تَبْغُونْ﴾ أيها المتولون الفاسقون، وهو التفات فيه توبيخ لهم ـ على قراءة المثناة من فوق ـ فأما على قراءة ﴿يَبْغُونَ﴾ بالمثناة من تحت، فالكلام في المتولين بغير التفات.

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونْ﴾ فدين المتولين غير دين الله، ولن يقبل منهم إلا دين الله الذي ﴿لَهُۥٓ﴾ وحده ﴿أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ لأنه الغالب على أمره ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨] الذي له الحكم فيهم بما يشاء وليس لمخلوق أن يحكم بخلاف حكم الله ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧] فمن أسلم وجهه له طوعاً رَشِد ومن لم يسلم له طوعاً فهو منقاد لقضائه فيه كرهاً فهو يجزيه بعصيانه الجزاء الأوفى ولا ينازعه فيه منازع، لأنه لله وحده ومرجعه إليه وحده، وكما أخذ الله الميثاق على النبيئين على الإيمان والنصرة للرسول المصدق بما أوتوه الذي يجيء بعدهم، فقد أمر الله هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يؤمن بما أوتوه فقال تعالى:

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ . وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ

---

﴿٨٤﴾ ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿ءَامَنَّا﴾ أنا ومن معي ﴿بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي وبما أنزل الله علينا لنتبعه من الكتاب والحكمة، وآمنا بما ﴿أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وهذا الإيمان المفصل حجة على أهل الكتاب؛ لأن فيه التصديق بما معهم ولما معهم أعني ما ذكر من ذلك في التوراة، وما أوتي النبيئون من كتاب وحكمة.

وهذا أعني لفظ ﴿أُوتِيَ﴾ هنا مناسب للفظ ﴿لَمَآ ءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ وتطبيق له، وفيه تصريح بما ﴿أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من كتاب وحكمة وتقوية للحجة على أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ لأنهم حاملون كلهم لرسالة واحدة ودين واحد أوحاه الله إليهم وهو عبادة الله وحده، وإسلام الوجوه له، وكلهم منقادون لأمره خاضعون لحكمه، ليس عندهم تعصب ولا أنانية ولا تكبر، فدينهم واحد يصدق بعضهم بعضاً.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أوجهنا لله وحده لا نشرك به أحداً في عبادته، وهذه حجة للنبي ومن معه واضحة، لأن الله تعالى حكيم لا يجعل لنفسه شريكاً في ملكه ولا يرضى لنفسه شريكاً.

﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ

---

﴿٨٥﴾ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ﴿وَمَن يَبْتَغِ﴾ من يطلب أو من يرد غير الإسلام الذي هو إخلاص العبادة لله ديناً مخالفاً له ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ لأن الله لا يرضاه فهو مردود على صاحبه ﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة في نار جهنم لا يفيده دينه شيئاً بل هو وبال عليه.

والإسلام يعم عبادات: القلب، والبدن، واللسان؛ لأنها تكون خالصة لله أو غير خالصة وهو صفة لها كلها إذا خلصت لله، فالإيمان من الإسلام كما يفهم من تتبع الآيات الواردة في هذه السورة وغيرها، كقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾.

فمعنى الإسلام: إسلام الوجه لله، أي إخلاص العبادة لله، وقد يستعمل بمعنى إسلام النفس لله وهو واحد، إلا أن إسلام النفس قد يكون أبلغ إذا كان كإسلام إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١] وإسلامه عليه السلام وابنه في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] ومعناه: جعل نفسه سلَماً لله، أي خالصة لله ضد المشتركة، قال تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ [الزمر:٢٩].

ولهذا يدخل الإنسان الذي كان مشركاً يدخل في الإسلام بالنطق بالشهادتين وبراءته مما كان يعبد من دون الله لأنه أسلم نفسه لله.

ومقتضى ذلك: أن يستمر في طاعته والإخلاص له، فإذا فسق وتمرد مع براءته من الشرك لم يخرج عن الإسلام، ولكن ليس له حكم المؤمن لأن إسلامه ناقص إن كان معناه إخلاص العبادة لله لنقص العبادة عيناً وصفة، فإن كان معناه إسلامه نفسه فلأنه لم يستمر عليه بالعمل بموجبه، فإن فسقه ينافي إسلامه نفسه لله لأن معنى إسلامه نفسه لله: جعله نفسه لله وحده.

ومقتضى ذلك: أن يعبده ويطيعه لكونه جعل نفسه عبداً له خالصاً وفسقه عدول عن التعبد له ومنازعة في العبودية، فلم يبق إسلامه صدقاً إلا باعتبار سلامته من الشرك، إن لم نقل: إنه أشرك بطاعة الشيطان شرك الطاعة المنافي لإسلامه نفسه لله؛ فأما باعتبار جعله نفسه عبداً لله فقد خالفه بفسقه ولا يلزم مثل هذا فيمن نطق بالشهادتين قبل أن يعمل الطاعات من صلاة وغيرها وقبل أن يعصي؛ لأنه لم يصدر عنه في تلك الحال ما يعارض معنى النطق بالشهادة وإسلامه نفسه لله تعالى.

فالمسلم الكامل الإسلام قد أسلم عباداته كلها لله القلبية ومنها الإيمان، والقولية وأعمال جوارحه كلها جعلها سالمة لله تعالى؛ وبهذا ظهر: أن هذا الإسلام قد شمل الإيمان، وأنه لا حاجة إلى أن نقول: الإسلام في الآية هو الإيمان أي الاعتقاد والقول والعمل أي الدين كله؛ لئلا يلزم أن الإيمان غير الإسلام فيلزم أنه غير مقبول هناك؛ لأنا قلنا: الإسلام هو إخلاص الدين لله من حيث هو إخلاص الوجه، أو من حيث هو إخلاص النفس، وفي (سورة هود): ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آية:١٤] وفي (سورة اقترب): ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آية:١٠٨] وهذا باعتبار مفهوم الإسلام، مع أنه يصدق على الدين كله من حيث التطبيق.

عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ

---

ولا أعتقد أن استعمال الإسلام بمعنى الدين والشريعة التي شرعها الله لمحمد ﷺ وأمته إلا استعمال عرفي تعارفت به الأمة، ولذلك فلا يفسر به الإسلام في القرآن بمعنى أنه مفهومه.

﴿٨٦-٨٩﴾ ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الهدى قد يكون بمعنى البيان للحق الذي تقوم به الحجة وهو عام للمكلفين، قال الله تعالى: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾ [فصلت:١٧] وقد يكون الهدى تنوير البصيرة بحيث يزداد صاحبه فهماً وعلماً وحكمة، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ [التغابن:١١] وهذا لا يكون للظالمين المستحقين للخذلان، ولعله المراد في هذه الآية كيف يهديهم وهم لا يستحقون إلا الخذلان.

وقوله تعالى: ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ معناه: أن إيمانهم حجة عليهم ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ حين آمنوا وشهادتهم هذه حجة عليهم، ولبقاء حكمها من حيث هي حجة عليهم صح عطفها على ﴿كَفَرُوا۟﴾ لأن حاصله: أنه اجتمع منهم الكفر، والشهادة أن الرسول حق، وكذلك ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ لأنها ما زالت آيات بينات في حال كفرهم فهي حجة عليهم فكيف يهديهم وهو ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ أنهم مطرودون من رحمة الله في الآخرة أو في الدارين،

ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

ولعنة الملائكة والناس الدعاء عليهم بأن يلعنهم الله، وهذا يفيد أن استغفار الملائكة لمن في الأرض إما خاص بالذين آمنوا، وإما مخصوص بالأحياء ومعناه: طلب توفيقهم للتوبة التي هي سبب المغفرة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في لعنة الله التي هي الطرد من رحمته، والطرد من رحمته هنا معناه: مصيرهم في عذابه في نار جهنم ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ متى أمر بهم إلى النار وجاء وقت تعذيبهم فلا يمهلون.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد كفرهم الذي كان بعد إيمانهم فجددوا الإيمان وندموا على ما فرطوا وعزموا أن لا يعودوا إلى معصية، والتوبة هي الرجوع إلى الله، ولأن العاصي كالعبد الآبق من سيده كانت توبته بالرجوع إلى الله، والرجوع إلى الله: الإقلاع عن معصيته، والعزم على طاعته في كل شيء، والدخول في الطاعة بالاستغفار، وعمل الواجب الفوري كالإيمان.

﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما قد أفسدوا بردتهم وفي حالها من إفساد الدين بكشف تغريرهم وتكذيب أنفسهم فيما قد كذبوا ونحو ذلك؛ لأنهم قد يكونون أفسدوا بردتهم وأفسدوا فيها، كما حاول الذين قالوا: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ..﴾ إلى آخره.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولكونه غفوراً رحيماً يغفر لهم ويرحمهم وهذا مبالغة في الوعد بالمغفرة والرحمة؛ لأنه كالحجة على أنه سيغفر لهم ويرحمهم.

وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ

---

﴿٩٠-٩١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ هذا بيان أن التوبة المؤخرة عن وقتها لا تقبل، فهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٧-١٨].

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ مجمل بينته هذه الآية ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ البالغون في الضلال مبلغاً عظيماً، الفائقون لغيرهم في الضلال، ويحتمل ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ لا التائبون، فالقصر قصر القلب؛ لأن توبتهم لم تخرجهم عن العصيان فهم مازلوا في التيه؛ وهذا أرجح من الأول.

وحيث قد أفادت هذه الآية أنها لا تقبل توبة في الآخرة، بين تعالى أنها كذلك لا تقبل فدية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ وهذا على فرض وتقدير أنه استطاع تحصيل ملء الأرض ذهباً لينفقه، على أن يكون فكاكاً له من النار بأي طريقة، كصدقة للمساكين، أو هدية، أو رشوة للزبانية، أو غير ذلك من وجوه الدفاع والاحتيال لدفع العذاب، ولو دفعه فدية يفتدي به من العذاب كما يفتدي بالمال للسلامة في الدنيا من الحبس ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ فلن ينصرهم شركاؤهم ولا أنبياؤهم الذين ينتمون إليهم لا بشفاعة ولا غيرها ليدفعوا عنهم العذاب.

تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُ ۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾

---

فالحاصل: أنهم معذبون لا مجال لهم من العذاب؛ وفائدة فرض ملء الأرض ذهباً: أن يعلموا أن عذابهم محتوم عليهم لا وسيلة لدفعه، وهذه الآية عامة للمرتدين وغيرهم من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿٩٢﴾ ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ ﴿ٱلۡبِرَّ﴾ وسيلة الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الإنفطار:١٣] وهذه الآية تدل على أن العبد لا يكون براً إلا إذا برَّ بالإنفاق مما يحب؛ والإنفاق إما في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٩٥] وقوله تعالى: ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [محمد:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ يعم المقبول وغير المقبول والجيد والخبيث، فهو يجعل للإنفاق حكمه، ولا يضيع ما يصلح قبوله ولو قليلاً، ولا يقبل الخبيث الذي ينفق ليتقي به الإنفاق الواجب من الطيب، ولا يقبل ما أنفق رئاء الناس أو لغرض دنيوي ليس لله.

وهذه الآية خطاب للمسلمين جاءت بعد نهاية الاحتجاج على أهل الكتاب في شأن التوحيد ورسالة محمد ﷺ، وختم الكلام بوعيد الكفار، وبعد هذه الآية يعود الكلام مع أهل الكتاب في مواضيع غير ذلك، فقال تعالى:

فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ

---

﴿٩٣-٩٤﴾ ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ وهذا يشير إلى أنهم بعد ذلك حرم عليهم بعض الطعام عقوبة لهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ..﴾ [النساء:١٦٠] إلى آخر الآيات، بينما اليهود ينكرون أن الله تعالى حرّم عليهم شيئاً من الطعام.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ أي كان حِلاً في دين أبيهم إسرائيل أو دين الأسباط الأنبياء من ذريته أو من بنيه الاثني عشر.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فهي ناطقة بهذا وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي صادقين في ردّه وتكذيبه، فالتوراة تكشف أنكم كذبتم بالحق.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد قيام الحجة عليه تمرداً وعناداً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الجائرون المخالفون للعدل.

﴿٩٥﴾ ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ في قوله، وكذبتم في زعمكم أن تحريم بعض طعامكم ليس عقوبة بل هو تحريم قديم من عهد إسرائيل وإبراهيم ونوح.

﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فأسلموا لله وجوهكم وأنفسكم، واعملوا بملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ محباً لله خاشعاً ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فأنتم على غير ملته.

بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ

---

﴿٩٦-٩٧﴾ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ قبلة ليتوجهوا إليه في صلاتهم ويحجوا إليه ويعملوا كل عبادة تتعلق به: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي للبيت الذي ﴿بِبَكَّةَ﴾ أي الكعبة.

قال في (الصحاح): «وتَبَاكَّ القوم، أي ازدحموا، وبَكَّ عنقه: أي دقّها، وبكّة: اسم بطن مكة، سميت بذلك لازدحام الناس، و يقال: سميت لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة» انتهى.

وفي (الكشاف) جعل بكة هي مكة، وكذا في (مفردات الراغب) أما تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام لـ(غريب القرآن) فقال فيه: «فبكة: موضع البيت، وسمي بذلك لأن الناس يتباكّون فيه، معناه: يتزاحمون، ومكة: جميع القرية وهي أم القرى وأم كل شيء أصله» انتهى.

قلت: هذا أرجح ولو سلك (صاحب الكشاف) والراغب طريقتهما في دعوى أن أصل الكلمتين واحد وجعلا الأصل بكة، ثم قيل: مكة تغيراً كما يقع في بعض الكلمات من إبدال حرف مكان حرف، وكانتا اسمين لشيء واحد، ثم جعل مكة اسماً للقرية بطريقة الغلبة فيها وكانت صغيرة بيوتاً قليلاً حول البيت ببكة ثم ازدادت بيوتاً وكبرت مع بقاء اسمها مكة فاختلف معنى بكة ومكة من حيث المطابقة كما اختلف سابقاً من حيث المفهوم، لكان هذا أوفق لطريقة أهل الصرف ودعاواهم في الاشتقاق.

ويؤيد تفسير الإمام زيد عليه السلام و(صاحب الصحاح) اختيار هذا الاسم في هذا السياق لأن قوله: ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي للحج والعمرة ومنافع الناس وقبلة يناسب ذكر الاسم المشتق من معنى ازدحام الناس.

﴿مُبَارَكًا﴾ فيه بركات دينية ودنيوية، كفضل الصلاة فيه، والحج والعمرة، ودنيوية كنفي الفقر بمتابعة الحج والعمرة، وتيسر منافع بسبب التقاء الناس للتجارة وغيرها.

﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ لما فيه من الدلائل بسبب ما جعل الله له في القلوب من الإجلال والاحترام، حتى جعله آمنا، وجعله نعمة للناس للتواصل لمنافعهم، وجعل بسببه الإيلاف لقريش، وأهلك بسببه أصحاب الفيل، فهي دلائل على قدرة الله وعلمه وسعة فضله وإنعامه، وانظر إلى قوله تعالى ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٩٧].

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ في شأنه آيات بينات واضحة تدل على فضله:

*الأولى*: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ فهو مكان معروف عند الكعبة، فيه أثر قدميه في حجر، وهو لا يزال يذكر بقيام إبراهيم يرفع القواعد من البيت، ويدل على علو شأن إبراهيم عليه السلام حيث جعل له هذه الآية.

*الثانية*: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ فلولا أن الله جعل له هذا الاحترام في نفوس الناس ما كان أمناً لداخله ولولا أن الله شرفه ما جعل له هذه المكانة في نفوس الناس.

*الثالثة*: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فقد فضله الله على المساجد كلها، حيث أوجب حجه على الناس كلهم إلا من لم يستطع إليه سبيلاً، والسبيل إليه: الطريق الموصل إليه، واستطاعته: استطاعة السير فيه حتى يبلغ البيت، وجاء في الحديث أنه «الزاد والراحلة» وهو في (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام).

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ

---

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كلهم الكافر وغير الكافر فلا نقص عليه بكفر الكافرين، ومن كفر بحكم الله في هذا البيت أي خالفه من أهل الكتاب المتعصبين للقدس أو من غيرهم.

وقيل: ومن كفر أي لم يحج مع استطاعته، ومعنى ﴿كَفَرَ﴾ كفر نعمة الله، وهذا مستقيم فيكون من تمام فضائل الحج مؤكداً للفضيلة الثالثة، ويؤكد الأول: أن السياق ما زال في أهل الكتاب، وقد يجاب: بأنه لا ينافي كون السياق فيهم، فهم مأمورون بالحج وبشرطه، وكافرون لنعمة الله بتركه.

﴿٩٨﴾ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ لماذا لا تراقبون الله وتخشونه، فتعملون هذه الجريمة التي هي أساس الفساد، كما أن الإيمان بآيات الله أساس الصلاح ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ حاضر ﴿عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي ليس بغافل عنه ولا غائب؛ وآيات الله التي يكفرون بها هي القرآن، ودليل نبوءة رسول الله ﷺ وغيرهما.

﴿٩٩﴾ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿لِمَ﴾ سؤال عن السبب الباعث في هذه الآية والتي قبلها ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ وهي تشير إلى أن البواعث ذميمة لا يحبون الاعتراف بها، كالحسد، والكبر.

والصد ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التحويل والمنع عن دينه الذي هو سبيله، أي الطريق إليه أو الطريق الذي شرعه لعباده ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ كقوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة:٤٧] ولعل هذا هو مساومتهم لرسول الله ﷺ

فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ

---

ليوافقهم في بعض الشيء، وذلك عوج لو فعله لكان قد جعله في ضمن سبيل الله، فهي محاولة أن يجعلوا في سبيل الله عوجاً، وسبيل الله مستقيمة لا تعوج أبداً؛ لأنه شرعها ﴿أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود:٤٥].

وإنما ذلك البغي عار على أهل الكتاب وخزي لأنهم ﴿شُهَدَآءُ﴾ على ما عندهم في التوراة، فهم يعلمون أن سبيل محمد ﷺ سبيل الله فمحاولتهم أن يجعلوا فيها عوجاً محاربة لدين الله، وهم يعلمون أنه دين الله ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم:٤٢].

وإذ قد تقرر تمردهم، تحول الكلام عن خطابهم إلى خطاب الذين آمنوا لتوجيههم إلى المحافظة على دين الله وحمايته وإقامته، فقال تعالى:

﴿١٠٠-١٠١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ هذا بيان لمحل الخطر ليحذروه ولا يغتروا بأن هذا الفريق من أهل الكتاب يدعون الإيمان بكتابهم، وفي قوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ إشارة إلى ما سبق من الوعيد على من ارتد، وتشنيع للكفر بعد الإيمان، من حيث هو بعد الإيمان، لأن المؤمن شأنه أن يكون قد عرف الحق وظفر بالنعمة العظمى وهي كونه في طريق النجاة من النار والفوز بالجنة فإذا تحول عن ذلك استبدل الباطل بالحق والشقاوة بالسعادة التي قد كان في طريقها وهي الخسارة العظمى.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إنكم في حالة بعد عن الكفر وهي أنكم قد آمنتم، وأعظم من ذلك معه أنكم ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ التي تهدي إلى

الإيمان وتخرج الناس من ظلمات الكفر إلى النور لأنها آيات تدل على الحق وتهدي إليه، ومع ذلك أن ﴿فِيكُمْ﴾ رسول الله حياً موجوداً بينكم يتلو عليكم آيات الله، ويظهر على يديه المعجزات الدالة على أنه رسول الله، وأنتم تشاهدون ذلك، ومع ذلك إن الله يثبتكم وينجيكم من الرجوع إلى الكفر إذا اعتصمتم به وتمسكتم بأسباب هدايته.

والاعتصام: هو اللجوء لطلب النجاة: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾ [هود:٤٣].

والهداية: الإرشاد إلى الطريق.

والصراط: الطريق الواضح القوي.

والمستقيم: الذي ليس فيه عوج، بل هو مستوٍ فقد هدى إلى طريق السلامة من الكفر أو إلى طريق السعادة والسلامة على الإطلاق.

والاعتصام بالله الذي هو التمسك بأسباب النجاة ينبغي لمن أراده أن يعرف أسباب النجاة ولعل بعضها متداخل أو متلازم، فالذي يجمعها هو تقوى الله وطاعته، لأن المعاصي قد تجر إلى الكفر من حيث تقسي القلب وتؤدي إلى الخذلان:

ومنها: الدعاء بطلب التوفيق والعصمة، وحسن الخاتمة، فإن أهل الجنة يتساءلون: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٦-٢٨].

ومنها: أربع جاء في الحديث أنها تحول الشقاء سعادة، وتقي مصارع السوء في حديث رواه المرشد بالله في (أماليه) بإسناده عن علي عليه السلام [ج٢ ص١٢٤] وهي: «الصدقة على وجهها، وبر الوالدين، واصطناع المعروف، وصلة الرحم» وفي كل واحدة روايات أخر ليس هذا مقام جمعها.

تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ

---

ومنها: حب أولي قربى رسول الله ﷺ، فقد جاء في الحديث: «والله لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله» وقال تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى:٢٣] ولا إشكال أن فائدة ذلك للأمة.

وروى الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): عن النبي ﷺ: «ما أحبنا أهل البيت أحد فزلت به قدم إلا وثبتته أخرى» وهذا واضح لأن المحبين لهم يتمسكون بهم، وفي (حديث الثقلين): «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

ومنها: حسن الخلق أوسع من اصطناع المعروف.

ومنها: أمور قد دخلت في تقوى الله، منها اجتناب الإصرار على المعصية ولا سيما الكبائر المتعمدة، ولعل منها عقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، والنميمة، والربا، واليمين الفاجرة، وشهادة الزور، وموالاة أعداء الله ومعاداة أولياء الله، وقتل المؤمن عمداً عدواناً؛ وليس الكفر بعيداً ممن عصى واعتدى لإمكان أن يكفر بأن يحكم بغير ما أنزل الله، أو يجعل الحكم لغير الله كما فعل أهل الكتاب الذين ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١] نسأل الله العصمة والتوفيق.

﴿١٠٢-١٠٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ كما ينبغي أن تتقوه لأن بطشه شديد وهو على

كل شيء شهيد، فنحتاج إلى الحذر الكامل من عذابه والمراقبة له الكاملة والزهد في لذات الدنيا وأغراضها لنستطيع الورع الكامل من المحرمات؛ لأن من قويت رغبته في الدنيا وطال أمله في الحياة قد لا يتورع تسويفاً للتوبة، وإن تورع عن الحرام الواضح فقد لا يقف عند الشبهة لغلبة الشهوة، وكذلك نحتاج إلى الاعتصام بالله والعمل بأسباب التوفيق كما مر.

وقد قيل: إن معنى (تقوى الله حق تقاته): أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، ولكن الله تعالى يقول في (صفة المتقين): ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فمن تاب ولم يصر فهو متق، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] فالمتقي التواب الذي لا يصر، والمتطهر: الذي لا يعصي، أو الذي يتطهر من النجاسات.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أمر بأن نكون مسلمين حال الموت؛ لأن الحكم للخاتمة، فمن لم تكن خاتمته الإسلام لم ينفعه إسلامه قبل فلا بد من استمرار الإسلام إلى الموت.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ لأجل تتقوا الله ولا تموتوا إلا وأنتم مسلمون (حبل الله) السبب الذي جعله لنا لنتمسك به وهو القرآن، فأوجب علينا أن نعتصم به لننجو، وأن نجتمع على الاعتصام به، ونهانا عن التفرق ولم ينهنا عن التفرق إلا وقد جعل لنا سبيلاً إلى ترك التفرق، والتفرق أن نكون فِرَقاً أو فريقين.

والسبيل إلى ترك التفرق: هو الرجوع إلى الكتاب، والسنة الجامعة، أي المعلومة التي يمكن الاجتماع بسببها لا المختلف في صحتها، وما وقع من خلاف في صحتها أو نسخها رجع فيه إلى القرآن؛ لأن الله جعل الكتاب والسنة حكمين.

وقد علم أن الكتاب محفوظ لا يقع فيه اختلاف يؤدي إلى التفرق، إلا إذا كان السبب هو الهوى والتعصب، كما قال تعالى في أهل الكتاب ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤] وقد جعل الكتاب وحده حاكماً في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] فدل على أنه يرجع إليه إذا وقع خلاف في صحة رواية أو نسخها.

والتفرق المنهي عنه يشمل التفرق بسبب الخلاف في المذهب، والتفرق بسبب الخلاف في السياسة، والتفرق بسبب الخلاف في بعض حاجات الدنيا، والتفرق بسبب سوء الظن وشيوع السباب، كما قال شاعر:

فإن النار بالعودين تورى ... وإن الحرب أولها كلام

وهذا قد يكون سببه غضب أو هوى فالواجب تبديل السوء في الظن بحسن الظن، قال تعالى: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠].

ولا يمكن اعتبار الفريقين أخوين إلا بواسطة حسن الظن والحمل على السلامة، وفتح باب التأويل لكل منهما، بل لا يمكن ترك التفرق إلا بذلك.

فالنهي عن التفرق دليل واضح على ما لا يتم إلا به، والسياق سياق المحافظة على الإسلام، فيفهم منه أن الأمر بأن نعتصم بحبل الله جميعاً والنهي عن التفرق من أجل المحافظة على الإسلام؛ لأنه يحتاج إلى حماية،

والحماية تحتاج إلى قوة ولا قوة مع التفرق؛ ولذلك قرن الله بين إقامة الدين وترك التفرق في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

وقد أكد تعالى أمره ونهيه بتذكيرنا بالنعمة في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ فاعتصموا بحبل الله جميعاً شكراً لهذه النعمة، واجتنبوا التفرق شكراً لهذه النعمة نعمة التأليف بين قلوبكم بحيث أصبحتم إخواناً في الله.

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بهدايتكم إلى الإسلام واتباع الرسول ﷺ ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾ حرفها وطرفها، قال في (لسان العرب): «والشفا: حرف الشيء وحده، قال الله تعالى: ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة:١٠٩] والاثنان: شفوان، وشفا كل شيء حرفه، قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾» انتهى.

فالمعنى: كنتم مشرفين على الوقوع في ﴿حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ ولعل الإنقاذ من الحفرة باعتبارهم في سببها مشرفين عليها لم يبق بينهم وبينها إلا أن يموتوا إذا لم يسلموا، فهم في هذه الحالة في ورطة مؤدية إلى الحفرة فالإنقاذ من سببها إنقاذ منها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي كذلك البيان لسبيل هدايتكم وثباتكم على الإسلام ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ لتفهموا ما تهتدون به ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لطريق الحق وهو الثبات على الإسلام حتى الموت والقيام بما كلفناه حتى الموت.

إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ

---

وفي الآية دلالة على بطلان قول من يدعي أن فهم القرآن خاص بالإمام أو الشيخ؛ لأن الخطاب للذين آمنوا كلهم، فدلت على: أن الله قد بين لهم القرآن كلهم، وإنما يؤتون في قلة الفهم من التقصير في تعلم العربية والتقصير في التفهم والوعي، أو من المعاصي التي هي ظلم إذا كثرت وأظلم القلب منها، قال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ الآيتين [محمد:١٦-١٧].

﴿١٠٤-١٠٥﴾ ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَلْتَكُن﴾ (اللام) فيه لام الأمر للذين آمنوا، أمِرُوا أمراً وكلفوا تكليفاً عاماً لهم أن تكون منهم ﴿أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ..﴾ الآية، قال الراغب: «والأمة كل جماعة يجمعها أمرٌ مَا» انتهى.

وهذه الآية تهدي إلى المحافظة على الإسلام، وإبقائه حياً بالدعوة إلى الخير، والخير هو طاعة الله، ومن الخير الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف:١٠-١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١] ومن الخير ما لا يتم الجهاد إلا به من الألفة واجتناب التفرق.

**ومن الخير:** تعلم الدين، وإعانة طلاب العلم بالمدارس، وتيسير الكتب والمشائخ، وترغيبهم في التعلم، واجتناب تنفيرهم وغير ذلك.

**ومن الخير:** نشر التعليم في جميع أقطار بلاد الإسلام بقدر الوسع، أو على الأقل نشر الإرشاد والمواعظ، والدعوة إلى التعلم، والتحذير من الجهل، والإنذار للمعرضين؛ والأمر بالمعروف يكون باللسان على مراتبه، والنهي عن المنكر يكون بما يستطاع من قول وفعل على مراتبه المذكورة في علم العقائد.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح: هو الظفر بالخير والفوز، فيدل على: أنه لا يفلح من لا يقوم بهذا الواجب؛ والإشارة لأهل الصفات المذكورة، أوْ لَهم ولمن أقامهم وحماهم و أعانهم من الذين آمنوا كلهم لأنهم مشاركون لهم حكماً وإن لم يشاركوهم فعلاً؛ وفي الآية دلالة ـ كما قلت ـ على تكليف الذين آمنوا كلهم بإيجاد أهل الصفات المذكورة بإيجاد أمة هذه صفتها وطريقتها وعادتها المستمرة، وعلى هذا يجب تعلم الدين ليمكن إيجاد أمة من العلماء تقوم بهذا الواجب.

وقد غلط من قال: إن هذا الواجب خاص بالعلماء؛ لأن الخطاب موجه إلى الذين آمنوا كلهم، فعلى الأمة أن يوجدوا علماء ليقوموا بهذا الواجب، فالعلم شرط أداء لا شرط وجوب.

*ومن فوائد هذه الآية:* وجوب تحضير المذكورين بأن يدعو بعضهم بعضاً إلى تحصيل هذه الأمة، ويتعاونوا بالمال والدفاع عنهم ويستمروا على ذلك، ويتخيروا الصالحين لذلك بالعلم والعمل والعقل والزهد في الدنيا والورع، الذين يحاولون جمع المسلمين باستعمال الرفق والتيسير، وحسن الظن، وفتح باب التأويل، والحمل على السلامة، دون من يشدد،

ويسعى في تفريق المسلمين وإلقاء العداوة بينهم والبغضاء عملاً بسوء الظن وبناء على المخالفات في المسائل الفرعية التي للناظر فيها نظره، والمخالفات بطريق الخطأ والنسيان والاضطرار.

وهؤلاء مع قلتهم لا يستطيعون القيام بالمهمة في كل البلاد، فالأولى أن يكون هؤلاء هم قادة الأمة ومراجعها ويضاف إليهم من ينقاد لهم ويعمل بما أمروه ولا يخالفهم، حتى تكون الأمة عبارة عن القائمين بالعمل من القادة وأتباعهم العاملين معهم وفق ما خططوا لهم، ولا بد لهم من رئيس هو خيرهم أعلمهم بواجب هذه الأمة وأقواهم على القيام به وأوسعهم صدراً وأبلغهم في الزهد والورع، وذلك لأنهم إذا لم يكن لهم رئيس اختلفوا وتضاربت أعمالهم وتعارضوا وضعفوا وفي الأخير يبطل أمرهم أو لا يحصل المأمور به في الآية.

ولما كان التفرق آفة الإسلام وآفة هذه الأمة التي تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أكّد الله النهي عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ نهى الله أن نكون مثلهم، فلا يجوز لنا أن نكون فِرَقاً أو فريقين، بل علينا أن نتوحد في دين الله، فالفرقة التباين والتحزب.

وأما الاختلاف فالمنهي عنه الاختلاف فيما قد جاءتنا فيه البينات، فإذا تعامينا عن البينات، واتبعنا الأهواء، واكتفينا بالشبهات والظنون بعد وجود البينات عندنا، فاختلفنا لأغراض سياسة أو تحاسد أو نحو ذلك من الأغراض الشخصية، كاتباع الأسلاف والتعصب لهم، فهذا هو المنهي عنه في الآية الكريمة، والمتوعد عليه بالعذاب العظيم، فلا يحكم بنجاة كل فرقة تنتمي إلى الإسلام مع مخالفتها الآيات البينات من القرآن، ولا بهلاك كل فرقة مع كون خلافها في مسائل غامضة الدلائل بعض الغموض.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

---

﴿١٠٦-١٠٩﴾ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ﴾ اذكر يوم تبيض ﴿وُجُوهٌ﴾ أي يكون لها نضرة النعيم، ويظهر فيها البشرى والسرور لأهلها، كما قال تعالى في (سورة المطففين): ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [آية:٢٤] ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ من الخوف والهم والغم وسوء الحال، قال الله تعالى في (سورة عبس) و (سورة يونس) ما يدل على هذا أو قريب منه. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أي يقال لهؤلاء المذكورين وهم أهل وجوه مخصوصون: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

فدل على أنهم صائرون في العذاب ذائقون له بما كانوا يكفرون في الدنيا، ودل على أنهم يوبخون في موقف السؤال، وهذا تأكيد للأمر بالثبات على الإسلام، والنهي عن الموت على غير إسلام، ودليل على أن من المسلمين من سيموت على الكفر وهو في كل من كفر بعد الإيمان ومات على الكفر بأي أصناف الكفر، وبعضها لا يستبعد إلا بعصمة الله كما مر.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهم الذين ثبتوا على الإيمان حتى ماتوا عليه، فهم في ﴿رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ في الموقف وفي شوقهم إليه ومنه إلى الجنة، وفي الجنة هم في رحمة الله ﴿خَٰلِدُونَ﴾ لا يموتون، ولا تفارقهم رحمة الله، وهي السعادة الدائمة التي تستحق الصبر في الدنيا وحتى الموت ليبلغها الصابر.

ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ

---

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما مر في هذه السورة من الآيات، فهي آيات الله يتلوها على عبده ورسوله محمد ﷺ بالحق لأن كل ما فيها حق من الله فكل ما كلف عباده فهو حق وعدل وحكمة لم يظلمهم بتكليفهم، ومن عصى فعذبه فهو الذي أوقع نفسه في المعصية التي هي سبب العذاب، فليس عذابه ظلماً قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فله الملك وحده لا شريك له، وله الحكم في عباده يأمرهم وينهاهم كيف شاء، لا ينازعه منازع ولا يعارضه معارض، وإليه ترجع أمورهم لأنه ربهم، لا إلى غيره في الدنيا والآخرة، أما أمور الدنيا فترجع إلى كتابه وسنة رسوله ولو بالقياس الذي ثبت بهما حكم أصله وعلته.

وأما أمور الآخرة فهو الذي يحكم فيها وينفذ أحكامه ولا يتدخل أحد لمنازعته بل الملائكة والنبيئون يردون الأمر إليه ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ و﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١] حتى الشفاعة لا تكون ﴿إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٣] ورضي.

بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾

---

﴿١١٠-١١٢﴾ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ لما أمر الله أن يكون من الذين آمنوا أمة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ بيّن بهذه الآية، أن الأمة المأمور بها موجودة فيهم، فلم يأمر بها لعدمها في الحال ولكن للمستقبل الذي تكون هذه الأمة قد مضت قبله.

وقوله: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ لأنهم أخرجوا من ديارهم وأمروا بالهجرة لإعزاز دين الله وإظهاره في أرض الله ليسعد الناس به إن اتبعوه، فالخطاب لرسول الله ﷺ ومن معه من أهل الصفات المذكورة الأخيار الذين يستحقون أن يوصفوا بأنهم كانوا مستمرين على أنهم خير أمة.

أي قد كانوا في الماضي حتى نزول الآية؛ ولا إشكال أنهم مخصوصون بمن نصر الإسلام وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر لاجتماع مادلت عليه الآية فيهم:

الأول: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾.

الثاني: ﴿أُخْرِجَتْ﴾.

الثالث: ﴿لِلنَّاسِ﴾.

الرابع: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

وهي واضحة في رسول الله ﷺ، وعلي، وحمزة، وجعفر بن أبي طالب ونحوهم، ولا يدخل فيها من لم يكن أسلم عند نزولها ولا من لم يسلم إلا بعد الفتح وسقوط الهجرة عن أهل مكة، ولا من لم ينصر الإسلام أو لم يأمر بمعروف وينه عن منكر.

وقد قيل: إنها نزلت في أهل البيت عليهم السلام لعله بالمعنى الذي ذكرت، والصواب: أنها فيهم وفيمن كان معهم على طريقتهم في جمع الأوصاف المذكورة.

بحمد الله كنت فهمت هذا كما ذكرت، وبعد ذلك وجدت في (مستدرك الحاكم) [ج٢ ص٢٩٤] بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة، هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي في (تلخيصه)، وصواب العبارة: هم رسول الله ومن معه من المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، ولعل الرواة غيروا، أو أن ابن عباس غفل عن عد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم.

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وذكر الإيمان بالله؛ لأنه أساس الدين ولا يقبل شيء من الدين إلا به، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩].

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ لينقذوا أنفسهم من النار ويفوزوا بالجنة ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الذين لم يؤمنوا أو آمنوا ثم نافقوا أو فارقوا الإيمان منهم من نافق ومنهم من في قلبه مرض ولم ينافق.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ لن يضركم الفاسقون من أهل الكتاب إلا أذى، ولعل الحصر للدلالة على أنهم لن يستطيعوا ردكم عن دينكم أعني أن الحصر إضافي، وأضاف إليه أنهم إن قاتلوا الذين آمنوا فروا ثم لا ينصرون بل تقهرونهم؛ ويؤخذ منها أن لو صلح المسلمون ما غلبتهم إسرائيل وأمريكا والله أعلم.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

﴿ضُرِبَتْ﴾ على هؤلاء الكفار من أهل الكتاب اليهود ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ كما تضرب الخيمة على سكانها، و﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ ضد العزة، فهي العجز عن الدفاع.

﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي أدركوا وظفر بهم ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ﴾ إلا معتصمين أو متمسكين ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وقد فسر بالذمة، وأمنهم بسبب الجزية، ولا يبعد أن الحبل من الله ومن الناس يعم الحالات العارضة بأن يسلطوا بواسطة قوة من دولة أخرى، فمن الله التسليط ومن الناس الحماية مثلاً حماية دول النصارى لإسرائيل وإمدادهم لها بالسلاح وغيره، وهذا لأن قوله تعالى: ﴿بِحَبْلٍ﴾ نكرة تصلح لكل وسيلة أمن وعزةٍ مّا.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ احتملوا غضباً، ولعل سبب هذا التعبير أن الإنسان يبوء إلى بيته حاملاً بعض حاجاته أو حاجات أهله أو بيته، فيقال: باء بكذا، أي رجع حاملاً كذا، ثم استعمل في الحمل ولو مجازياً، ولعل فيه تَهَكُّماً بهم من حيث أن الأصل فيما يبوء به الإنسان أنه فائدة استفادها وعاد بها إلى بيته، فاستعماله في المضرة والخسارة تهكم ـ والله أعلم.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ وهي سكون وضعف بسبب الذلة، فقد خيَّمتْ عليهم المسكنة، وصارت لهم مسكناً مجازاً عن اشتمالها واستمرارها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ضرب الذلة والمسكنة عليهم عقوبة عاجلة بسبب أنهم تكرر منهم مراراً الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء بغير حق، فقد كفروا بالآيات مراراً وتكراراً، ولعل المراد اليهود من أهل الكتاب لأنهم كانوا في المدينة المنورة وحولها وهو الأرجح، أو هم والنصارى، وكفر النصارى السابق: كفرهم بدلائل توحيد الله، ودلائل أنه لا يشبه المخلوقين، وغير ذلك مما لا نعلم ولكنه ضعيف.

وكفر أهل الكتاب من اليهود والنصارى في الأخير كفرهم بالقرآن، وما جاء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الآيات، وقتلهم الأنبياء في الماضي وهو بغير حق، ولا يتصور إلا أن يكون بغير حق، ولكن فائدة هذا القيد تحقيق عبوديتهم لله وأن قتلهم لو كان بحق ما كان إثماً؛ وفيها فائدة أن لا يتوهم أن القتل جريمة على الإطلاق، بل قد يكون غير المعصوم مستحقاً له فلا يكون قتله جريمة.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجرم الشنيع والتجبر الفضيع الذي يستبعد وقوعه من أهل كتابٍ منتمين إلى رسول فيهم الربانيون والأحبار وقعوا فيه، أي في ذلك المنكر ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ من قبل وتكرر منهم من العدوان، فإنهم بسبب ذلك خذلوا، وقست قلوبهم واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله وورطهم في أكبر مما كان منهم وهو التكذيب بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق.

ومما يدل على عظم جريمة قتلهم الأنبياء ما رواه الحاكم بستة أسانيد، عن أبي نعيم: حدثنا عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أوحى الله تعالى إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم: إني قَتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإني قاتل بابن ابنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قال الذهبي في (تلخيصه): قلت: على شرط مسلم، انتهى.

وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لتحذن حذو من قبلكم» فقد حذت هذه الأمة حذو أهل الكتاب بقتل الذين يأمرون بالقسط من ذرية رسول الله، كالإمام زيد بن علي، وابنه يحيى، ومن قتل بنو العباس، ومن بعدهم، ولعل تلك الجرائم وإن هانت عند النواصب هي سبب تسليط التتار على هذه الأمة وتمزيقهم وتسليط أعدائهم ـ والله أعلم.

يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ

---

﴿١١٣-١١٤﴾ ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ قد تقدم قوله تعالى: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ولكن أعيد ليفصل الكلام في المؤمنين.

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة جمعهم الإيمان الصادق ﴿قَآئِمَةٌ﴾ غير قاعدة لعزتهم بالإيمان، فهم مجاهدون في سبيل الله بخلاف المتخلفين الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:٩٠].

﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يقرؤون آيات القرآن الذي أنزله الله وجعله آيات للناس وهم يصلون، وسمى صلاتهم سجوداً لخضوعهم فيها لله، كما قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة:٥٨].

و﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاته أي يكررون الصلاة في الليل في أوله وأثنائه وآخره، وأشار بقوله: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلى ما في القرآن من الهدى والنور؛ لأن الآيات الدلائل.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إيماناً كاملاً على يقين بتوحيده وعدله وما تدل عليه أسماؤه الحسنى مما يستلزم أن يخشوه ويراقبوه ويخشعوا له. ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الذي هو يوم الحساب والجزاء ما يستلزم الاستعداد له خوفاً وطمعاً ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ في الأعمال الصالحات لرغبتهم فيها وحرصهم عليها، فيستكثرون منها بقدر وسعهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل الصفات المذكورة ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فالصفات المذكورة هي الصلاح أو عنوان الصلاح.

عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا

---

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ قُرئ ﴿يَفْعَلُوا۟﴾ بالياء المثناة من تحت والتاء المثناة من فوق وكذلك ﴿يُكْفَرُوهُ﴾ فالقراءة بالياء على أصل السياق في المؤمنين من أهل الكتاب، أما القراءة بالتاء المثناة من فوق فهي فيهم ـ أيضاً ـ لكنه التفات إليهم، أو ليعم المؤمنين كلهم، فلن يكفروا خيراً فعلوه بل يشكرون على القليل والكثير.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين هم أهل لأن تقبل أعمالهم ولا يكفروا منها شيء، و كان عليماً بالمؤمنين من أهل الكتاب أهل الصفات المذكورة لأنه عليم بالمتقين منهم ومن غيرهم.

﴿١١٦-١١٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل الكتاب وغيرهم لأنهم كذبوا بآيات الله لن تكفيهم ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ شيئاً ﴿مِّنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ﴾ فلن تدفع عنهم نصيباً من النار، كقوله تعالى: **﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾** [غافر:٤٧] ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أهلها الذين يبقون فيها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ باقون لا يموتون.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ فلن تغني عنهم أموالهم لا بالإنفاق العاجل، ولا يوم القيامة لو فرض أنها تكون يومئذ باقية معهم،

يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ

---

فإنفاقها في الدنيا ضائع لا ثواب فيه؛ لأنه مَقْرونٌ بالمحبطات من كفرهم وجرائمهم، فمثله في حبوطه مثل زرع أرسل الله عليه ريحاً ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ ذات برد شديد عقوبة على معاصيهم التي هي ظلمهم أنفسهم فأهلكته.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بـما يصدر منهم في الحين بعد الحين من الكفر وغيره من الجرائم المحبطات لإنفاقهم، وهذا السياق في الكافرين، وفي التحذير من الكفر، وفي الأمر بالثبات على الإسلام يستدعي التحذير من أهل النفاق لأنهم ضر على المسلمين ومحاربة للإسلام، فقال تعالى:

﴿١١٨-١١٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وبطانة الرجل: خاصته وصفوته وثقته الذي سره عنده ويثق به ويعتمده، فبطانة الرجل الذين يستبطنون أمره» انتهى المراد.

وقال الراغب: «وتستعار البطانة لمن تختصه بالاطلاع على باطن أمرك قال ـ عزَّ وجل ـ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أي مختصاً بكم يستبطن أموركم» انتهى المراد.

وقوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي من دون المؤمنين، بحيث تكون البطانة أدخل من المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٧] وقوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف:٩٠] أي بينها وبينهم، وبينهم وبينها .

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ لا يقصرون في إفساد عليكم، أي يجتهدون في الإفساد عليكم أو في إفسادكم ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أحبوا عنتكم أن تعنتوا، أو ما قد وقع عليكم من عنت، فهم كانوا محبين أن يقع عليكم، والعنت: الضرر الشديد، وهذا كشف لسرهم لئلا يغترّ بهم المؤمنون إذا كانوا يوهمون أنهم يحبونهم.

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بما يبدر منهم من الكلام الذي يدل على البغضاء، وفي هذا الكلام تصوير بليغ لكثرة ما في قلوبهم من البغضاء، كأنها لكثرتها قد بدت من أفواههم، وهو كلام قيِّم، لأن البغضاء الخفيفة قد يمكن كتمها، أما الشديدة فلا بد معها من فلتات لسان تدل عليها الحازم اللبيب ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما قد ظهر بدلالة الكلام ـ أي كلامهم.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فلا عذر لكم بعد البيان الواضح الكافي لمن يعقل، وفي قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إيقاظ من الغفلة وتحريك للحذر، ودلالة على أن من لم يفهم بعد هذا البيان فليس بعاقل؛ وفيه دلالة على أن القرآن خطاب عام للمسلمين لا يختص بفهمه الإمام ولا الشيخ، بل هو خطاب لكل من يعقل.

﴿هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بيان للغلط في حب المنافقين.

يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ

---

﴿هَٰٓأَ﴾ حرف تنبيه مناسب لغفلة المؤمنين عن نفاق البطانة، وأنهم يحبونها توهماً أنها مؤمنة وهي لا تحب المؤمنين، والحال مختلف فهم مؤمنون بالكتاب كله، وهي لا تؤمن به كله، وأعظم من ذلك أنها تنافق فتظهر لكم الإيمان كذباً ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ عنكم ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ لفرط حسدهم لكم وعداوتهم.

و﴿ٱلْأَنَامِلَ﴾ رؤوس الأصابع، وعضها: جعلها في أفواههم والاعتماد عليها بأسنانهم، وتعدّى عضّوا بقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمُ﴾ لتضمنه معنى اغتاظوا أو نحوه، كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف:٤٢] أي حزيناً أو نحوه.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بالموت من غيظهم، وخطابهم بهذا الدعاء ليعلموا أن الله قد أطلع نبيه على ما يخفون في صدورهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فقد علم ما في صدوركم من الغيظ، وأظهرنا عليه.

﴿١٢٠﴾ ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ الحسنة هنا: بمعنى النعمة، مثل: النصر، والغنائم، ومعنى ﴿تَمْسَسْكُمْ﴾ تتصل بكم وتبلغكم، ومعنى ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تحزنهم ضد تسرهم ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ﴾ مصيبة ﴿يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ لأنها ساءتكم.

ومعنى ﴿يَفْرَحُواْ﴾ يجتمع لهم بها سرور واطمئنان إلى أن أحوالكم متدهورة وأن دينكم سيذهب ولأخذ الثقة أو الاطمئنان أو نحوه في معنى

الفرح كان الفرح بما آتانا من حاجات الدنيا مذموماً، قال تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣] وفي قارون: ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] فهو كقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس:٧].

ولذلك كان الفرح بالدنيا مذموماً كالاطمئنان إليها، وكان الفرح بالحق الذي تحمد عقباه محموداً، قال تعالى: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس:٥٨]؛ أما السرور بالنعمة فهو طبيعي، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «من أوجب المغفرة إدخالك السرور على أخيك المؤمن».

﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ لأنهم يكيدون المؤمنين لإبطال أمرهم ومحو دينهم، والمؤمنون مع الصبر والتقوى مكتوب لهم النصر، قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:١٢٣] وقال تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلا يدعه ينالكم، بل يصرفه عنكم أو يبطله، وهو مثل للسيطرة عليه والغلبة لأهله.

ولما انتهى زجر المؤمنين عن مؤاخاة المنافقين والاطمئنان بهم لأنهم العدو الأكبر، أتبع سبحانه ذلك قصة معركة أحد، وما كان فيها من أعمال المنافقين، وما كان فيها من ضرر المعصية، وما كان فيها من النصر قبل المعصية، وقد توسعت قصتها واشتملت على فوائد كثيرة وتربية دينية، فقال تعالى:

لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

---

﴿١٢١-١٢٨﴾ ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿تُبَوِّئُ﴾ تجعل أماكن يثبتون فيها، وتأمرهم أن يتخذوها مباءة يرجعون إليها كلما فارقوها لحاجة، فليس لأحد أن يترك مكانه المعيّن له، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأمرك لهم بالثبات في أماكنهم عليم بمن يطيع ومن يعصي، وسميع بكل قول ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شيء.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هاتين الطائفتين يقول المرتضى عليه السلام: سئل عن هذه المسألة أبي الهادي إلى الحق رحمه الله. فقال: هما بنو سلمة وبنو حارثة، فكانت بنو سلمة نحو سلع، وبنو حارثة نحو أحد حين عبّأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس وذلك يوم [الخندق]» انتهى.

قال الشرفي: «ويدل قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي ناصرهما على أن ذلك لم يكن منهما معصية، وعلى أنهما لم يعزما على ترك الجهاد وإنما هو حديث نفس...» الخ.

وقول الإمام الهادي عليه السلام: «نحو أحد» لعله يعني تفشلا نحو أحد، و(أحد) هو جبل حول المدنية وعنده كانت المعركة فمعنى همت أن تفشلا حدثتهما أنفسهما بالفرار، ولعل سبب ذلك ما وقع من الخلاف في الرأي ورجوع عبد الله ابن أبيّ ومعه جماعة إلى المدينة فنظرتا إلى قلة المجاهدين في جنب كثرة العدو.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ المتولي لشأنهما، المحسن لرعايتهما، المدبر لهما ما فيه الخير لهما من النصر أو الشهادة أو غير ذلك؛ لأنه عالم الغيب، والقادر على كل شيء، وهو لا يريد لأوليائه إلا ما هو خير لهم، فعليهم أن يكلوا أمرهم إليه، ويتكلوا عليه في الجهاد، ولا يترددوا فيه بعد ما أمروا به؛ لأنه خير لهم ولا يكون فيه لهم إلا ما هو خير لهم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة:٥١-٥٢] فهذا معنى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

*وفائدة هذا*: أن يجاهدوا باذلين أنفسهم لله مسلمين لأمره لا يتوقفون حتى يثقوا بالنصر وقهر العدو، فتفسير ﴿وَلِيُّهُمَا﴾ بقوله: ناصرهما في هذا السياق وأمثاله، خلاف الظاهر عندي.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿أَذِلَّةٌ﴾ بالفقر، وقلة العدة للجهاد مع قلتهم في العدد، فالأذلة هنا مقابل الأعِزّاء، وذلك لأنهم كانوا مستضعفين لقلة عددهم وكثرة أعدائهم في الأرض، وإنما اعتزوا بالجهاد في (بدر) والصبر، حتى نصرهم الله وأعزهم وأخرجهم بنصره من الذلة إلى العزة.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ باجتناب معاصيه من الفشل عن الجهاد وغيره ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ بالتقوى، فالجهاد وسائر الطاعات من الشكر ونعمة النصر يوم بدر يجب عليكم شكرها فاتقوا الله رجاء أن تشكروا النعمة.

﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ ﴿إِذۡ﴾ هذه هي الثالثة في هذه القصة، فلعل الأولى منصوبة بـ(اذكر) وما بعدها بدل من الأولى، تقول يا محمد لتشجع المؤمنين: ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ﴾ لتثبتوا على الجهاد ﴿أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم﴾ اللطيف بكم الذي هو وليكم ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ من السماء بأمر الله، ينزلهم إمداداً لكم وتأييداً.

﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ألا يزيد على ثلاثة آلاف؟ فأجيب: بلى يزيد بأن يجعل المدد خمسة آلاف من الملائكة.

﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أهل سمات وعلامات، والسمة: العلامة، وكانوا يتخذون السمات لتحدي الأبطال، مثل ريشة يغرزها البطل في عمامته، أو عصابة حمراء يعصب بها رأسه، والوعد هذا مشروط بالصبر والتقوى؛ لئلا يبطل الابتلاء بالجهاد وبذل النفوس لله فالإمداد متوقف على أن يصبروا في الجهاد ويتقوا الله فلا يخالفوا أمراً من أوامر الله ورسوله. وأما الآية التي قبلها فليس فيها وعد بالمدد، وإنما هو عرض عليهم وسؤال: ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ﴾ وليس ذلك وعداً، إنما الوعد في الثانية، ولكنه مشروط بالصبر والتقوى.

وقوله: ﴿وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي الأعداء إن أتوكم في فورهم هذا، أي لم يتراخ إتيانهم ولم يتأخر، ولعلهم قد أقبلوا فكان فورهم مواصلتهم الهجوم حتى يأتوا المؤمنين.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وما جعل هذا الوعد المشروط ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ تستبشرون بها أي تسرون، وفي هذا السرور معونة وتخفيف من الشدّة، فهو رحمة.

﴿وَ﴾ جعل الله هذا الوعد ﴿لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ لأنه يفيد: أنكم إذا صبرتم واتقيتم، جاء المدد وعند ذلك ترجون النصر، ومقتضى ذلك: أنكم تفهمون من هذا الوعد أنكم لن تغلبوا إن تصبروا وتتقوا وذلك سبب لاطمئنان قلوبكم وذهاب القلق الذي سببه قلتكم وكثرة الأعداء.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من الملائكة، ولا من كثرة العدد، لأن النصر يكون بتقوية القلوب والأبدان، وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء المخذولين وهذا لا يقدر عليه إلا الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا ينال ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يفعل ما هو حكمه وخير، وفيه إشارة إلى أنه إن نصر المؤمنين فالحكمة تقتضي النصر وإن حبس عنهم النصر وأصيبوا فالحكمة تقتضي ذلك.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ وعدكم الله ذلك الوعد الذي يكون معه النصر إن تم شرطه، فينصركم ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ كأنهم شبهوا بالجسد الواحد، فقتل بعضهم، وأسر بعضهم، قطع لطرف منهم لأنهم يفصلون عنهم بالقتل والأسر.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ يذلهم ويبطل قوّتهم، قال في (الكشاف): «ويقال: كبته: بمعنى كَبَدَه، إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة» انتهى. وفي (لسان العرب): «وقال الفراء: كبتوا: أي غيظوا واحزنوا [كذا] يوم الخندق كما كبت من قاتل الأنبياء قبلهم، قال الأزهري: وقال من احتج للفراء: أصل الكبت الكَبْد فقلبت الدال تاء أخذ من الكبد وهو معدن الغيظ والأحقاد، فكأن الغيظ لما بلغ مبلغه أصاب أكبادهم فأحرقها» انتهى المراد.

وقال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «الكبت في اللغة: صرع الشيء على وجهه، يقال: كبته فانكبت، هذا تفسير، ثم يذكر والمراد منه الإخزاء والإهلاك واللعن والهزيمة والغيظ والإذلال وكل ذلك ذكره المفسرون» انتهى.

قلت: المناسب للسياق من هذه المعاني الإخزاء والإغاظة والإذلال فأما اللعن فهو غير داخل في الترديد بين قطع طرف أو كبت لأنهم كلهم ملعونون، والإهلاك لا يناسب السياق؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ وهي مناسبة للمعنى الأصلي سواء كان هو الكبت بمعنى إصابة الكبد ـ بالدال ـ أو كان المعنى الأصلي هو الصرع على الوجه أي الكبُّ ـ بالباء الموحدة المشددة ـ وقوله: ﴿فَيَنقَلِبُواْ﴾ أي يرجعوا عن القتال ﴿خَآئِبِينَ﴾ لم ينالوا خيراً ولا نالوا مرادهم.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يهديهم للإسلام ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ بعذاب من عنده، فالأمر لله يفعل ما يشاء و﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس شريكاً في شيء من أمرهم، بل أمرهم إلى الله وحده وليس على الرسول إلا البلاغ، وامتثال أمر الله في الجهاد وقبول إسلام من أسلم والقيام بما كلفه الله، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي يستحقون التعذيب.

*فائدة*: قال في (المصابيح) قُبَيْلَ تفسير قوله الله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾: «قال الحاكم ـ يعني الجشمي صاحب التفسير الكبير ـ: جميع مغازي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ست وعشرون غزوة، قاتل في تسع منها، بدر الكبرى كانت يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة، وذلك أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخبره بعير أبي سفيان المقبلة من الشام

ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٣٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ

---

فخرج في خِفّ من أصحابه، وبلغ ذلك أبا سفيان فغيّر الطريق وبعث النفير إلى مكة فخرجوا حتى أتوا بدراً فرأى بعضهم الحرب وبعضهم الكفّ ثم اتفقوا على الحرب فقُتِلَ جماعة وأسِرَ جماعة منهم العباس ثم فدى الأسارى، ومنها أحد في شوال سنة ثلاث، والخندق وقريظة في شوال سنة أربع، وبني المصطلق، وبني لحيان في شعبان سنة خمس، وخيبر في سنة ستّ، والفتح في رمضان سنة ثمان، وحنين والطائف في شوال سنة ثمان، وأول مغازيه بدر وآخرها تبوك. وسراياه ستة وستون» انتهى.

قوله: عِير أبي سفيان كان الله قد أباحها، ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ...﴾ الآية من (سورة الأنفال) [آية:٧].

وقوله: فقتل جماعة وأسر جماعة: أي من المشركين، وقوله: والفتح في شهر رمضان: أي فتح مكة المكرمة، وقد جعل الخندق في السنة الرابعة، وقال شيخنا العلامة مجد الدين بن محمد في (التحف) [ص١١]: «وفي الخامسة يوم الأحزاب ...» إلخ ، ومثله في (سيرة بن هشام) وفي قول الحاكم: خيبر في سنة ست، وفي كلام شيخنا في (التحف) [ص١١]: سنة سبع وهو الذي في (سيرة ابن هشام) وفي (سيرة ابن هشام): «أن غزوة تبوك في رجب سنة تسع» انتهى.

﴿١٣٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي لله وحده كل العالمين، لا شريك له فيهم ولا في بعض منهم ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لأنهم عباده، لا منازع له في قضائه فيهم، ولا معقب لحكمه.

تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ

---

وقد بيّن في كتابه من يشاء أن يغفر لهم ومن يشاء أن يعذبهم ؛ وليست الآية مسوقة لبيانهم ولا لإبطال بيانهم، ولا تعارض بينها وبين بيان من يشاء لهم المغفرة أو العذاب.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فمن أسلم وأصلح بعد كفره قبل توبته ولو كان ممن قد حارب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿١٣٠-١٣٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال في (البرهان) - أي الإمام أبو الفتح الديلمي عليه السلام، أحد أئمة الزيدية له ترجمة في (التحف) -: بل يريد بالأكل الأخذ، والربا: زيادة القدر في مقابلة زيادة الأجل وهو ربا الجاهلية المتعارف بينهم بالنَّسا، وهو أن يقول عند حلول الأجل: إما أن تعطيني وإما أن تربيني، فإن لم يعطه ضاعف ذلك عليه، ثم يفعل ذلك عند حلوله من بعد حتى يصير أضعافاً مضاعفة» انتهى

وقال في (الكشاف): «نهى عن الربا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه كان الرجل منهم إذا بلغ الدَّين مَحِلَّه زاد في الأجل فاستغرق بالشيء الطفيف مال المديون» انتهى

قلت: وهذا واضح وقد حرم الله الربا بما في (سورة البقرة) من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا...﴾ إلى قوله: ﴿.. وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ [آية:٢٧٥-٢٧٩] وفي ذلك أحاديث مشهورة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أمر بالتقوى بترك المعاصي كلها من الربا وغيره، وهو تأكيد للنهي عن الربا.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله ـ يعني القاسم ابن محمد عليه السلام ـ : دلت على تحريم الربا، وعلى وجوب تقوى الله سبحانه وهي أن يلزم المؤمن ما أوجب الله ويجتنب ما حرم الله» انتهى.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيه وجوه:

*الوجه الأول*: أن المراد بالكافرين المستحلين للربا، الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة:٢٧٥] فحذر الله من استحلال الربا، لأن بعض المسلمين كانوا قد أَلِفُوا الربا في الجاهلية وصار عندهم أمراً مأنوساً، فحذرهم من الاستمرار على التساهل به.

*والوجه الثاني*: أن المراد بالكافرين: الكافرون بنعمة الله، لأن الربا من أعظم الكفر لنعم الله، لأنه استعمال المال الذي أنعم الله به على عبده في معصيته البشعة الشنيعة.

*الوجه الثالث*: أن المراد بالنار التي أعدت للكافرين: نار الآخرة جملتها، فقد أعدت للكافرين الجاحدين وغيرهم، لكل منهم على قدر جرائمه كما دل عليه القرآن الحكيم وكثير من الأحاديث النبوية كالوعيد على آكل الربا، فالمعنى أنكم إن أكلتم الربا دخلتم تلك النار وإن لم تكونوا من الكفار.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ فيما قد أمر الله به ونهى، وفيما يستقبل من أمر الله ونهيه، فليس لمؤمن الخِيَرَةُ من أمره فيما قضى الله ورسوله.

عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدۡ خَلَتۡ

---

﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ بصرف عذابه عنكم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ**﴾ [الأنعام:١٦].

﴿١٣٣-١٣٦﴾ ﴿سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ قرئ ﴿سَارِعُوٓاْ﴾ بدون العطف، وقرئ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ بـ(الواو) والمسارعة، والمبادرة، والمسابقة متقاربة يجمعها تعجيل العمل و﴿مَغۡفِرَةٖ﴾ نكرة يراد بها مغفرة خاصة، وهي المغفرة في الآخرة، المغفرة الخاصة للمتقين؛ لأن الناس في الدنيا يشتركون في مغفرةِ المحسن والمسيء، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ**﴾ [الرعد:٦] وقال تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً**﴾ [الكهف:٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ يدل على أن المغفرة صرف عذاب جهنم، فكأنه قال: سارعوا إلى صرف النار عنكم وإدخالكم الجنة.

وقوله: ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ ترغيب عظيم، يفيد: أن للواحد من أهلها مملكة لقلّة أهلها مع سعتها، وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ تفسير للمسارعة أنها المسارعة إلى التقوى وفيها، ثم بيّن المتقين لأن أصل

المتقي من يتخذ لنفسه وقاية تقيه فيختلف معناه باختلاف ما يتّقى فبيّن أن المتقي هو المطيع، إلا أن أهل الطاعة طبقتان:

*الطبقة الأولى*: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فهذه درجة المحسنين، ولن يبلغ هذه الدرجة إلا الأخيار، كما قال الشاعر:

ذريني أنل ما لا ينال من العلى    فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل

والمقصود بهم: المؤمنون، ولذلك قال في آخرها: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ التاركين لما يحبط الأعمال ويمنع قبولها، فالصفات المذكورة عناوين لفضلهم، وعلامات لكمالهم.

و﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾ حال السرور بسعة الرزق ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ حال الإقلال والحاجة، فهم ﴿يُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ [الحشر:٩] والمراد الإنفاق في وجوه الخير المقربة إلى الله.

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ الذين يصبرون ويمنعون أنفسهم من فعل ما يشفي الغيظ من الانتقام، قال في (المصابيح): «قال المبرد: تأويله أنه كتمه على امتلائه، ومنه يقال: كظمت السقاء: إذا ملأته وشددت عليه، والكاظم الممتلئ غيظاً» انتهى المراد، أي الممتلئ الذي يحبسه كما يشد على القربة.

﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ تقرباً إلى الله، ولذلك يعفو عن القريب والبعيد، والغني والفقير، والصغير والكبير، والمحسن والمسيء، يصل من قطعه، ويعطي من حرمه، ويعفو عمن ظلمه إلا فيما شرعه الله من الحدود والآداب فيفعله لله لا انتقاماً لنفسه.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وهؤلاء منهم، فما أعظم شأنهم وأسعد حالهم في الآخرة، وقد فسر الله المحسنين في قوله تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ

لِلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان:٣-٥].

﴿وَ﴾ *الطبقة الثانية* من المتقين: ﴿الَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَعَلُواْ فَاحِشَةً﴾ فعلوا معصية فاحشة زائدة في قبحها ﴿أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأي ذنب تعرضوا به لعقوبة من الله ﴿ذَكَرُواْ اللَّهَ﴾ الرقيب عليهم العليم بما يصنعون، الذي إليه يرجعون، المنعم عليهم نعماً لا تحصى، ذكروه ذكراً بقلوبهم أدّاهم إلى الاستغفار وترك الإصرار على العصيان؛ لأجل أنه تفريط في جنب الله.

والاستغفار: طلب الغفران، والمراد به: ما تطابق عليه القلب واللسان، والمراد: استغفروا الله أي طلبوه الغفران ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ولذلك طلبوه ولم يطلبوا غيره أو يتكلوا على غيره كما يتكل المشركون على شفاعة شركائهم ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن قد عصوا به ربهم، فهم متعمدون له عالمون أنه معصية فخرجوا عنه بترك الإصرار وترك الإصرار: بالإضراب عنه، والعزم أن لا يعودوا إليه أبداً، وبالاستغفار، فالتوبة أمران هما المذكوران، فأما الندم على ما مضى من المعصية فهو شرط؛ لأنه لا يخرج عن الرضى بالمعصية إلا بالندم على فعلها فهو شرط في ترك الإصرار، لأن من الذنب الرضى بالذنب.

قال أمير المؤمنين عليه السلام فيما روي في (نهج البلاغة) [ج٣/ ص١٥٤]: «الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلى كل داخل في باطل إثمان: إثم العمل به، وإثم الرضى به» انتهى.

وهو موافق لكلام له آخر، حاصله: أن الرضى بالمعصية مشاركة فيها، واحتج لذلك بقول الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء:١٥٧] فعمهم والذي باشر عقرها واحد منهم، قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩].

وفي كتاب (الاعتبار وسلوة العارفين) ما لفظه: «وعن القاسم بن إبراهيم عليه السلام: التوبة: الندم، والعزم على ألا يعود إلى شيء من المعاصي والإخلال بالواجب، وذلك مروي عن علي بن موسى الرضا عليه السلام وعليه الاعتماد، فالتوبة: الندم، والعزم على أن لا يعود إلى أمثاله في القبيح أو الإخلال بالواجب شرط» انتهى.

قلت: والأولى أنهما ركنان للخروج من الإصرار لتحقيق الخروج عن الإصرار وقد دلت الآية دلالة واضحة: على أن الاستغفار وحده لا يكفي بل لابد من ترك الإصرار وإلا لم يكن العاصي من المتقين، وهذا واضح وعلى هذا فلا يقبل الاستغفار مع الإصرار؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] والمصر ليس مؤمناً، لأن المؤمن هو المسلّم لأمر الله وحكمه وأين التسليم من العاصي المصر، والإيمان شرط في قبول العمل لقوله الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أهل الصفات المذكورة من قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ جزاؤهم ما سارعوا إليه المغفرة والجنة التي عرضها السموات والأرض، لهم فيها جنات بساتين كثيفة الشجر ملتفة الغصون ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فهي مخضرة على الدوام ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥] وللأنهار جمال مع جمال الشجر فاجتمع جمالهما.

مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ

---

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يفارقونها ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ ذلك الأجر العظيم ﴿نِعْمَ﴾ كلمة مدح، تفيد: استحقاق الممدوح للمدح من الله مالك الملك.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «ودلت الآيات على أن الجنة للمتقين والتائبين دون المصرين خلاف ما افتراه الرازي والجبرة، ودل قوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ على أن ذلك أجر لعملهم، فيبطل قول الجبرة: أن الثواب لا يستحق بالعمل» انتهى.

﴿١٣٦-١٣٧﴾ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ في الزمان الماضي ﴿سُنَنٌ﴾ عادات لله في إهلاك المكذبين ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتروا آثار المهلكين، فإذا رأيتموهم ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ هذا الخطاب للكفار إنذار بهلاكهم إن لم يؤمنوا؛ ووقوع الآية في أثناء سياق القتال بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين يشير إلى أنه يرجى النصر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿هَـٰذَا﴾ القرآن ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ وتوضيح للإنذار والإعذار والتبشير وطرق النجاة وأسباب العذاب وأسباب الجنة، وكل ما لأجله أرسل الرسول وأنزل القرآن مما كلف الناس به، فهو بيان لهم كلهم.

ومعنى أنه بيان لهم: أنه من وضوح الدلالة على معانيه بحيث يتمكنون من فهمه كلهم، فقد أعد ليفهموه كلهم ومن لم يفهمه فمن جهته التقصير؛

قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

---

لأنه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] وفي ذلك دلالة واضحة على عموم الخطاب به للناس كلهم وأنه ينبغي لهم كلهم أن يتفهموه ولا ييأس أحد من فهمه إذا فهم اللسان العربي، وأن فهمه لا يختص به الإمام ولا الشيخ.

﴿وَهُدًى﴾ أي هذا القرآن هدى ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يهتدون به لأنهم مستعدون لذلك فيعرفون طريق الخير الموصل إلى ربهم وموعظة لهم وزجر عن الباطل ببيان ما يؤدي إليه من العذاب والخسران.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ رجع الكلام إلى الجهاد وفصل بين الكلام الأول وهذا بزواجر ومواعظ مفيدة؛ لأن الجهاد يحتاج المجاهدون معه إلى الصلاح لينصروا، ولأن الفصل يهيئ السامع لسماع بقية الكلام وينشطه له لئلا يطول عليه الكلام في موضوع واحد.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ نهي عن الوَهَنِ، والوَهَن: ضد الصلابة، فالمعنى: اثبتوا واستمروا على صلابتكم ضد أعداء الله، بحيث لا تذهب صلابتكم عنهم ليجدوا فيكم غلظة وقسوة ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ لما أصابكم من الشدة في سبيل الله، لا تحزنوا على تعرضكم لذلك بالجهاد وطاعة الرسول ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أنتم الأعلون العزة والنصر لكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن شأن المؤمن أن لا يَهِن عن قتال أعداء الله ولا يحزن وأنه الأعلى المنصور؛ لأن حزب الله هم الغالبون.

﴿١٤٠﴾ ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿قَرۡحٌ﴾ جراح وهو كناية عما أصابهم ـ أعني المؤمنين ـ يوم أحد، فقد كان المسلمون في أول المعركة قتلوا منهم حتى ضعف الكفار وخُيِّل للمسلمين أن الكفار منهزمون، أو قد بدأوا في الهزيمة، فبدأ المسلمون في أخذ الغنائم، واختل نظامهم بإخلاء بعضهم مقاعدهم التي بوأهم إياها رسول الله ﷺ عند استعدادهم للقتال فرجع الكفار على المسلمين من ورائهم فقتلوا منهم كثيراً، وجرحوا رسول الله ﷺ وسقط في الأرض، وانهزم جمهور المسلمين، وكان من القتلى حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «القرح: الجراح والقتل».

وقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ يحتمل: أنه أصابهم مثل ما أصاب المسلمين في المعركة نفسها لانتصارهم أول اليوم، وإن لم يظهر أثره فيهم إلا إشرافهم على الهزيمة، فلعل سبب ذلك كثرتهم لا قلة القتلى، فتفسير المثل بما وقع يوم بدر ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ قال في (الكشاف): «والمراد بالأيام: أوقات الظفر والغلبة ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ نصرفها ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء» انتهى المراد.

وليس المراد بذلك إلا التمكين وما جعل لعبادة من القوة والاختيار بحيث يمكن أن يبلو بعضهم ببعض، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ [محمد:٤] فالنصر والعزة لأوليائه ما داموا متمسكين بأسباب النصر المعروفة، فإذا قصروا عنها جاز في الحكمة إدالة الكفار بما قد جعل لهم من القوة التي يستطيع المؤمنون دفعها لو تمسكوا بأسباب النصر، وفيها عقاب للكفار في الآخرة، وثواب للمؤمنين بما يقع لهم

من الشهادة في سبيل الله والجراح، وألم القلوب والأبدان، ولو امتنع هذا في الحكمة ما جاز تمكين الكفار الأولين من قتل الأنبياء، فالمداولة لا مانع منها في الحكمة بهذا المعنى، وفيها فوائد يأتي ذكرها في الآيات الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي ابتلاكم بتمكين الكفار حتى يميز الخبيث من الطيب، فالمؤمنون يثبتون على إيمانهم في حال الشدة كما يثبتون في حال الرخاء، أما من لم يكن صادقاً في دعوى الإيمان فإنه يظهر على حقيقته عند الامتحان، فقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ أي فعل ذلك فعل المختبر الذي يريد أن يعلم، وهو سبحانه عالم ما سيكون، ولكن الثواب والعقاب يتبع ما يقع من الإيمان والكفر أو النفاق أو الفسق والاختبار يقع ليترتب عليه حكم الله في عباده، وليس الحكم يتبع العلم أنه لو ابتلاهم لأطاعوا أو لعصوا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ بما ينالون من فضل الجهاد في سبيل الله وسبقهم في ذلك لغيرهم حتى يستحقوا أن يجعلهم الله شهداء على الناس، ولعل هذا هو المراد في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج:٧٨].

وقد روى الطبري في (تاريخه) في [المجلد الثاني: ص١٧] من (الجزء الثالث): بإسناده عن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه عن جده، قال: لما قتل علي أصحاب الألوية أبصر رسول الله ﷺ جماعة من مشركي قريش، فقال لعلي: (احمل عليهم) فحمل عليهم ففرق جمعهم، وقتل عمرو بن عبد الله الجمحي، قال: ثم أبصر رسول الله ﷺ جماعة من مشركي قريش، فقال لعلي: (احمل عليهم) فحمل عليهم ففرق جماعتهم وقتل شيبة بن مالك -

ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ

---

أحد بني عامر بن لؤي - فقال جبريل: (يا رسول الله إن هذه للمواساة) فقال رسول الله ﷺ: (إنه مني وأنا منه) فقال جبريل: (وأنا منكما) قال: فسمعوا صوتاً: (لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي)» انتهى.

ولعل الذين قتلوا في سبيل الله سيكونون يوم القيامة شهداء على أعداء الله بما شاهدوا ولأنصار دين الله بما شهدوه منهم ولعلهم سموا شهداء لذلك، فتفسير القرآن بالمعنى الأصلي المعبر عنه في القرآن أظهر، كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] وقول عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يدل على أنه لم يمكنهم في المعركة حبّاً لهم وإنما تمكينهم فتنة لهم واختبار وعاقبته عذاب لهم وخسار.

﴿١٤١﴾ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وقال الخليل: المحص، الخلوص من الغش، ومحصت الذهب بالنار: أخلصته مما يشوبه» انتهى المراد.

وقال الناصر عليه السلام في (البساط) في (مسألة تعلق المجبرة بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ [البقرة:٢٨٦] فقال عليه السلام: «وقد يمتحن الله المؤمن في بعض الأحوال بالشدائد والزلازل وعظيم البلاء، ليمحصهم من صغار ذنوبهم، وليختبر طاعتهم وصبرهم، نظراً منه لهم - جل ذكره - ﴿لِيُمَحِّصَ

ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فإذا صبروا ورضوا بامتحان الله إياهم وبلواه لهم زادهم ثواباً وكرامة، وضاعف لهم الحسنات، وأوجب لهم رفيع الدرجات» انتهى.

وقال عليه السلام في (البساط) أيضاً في (مسألة للمجبرة في الخير والشر): «فهذه المصائب تكون في الدنيا تمحيصاً للمؤمنين ومحقاً للكافرين، وقال ـ تقدَّس ذكره ـ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾» انتهى.

فالقرح الذي مس القوم محق لهم؛ لأنه عقوبة عاجلة، قال في (المصابيح): «وأصل المحق في اللغة فناء الشيء حالاً بعد حال وكذلك استعمل في النقصان» انتهى.

(١٤٢) ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿أَمۡ﴾ في معنى (بل) التي للإضراب، والهمزة التي للاستنكار، فالإضراب للانتقال من بيان بعض الحكمة في المداولة بين الناس إلى بيان أن دخولهم الجنة متوقف على ذلك الامتحان وأمثاله والاستنكار من حيث أن حسبانهم ذلك خطأ؛ لأن الجنة حفت بالمكاره، فلا تنال إلا بالصبر ومكافحة الهوى، والصبر لا يتهيأ ـ الصبر الذي يتميز به الفاضل من المفضول ـ إلا مع الشدائد التي تظهر حقائق الناس ودرجاتهم في الصبر، وذلك موجب البيع المذكور في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..**فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [التوبة:١١١] والجنة تستحق ذلك؛ لأنها دار الدرجات الرفيعة والملك الكبير.

مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ

---

﴿١٤٣ـ١٤٥﴾ ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ بتمني الشهادة التي أساسها الموت ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ وأنتم لما تحضروا المعركة ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ حين لقيتموه في المعركة ورأيتم أصحابكم يقتلون، فهو أمر متوقع من قبل في الجملة، وقد أظهرتم قلة المبالاة به حين تمنيتموه، فلا تجزعوا منه حين وقع بإخوانكم، فهو ذلك الذي تمنيتم لأنفسكم.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ يمضي كما مضى قبله الرسل، فليس معنى الرسالة أن يبقى في الدنيا خالداً ليبقى دينه ببقائه، وإنما معناها: التبليغ عن الله دينه الذي ارتضاه لعباده، فإذا بلغه فقد حصل المقصود بتبليغه، ولا يبطل بموته؛ لأن الدين لله لا للرسول، والله حي لا يموت ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ الرسول ﴿أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ﴾ عن دين الله، وفي هذا الترديد بين قتله وموته فائدة بقاء ابتلائه ﷺ بالجهاد باذلاً نفسه لله وابتلاء أصحابه ـ حيث يجوّزون قتله ـ بالقتال دون دين الله، مع أن الله عالم ما سيكون.

وقد أخبر في آخر حياة الرسول ﷺ وبعد هذه المعارك التي بذل فيها نفسه لله وانقضت بسلامته أنه يعصمه من الناس، ولو أخبره من قبل الجهاد أنه يعصمه من الناس لخف ابتلاؤه بالجهاد، وفات عليه ثواب بذل النفس لله، ومعنى الانقلاب هنا الرجوع عن الدين.

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ ترشيح لاستعارة الانقلاب عن الاتجاه إلى جهة أمام، إلى الاتجاه إلى جهة وراء بواسطة الاعتماد على الأعقاب وتحويل القدم إلى الوراء: ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ لأن الله غني عن طاعة المطيع، ولا تنقصه معصية العاصي ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الذين يشكرون الله على نعمة الإسلام ويعرفون قدرها، فيتمسكون بدينهم راغبين حريصين على الثبات عليه، فلا يتحولون عنه لموت الرسول ﷺ ولا لغير ذلك من الابتلاء.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إن الذي يحي هو الذي يميت، فكما أن المخلوق ليس من شأنه أن يحيى إلاّ بإذن الله، كذلك ليس من شأنه أن يموت إلاّ بإذن الله، وذلك لأن الأجل جنة حصينة، فما دام مكتوبة له الحياة لا يموت؛ لأن الله غالب على أمره، فإذا أراد التخلية ليموت خلاّ بينه وبين سبب الموت فمات بإذن الله، أي تخليته وجعل سبب الموت سبباً للموت فهو بإذن الله.

﴿كِتَٰبٗا﴾ إما كتبه الله كتاباً، وإما سمى الموت ﴿كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا﴾ أي مكتوباً له أجل يأتي فيه، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ [الأعراف:٣٧] قال في (الكشاف): «أي مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار» انتهى.

ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَٰخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ

---

ولعل عطف هذه الآية على التي قبلها لبيان أن رسول الله ﷺ لن يموت حتى يأتي أجله الذي كتبه الله على ما تقتضيه الحكمة فلن يقتل قبل ذلك؛ لأنه محفوظ بحفظ الله.

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ يصدق على الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَٰخِرَةِ﴾ يتناول الذين قال فيهم: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ وفيه إشارة إلى الفرق بين الثوابين؛ لأن ثواب الدنيا قليل زائل، وثواب الآخرة عظيم باق، والذي يريد الدنيا ما له في الآخرة من نصيب، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:١٥] وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ [الإسراء:١٨] وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وعد للصالحين الذين يشكرونه بطاعته وذكره ولا يكفرون نعمته بمعصيته إلاّ أن يتوبوا، ولا يصروا كما مر في المتقين.

﴿١٤٦-١٤٨﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قُرئ: ﴿قَٰتَلَ﴾

وقرئ: ﴿قُتِلَ﴾ بالمبني للمجهول، والجمع بين القراءتين: أنه ﴿قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ فقتل منهم بعضهم ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ لأن قراءة ﴿قَـٰتَلَ﴾ تدل على أن الربيين قاتلوا، وقوله: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ يدل على أنهم أصيبوا وقراءة ﴿قُتِلَ﴾ بالمبنى للمجهول تدل على أنهم مجاهدون معه أصيبوا، فمؤدى القراءتين واحد، ونسبة القتل إلى جملتهم والمقتول بعضهم تنزيل لهم منزلة الجسد الواحد، ونظيره: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

وجواب آخر: وهو أن قوله: ﴿قُتِلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ لا يدل على قتل الربيين كلهم؛ لأنه نكرة في الإثبات، وعود الضمير إليهم بقوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي فما وهن الربيون الباقون لما أصابهم من قتل إخوانهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠] وقول الشاعر:

تنفك تسمع ما حييـ ـت بهالك حتى تكونه

فقوله: «حتى تكونه» معناه: حتى تكون هالكاً، ولا يلزم أنه الهالك الأول بعينه؛ لأن الأول كان في حياة المخاطَب سمع بهلكه، ولا يصح أن يقول: حتى تكون الهالك الذي سمعت به.

والربيون: الربانيون وقد مر، وأما على قراءة: ﴿قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ فلا إشكال أي فما وهنوا لما أصابهم من مصيبة في الجهاد، ولو كانت في نبيئهم.

وقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يفيد: أن بقاء قوتهم وصلابتهم من أجل أن المصيبة أصابتهم في سبيل الله، وهم قد بذلوا أنفسهم لله، فما أصابهم في سبيل الله فلهم فيه عوض كبير، ويفيدهم الصبر عليه أجراً بغير حساب، فعلمهم بذلك يهّون عليهم ما أصابهم في سبيل الله، فلا يوهنهم.

ومعنى ﴿كَأَيِّن﴾ التكثير، مثل: كم، فكأنه قيل: وكم من نبي ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ عن جهاد العدو ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾ ما ذلوا وخشعوا، فضد الوهن الصلابة، وضد الضعف القوة، وضد الاستكانة العزة واستشعارها ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ومنهم المذكورون؛ لأن وصفهم هذا يفيد صبرهم.

﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿مَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ﴾ حين أصيبوا إلاّ أن استغفروا الله خوفاً أن يكونوا أصيبوا بسبب ذنوب لهم، فحملهم ذلك على الاستغفار.

والإسراف: تجاوز الحد، وقولهم: ﴿فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ لعله بمعنى: أغراضنا وحاجتنا، والإسراف فيها: تجاوز الحد اللائق بهم في الاشتغال بها عن ذكر الله وعبادته، وحاصله: أنهم خافوا أن يكونوا قد مالوا إلى الدنيا في بعض الأمور فاستغفروا لذلك.

وأما تفسيره بالإسراف في المعاصي فبعيد؛ لأنهم لو أرادوا ذلك قالوا: (وإسرافنا فيها) أي في الذنوب، أو: ﴿وَإِسۡرَافَنَا﴾ من دون أن يقولوا: ﴿فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ فلما قالوا: ﴿فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ ظهر: أن الإسراف هنا مجاوزة الحد في عمل الدنيا لأغراضهم فيها وطلبوا تثبيت أقدامهم في القتال.

وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية: «تِد في الأرض قدمك» ومعنى طلب تثبيت الأقدام طلب الإعانة على الثبات في الجهاد، ويقابل ثبات القدم: زللها المؤدي إلى السقوط والتعرض به للقتل، ويحتمل أن يقابله ـ أيضاً ـ الفرار، لكنه مجاز كقوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل:٩٤].

وَدَعَوا الله أن ينصرهم ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ الذين هـم أعـداء الله، فهذه آداب الجهاد، حكاها الله عنهم لنستفيدها لأنفسنا:

*الأول*: التطهر من الذنوب بالاستغفار عند لقاء العـدوّ، ومـن المهـم قبـل ذلك التخلص من المظالم، وما يمنع قبول الاستغفار.

*الثاني*: الدعاء بالمعونة والتثبيت للأقدام.

*الثالث*: الدعاء بالنصر على أعداء الله، من حيث أنهم كفار أعداء لله ولدينه.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ثواب الدنيا النصر والفتح وما يتبعهما، كقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف:١٣] وقد فسر ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ بالنصر والغنيمة، ولكن في حديث (المجموع): عن الإمام زيد بن علي، عن أبيه، عن جده، عن علي عليهم السلام، عن النبي ﷺ قال: «أعطيت ثلاثاً لم يعطهن نبي قبلي..» إلى قوله ﷺ: «..وأحل لي المغنم ولم يحل لأحد قبلي» إلى آخر الحديث، وتخريج الحديث في (الروض النضير) [جزء ١ ص٤٠٦ ـ٤٠٧] من حديث علي عليه السلام وابن عُمَر ـ وجابر وغيرهم.

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي وثواب الآخرة الحسن، كقول عنترة:

يقضـمـن حُسنَ بنانه والمعصم

ويحتمل: أن الثواب هو ما يثوبـون إليـه وحسـنه ظـاهر، فإتيـانهم حسـن الثواب مثل إتيانهم حسن المثاب، أي جعـل مـآبهم حسـناً، وجعـل ثـوابهم حسـناً؛ لأنـه سـعادتهم في الآخـرة ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ومـنهم أهـل الصفات المذكورة، فالله يحبهم؛ لأنهم صابرون، والله يحـبهم لأنهـم محسـنون ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ

---

﴿١٤٩-١٥١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ لأن الكفار لا يزالون يحاولون أن ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ عن دينكم وأعظم المحاولات القتال ما استطاعوه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧] ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ بعد كونكم الفائزين وما أعظمها خسارة أن يصير المرتد الميت على كفره إلى نار جهنم قد خسر نفسه لأنه يبعث لا لينال خيراً ولكن ليعذب فحياته ليست لنفسه إنما هي للشقوة والعذاب وحرمان كل خير نعوذ بالله.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ ﴿بَلِ ٱللَّهُ﴾ المتولي لأموركم، المحسن لرعايتكم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ لأنه على كل شيء قدير، غالب على أمره، فإن ينصركم فلا غالب لكم، فكيف تطيعون أعداءكم وتعصون مولاكم الذي يريد لكم الخير في الدنيا والآخرة؟!! بل هو أولى أن تطيعوه وتعصوا عدوه.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال في (الصحاح): «الرعب: الخوف» انتهى، وقال تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢] وفي الحديث في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام) و غيره: «ونُصِرتُ بالرعب على مسيرة شهر» انتهى، وهذا تشجيع للمؤمنين فلا يحتاجون إلى أن يطيعوا الذين كفروا، لأن المؤمنين الأعلون.

وسبب إلقاء الله الرعب في قلوبهم إشراكهم ﴿بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ لأن الفطرة تقتضي أن يعبدوا الله وحده؛ لأنه الذي خلقهم ورزقهم، فوجبت عليهم عبادته، فالعدول إلى عبادة ما لم يخلق ولم يرزق بلا برهان من الله عدول عن الفطرة لمجرد هوى الأنفس، والظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، وقد كفى في إبطال الشرك أن الله ﴿لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ فدل على قبح التقليد في كل دين لم ينزل الله به سلطاناً.

فأما تقليد القاصر في تعيين حكم الله الذي جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فليس من هذا، إلا أنه لا يكفي في العقائد أما أنه ليس من هذا فلأن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قد علم المسلمون بأنهما جاءا بأحكام الله تعالى وهي مطلوب المقلد فلم يطلب ما لم ينزل به سلطاناً إنما قلد للتوصل إلى ما نزل به سلطان من الله وذلك غاية وسعه، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وأما أنه لا يكفي في العقائد فلأمرين:

*الأول*: أن المطلوب فيها العلم نحو قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد:١٩] ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [هود:١٤] ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٤] ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢] وغير ذلك، والتقليد لا يحصل به العلم.

*الثاني*: أنه لا ضرورة للتقليد في العقائد؛ لأنها عقليات يتمكن من العلم فيها الناظر بعقله، ويكفيه التنبيه على الأدلة أو ضروريات معلومة بين المسلمين من ضرورة الدين، وأدلتها واضحة في القرآن سهلة الفهم للعربي ومتعلم العربية، أما من هو أعجمي فيكفيه الوقف وتعلم العربية والقرآن بقدر وسعه حتى يتمكن من فهم الأصول المأخوذة من القرآن، وما دام متعلماً فهو على سبيل نجاة.

حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ

---

ولو جاز التقليد في العقائد لجاز التقليد في اليهودية والنصرانية وهو خلاف المعلوم من دين الإسلام وهو باطل من حيث أنه لا يحصل به العلم، ومن حيث أنه يكفي في تحصيل العلم بنبوءة نبي الإسلام أيسر بحث لمعرفة إعجاز القرآن بسماع آيات التعجيز في الإتيان بسورة من مثله، والسؤال عن معناها وبيانه بترجمة يحصل بها العلم لتطابق المترجمين في الجهات المتباعدة وقرائن صدقهم حتى يحصل العلم بتفهيمهم له وتنبيههم له على دلائل صدقهم من أحوال واقعية وأمور عقلية معروفة كمطابقته للعقول في التوحيد وإثبات الجزاء على الأعمال في الآخرة وأمور كثيرة فارقة بين الإسلام وغيره من الملل، ولا يبعد أن يجعل الله له آية فيمن يعلّمه يعرف بها صدقه مؤكدة لقوله، بل لا بد منه لمن طلب الحق ولم يتمكن من العلم بالسؤال لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل:١٢] وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:٩].

وقد كان للإمام الناصر عليه السلام في بلاد الفرس كرامات كثيرة، وأسلم على يديه أمم، ولعل معظم السبب هو الكرامات ـ والله أعلم.

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي مأوى الذين كفروا ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بئس مثواهم نار جهنم ﴿بِئْسَ﴾ كلمة ذم ضد نِعْمَ، والمثوى: المقام، فهي كقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٦].

﴿١٥٢﴾ ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ ﴿وَعْدَهُۥٓ﴾ بالنصر، أو ﴿وَعْدَهُۥٓ﴾ بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، كما في (سورة الأنفال) وهذه السورة.

قال الشرفي ﵀ في (المصابيح): «اعلم أنا قد ذكرنا في قصة أحد أن النبي ﷺ جعل أحداً خلف ظهره واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل وأمرهم أن يثبتوا هناك ولا يبرحوا سواء كانت النصرة للمسلمين أو عليهم، فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم، والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون من ورائهم ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ قال الليث: الحَسُّ: القتل الذريع، يحسونهم: أي يقتلونهم قتلاً كثيراً، ومعنى ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بلطف الله وتيسيره» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي ؑ): «﴿تَحُسُّونَهُم﴾ معناه: تقتلونهم» انتهى، ومثله في (مفردات الراغب الأصفهاني).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾ فسروا (الفشل) تارة بالضعف مع الجبن، وتارة بالضعف والجبن، والأولى: أنه الضعف، وأن الجبن سمي فشلاً لأنه ضعف، فالفشل هنا ليس إلا ضعف الرأي وإخلاء الرماة مواضعهم أعني الذين أخلوها منهم، ولعل الجمهور سكتوا عنهم لما وصلوا إليهم ولم يأمروهم بالعودة فوراً إلى مقاعدهم، ولذلك نسب الفشل إليهم كلهم، ويظهر أن الفشل هو الضعف قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ فليس معناه: أن تجبنا، بل قد حصل الجبن، وإنما هموا بالضعف الذي هو ترك القتال.

قال في (لسان العرب): «الفشل: الفزع، والجبن، والضعف، ومنه: حديث جابر: (فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾) وكذلك في (حديث الاستسقاء) وكقول الشاعر:

... سوى الحنظل العامي والعلْهز الفَشْلِ

أي الضعيف يعني الفشل مدخره وآكله، فصرف الوصف إلى العلهز وهو في الحقيقة لآكله، فظهر من هذا: أن الضعف معنى للفشل مستقل غير مشروط فيه الجبن، فقوله: الفشل: الفزع والجبن والضعف، محمول على أن كل واحد من الثلاثة معنى مستقل.

ومثله قول (صاحب الكشاف): «الفشل: الجبن وضعف الرأي، فهو محمول على أنهما معنيان، وفي (سيرة ابن هشام) عن ابن اسحاق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾ أي تخاذلتم» انتهى.

﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ وكان عليكم أن تبقوا مجمعين على رأي قائدكم وطاعته، ولا سيما وهو رسول الله ﷺ الذي لا ينبغي عنده تنازع، بل الواجب الانقياد لقضائه، والتسليم الكامل، كما قال تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥] ﴿وَعَصَيۡتُم﴾ بإخلاء الرماة مقاعدهم وموافقة من وافق من الآخرين ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ من قتل الأعداء وقوة المسلمين وهي نعمة كان الواجب شكرها، والثبات على طاعة الله ورسوله، لا المبادرة إلى المعصية.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ في تلك الحالة التي يجب فيها إيثار طاعة الله لو لم يكن إلا للحذر من العقوبة بتسليط العدو وهو حاضر ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ وهم من ثبت من الرماة لم يفارق مقعده ومن وافقهم في رأيهم من الآخرين، قال الشرفي في (المصابيح): «أي منكم من مال إلى الغنيمة، ومنكم من أراد ثواب الآخرة، بأن لزم الشعب ولم يبرح على طاعة رسول الله ﷺ وهو عبد الله بن جبير ومن ثبت معه.

قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: أحكام الفريقين مختلفة، فحكم من يريد الدنيا بينه الله في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦] وحكم من يريد الآخرة بينه الله في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩]» انتهى.

قلت: وفي الآية دلالة على تفسير من أراد الدنيا أنه الذي يختار الغرض الدنيوي على عمل الآخرة عند التعارض بين الغرض الدنيوي وبين طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ يدل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَعَصَيۡتُم﴾ هو جمهورهم بالفعل والرضى لا كلهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ يحمل على: أنهم جعلوا الموضوع محل رأي وتدبير جديد، فتنازعوا بأن أدلى كل طرف برأيه، ولو كان التنازع مجرد المعصية وتقريرها من طرف وإنكارها من طرف آخر لما كان هناك تنازع مذموم، إنما المذموم المعصية وتقريرها أما المنكر لها الآمر بالمعروف، فلا يعد منازعاً مذموماً.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡ﴾ ﴿صَرَفَكُمۡ﴾ بأن سلبكم ذلك التأييد الذي كان في أول المعركة فانهزمتم عنهم ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡ﴾ ليختبركم أي يفعل بكم فعلاً كفعل المختبر، وذلك: أنه انكشف عند الهزيمة أهل الإيمان القوي الثابت، وضعاف الإيمان الذي هو عواري بين الصدور والقلوب، والذين في قلوبهم مرض، والمنافقون، حيث ظن بعضهم أن الإسلام قد سقط، وطلب أن يأخذوا لهم الأمان من أبي سفيان.

وهذا الصرف كان لبعضهم ولعلهم العصاة والراضون والمتنازعون؛ لأنه روي: أن الرماة الذين ثبتوا ولم يفارقوا مقاعدهم ثبتوا حتى قتلوا، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام، وأبو دجانة الأنصاري، وقليل ثبتوا وقاتلوا قتالاً شديداً، ولعل قتال أمير المؤمنين عليه السلام للجماعات الذي تقدم ذكره من رواية الطبري عن أبي رافع كان في تلك الحال الذي قل فيها المدافع كما يفهم من سياقها.

وفي (سيرة ابن هشام): عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن عتبة ابن أبي وقاص رمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن شهاب الزهري شَجّه في جبهته، وأن ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حفرة من الحفر التي عملها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً..» إلخ.

وفي (سيرة ابن هشام) أيضاً: قال ابن إسحاق: فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: «اغسلي عن هذا دمه يابنية فوالله لقد صدقني اليوم» وناولها علي بن أبي طالب سيفه فقال: «وهذا أيضاً فاغسلي عنه دمه فو الله لقد صدقني اليوم» فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة».

وفيها: وأخرج الحاكم في (المستدرك) [جزء ٣/ ص٢٤] بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء علي رضي الله عنه بسيفه يوم أحد قد انحنى، فقال لفاطمة رضي الله عنها: «هاكي السيف حميداً فإنها قد شفتني» فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لئن كنت أجدْت الضرب بسيفك لقد أجاده سهل بن حنيف، وأبو دجانة، وعاصم بن

يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم

---

ثابت الأفلح، والحارث ابن الصمة» قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه» انتهى، وأقره الذهبي في (تلخيصه) وفي (تاريخ اليعقوبي): أن المسلمين انهزموا ما بقي مع رسول الله ﷺ إلا ثلاثة نفر علي والزبير وطلحة» انتهى .

وفي (سيرة ابن هشام): أن ابن أبي نجيح، قال: نادى مناد يوم أحد: «لاسيف إلا ذو الفقار ولافتى إلا علي» انتهى.

ومن أوضح الواضحات: ثباته يوم أحد؛ لأنه لو فر ما خفي على الأمة لكثرة أعدائه وحساده الذين يكتمون فضائله، فلو وقع ذلك لأذاعوا به وشاع في بلاد الإسلام كلها، ولا شك في هذا عند من عرف انحراف كثير من الأمه وقتال كثير منهم وتوارثهم لبغضه.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين لا للمنافقين والذين في قلوبهم مرض لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يتفضل عليهم بالنعم التي لا يحصونها ومن فضله تبشيرهم بعفوه عنهم.

﴿١٥٣﴾ ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ ﴿إِذْ﴾ منصوب بتقدير: اذكر، أو اذكروا، قال في (الصحاح): «قال الأخفش: أصعد في الأرض، أي مضى وسار، واصعَّد في الوادي وصعَّد تصعيداً، أي انحدر فيه» انتهى، وقال في (المصابيح): أي تذهبون في الوادي يوم أحد» انتهى.

مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ

---

﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ﴾ لا تلتفتون ولا تعطفون ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ بعدكم إمعاناً في الهزيمة ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ واقفاً في أخرى المنهزمين يدعوكم لترجعوا إليه وأنتم لا تلوون عليه على أنه قريب منكم تسمعونه.

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ الله ﴿غَمَّۢا﴾ جزاء غم، فبسبب غم الرسول ﷺ بمعصيتكم حين خالف بعض الرماة مقاعدهم وتنازعتم وعصيتم، وكان ذلك سبب غم للقائد شديد من حيث هو معصية لله ومن حيث هو سبب لرفع النصر.

فبسبب ذلك أثابكم الله غَمّ صرفكم عن عدوكم وسلبكم القوة التي كانت في أول اليوم، حتى انهزمتم الهزيمة بهذا الشكل المذكور ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ هذه الإثابة ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ لما قد جربتم في هذه المرة ﴿وَلَا﴾ تحزنوا لـ﴿مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ لما قد جربتم في هذه المصيبة، فهي كما قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢١٦] فكانت مصلحتهم إذ عصوا في التمحيص والتهذيب والإعداد، لتحمل الشدائد وفهم موقعهم أنه موقع اختبار وابتلاء، ليخلصوا لله ويبتعدوا عن الأنانية ولا يتجرؤوا على عصيان رسول الله ﷺ في المستقبل ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من حسن أو ضده، فراقبوه ولا تغفلوا عنه لتعملوا ما فيه صلاح أمركم وتتركوا ما يوجب لكم العقوبة.

كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟

---

﴿١٥٤﴾ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ ﴿ٱلْغَمِّ﴾ الذي كان عند دعاء الرسول ﷺ أنزل الله بعده ﴿نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ حصل به الأمن لها رحمة من الله وفضلاً، والنعاس: أول النوم يميل به الرأس.

﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ غيرها ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ لا الدين ولا الرسول ﷺ ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ وهو أنهم ما وعدهم النصر إلا غروراً كما في (سورة الأحزاب) ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ التي كان الجهل بالله شأنها، فهو أشنع الظن لا يستند إلا إلى الجهل بالله.

﴿يَقُولُونَ﴾ عند الهزيمة أو بعدها ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ أي ليست لنا دولة ولا أمر وهذا ما طمع فيه المنافقون والكفار، ظن المنافقون أن قد تحقق ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ فهو مالك الملك يؤتي ملكه من يشاء، فدولة الإسلام باقية ما شاء الله بقاءها.

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ﴾ في أنفسهم ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ فهم في أنفسهم يرون أن قد ذهبت دولة الإسلام ولم يبق إلا أخذ الأمان من الكفار قد أهمتهم أنفسهم لهذا الظن السيئ.

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ هذا الجواب يفهم منه: أن القوم ظنوا أن الخروج كان غلطاً لأنه لم يكن لهم قدرة على القتال، فهم خرجوا للقتال بزعمهم وليس لهم من الأمر شيء وليس لهم أي سلطة، وذلك تأكيد لقول قائلهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ فهم يزعمون لتثبيط المسلمين عن طاعة الرسول ﷺ أن الخروج قضية

انتحارية، فأجابهم الله سبحانه أن بقاءكم في البيوت لم يكن ليدفع القتل عمن قتل لأن الرسول ﷺ والمسلمين لا بد لهم من القتال حيث قد هجم عليهم المشركون، فسواء خرجوا أو بقوا لا بد أن يقتل من كتب عليه القتل لأنه يبرز لدفاعهم، فيقتل حيث كتب أنه يقتل.

وهؤلاء الذين قتلوا لم يكن رأيهم البقاء في البيوت؛ لأن رأيهم كان في الخروج إلى الكفار لئلا يظنوا أنهم قد جبنوا عن لقائهم، وهم يرغبون في الشهادة، فلو لم تخرجوا أيها المعترضون على الخروج لخرج هؤلاء الشهداء باختيارهم ورغبتهم في الجهاد وقتلوا حيث كتب لهم أنهم يقتلون، لأن رأيهم خلاف رأيكم وشأنهم خلاف شأنكم، فلماذا تحزنون على خروجكم وهم لم يكونوا ليسلموا لو بقيتم في بيوتكم؟!!

وسواء كان معنى ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِمُ﴾ علم الله أنهم يقتلون في مضاجعهم أي مواضع سقوطهم قتلى، أو كتبت للملائكة في ليلة القدر في كتاب أنهم يقتلون ليزدادوا إيماناً عند صدق الخبر، فهو ليس سائقاً، وإنما هو مطابق للواقع كما لو أخبر بالصدق عما قد مضى في أنه غير مؤثر في وقوع المخبر به وإنما لا يتخلف لأنه لم يخبر به إلا لأنه سيقع.

فالخبر لازم للوقوع، ولا يصح معه فرض التخلف لأنه فرض اجتماع النقيضين لا لأن الخبر سائق إلى المخبر به، وكذلك لم يعلم إلا لأنه سيقع فوجب أن يعلمه وإلا كان جاهلاً سبحانه وتعالى، فوجب أن يكون عالماً بوقوعه لأنه سيقع، ففرض عدم وقوعه فرض اجتماع النقيضين ولا يصح، بل يستلزم فرض تخلفه فرض أن الله لم يعلم أنه واقع وإلا كان فرض علم الله تعالى بوقوعه وبتخلفه فرض علمه باجتماع النقيضين وهو محال.

مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟

---

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي ليفعل فعل المختبر لما تضمرونه في صدوركم بأنه سيفعل ما يكون سبباً لظهوره، وهو سبحانه عليم بذات الصدور ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من الإيمان والنيات الحسنة، وهذا بالنسبة إلى المؤمنين الذين كان انهزامهم زلة لا لخبث ضمائرهم، فابتلوا بتلك البلوى لتطهير ضمائرهم، كما قال تعالى ـ فيما مر ـ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيذهب عنهم الغلط وتوهم أنهم لابد أن ينصروا لمجرد انتمائهم إلى الإسلام وكونهم مع الرسول ﷺ، وتوهم أن لهم الحق في ذلك على الإطلاق أو نحو هذا الوهم بما بان بهذه البلوى خلافه وتصححت به العقيدة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ من صالح أو سيئ.

﴿١٥٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ﴾ انهزموا وفروا منكم أي بعضكم ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع الكفار ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أوقعهم في الزلل أي في المعصية، وخوفهم أعداءه وتمكن الشيطان من ذلك بسبب بعض ﴿مَا كَسَبُوا۟﴾ من المعاصي من قبل، كالتهاون بأمر رسول ﷺ للرماة أن يبقوا في مقاعدهم..أو غير ذلك.

وفي هذه فائدة عسكرية مهمة لمن يريد الجهاد: أن يتوب توبة صادقة، ويلازم الحذر من المعاصي، وتجديد التوبة عند كل زلة فوراً ليبقى النصر والتأييد والثبات، ولا يكون للشيطان عليه سبيل.

كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ

---

﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ لأنهم لم يصروا بل ندموا كما مر في صفة المتقين وعزموا على الثبات فوراً، وهذا فيمن لم يبعد في الهزيمة بل كان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١-٢٠٢] والتوبة مقبولة من الكل.

ولكن ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يفهم: أنه خاص بالخيار من الفارين بالنسبة إلى غيرهم من الذين فروا الذين لم يصروا من حيث جعلها زلة، وليس ذلك إلا فيمن لا يصر، فأما ما سبق منهم من المعصية فلعله كان سبيلاً للشيطان؛ لأنهم لم يتوبوا منه غفلة لاشتغال أذهانهم بالمعركة لا إصراراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ فلذلك قبل توبتهم ولم يعجل بعقابهم قبل التوبة لأنه ﴿حَلِيمٞ﴾ والحليم هو الذي لا يعجل بالعقاب، بل يتركه إما مطلقاً وإما مؤقتاً.

﴿١٥٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ في النسب ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ (الذين كفروا) يحتمل أن المراد بهم: الذين يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، ويحتمل: أنهم من اليهود الذين كانوا في المدينة ولم يكونوا أسلموا لأن وقعة الخندق متقدمة، وكانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن نزل الأمر بقتالهم أو الجزية.

لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ

---

﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي سافروا، والتقدير: سافروا فماتوا في سفرهم أو قتلوا ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ جمع غاز، أي فقتلوا أو ماتوا، قال الذين كفروا لهم، أي فيهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ فنهى الله الذين ءامنوا أن يكونوا مثلهم، أو يعتقدوا اعتقادهم، أو يقولوا كقولهم، لأنه قول باطل، من حيث أنهم لا يعلمون الغيب.

ومن الممكن أن لو كانوا عندهم لماتوا بسبب معتاد أو لغير سبب ظاهر، أو لقتلوا بأي سبب، ومن حيث أن الحياة والموت بإذن الله لا يملكون موتاً ولا حياة، فليس تدبيرهما إليهم، ومن حيث أن هذا يمنع الضرب في الأرض لابتغاء فضل الله والجهاد في سبيل الله محاذرة الموت والقتل؛ وعلى المؤمن أن يكِلَ أمره إلى الله ولا يترك الأسباب المشروعة ولا الجهاد لأنه لا يصيبه إلا ما كتبه الله له، ليست المصائب بالصدفة.

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ قالوا ذلك ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ القول ﴿حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أسفاً على من مات أو قتل عقوبة لهم، فـ(اللام) مثلها في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨].

﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ فمن أحياه فلن يستطاع إماتته، ومن أماته فلن يستطاع إحياؤه؛ لأن الله غالب على أمره ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجعل لكل عمل حكمه، ويرتب عليه من الخير والشر ما يناسبه.

﴿١٥٧﴾ ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا تَجْمَعُونَ﴾ فهذا جواب آخر يبطل قولهم: ﴿مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ الموهم أن القتل خسارة، فبين الله: أن السعادة في الشهادة في سبيل الله.

ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ

---

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ يفيد: أن الموت في سبيل الله يحصل معه المغفرة من الله والرحمة، ولعل ذلك لكون الخاتمة الجهاد في سبيل الله، وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا تَجْمَعُونَ﴾ أي من المال ونحوه من أغراض الدنيا الفانية.

وقراءة ﴿يَجْمَعُونَ﴾ بالمثناة من تحت، أي مما يجمع أولئك الذين كفروا وقالوا لإخوانهم، وقراءة ﴿تَجْمَعُونَ﴾ بالتاء، خطاب للناس أو الذين آمنوا؛ لأن الشهيد يصير إلى ما هو خير له من أهله وماله.

﴿١٥٨﴾ ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ إليه لا إلى غيره، فحيث متم أو قتلتم في سبيله فيكفيكم أنكم تحشرون إليه لأنكم تفوزون برضوانه وحسن ثوابه؛ لأنه ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠] وهو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

﴿١٥٩﴾ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (الفاء) للتفريع على ما سبق منهم من المخالفة قبل الهزيمة، والمخالفة بالهزيمة، فتفرع الكلام في لين النبي ﷺ لهم بعد هذه المخالفات، وهو أن هذا اللين كان بـ﴿رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لهم لأنه الذي جعلك على خلق عظيم، وهداك للرفق بهم، واللين بعد أن صدر منهم ما يدعو إلى الإغلاظ عليهم في معاملة قادة الجيوش. والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ لأصحابه، قال في (الصحاح): «الفَظُّ: الرجل الغليظ» انتهى، أي سيئ الخلق، كقول الشاعر:

جعلت جزائي غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل

وغليظ القلب: قاسي القلب قليل الرحمة، أو لا يرحم.

﴿لَٱنفَضُّواْ﴾ لتفرقوا ﴿مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ بعد اجتماعهم.

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ وهـذه زيـادة في اللـين وقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ يتناول ما قد وقع من الخلاف يوم أحد أو قبله، وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ يتناول هذه الحادثة في أحد، وما جرى مجراها مما ندموا وتابوا منه ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ في الشأن المهم، غير ما حكم الله فيه بحكمه، مثل تدبير حرب أو صلح، والمشاورة: أن يشير النبي ﷺ برأيه ويعرضه عليهم، ويطلب منهم إبداء ما يرون أنه الأحسن.

قال الراغب في (تفسير مفردات القرآن): «والمشاورة، والمشورة: استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض، من قولهم: شُرتُ العسل: إذا اتخذته من موضعه واستخرجته منه» انتهى. قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «والأمر هنا الحرب وغيره مما ليس فيه وحي» انتهى.

قلت: يعني بالحرب: التفاصيل فيها كما شاورهم ﷺ هل يلقون العدو ليقاتلوهم أو يبقون في المدينة فإذا جاءوهم قاتلوهم فيها، فأما الحرب جملة فقد جاء فيها في (سورة الأنفال) و(سورة الحج) ما يدل على القتال للمدافعة، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ﴾ على أمر بعد المشاورة فأمض له وتوكل ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ كِل أمرك إليه، وإلى حسن رعايته لك، ولا تتردد وتعاود المشاورة، بل امض اعتماداً على ما يدبره الله لك.

﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ

---

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: الواجب الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١] انتهى» قلت: لعله عليه السلام يعني ما ذكر في الآية كله.

﴿١٦٠﴾ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ وإن كثر الأعداء ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ فلا ناصر لكم غيره، وقام السؤال بقوله تعالى: ﴿فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم﴾ مقام فلا ناصر لكم، لأن من الواضح أنه لا يتوقع نصرهم من أحد؛ لأن من حولهم من العرب كفار وأكثرهم أعداء، والذين هم مسالمون أكثر ما يتوقع منهم أن لا يعتدوا على المسلمين، فأما أن ينصروهم فلا يرجى فالنصر من الله وحده، فعليكم أن تطلبوه منه بطاعته وطاعة رسوله والعمل بما أدبكم به في الجهاد وبالدعاء والالتجاء إليه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فالتوكل عليه واجب عليهم تكرر الأمر به في القرآن؛ والتوكل على الله: الاعتماد على رعايته للمؤمن وتدبيره له، وهذا في امتثال أمر الله ونهيه، أي يطيع الله اعتماداً على ما يرجوه منه واتكالاً عليه، فلا يصغي إلى تخويف من عدو في القتال، أومن الفقر في الإنفاق أو نحو ذلك، وليس معنى التوكل أن يثق بأنه لا يقتل مثلاً، ولكن أن يرضى بما كتب الله له في سبيله فيجاهد راضياً بذلك راجياً أنه يختار له ما هو خير له، ولا يحتاج في هذا الرجاء إلا أن يكون على بصيرة في دينه تائباً إلى ربه فإذا كان كذلك حق له أن يرجو ما هو الخير له.

ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ

---

فللتوكل مقدمة هي البصيرة، كما حكى الله عن بعض الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم:١٢] وقال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩] فهو إذا كان على بصيرة اعتقد أن الله هو مولاه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال:٤٠] ومعنى هذه الولاية: تولي أمور المؤمن بحسن الرعاية، فالمؤمن يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، ويرجو أنه لا يكتب له إلا ما هو خير له، ولذلك كان الاحتجاج على الكفار للمؤمنين بهذا ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١].

*وفائدة التوكل*: أن لا تتحول عن طاعة الله لخوف أن تؤدي إلى مكروه، وليس من التوكل الإلقاء بالنفس إلى التهلكة حيث لا تجوز السلامة في مجرى العادة، ولذلك لا يجب التوضي بالماء في السفر في القفر الذي هو ليس مظنة الماء بل يظن الهلاك إن توضأ بالماء، وجاء فيه الحديث في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام): «أنه يمسك الماء لنفسه ويتيمم للصلاة» ولا من التوكل ترك أسباب السلامة من ضرر البرد المعتادة ومن حر الشمس كذلك، ولا ترك كسب الرزق. نعم.. من التوكل أن لا يشغله الكسب عن الصلاة مثلاً، ومن التوكل إنقاذ الغريق الذي يجب إنقاذه وإن جوز المنقذ هلاك نفسه إذا كان راجياً للسلامة وإنقاذ الغريق.

﴿١٦١﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أما على قراءة ﴿يَغُلَّ﴾ بفتح الياء وضم الغين، فمعناه: ما صح ولا تهيأ أن يغل النبي.

والغل: خيانة الغنيمة، وهي من المنكرات، وقد روي أنهم قالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: «كلا إني رأيته في النار في عباءة غلها» أو كما قال، فلا يتهيأ لنبي أن يغل لأنه معصوم، وله من الورع والزهد ما يبعِّده عن الغلول.

وأما على قراءة أن ﴿يُغَل﴾ بضم الياء وفتح الغين، فهو مجاز للدلالة على أنه من القبح بحيث يستبعد وقوعه من مسلم مقاتل تحت راية النبي، فكأنه من الملحق بالمستحيل، فأما (صاحب الكشاف) فقد جعل المعنى في القراءتين واحداً، وجعل معنى يُغل - بضم الياء - يوجد غالاً أو يحكم عليه أنه غال، مثل: يُكفَر، ويُفسَق - بضم (الياء) وفتح (فاء) يكفر و(سين) يفسق.

وهذا المعنى عندي بعيد، وأقرب منه: أنه لا ينبغي أن يغله غال أي يخونه خائن؛ لأن الغلول قبيح فكيف بغلول يقع خيانة للنبي ﷺ، فأما النبي ﷺ فلا يتصور أن يغل أي يخون فضلاً عن أن يعلم منه ذلك أو يحكم به، أعني أن المهم نفي الخيانة لا نفي العلم بها أو نفي الحكم بها.

فإن قيل: إن نفي العلم بها كناية عن نفيها؟

قلنا: إن التصريح هنا أبلغ من الكناية.

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يجيء به معه في الحشر يفتضح به ويكون حجة عليه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من أهل الغلول وغيرهم ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يزاد في عقاب العاصي ولا ينقص من ثواب المطيع.

(١٦٢) ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلابد أن الله الحكيم لا يسوي بينهما، بل يجعل لمن اتبع رضوانه حسن الثواب، ويجعله في الدنيا محرّم العِرْض، فلا يحل تهمته بالغلول ولا غيره من الرذائل.

دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

---

﴿١٦٣﴾ ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ فأهل الثواب درجات متفاوتة، وأهل العقاب درجات متفاوتة لتفاوت الأعمال في الخير والشر، ومعنى ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكم الله وجزائه ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ كلهم، فسيجعل لكل عمل ما يليق به من الجزاء بقدره، لعلمه سبحانه بالأعمال ومقادير حسنها وقبحها باطنها وظاهرها، فهو ﴿بَصِيرُۢ﴾ بها لتنزيل كل عمل منزلته اللائقة به لعلمه به وقدرته على ذلك على أبلغ الوجوه، والبصير بالشيء: الخبير به الماهر فيه في مثل: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه:٩٦] وقد ذكر هذا المعنى الإمام الهادي عليه السلام في (مجموعه) المسمى (المجموعة الفاخرة).

قال في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت على وجوب التفرقة بين من اتبع رضوان الله وبين من سخط الله عليه في الأحكام، إلا ما خصّه دليل».

﴿١٦٤﴾ ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أنعم عليهم ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ في النسب.

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ليعلموا أن الله أرسله إليهم ويهتدوا بما في الآيات من الهدى ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ بالتربية الحسنة وتعليمهم أسباب الزكاء،

وهو الطّيبُ ضد الخبث ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الذي هو القرآن ليحفظوه ويتدبروا آياته ويتبعوه ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمهم الحكمة، فيجمعوا بين الإيمان والصلاح والعلم المستفاد من القرآن ومن التزكية والحكمة المستفادة من القرآن والسنة، فيكونوا مؤمنين أتقياء علماء حكماء، فقد جعل الله لهم خيراً كثيراً وهيّأ لهم فضلاً عظيماً.

ويظهر من كلام بعض المفسرين في الحكمة: «أنها الرأي الذي أحكم في صدقهِ فلا يتخلله كذب، وفي نفعه فلا يعقبه ضرر» انتهى.

وقيل: «هي ملكة يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها الصحيحة ووزن الأمور بموازينها الصحيحة وإدراك غايات الأوامر والتوجهات» انتهى.

وقيل في تفسيرها: العلم، وقيل: الفقه، وقيل: فهم معاني القرآن ومعرفة محكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وعامه وخاصه، ونحو ذلك على التفصيل، والأولى أن يقال: الحكمة فائدة من فوائد معرفة معاني القرآن على التفصيل لا أنها هي العلم؛ لأن القرآن يدل على اختلاف مفهوم العلم والحكمة، قال تعالى حاكياً: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف:٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣].

فمن انتفع بعلمه فعمل به وكان راجح العقل جيد التدبير إذا هَمَّ بأمر تدبّر عاقبته، حسن المعرفة لعواقب الأمور فهو الحكيم، بخلاف العالم الذي لم ينتفع بعلمه الذي عقل العلم عقل رواية لا عقل رعاية، كعلماء السوء والأحبار الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، فليسوا حكماء وإن كانوا علماء، ومن أمثال إيتاء الحكمة ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢].

أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ

---

فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [لقمان:١٢] يستفاد منه حكمة لأنه يعرف به أن الرأي السديد أن يشكر الإنسان لينفع نفسه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤] وكذلك قوله تعالى: ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [محمد:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل:٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء:٧٧] وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَـٰلٖ مُّبِينٍ﴾ يبين أنهم كانوا في أشد الحاجة إلى الرسول ليهديهم من ضلال أي غواية عن طريق الرشاد ﴿ضَلَـٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي بيّن لا يخفى أنه غواية كعبادة الأصنام وأكل الميتة وشرب الخمر والزنا والقتال على أهواء وخلافات عدوانية وحمية جاهلية ووأدٍ للبنات وتحريم بعض الأنعام كما حكاه الله في (سورة الأنعام) وغير ذلك من الضلال.

﴿١٦٥﴾ ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ رجع الكلام فيما يتعلق بيوم أحد، والمصيبة التي أصابت المسلمين فيه هي قتل سبعين رجلاً وجراح أصابتهم، وهزيمتهم، وغمٌّ وخوف وحزن.

ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ

---

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ هو إصابة المسلمين للكفار يوم بدر وفي معركة أحد، ولكن المسلمين كان بعضهم يعتقد أن النصر معهم على كل حال فلما أصابتهم مصيبة يوم (أحد) قالوا: ﴿أَنَّىٰ هَـٰذَا﴾؟!

أي من أين هذا استغراب لوقوعها ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ فأنتم سبّبتم له، فكنتم مصدره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلم يترك صرف المصيبة لأنه لم يقدر على صرفها، ولكنه لما سبق ذكره من الحكمة وما يأتي.

﴿١٦٦-١٦٨﴾ ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ في أحد جمع المسلمين الذي قد كان كافياً لمقاومة العدو وجمع الكفار، ولم يكن التقاء جمع الكفار بأفراد لا يصلحون للمقاومة في مجرى العادة، بل قد بلغوا أنهم جمع وجند وحزب ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣] ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦] ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لأنه لم يغلب ولم ينسكم، ولكنه أراد أن يبتليكم ويؤدبكم ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين ثبوا على إيمانهم ولم يرتابوا فيكون لهم فضيلة الثبات وأجره.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ وما أصابكم يوم أحد كان لهذه الحكمة أن يبتلي الذين نافقوا حتى ينكشف سرهم، فقد كان فيما روي: ادعى عبد الله بن أُبَيّ أن رسول الله ﷺ خالف رأيه في البقاء في المدينة حتى يصل العدوّ إلى المدينة ويقاتلوه عند وصوله.

وكان رسول الله ﷺ ـ فيما روي ـ قد رجح هذا الرأي عند المشاورة في الخروج أو البقاء، ولكن بعض المخلصين من أصحابه أشاروا بالخروج للقاء العدوّ فوافقهم رسول الله ﷺ فخرج ومعه الجيش وكانوا فيما روي ألفاً، فرجع عبد الله بن أبي ومعه ثلث الجيش من الطريق، بدعوى: أن الخروج خلاف الرأي، ولما اشتد القتال تبعهم بعض المخلصين، وقال لهم: ﴿تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ أي ادفعوا عن وطنكم وأهلكم ومالكم وأنفسكم إن كنتم لا تريدون القتال في سبيل الله، ولكن عبد الله بن أُبَيّ لا يريد القتال أصلاً لأنه خلاف الولاء للكفار الذي هو معنى النفاق.

فظهر: أن رأيه في البقاء في المدينة لم يكن ليقاتل فيها، وإنما ليسلمها للعدو عند وصوله، وأن خروجه مع الجيش لم يكن ليقاتل، ولكن ليرجع فيضعف بذلك قوة المسلمين، وأنه لا يريد القتال لا في سبيل الله ولا في الدفاع، وأنه عاص لله ورسوله.

ثم تجلى نفاقه بإرجافه حيث أجاب: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ﴾ فهو يزعم أن لقاء العدو في تلك الحال ليس إلا بمثابة انتحار وتسليم النفس للهلاك، وهذا باطل واضح، فقد قاتلوا في بدر وهم قلة أقل من عددهم يوم (أحد)

ولكنه قد ظن عدو الله أن الكفار هم الغالبون وأن الإسلام يسقط، وفي أمله أنهم إذا غلبوا رجع إلى الكفر، كما قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ من النطق بالشهادتين وما أشبه ﴿مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لأنهم غير مؤمنين ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق والنية الخبيثة وغير ذلك.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿قَعَدُوا﴾ عن القتال في حال هجوم العدو الذي لا يدفعه إلا القتال لا القعود وإنما القعود يُضرّيه، فإذا هجم على المسلمين مع فرط حقده عليهم لغضبه لدينه وملته ولمقتل أصحابه يوم بدر فكيف يُبْقِي على مسلم بل هو مظنة أن يستأصل شأفتهم فكيف يقول عدو الله المنافق: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ وهم إنما دعوهم إلى القعود، فقد ظهر نفاقه في هذه الكلمة أيضاً.

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ﴾ أي فادفعوا عن أنفسكم ﴿الْمَوْتَ﴾ الذي لابد منه ولا مفر منه ولا محيص ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إنكم تستطيعون دفع القتل عن إخوانكم لو أطاعوكم، فإنَّ دَفْعَ القتل عنهم حينئذ مثل دفع الموت؛ لأنهم لو أطاعوكم فقعدوا هجم عليهم العدو فقضى عليهم بلا ريب.

وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «فو الله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا» وفي القرآن الكريم حكاية: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ [المائدة:٢٣] فما يروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان رأيه البقاء في المدينة محمول على أنه كان يوهم ذلك تألفاً للمنافقين قبل ظهور نفاقهم، ورؤياه أنه أدخل يده في جيب درعه كان تأويله رجوعه المدينة بعد تولي الأعداء ورجوعهم إلى مكة، بمعنى: أنه رجع في حفظ الله وحمايته ونصره بالرعب، ولو كان تأويله ترك الخروج لكانت الرؤيا لم تصدق.

يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

---

﴿١٦٩-١٧٠﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ العطف بالواو يفيد أن هذا من الرد على المنافقين الذين جعلوا القتل خسارة، حيث قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ بمعنى: أنها فاتتهم السلامة المرغوبة، فبيّن الله أن الذين قتلوا في سبيل الله أحياء في حالة أحسن من الدنيا، ونهى النبي ﷺ عن حسبانهم أمواتاً، والخطاب له عام، له ولمن بلغه، ولعله خص لتبشيره تبشيراً خاصاً به؛ لأنه قتل حمزة ومؤمنون عزيز عليه ما عنتوا معه، فكانت المصيبة عليه عظيمة.

وقوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ أي بل هم أحياء أرواحهم، ولعله عبر بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ليفيد التصعيد بأرواحهم، وأن الحياة حياة الأرواح، ومعنى ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أنها مقربة مكرمة، ومعنى ﴿يُرْزَقُونَ﴾ رزقاً يصلح للأرواح، ولا مانع أن يكون لأجسادهم حياة مخالفة لهذه الحياة المعهودة، ولكن الروايات وقوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ يظهر منها أن المراد حياة الأرواح.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ نصب ﴿فَرِحِينَ﴾ على أنه حال من ﴿يُرْزَقُونَ﴾ وفي هذا زيادة التحقيق لكونهم أحياء حقيقة، فهم حين قتلوا خرجوا من الحياة الدنيا، وانتقلوا إلى حياة أفضل في النعمة والسرور.

وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ يفيد: أنه لا ينقص من أجورهم شيئاً؛ لأنه ليس من الأجور ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أو معنى ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ هدايتهم للجهاد ونيل الشهادة.

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ

---

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ بإخوانهم المؤمنين الباقين بعدهم، فقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي ما زالوا أحياء باقين خلفهم.

وفائدة: ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ تحقيق أن المراد بعدم اللحوق: بقاؤهم خلفهم لا القصور عن درجتهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدل اشتمال من (الذين) أي يستبشرون بأن لا خوف على إخوانهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة، وذلك لأنهم علموا بحسن عاقبتهم فاستبشروا لهم، والمراد: لا خوف عليهم من عذاب الله.

﴿١٧١﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ نعمة إحسان وفضل عطاء تفضل، فالنعمة والفضل ما هم فيه من الكرامة التي تفضل بها، ويستبشرون بـ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بل لا بد أن يوفّوه يوم القيامة.

وهذا كله لهم ولإخوانهم، وقيل: لإخوانهم، والأولى العموم؛ لأنه وإن رجع يستبشرون الثانية إلى الأولى، فلا يلزم أن تخص إخوانهم، فكأنه قيل: ويستبشرون بالذين من خلفهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل، فاستبشارهم بالذين من خلفهم داخل في استبشارهم بنعمة من الله وفضل لأنه نعمة الله عليهم، وعلى إخوانهم وفضله للشهداء ولإخوانهم.

مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ

---

﴿١٧٢-١٧٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ * ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ الذي يظهر من ترك العطف في أول الآيتين، أنهما تفسير للذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وتخصيص بهم، فلا يدخل في ذلك غيرهم.

ومعنى: ﴿ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أجابوا دعوة الرسول إلى الجهاد مرة أخرى ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾ في وقعة أُحُد، وتلك حالة شديدة؛ لأنهم كانوا في حالة تعب وجراح وقد لاقوا من ملاقاة الكفار شدة أثرها باقٍ في أنفسهم لكنهم يحبون الله ورسوله حباً غلب ذلك كله، لأنهم يريدون الآخرة ويرغبون في الشهادة فلذلك عظم فضلهم وأجرهم؛ فيحتمل: أنهم أهل حمراء الأسد، ويحتمل: أنهم الذين ثبتوا مع النبي ﷺ بعد قتل من قتل منهم وانهزام الكثير من الصحابة، والأقرب: أنهم أهل حمراء الأسد؛ لأجل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ...﴾.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «وفي سبب نزول هذه الآية أقوال:

*الأول*: أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا على انصرافهم وقالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم قتلتموهم حتى لم يبق منهم إلا الشريد تركتموهم ارجعوا واستأصلوهم فرجعوا إلى حمراء الأسد،

وسمع بهم رسول الله ﷺ فأراد أن يرهب عدوه فدعا أصحابه إلى اتباعه، ونادى مناديه: (أن لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس) وألقى الله الرعب في قلوب الكفار فانهزموا من غير قتال، فخرج الرسول ﷺ مع قوم من أصحابه، وقيل: كانوا سبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وعد معلق على الإحسان والتقوى جملة؛ لأن العمدة في قبول الأعمال التقوى، و(من) للبيان ولا تفيد الكل ولا البعض أنهم أحسنوا واتقوا ولكنها تتبع الواقع عموماً أو خصوصاً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ [الأحزاب:٣٠] أنها لا تفيد: أن إحداهن أتت بفاحشة ولا كلهن، فكذلك قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ سواء كانوا كلهم أو بعضهم، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] فلا معنى للخلاف هل هي للبيان أو للتبعيض.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ أي بعض الناس، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «يعنى رجلاً واحداً» انتهى.

والذي يظهر من الروايات: أن الإرجاف وقع مرتين، المرة الأولى عقب غزوة أحد، والثانية قرب موعد بدر الصغرى، فالأول: ركب من عبد قيس والثاني: نعيم بن مسعود.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ أي جمعوا العدة لحربكم، وقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ أي هذا الإرجاف لأنهم جددوا عزمهم على القتال وإن كان العدو قد جمعوا لهم ورغبوا في الشهادة وازدادوا صلاحاً

وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

واستعداداً، فاستنارت بصائرهم وازداد إيمانهم ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كافينا أي يكفينا الله؛ لأنه معنا ونحن متوكلون عليه ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ الذي توكل إليه الأمور لقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وحسن رعايته لأوليائه.

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ رجعوا حين علموا أن العدو لايلقاهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ وهي في أنفسهم وما استفادوه، فالنعمة والفضل في أنفسهم زيادة الهدى والنور وقوى البصائر والفرح بإلقاء الله الرعب في قلوب الأعداء وفضيلة الصبر والنيات الصادقة وما استفادوه من الإرهاب على العدو وأنهم ما وهنوا في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا.

وقوله: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي في مخرجهم ذلك واتبعوا رضوان الله باستجابتهم لله ورسوله.

وقولهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ وغير ذلك مما اتبعوا به ما يرضي الله كالنَّصَب والظمأ وغير ذلك مما ذكر في (سورة التوبة) وقوله تعالى: ﴿ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ يشير إلى فضله تعالى عليهم بما هيأ لهم من أسباب الفضل والقربة وهداهم له، فإنه فضل عظيم نالوه بصبرهم وخلوص نياتهم وهداية الله لهم، ويشير إلى فضل عظيم أعده لهم في الآخرة.

﴿١٧٥﴾ ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إنما ذلك المرجف المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾

عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ

---

إنما هو الشيطان يخوفكم ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ الكفار الذين هـو معهـم في عـدواتكم، تعدى بخوف إلى أوليائه؛ لأن غرضه بالتخويف جعل أوليائه مخـوفين فأبطـل الله كيـده بقولـه تعـالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ وهــذا كقولـه تعـالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣] فإن شأن المؤمن أن يخشى الله لإيمانه بقدرته وعلمه وإيمانـه بالرسـول ﷺ ووجـوب طاعتـه وكـون مخالفتـه سـبباً لعـذاب الله، فـالمراد: خـافوا معصـيتي أو خـافوني إن خفتموهم مثل خوفكم لي.

﴿١٧٦﴾ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾ مسارعتهم في الكفر بنصرهم للكفر ومسارعتهم في نصر الكفر، وذلك أن رسول الله ﷺ كان حريصاً على ظهور دين الله وسقوط الكفر حباً من الرسول ﷺ لله ورغبة في أن تكون كلمة الله في الأرض هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فقال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾ أي ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بمسارعتهم.

وهو الذي مكنهم مـن ذلـك حتـى استحقوا ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا﴾ أي نصـيباً ﴿فِى﴾ خـير الحيـاة ﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فـلا تحـزن ممـا يصنعون؛ لأنهم لن يضروا الله، وإنما يضرون أنفسهم، وهو تعالى هيأ لهـم أن يضروا أنفسهم حين مكنهم مـن نفعهـا وضـرها فاختـاروا ضـرها، وحـين خذلهم بسبب ذلك وسلط عليهم الشياطين أي تركهم وشأنهم.

إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

---

﴿١٧٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ استبدلوا الكفر بالإيمان، إما أنهم ارتدوا كما حصل من بعض المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة:٧٤] وإما أنهم لما كانوا في حضرة الآيات يتلوها رسول الله ﷺ ويسمعونها وكان من حقهم لو استعملوا عقولهم ورفضوا أهواءهم أن يؤمنوا، لكنهم اختاروا الكفر بدلاً من أن يؤمنوا، فكانوا كأنهم اشتروا الكفر بالإيمان.

﴿١٧٨﴾ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿نُمْلِي لَهُمْ﴾ نطيل لهم في مدة الحياة ممكنين من الطاعة والمعصية ابتلاءً، وقد علم الله ما سيختارون، فكانوا كأنه مهلهم ليختاروا الإثم، وفي هذا التعبير دلالة على أنه غني عنهم، وأنها لا تضره معصيتهم وأنه مهلهم وهو عالم ما سيكون منهم؛ وأصل السياق لا يحسبن الذين كفروا أن إملاءنا لهم خير لأنفسهم بل هو يستلزم أن يختاروا الإثم فيصير لذلك شراً لهم، ولم يقل: (بل هو شر لهم) لأن الإملاء في الأصل نعمة لهم؛ لأنهم يتمكنون فيه من تلافي أنفسهم بالإسلام والتوبة فهو في الأصل خير لهم من حيث هو تعريض على السعادة الدائمة وإنما ينقلب شراً لهم بسوء اختيارهم.

فما أحسن تعبير الآية الكريمة ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ فكان الشر ازديادهم إثماً لا نفس الإملاء فهو ابتلاء، ونفعه وضره تابع لاختيارهم وإنما يصير شراً بازديادهم فيه إثماً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ يصيرون إليه فتكون الحياة الدنيا كأن لم تكن إلا سبباً له ووبالاً عليهم.

لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ

---

﴿١٧٩﴾ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾ هو نفي مؤكد بمعنى أنه لا يصح في حكمة الله أن يذر المؤمنين ملتبسين بغيرهم غير متميزين عنهم.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على الحالة التي أنتم عليها من التشابه في دعوى الإيمان وعدم تميز الصادق في دعواه من الكاذب، فقوله: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي الآن عند نزول الآية هذه، ولا يصح أن يفسر بما كنتم عليه قبل وقعة أحد إذا كانت الآية إنما نزلت بعد أحد، بل هي تفيد: أنه لابد من ابتلاء وفتنة غير ما قد كان في وقعة أحد حتى يتم التميز بين المؤمنين الصادقين وغيرهم، فهي كقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ...﴾ إلى آخر الآيتين [العنكبوت:٢-٣].

فأما إن كانت هذه الآية نزلت قبل أحد فمن مصاديقها ما كان من الابتلاء في أحد، وفائدة تأخيرها في ترتيب الآيات الدلالة على فتنة غير ما قد وقع حتى يميز الخبيث الفاقد للإيمان الكاذب في دعواه الإيمان من الطيب المؤمن حقاً.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ حتى تميزوا بين الخبيث والطيب من قبل أن يتميزوا بأعمالهم الكاشفة عن أسرارهم بسبب الفتنة، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فيرسلهم إليكم ليطلعوكم على ما يشاء من الغيب

يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ

---

أي على ما أرسلهم به من الغيب كأخبار البعث والجنة والنار، دون أن يطلعكم على الغيب جملة، فأغنى ذكر الرسل عن ذكر المرسل به لوضوحه من الواقع الذي هو الإنذار والتبشير ونحو ذلك من الأخبار بالمغيب فيما أرسل به خاصة لا كل الغيب.

قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿يَجْتَبِى﴾ معناه: يختار» ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ إيماناً صحيحاً صادقاً لا مجرد الدعوى ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو السعادة الدائمة في الآخرة.

﴿١٨٠﴾ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ الباخلون ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ عن الإنفاق الواجب عليهم، لا يحسبوا بخلهم به ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ من إنفاقه وحسبانهم هذا مثل حسبان الذين كفروا أن إملاء الله لهم خير لأنفسهم؛ لأنه غلط عكس الواقع وقوله: ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل و﴿خَيْرًا﴾ مفعول ثان لـ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ لأنه من أفعال القلوب، والمفعول الأول مقدر أي بخلهم، دل عليه قوله: ﴿يَبْخَلُونَ﴾. ﴿بَلْ﴾ البخل ﴿هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بيان لكونه شراً لهم، أي يجعل طوقاً لهم في أعناقهم، فهذا أشبه (آية الكنز): ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ...﴾ الآية [التوبة:٣٥] وجوزوا أنه مجاز عن لزوم إثم البخل لهم، ولكن كان يكفي لو أريد ذلك، سيطوقونه يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء:١٣].

أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

---

فالظاهر الحقيقة، ولا موجب للتأويل؛ لأن أمور الآخرة مخالفة للمعهود في الدنيا، إلا أن الآية تحتمل تطويقهم به يوم القيامة في موقف الحساب تقريعاً لهم وتوبيخاً وتشهيراً بهم في الموقف، لا أنه يبقى في أعناقهم في النار، وهذا قريب إذا كان الذي بخلوا به من الأنعام ونحوها أو من الحبوب ونحوها ـ والله أعلم.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فهو خير الوارثين لا يبقى إلا هو ويفنى كل ذي مال، وهذا كقوله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الحديد:١٠] وهو حث على الإنفاق، لأن الذي يبخل به يموت ويرثه غيره، فتكون فائدة البخل أنه لم ينتفع به كأنه لم يكن له، ولذلك جاء في الحديث: «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت».

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه على قدره وعلى قدر حقيقته ومخبره، فالبخل إذا كان الدافع له حب المال فقط له درجة من العذاب، وإذا كان الباعث عليه عداوة الدين وكراهة الإنفاق في سبيل الله لأنه نصر للدين يكون عذابه أشد وهكذا.

﴿١٨١-١٨٢﴾ ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ لا أتصور أن يقولوا ذلك اعتقاداً، والأقرب: أنه استهزاء بأمر الله بالإنفاق في سبيله، أو بتسميته قرضاً لله، كما روي كفراً وتمرداً وتكذيباً، ولزمهم حكمه وإن أخرجوه مخرج الإلزام، أي إن كان الله اقترض منا فهو فقير ونحن أغنياء لأن شرطه واقع فهو لازم لهم.

﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ نثبته عليهم لا يلغى ولا يضيع ليجزوا به ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾ نكتبه عليهم لمشاركتهم فيه بالرضى بما فعل أوائلهم من قتل الأنبياء، ويظهر من هذا أن القائلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾ هم من اليهود، ويجوز أن يحمل الكتاب على الحقيقة ليوبخوا به، ولكن الأقرب هنا هو الأول؛ لأن قوله: ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ للمستقبل وكتابة الحفظة له فيما نتصور عند وقوعه وقد مضى، وهو الذي نفهمه من قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ يفيد عظم جريمتهم بتصريحه بكونه بغير حق فهو ظلم عظيم؛ وهذه الآية والتي تأتي قريباً ـ إن شاء الله ـ من أوضح الأدلة على أن الرضى بالعمل مشاركة فيه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام، واحتج له بقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء:١٥٧] فالمشاركة في قتل الأنبياء إنما هي بالرضى به تعصباً لأسلافهم وتمرداً وعتواً ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ إهانة لهم ودلالة على قصد تعذيبهم ليذوقوه فهو غضب عليهم شديد.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ﴾ في الدنيا ﴿أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي فعلتموه من الجرائم ونسبته إلى أيديهم تحقيق لنسبته إليهم وإن كان بعضه قولاً باللسان وبعضه رضى بالقتل، كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يونس:٧١].

ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن

---

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي وبأن الله ليس بظلام للعبيد، فإن كانت (الباء) للمصاحبة فمعناها: أن عذابهم مقرون بجرائمهم اللازمة لهم في أعناقهم لا تنفك عنهم أبداً، وبعدل الله في تعذيبهم.

وإن كانت للسببية ـ وهو أظهر ـ فمعناها: أن ذلك العذاب بسبب جرائمهم وبسبب أن الله ليس بظلام للعبيد، فلا يترك الظالم دون أن ينتصف منه للمظلوم فمن عدله الانتصاف لأنبيائه الذين قتلتموهم بغير حق، ولا يجوز منه ترك الإنصاف لأنه الذي مكّن الظالم من قتل المظلوم، بل جزاؤه شرط في حسن التمكين وتركه ظلم لا يكون من الله ـ جلّ جلاله ـ لأنه ليس بظلام للعبيد؛ واستعمال صيغة التكثير لكثرة الظلم المنفي من حيث كثرة العبيد الذين يقع منهم ما يوجب عليهم الانتقام.

﴿١٨٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ وهذا كذب على الله أضافوه إلى قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾ ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾ ومع كونه كذباً على الله منع من الإيمان بالرسل الذين لم يأتوا بقربان تأكله النار فهو صد عن الإيمان، مع أنه كذب على الله واضح البطلان؛ لأن الله ﴿أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود:٤٥] لا ينهى عن الإيمان برسله، وهو مضمون دعواهم الكاذبة فهي خرافة مرذولة لا تقبلها العقول، كيف يرسل الله الرسول وينهى عن الإيمان به، والقربان: ما يتقرب به من الذبائح أو النحائر ﴿تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ يرسلها الله عليه فتأكله.

قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ

---

﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي﴾ بالآيات البينات الدالة على أنهم رسل من الله اصطفاهم للرسالة، وإذا جاءت الآيات وجب الإيمان بها وبالرسل؛ لأنها دلت على أنهم رسل من الله، وبانت عن أفعال المخلوقين فتبين أنها من الله لكون المخلوقين لا يقدرون عليها فوجب الإيمان بأنها آية من الله تدل على صدق الرسول، فقد جاءوكم بالبينات التي توجب عليكم الإيمان.

﴿وَ﴾ جاءوكم ﴿بِٱلَّذِي قُلْتُمْ﴾ فكل رسول منهم جاء بقربان تأكله النار ولم يكن ذلك إلا زيادة في الحجة عليكم، ودعواكم أنه شرط في الإيمان قول من عند أنفسكم قلتموه كذباً ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ بعد ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في اعتذاركم عن ترك الإيمان بمحمد بدعوى أن الله عهد إليكم أن لا تؤمنوا أي لم يمنعكم من الإيمان إلا ذلك وأنتم لم تؤمنوا برسل قبله جاءوا بالبينات وبالذي قلتم، بل قتلتموهم فبان أنكم لا تؤمنون، ولو جاء ما قلتم.

﴿١٨٤﴾ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فلك أسوة رسل من قبلك كذبوا مع أنهم ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الحجج الواضحة الدالة على صدقهم ﴿وَ﴾ جاءوا بـ﴿ٱلزُّبُرِ﴾ وهي الكتب فيها هدى وإرشاد ﴿وَ﴾ جاءوا بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ الذي يهدي به الله إلى صراط مستقيم؛ لأنه منير يضيء الصراط المستقيم.

ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ

---

وهذا الكتاب يمتاز على الزبر بما فيه من الهدى والنور، فلم يكن ينبغي لعاقل أن يكذب رسلاً ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ لأنهم جاءوا لهداية الناس إلى السعادة الدائمة، وإنقاذهم من عذاب النار، فهم جاءوا بالخير العظيم لمن قبله واتبعه، فكذبهم الكافرون لغير حجة ولا عذر ولكن ظلماً وانقياداً للشيطان، فتكذيبهم لا يقدح في رسالة الرسل ولا يدل على ضعف الآيات فكذلك تكذيب من كذبك يا محمد فلا يحزنك كفرهم.

﴿١٨٥﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ ولو بلغت في الفضل والدين مبلغاً عظيماً مثل رسول الله ﷺ لأن الدنيا ليست دار الجزاء ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا قبله ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ أي أبعد ﴿عَنِ ٱلنَّارِ﴾ المعهودة نار جهنم ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظفر بالخير العظيم والنجاة من كل شر، فحسبه ذلك ولا عليه إذا لم يعجل ثوابه في الدنيا الفانية التي هي دار العمل لا دار الجزاء.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ﴾ قليل زائل متاع ﴿ٱلْغُرُورِ﴾ مع قلته وكونه يفنى أنه يغتر بها كثير من الناس الذين يحبون العاجلة ويذرون الآخرة، فلذلك لم تكن دار جزاء لأولياء الله و﴿ٱلْغُرُورِ﴾ مصدر غرَّ أي غرهم متاع الحياة الدنيا.

ٱلۡأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا

---

﴿١٨٦﴾ ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ ﴿لَتُبۡلَوُنَّ﴾ لتختبرن، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥].

﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ بما يصيبها من أسباب النقص، وبالنقص من الثمرات وغيرها ﴿وَأَنفُسِكُمۡ﴾ بالنقص من الأنفس، وبالأمراض وبالجراح في سبيل الله وغير ذلك، وفائدة هذا التقديم: أن يتهيئوا ويستعدوا ويعزموا على الصبر والتقوى، فكلما جاءت مصيبة تذكروا الصبر والتقوى عندها.

﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ اليهود والنصارى أو هم وغيرهم ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ عموما ﴿أَذٗى كَثِيرٗا﴾ من التكذيب والجدال في آيات الله والسب وغير ذلك، وسمي أذى لأنه يُتأذى منه.

قال في (مفردات الأصبهاني): «الأذى: ما يصل إلى الإنسان من الضرر» انتهى، والآية في الضرر المسموع وحده وقال تعالى: ﴿كَثِيرٗا﴾ ليوطنوا أنفسهم على تحمله.

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ على الابتلاء والأذى في الله ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والتقوى ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾. قال في (لسان العرب): «وعزم ليفعلن: أقسم، وعزمت عليك: أي أمرتك أمراً جداً» انتهى.

*وعلى هذا:* فـ(عزم) مصدر، بمعنى (اسم المفعول) أي من معزوم الأمور عليكم.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام): عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام: «عزائم سجود القرآن أربع...» إلى قوله: «..وسائر ما في القرآن، فإن شئت فاسجد وإن شئت فاترك» فدل على أن العزيمة ما لا خيار فيه، وهي فعيلة بمعنى مفعولة، زيدت فيها التاء لجريه مجرى الاسم مثل: النطيحة وغيرها.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «وللآية تأويلان: الأول: أن المراد منه أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالمصابرة على الابتلاء في النفس والمال والمصابرة على تحمل الأذى وترك المعارضة والمقابلة، وإنما أوجب الله تعالى ذلك؛ لأنه أقرب إلى دخول المخالف في الدين، كما قال سبحانه: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:٤٤] وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية:١٤] والمراد بهذا الغفران: الصبر، وترك الانتقام، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢] وقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥] وقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤] قال الواحدي: «كان هذا قبل نزول آية السيف».

وقال غيره ـ وهو الصحيح ـ : «إن هذا ليس بمنسوخ، والظاهر: أنها نزلت عقيب قصة أحد، والمعنى: أنهم أمروا بالصبر على ما يؤذون به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على طريق الأقوال الجارية فيما بينهم، واستعمال مداراتهم في كثير من الأحوال، والأمر بالقتال لا ينافي الأمر بالمصابرة على هذا الوجه، والتأويل الثاني: أن يكون أراد من الصبر و التقوى الصبر على مجاهدة الكفار ومنابذتهم والإنكار عليهم..الخ» انتهى.

يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ

---

قلت: لأن القتال في سبيل الله امتثال لأمر الله ليس انتقاماً من الأذى بل لكفرهم وصدهم عن سبيل الله.

﴿١٨٧﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ هذه الآية في أهل الكتاب تناسب قوله تعالى فيهم: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ من حيث دلت هذه الآية على أنهم لا يريدون الحق بل يتبعون أهواءهم، ولذلك نبذوا كتاب الله ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ واستبدلوا به ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هو ما ينالونه من الدنيا ليكتموا، أو لأنهم كتموا ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ لأنه سحت يعذبون به استبدلوه بالحق الذي لو اتبعوه سعدوا فهي صفقة خاسرة.

و(بئس) كلمة ذم تعبر عن ذم ما تقال فيه ضد نِعْمَ في المدح، وقوله تعالى في أول الآية ﴿وَإِذْ﴾ بمعنى: اذكر إذ أخذ الله؛ وفي الآية دلالة على: أن الكتاب بيّن الدلالة، بحيث يفهمه أهل الكتاب كلهم، ولذلك كان الكاتمون مذمومين على الكتمان وكان كلهم مكلفاً بالبيان، فدل ذلك على أنه لم يكن خاصاً بإمام أو وصي أو شيخ، فإذا جاز ذلك في التوراة جاز في القرآن أن الخطاب به عام، وأنه بيّن بحيث يفهمه كل مكلف باتباعه ومن قصر عنه فإنه لتركه تعلم العربية أو إعراضه عن إحراز ما يفهمه من معانيه وحفظها، فبطل دعوى من يدعي اختصاص الخطاب به وفهمه بالإمام أو الشيخ، وقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ معناه تركوه مستخفين به.

(١٨٨) ﴿لَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ قال في (الصحاح): «فرح به: سُرّ به، والفرح ـ أيضاً ـ البطر» انتهى، وفي (لسان العرب) الفرح: نقيض الحزن، وقال ثعلب: هو أن يجد في قلبه خِفّة، ثم قال: والفرح ـ أيضاً ـ البطر.

وقوله تعالى: ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] قال الزجّاج: «معناه: ـ والله أعلم ـ لا تفرح بكثرة المال في الدنيا؛ لأن الذي يفرح بالمال يصرفه في غير أمر الآخرة، وقيل: لا تفرح لا تأشر، والمعنيان متقاربان لأنه إذا سُرّ ربما أَشِرَ» انتهى.

وفي (تفسير الشرفي رحمه الله): «عن الإمام المرتضى بن الهادي عليهما السلام في تفسير: ﴿لَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ معنى ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ فهو فرحهم بما ارتكبوا وأتوه من الجرأة على خاتم النبيئين والطعن على المؤمنين مع قبيح فعلهم ومُستَسْمَجِ سيرتهم، فكانوا يستحسنون ذلك من أنفسهم ويرونه جائزاً عندهم لشرارتهم وشدة كفرهم وبعدهم من الله وعنادهم.

والفرح: فهو أشر وازْدِهَاء وتبع للمعصية والهوى، كفرح قارون إذ يقول له قومه: ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] وإنما كان فرحه جرأة وأَشَرَاً ومعصية لله وتمرداً، وهذه الآية نزلت في اليهود ذماً لهم فيما كانوا يأتون من الجرأة على الله سبحانه وعلى أوليائه» انتهى.

أما الراغب ففي (مفرداته): «الفرح: انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية» انتهى.

وفي (مفردات الراغب) أيضاً: «الأَشَرُ: شدة البطر، ثم قال: فالأشر أبلغ من البطر والبطر أبلغ من الفرح فإن الفرح وإن كان في أغلب أحواله مذموماً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] فقد يحمد تارة إذا كان على قدر ما يجب، وفي الموضع الذي يجب كما قال تعالى: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس:٥٨] وذلك أن الفرح قد يكون من سرور بحسب قضية العقل، والأَشَرُ لا يكون إلا فرحاً بحسب قضية الهوى» انتهى.

وقال في تفسير (البطر): «البطر: دَهَشٌ يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها ـ ثم قال ـ : ويقارب البطر الطَّرَبُ وهو خفّة أكثر ما يعتري من الفرح» انتهى المراد.

قوله: «دَهَشٌ» أي تحير وذلك بإهمال العقل عند السرور، ولعله لما يصاحبه من الثقة بحالة السرور وتخيل بقائها وعدم تدبر العواقب بحيث يعرّض النعمة للزوال لأجل كفرها وعدم تقييدها بالشكر؛ ومن هنا يظهر أن ذم الفرح من حيث يقترن به الاطمئنان إلى ما سُرَّ به فهو مذموم إلا ما كان فرحاً بالحق، أما الفرح بالباطل فلا إشكال في أنه مذموم، وأما الفرح بأغراض الدنيا وما تهوى الأنفس منها فلأنه لا ينبغي الاطمئنان إليها والثقة بها فهو مذموم؛ لأنه إهمال للعقل ـ وبالله التوفيق.

ومعنى ﴿بِمَآ أَتَواْ﴾ نحو بما جاءوا وبما واقعوا فلا يعم العمل الصالح قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان:٤] أعنى الذي يراد به فَعَلَ، فأما على معناه الأصلي، فهو يستعمل في إتيان المساجد وإتيان الجمعة وغير ذلك، فعلى هذا صح تفسيره بما أتوا من الباطل خاصة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ فقال الشرفي رحمه الله في (المصابيح) عن الإمام المرتضى محمد بن الهادي عليه السلام: «ثم قال ـ عزَّ وجل ـ: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ فهو ما كانوا يتوسمونه ويذكرونه عن أنفسهم من الفضل والطاعة لله والمدح لأمر ربهم فأكذبهم الله ـ عزَّ وجل ـ في قولهم، وبيّن للمسلمين كفرهم ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ فأخبر أنهم غير فاعلين لما ذكروا ولا صادقين فيما انتحلوا بل هم كاذبون وعند الله معذبون» انتهى.

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: بمنجاة منه» انتهى، ومثله في (الكشاف) أما الراغب في (مفرداته) فجعل (مفازة) مصدر (فاز) والاسم (الفوز) قال: أي لا تحسبنهم يفوزون ويتخلصون من العذاب» انتهى، والمعنى واحد.

وفي (المصابيح) عن المرتضى عليه السلام: «والمفازة: فهي البعد فذكر سبحانه أنهم من العذاب قريب غير بعيد» انتهى المراد.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فلا ينجون من العذاب وذلك العذاب الأليم فهو عذاب شديد، وظاهر قوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ أن هذا الحب خصلة مذمومة سواء كانت من اليهود أم من المنافقين أم من غيرهم، لكن لا يبعد اعتبار قوله: ﴿بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ قيد للحب أيضاً من حيث هو قيد للمحبوب، وذلك يتصور في المنافقين الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، من حيث أنهم لم يفعلوا فقيد الحيثية معتبر، فلا يدخل فيه من يحب أن يحمد على الشيء وهو يود أنه فعله، إنما يخص من يحب أن يحمد بما لم يفعل راغباً في كونه لم يفعل لأنه يرى أن نفاقه قد نفق، وذلك غاية مراده، وفي ذهني عن بعض الأئمة ـ أظنه المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام ـ أنه حرم الحب للحمد بما لم يفعل على الإطلاق.

مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ

---

﴿١٨٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فله الأمر والحكم له وحده لا شريك له، يعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، وإليه يرجع أمر المختلفين المذكورين في هذه السورة وغيرهم كله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الغالب على أمره، له الخلق يخلق ما يشاء فكما خلق آدم من تراب خلق عيسى من غير أب؛ لأنه على كل شيء قدير.

﴿١٩٠﴾ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ في (مفردات الراغب): «الخلق أصله: التقدير المستقيم» انتهى، ويظهر: أنه المراد هنا، وتقدير السماوات والأرض: جعلها واسعة عظيمة تسع العالمين، وإتقان صنعها لتصلح لهم ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ هو أن كل واحد يخلف الآخر على الاستمرار بنظام محكم محدد حتى لا يطول أحدهما بحيث يختل حال الناس والشجر والدواب، أو يقصر كذلك، ففي النهار فوائد الشمس والضياء، وفي الليل فوائد توفير الرطوبة والتبريد وراحة النوم حتى يعتدلا وينفعا، فهي نعمة ينبغي أن تشكر وهي كذلك آيات.

وقوله تعالى: ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ بمعنى دلالات يُهتدَى بها، ولم يحدد هاهنا، وإنما يأتي الإشارة إلى وجه واحد من وجوه الدلالة فهي آيات تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، وأنه رب كل شيء له الملك لا إله إلا هو كما هو مفصل في علم أصول الدين.

و(وأولو الألباب) أهل العقول، والمراد هنا: الذين يستعملون عقولهم في طلب الحق، لا من يهمل عقله ويلفق من الشبه ما يحول بينه وبين المعرفة.

ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ

---

﴿١٩١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ هذه الثلاث الحالات يغفل فيها كثير من الناس فذكرها، ولم يذكر الركوع والسجود فهما مظنة الذكر، فكان المراد يذكرون الله على كل حال، ومن ذلك الذكر في الصلاة من قيام لمن استطاع، وفي القعود لمن استطاع وعجز عن القيام، وعلى جنب لمن عجز عن القيام والقعود، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ، والجنوب: هي الأضلاع عن يمين الإنسان وشماله، أو الأضلاع وما اختلط بها.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنع الله لهما كيف جعلهما عظيمتين واسعتين للعالمين في صنع قوي محكم، فيعلمون أن الله الحكيم لم يخلق هذا الخلق العظيم إلا لحكمة فهما مقر للعالمين يظهر أن خلقهما من أجلهم، وهم لم يخلقوا عبثاً إنما خلقوا ليعبدوا الله ولكنهم مخيرون في قدرتهم يقدرون على الطاعة والمعصية فمنهم المطيع ومنهم العاصي مع ما يأتيهم من الرسل والكتب ومع ذلك يموت المطيع والعاصي قبل الثواب والعقاب فتبين أن هذا الخلق العظيم العالم والعالمين هو تقدمة للآخرة وأن فيها ثواب المحسن وعقاب المسيء كما أخبرت به الرسل.

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ لجأوا إلى الدعاء وسارعوا إليه عند تذكرهم الآخرة وما فيها من النار، فهذه صفة أولي الألباب الذين استعملوها فيما يهديهم فهم يذكرون الله كثيراً

أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾

---

ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، تفكراً يؤديهم إلى ذكر البعث والحشر والحساب والنار، تفكراً يبعثهم على اللجوء إلى الله والاعتراف بحكمته، وأن هذا الخلق خُلِقَ لأمر عظيم، فسبحوا ربهم عن العبث والإهمال وطلبوا الهداية لطريق النجاة من النار واللطف لاستعمال أسباب النجاة من النار.

ومعنى (قِنَا) اجعل لنا وقاية من النار، وهو يشير إلى أنها تطلب أهلها، مثل: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان:٦٥] .

﴿١٩٢﴾ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ قالوا: ﴿إِنَّكَ﴾ ولم يقولوا: إنه من يدخل النار، لأن الخزي من حيث أن الذي أدخله النار هو الله، فكان إدخاله النار فضيحة له ودلالة على استحقاقه لها بعمله، لأن الله أحكم الحاكمين، ودلالة على كفره لنعم الله في الدنيا وتمرده على أكرم الأكرمين الذي دعاه في الدنيا إلى رحمته، وفتح له باب توبته وعرض عليه طريق جنته فأبى إلا طاعة الشيطان واتباع هواه، فاستحق غضب الله ولعنته وعذابه الدائم.

فالخزي من حيث افتضاحه بالإساءة في جنب الله العظيم، ومن حيث افتضاحه بسوء تدبيره لنفسه حيث اختار لها أسباب العذاب التافهة التي لا ينبغي لعاقل أن يرضاها بدلاً من السلامة من العذاب الدائم والثواب العظيم.

ألا ترى أن السارق إذا قطعت يده من أجل عشرة دراهم سرقها يكون قطعها خزياً عليه، حتى أن قومه قد يدافعون عنه ما استطاعوا لما في ذلك من العار، وفي هذه الآية ونحوها من الآيات ردّ على الجهلة الذين يقولون: «النار ولا العار» فهي منهم جهالة عظمى من حيث أن النار أشد من كل مصيبة ومن كل عار ومن حيث أنها عار على أهلها وخزي عظيم.

قال في (الكشاف): «﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ فقد أبلغت في إخزائه، وهو نظير قوله: ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ ونحوه في كلامهم: من أدرك مرعى الصمّان فقد أدرك، ومن سبق فلاناً فقد سبق» انتهى. الصمّان: موضع.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ الأصل: وما لهم من أنصار، أي يدفعون عنهم عذاب الله، وأقيم الظاهر مقام المضمر للدلالة على أن سبب عذابهم هو الظلم، والظلم كل حيف وجور سواء في معاملة المخلوقين أو معاملة الخالق، ولذلك قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] لأنه حيف وجور ضد العدل والإنصاف.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت الآية على وجوب ذكر الله حيث يجب في الصلاة وغيرها، وأن من تعذر عليه القيام في الصلاة صلى قاعداً ومن تعذر عليه القعود صلى على جنبه وكيف أمكن، وعلى وجوب التفكر في السماوات والأرض وما خلق الله فيهما من الآيات، وعلى وجوب اعتقاد أن الله خلق الخلق لحكمة، وعلى تنزيه الله من أن يخلق شيئاً باطلاً لا حكمة فيه، وعلى الحث على الدعاء إلى الله تعالى في أن يقينا سبحانه عذاب النار بأن يوفقنا لما يرضيه ويعصمنا عما يسخطه سبحانه، ودل قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ على تحريم معاونة الظالمين؛ لأنه من النصر لهم» انتهى.

(١٩٣) ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ **هذه من دعاء أولي** الألباب المبين لاستعمالهم عقولهم فيما يهديهم، إنا سمعنا داعياً رفيع الدعاء يدعو الناس ليؤمنوا يأمرهم بالإيمان أمراً ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا﴾ حين عرفنا الحق لم نتأخر، فنتوسل بإيماننا إلى أن تغفر لنا ذنوبنا، وتكفر عنا سيئاتنا ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾.

وفي قولهم: ﴿يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ دلالة على تلازم الإيمان بالله الإيمان الكامل الصحيح والإيمان المطلق الذي يتضمن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وذلك لأنه يلزم من الإيمان بالله مع وجود الرسول والقرآن الإيمان بالرسول والقرآن ويلزم من الإيمان بالله والرسول والقرآن الإيمان باليوم الآخر والعمل بما يقتضي الإيمان من الطاعة لله والحذر من عذابه، وغفران الذنب قد يكون في الدنيا لا في الآخرة وقد يكون في الدنيا والآخرة، فطلبوا الغفران المطلق، وهو العفو أي في الدنيا والآخرة بقرينة السياق، وأن يستر الله عنهم سيئاتهم حتى لا يروها حسرات عليهم يوم القيامة؛ لأن التكفير: التغطية والستر، قال الشاعر:

يعلـوا طريقـة متنها متواتـراً     في ليلـة كفـر النجـومَ غمامُها

وهم قالوا: ﴿كَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ فالمعنى: استر عنا سيئاتنا التي تسوؤنا رؤيتها، فهم بخلاف الذين قال الله فيهم: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ [البقرة:١٦٧] ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ أمتنا ﴿مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ مع الصادقين الذين أمرتنا أن نكون معهم وذلك من حسن الخاتمة، و ﴿ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ ضد الفجار وهم المتقون المنفقون المجاهدون الصابرون في البأساء والضراء وحين البأس، كما أفادته آية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ...﴾ إلى آخرها [البقرة:١٧٧].

رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ

---

وهم الأمة الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر الذين قادتهم رسول الله ﷺ والأئمة الطاهرون المجاهدون في سبيل الله ومن على نهجهم الذين من مات وهو معهم لم يمت ميتة جاهلية.

﴿١٩٤﴾ ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ هذا بقية دعاء أولي الألباب المستعملين لها في طلب الهدى طلبوا أن يؤتيهم الله ما وعدهم على رسله، والأقرب عندي: أنه أمرٌ يقوم به الرسل يوم القيامة مثل: الشهادة لهم، أو الشفاعة، أو المرافقة في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩] ومثل السقي من الحوض أو كل ذلك أو ذلك وغيره، فهذا الذي حضر في ذهني - والله أعلم.

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء:٨٧] وهو يعم الخزي بالعذاب وبترك الثواب، بحيث يشمت بهم الأعداء، وهو سبحانه لا يخلف الوعد، و﴿لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء:٤٠] ولكن هذا نوع من العبادة وقد احترسوا من إيهام خلف الوعد بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أو المعنى: اعصمنا عن إحباط أعمالنا حتى لا نستحق الإخزاء يوم القيامة بإحباط أعمالنا وبالعذاب ويكون قولهم: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي لا بد من القيامة لأنك وعدت بها.

أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا

---

﴿١٩٥﴾ ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ **﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ﴾ دعاءهم على أن يعملوا صالحاً؛ يقول سيد قطب في (تفسيره): «إنه ليس مجرد التفكر ومجرد التدبر، وليس مجرد الخشوع والارتجاف، وليس مجرد الاتجاه إلى الله لتكفير السيئات والنجاة من الخزي ومن النار إنما هو العمل الإيجابي الذي ينشأ عن هذا التلقي وعن هذه الاستجابة...» الخ.**

**فالاستجابة ليست تحقيق مطالبهم بلا شرط، ولكنها ما فصّله الله في بقية الآية من العمل والهجرة والصبر على الأذى في الله والقتل في سبيل الله، ومعنى: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾ أنه مقبول، ولهم عليه ثوابه؛ لأن هذه فائدة حفظه من الضياع.**

**وقوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ يصرح بالمساواة بين الذكر والأنثى في قبول العمل والثواب عليه إذا كان من أهل الصفات المذكورة، ومعنى قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ الذكور والإناث بعضهم من بعض، فهم كالنوع الواحد، وهما نوعان من جنس واحد ولكنهما متقاربان لأن صورهما وقواهما وعقولهما ونحو ذلك أمور متقاربة جداً، ومع ذلك فهما متفرعان من الذكر والأنثى، فالذكر متفرع منهما والأنثى كذلك متفرعة من الذكر والأنثى، ولا يبعد أن هذا معنى قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.**

وقال في (الميزان) [ج٤/ص٨٩]: «بحث فلسفي: المشاهدة والتجربة تقضيان أن الرجل والمرأة فردان من نوع جوهري واحد وهو الإنسان، فإن جميع الآثار المشهودة في صنف الرجل مشهودة في صنف المرأة من غير فرق وبروز آثار النوع يوجب تحقق موضوعه بلا شك. نَعَمْ، يختلف الصنف بشدة وضعف في بعض الآثار المشتركة، وهو لا يوجب بطلان وجود النوعية في الفرد.

وبذلك يظهر: أن الإستكمالات النوعية الميسورة لأحد الصنفين ميسورة في الآخر، ومنها الاستكمالات المعنوية الحاصلة بالإيمان والطاعات والقربات، وبذلك يظهر عليك أن أحسن كلمة وأجمعها في إفادة هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٍۖ﴾» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمۡ﴾ يثبت لهم فضلين: فضل الهجرة إلى الله ورسوله، وفضل الإخراج من ديارهم لثباتهم على الإيمان فهو في الله، كقوله تعالى: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ فهما فضيلتان لكونهما مسببين عن الإيمان واتباع الرسول، ولهما عليهما الأعواض وثواب الصبر الذي هو الثبات على الإيمان والهجرة في سبيل الله.

وقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ أي ﴿قَـٰتَلُواْ﴾ في سبيلي ﴿وَقُتِلُواْ﴾ في سبيلي، وقوله تعالى: ﴿وَقُتِلُواْ﴾ يحتمل أنه خاص بالقتلى، فيكون الكلام خاصاً بهم من قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ..﴾ إلى آخر الآية، والأقرب: أنه شامل لهم ولإخوانهم هنا.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ لأن القتل مصيبة لهم كلهم وإن كان القتلى بعضهم،

نظيره قولهم: ﴿مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ والمراد قتل إخوانهم، ولعل منه: ﴿قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا﴾ ونظيره قول الشاعر:

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها

والبيت من (معلقة لبيد) إحدى (المعلقات السبع) قال في شرحه: «أي أصابها السبع بافتراس ولدها» انتهى.

وليس على حذف مضاف أي قتل بعضهم ولكن على معنى أصابهم في القتال قتل.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ كما سألوا ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ وقد دل هذا على وقايتهم عذاب النار؛ لأنها لا تكون إلا عقاباً على السيئات وقد صارت كأن لم تكن، ولأن دخول الجنة لازم للسلامة من النار لأنهما ضدان؛ والجنات هنا: هي البساتين الغليظة التي تُجِنُّ أماكنها والأنهار مجاري الماء فهي مستمر فيها جري الماء، فالأشجار لا تزال خضراء لا تعطش، واجتمع جمال الأشجار وجري الأنهار، ثواباً على أعمالهم وإيمانهم وتفكرهم ودعائهم.

﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فهو عظيم لأن الثواب يجمع بين العطاء والتكريم، والتكريم من الله عظيم؛ لأنه من العظيم ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أعده لأوليائه بعدله وحكمته وفضله ورحمته سواء كان قد وجد أم كان في قوة الموجود؛ لأن الله قادر عليه عليم بما به يحسن الثواب من وجوه الثواب وصفاته، فهو سهل عليه كأنه موجود، فهذه صفات المؤمنين الذين بنوا إيمانهم على التفكر في آيات السماوات والأرض، وحققوا إيمانهم بالجهاد في سبيل الله وتحمل المشاق في سبيل الله، وهذه عقباهم.

يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾.

---

**وإليك صفة الكفار وعقباهم:**

﴿١٩٦-١٩٨﴾ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ إن بعض الناس يغتر ببسط النعمة لأعداء الله، فيظن أن ما هم عليه من الكفر سهل لا يوجب عليهم غضب الله، وأن الله لو كان غاضباً عليهم ما أعطاهم، وهذا خطأ من الظنِّ فالدنيا متاع قليل لا قدر له عند الله، لأنه لم يجعله دليلاً على رضاه أو عدم غضبه وإنما هو فتنة واختبار.

ومعنى (تقلبهم في البلاد) تمكنهم من التنقل فيها لا يمنعهم سلطان المؤمنين ولا الخوف، وذلك لضعف المسلمين في وقت نزول هذه الآية، فالكفار يتنقلون لكسب الأرزاق حيث شاءوا في بلادهم أو في بلاد العرب.

ثم بين تعالى حقارة هذا التقلب، فقال تعالى: ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ فهو حقير من حيث هو ﴿مَتَـٰعٌ﴾ قصير المدة يذهب عن قريب وحقير من حيث هو ﴿قَلِيلٌ﴾ في نفسه إما بالنسبة إلى ما يعتاد للبشر في هذه الحياة، وإما بالنسبة إلى نعيم الجنة ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ حيث يصير متاع الدنيا كأن لم يكن، بل أشد من ذلك أنه ينقلب وبالاً عليهم بكفرهم لنعم الله وتعذيبهم على كفر النعمة وبسوء تصرفهم في الدنيا باستعمال النعم في المعاصي كالربا، وبتحريم ما أحل الله وغير ذلك.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ جهنم؛ لأن المهاد هو الفراش الذي يمهد للراحة عليه أو النوم لكن جهنم نار الله لا راحة فيها ولا نوم، ولكن عذاب أليم،

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

---

وهم مهدوها لأنفسهم بكفرهم، فبئس المهاد هي اتخذوها بدلاً من أن يمهدوا لأنفسهم مكاناً ينجون فيه من العذاب.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ﴿لَٰكِنِ﴾ كلمة استدراك، وهي تفيد: المقارنة بين العاقبتين، فعاقبة الكفار الممكنين في الدنيا جهنم، وعاقبة المتقين الجنة سواء مكنوا في الدنيا أم لا، فليس المهم الدنيا وتمكنها أو قلة حالها إنما المهم العاقبة لأنها الدائمة، إما شقوة دائمة وإما سعادة دائمة، والدوام أمر عظيم عند من يتفكر فيه وينسب إليه الدنيا الحقيرة الفانية.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ باقين فيها لا يموتون ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فهم كالوفد المكرم الذي يقدم له عند نزوله الطعام والشراب، لكن الجنات نزل من عند الله أكرم الأكرمين فضيافته أعظم ضيافة.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ لأنه الثواب العظيم الدائم والفضل العظيم الذي لا ينقطع، كيف لا وقد قال فيه سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان:٢٠] فالتمكين في الدنيا لا يقاس به ولاسيما تمكين الكفار الذي عاقبته النار؛ والأبرار ضد الفجار وهم المؤمنون المطيعون لله ورسوله.

﴿١٩٩﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ

رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ في هذه الآية الكريمة تأكيد لما سبق من ذكر المؤمنين من أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ إلى آخر الآيتين.

وفي هذه الآية تنزيه لهم عما يقع من غيرهم من أهل الكتاب من اشتراء ثمن قليل بآيات الله، وذلك أن للمؤمنين كرامتهم عند الله فاستحقوا الإشادة بذكرهم وتأكيد الثناء عليهم في هذه السورة التي فيها كثر الرد على أهل الكتاب وذكر كثير من باطلهم، فناسب فيها إعلان تنزيه المؤمنين من أهل الكتاب وتبرئتهم من رجس الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي القرآن وسائر ما أنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي التوراة والإنجيل وغيرهما مما أنزل على أنبيائهم، وفي إسناد المنزل إلى رسلهم إليهم والمنزل إلى المبعوث من العرب إليهم تكريم للطائفتين لمن قبل الكرامة مثل هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب، فأبقى لهم كرامتهم بإنزال الله ما أنزل إلى أنبيائهم مع إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما أنزل إلى بني إسماعيل.

﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ خاضعين لله ذالّين لله ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لأنهم مهتدون بهدى الله، لا يصرفهم عنه كبر ولا حسد ولا حب الدنيا فليسوا كالكافرين من أهل الكتاب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل الصفات المذكورة من قوله تعالى: ﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حق لهم فلا يضيعه الله ربهم الرحيم بهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فلا ينقص من أجرهم مثقال ذرة؛ لأن الله يعلمه كله ولا يخفى عليه من مقداره وحسابه شيء؛ لأنه يحيط علمه بمقدار الشيء وعدده من دون إجالة فكر ولا تأمل كما يفعل الحاسب ولا يسبق علمه به خفاء عليه ولا غفلة عنه سبحانه وتعالى.

(٢٠٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أمرهم بالصبر لأنه لاثبات على الدين إلا به وقد تقدم في السورة ذكر بعض الشدائد، وأنه لابد من الجهاد والصبر لدخول الجنة، وأمرهم بالمصابرة وهي المغالبة في الصبر، فإذا صبروا على الجهاد وصبر العدو لم يكفهم الصبر الأول، بل لابد من المغالبة في الصبر بقدر ما يستطيعون، فكلما تجددت من العدو مغالبة وجب الصبر على دفعها، وكلما صبر العدو وجدد صبراً وجب عليهم أن يجددوا صبراً على القتال ومحاولة قهره. والمرابطة الثبات في مواقف الاستعداد للعدو وهجومه المتوقع حيث يتوقع إتيانه، فهناك تربط الخيل معدة للجهاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

والرباط شاق حيث يكون استعداداً لهجوم العدو فيكون فيه الخوف والمحاذرة، ويتحمل فيه البرد أو الحر وترك الأهل والمساكن، فيحتاج فيه إلى الصبر.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وهي كلمة جامعة لطاعة الله فيما أمر ونهى، فلابد من إكمال الطاعة لينفع الصبر والمصابرة والرباط ويكون العاقبة فلاحاً وظفراً بالجنة والسلامة من النار؛ لأنه ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] فالجاهل الذي يمني نفسه إذا كان في العسكرية أنه لا يضره ترك الصلاة أو شرب الخمر أو غير ذلك من المعاصي، إنما يخادع نفسه وهو في الآخرة من الخاسرين.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت على وجوب ما ذكره الله سبحانه من الصبر والمصابرة والمرابطة في الجهاد وتقوى الله من القيام بما فرض الله سبحانه، واجتناب ما حرم» انتهى.

قلت: والتوبة عند كل زلة كما تقدم في تفسير (المتقين).

وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً

## فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

## محتويات الجزء الأول





